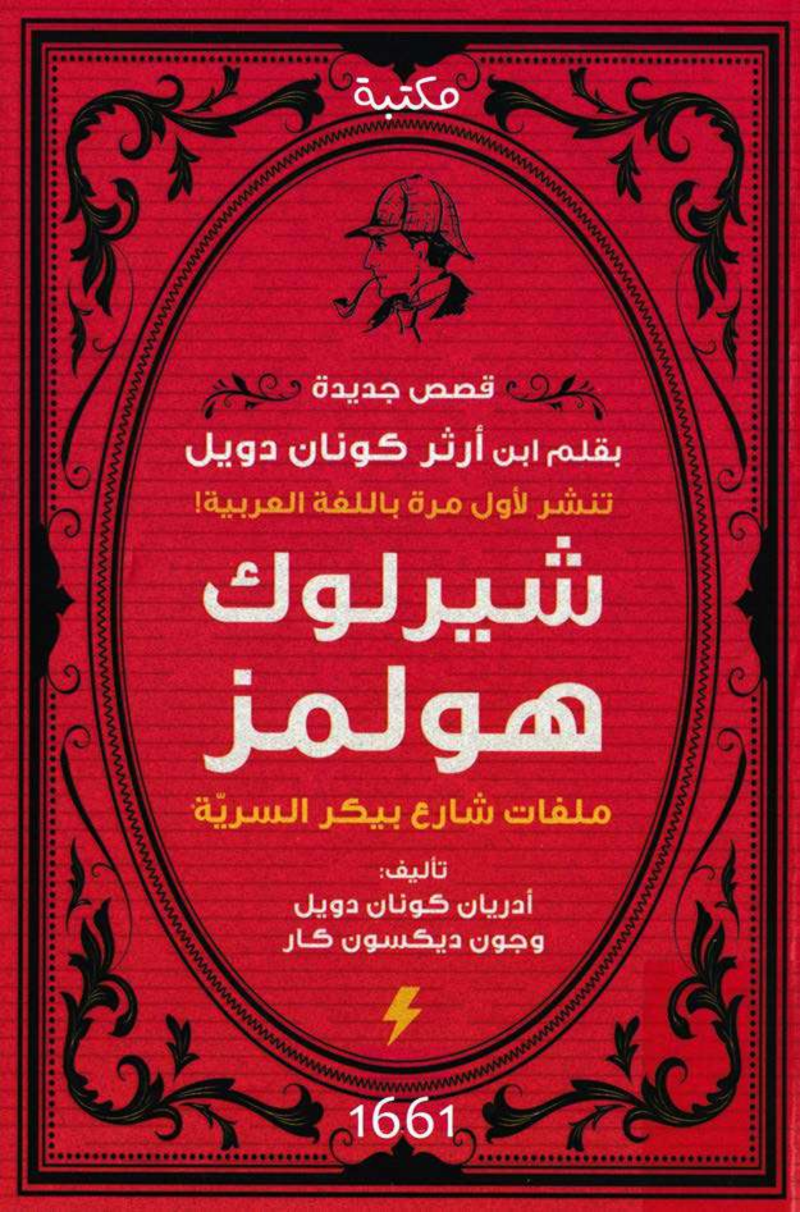

مكتبة
قصص جديدة
بقلم ابن أرثر كونان دويل
تنشر لأول مرة باللغة العربية!
شيرلوك
هولمز
ملفات شارع بيكر السريّة
تأليف:
أدريان كونان دويل
وجون ديكسون كار
1661


قصص جديدة
بقلم ابن أرثر كونان دويل
تنشر لأول مرة باللغة العربية!
شيرلوك
هولمز
ملفات شارع بيكر السريّة
تأليف:
أدريان كونان دويل
وجون ديكسون كار

مكتبة | 1661

سبارك

spark-books.com

أدريان كونان دويل

وجون ديكسون كار

شيرلوك هولمز

ملفات شارع بيكر ال

إشراف

سند راشد

ترجمة

حسام ابو سريس

مراجعة وتحرير

منال عبدالحميد

تصميم الغلاف والإخراج الفني

أحمد عاطف مجاهد

سبارك للنشر والتوزيع

رقم الإيداع: 2023/2120

الترقيم الدولي: 978-977-992-205-8

الطبعة الأولى 2022

هـذا الكتـاب هـو الترجمـة العربيـة لمجموعـة The Exploits of Sherlock Holmes القصصية

نشـرت بتصـريـح خـاص مـن The Conan Doyle Estate

This translation published by arrangement with The Conan Doyle Estate

أدريان كونان دويل
وجون ديكسون كار



شيرلوك هولمز

ملفات شارع بيكر السرية

ترجمة

حسام ابو سريس





المحتويات



في الواقع، تُعدُّ هذه المجموعة كنزاً لعشّاق (شيرلوك هولمز)؛ فتلك المجموعة لم يسبق أن تُرجِمت إلى العربية قط، وقد أضفنا الهوامش لتكون أجواء القصة مليئةً بالمعلومات المثيرة، والإشارات الى قصص (هولمز) السابقة؛ لأن هذه المجموعة ليست جزءاً منفصلاً عن العالم الأصلي لـ(شيرلوك هولمز)، بل هي مكمّلة ومتمّمة له.


MOHAMED KHATAB



مقتطفات من مطويات الغلاف...

مرةً أخرى، أصبح صوت خطوات العميل يتردّد على سلالم المبنى 221 بي في شارع بيك. عاد أعظم محقّق في العالم إلى العمل؛ رجع إلى الحياة بأعجوبة، ليظهر في مجموعة من المغامرات الأصيلة، التي لم تُطبع سابقاً في أيٍّ من كتب (شيرلوك هولمز)، التي ألّفها السير (آرثر كونان دويل).

يمكن أن تسمَّى هذه السلسلة «ألغاز (شيرلوك هولمز) غير المحفوظة»، كون هذه القصص تستند إلى القضايا التي تمّت الإشارة إليها في أعمال السير (آرثر كونان دويل) الأصلية، ولكن لم يقم الدكتور (واطسون) بروايتها من قبل.

الآن، تحت رعاية (أدريان كونان دويل) و(جون ديكسون كار)، تمّ إقناع الدكتور (واطسون) بأن يصف بالكامل تلك المغامرات المذهلة، التي تم ذكرها باختصار فقط في الحكايات السابقة. أعاد المؤلفان بناء عالم (شيرلوك هولمز)، الذي كان مقرّه الرئيس في مسكنه في 221 بي، شارع بيكر، بعناية.

قصصهم هي النتائج المستلهمة لسنوات من البحث المستفيض، والخيال الخلّاق، والاهتمام الدقيق بالتفاصيل الدقيقة، التي ميّزت جميع الجهود، التي قام بها المحقق الأكثر شهرة في العالم.

تنبثق القصص الاثنتي عشرة في «(شيرلوك هولمز) ملفات شارع بيكر السريّة» من القضايا التي لم يتمّ حلها، والتي أشار إليها الدكتور (واطسون) في القصص الست والخمسين، والروايات الأربع الأصلية المنشورة سابقاً. الحبكات جديدة، لكنّ هذه القصص نسخٌ متبحرة من القصص الأصلية في البناء وكذلك في التركيب.

والآن، مرة أخرى، «اللعبة جارية على قدم وساق...».



عن المؤلفين

(أدريان كونان دويل) (Adrian Conan Doyle) (1910-1970م)، الابن الأصغر للسير (آرثر كونان دويل) ووصيّه الأدبي [أي الشخص المؤتمن على أوراقه ومؤلفاته التي لم تُنشر بعد موته]، عمل على القصص الموجودة في هذا الكتاب، مستخدماً المكتب نفسه الذي كان والده يستخدمه.

كان (جون ديكسون كار) (John Dickson Carr) (1906- 1977م) واحداً من أشهر كتاب روايات الغموض في أمريكا، وهو مؤلف لستٍّ وأربعين رواية (بما في ذلك «التوابيت الثلاثة» (The Three Coffins)، و«حتى يفرّقنا الموت» (Till Death Do Us Part)، إضافة إلى أربع وعشرين رواية أخرى، تحت الاسم المستعار (كارتر ديكسون).




MOHAMED KHATAB



دائماً (هولمز)

من المؤكّد، إلى حدٍّ ما، أنه لا يوجد أيّ قارئ لمجلة ستراند في العام 1887 كان يمكنه أن يخمّن أنّ (شيرلوك هولمز) والدكتور (واطسون)، اللذين ظهرا حينها لأوّل مرة في تلك المجلة البريطانية، سيصبحان، خلال وقت قصير، أشهر شخصيتين من الشخصيات الروائية في العالم. ورغم ذلك، من المؤكد تماماً أن مبتكرهما، السير (آرثر كونان دويل)، لم تكن لديه أدنى فكرة حول هذا الأمر في ذلك الوقت، أو حتى بعدها بسنوات عديدة، عندما قرر التخلص من (هولمز)، من خلال دفعه من على منحدر في شلالات ريتشينباخ. أثارت هذه الحادثة تداعيات، إلى درجة أن تذمّر العامة قد أجبر كونان دويل على إعادة بطله مرةً أخرى إلى الحياة، وإلى المجال المألوف لمنزله في 221 بي في شارع بيكر.

بالنظر إلى الشعبية الهائلة، التي يتمتع بها (هولمز)، ليس من المستغرب أن يصبح اسمه في قلوب وعقول مئات الملايين ليس بوصفه كلمة مألوفة، بل بوصفه اسماً لرجل يُعتقد أنه كان شخصية حقيقية.

في الواقع، يُعدّ اختراع (هولمز) أقل أهمية بكثير مما يعتقده بعض الناس، فالأكثر أهمية هو أن شهامة (هولمز)، وعقله النافذ، ومعرفته الواسعة، وقدراته الجسدية الفذّة، وشخصيته الكاملة، هي بحقٍّ سمات العبقري الذي ابتكره. السير آرثر في الحياة الواقعية، مثل (هولمز) في الخيال، جاء لإنقاذ الناس المدانين بجرائم لم يرتكبوها، وكان يستخدم المنطق نفسه والتفكير الاستنباطي نفسه، الذي مكّن (هولمز) من حلّ مشكلات عملائه.

كان السير (آرثر)، مثل (هولمز)، رجلاً يتمتع بقوة بدنية غير عادية كانت تمكنه -لا شك- من أن يصبح ملاكماً عظيماً، لو أنه سعى إلى هذا الطريق، بدلاً من أن يكون طبيباً أولاً، ثمّ كاتباً بعدها.

حتى خلفية (هولمز) كانت، إلى حدٍّ ما، توازي خلفية الرجل الذي ابتكره.

على الرغم من أن أسلافه كانوا من طبقة النبلاء الإيرلندية، جدّةُ السير آرثر، مثل جدّةِ (هولمز)، كانت من أصل فرنسي. بينما كان جدّه، جون دويل، أكثر رسامي الكاريكاتير السياسي ألمعيّة في أوائل القرن التاسع عشر. رسم عمه ريتشارد (ديكي) دويل على غلاف مجلة «بانش» (Punch) [الأرجح أن المقصود هنا المجلة]، والذي لا يزال قيد الاستخدام. كان عمّه هنري دويل مدير معرض أيرلندا الوطني.

أما عمه جيمس فهو جامع كتاب (تاريخ إنجلترا) (The Chronicle of England). السير (آرثر كونان دويل) وأسلافه من الدرجة الأولى [الذين ينتسب إليهم مباشرة] هم العائلة الوحيدة في بريطانيا العظمى

التي أعطت، خلال ثلاثة أجيال، خمسة أعضاء منها وُثّقت أسماؤهم في سجلّ الإنجاز، (السيرة الوطنية) (The National Biography)[1].

رغم ذلك، وعلى الرغم من سجل أسلافه المميز، ورواياته التاريخية الشهيرة، وعلى الرغم من سجله المجيد في حرب البوير[2] [المعروفة أيضاً بحرب جنوب أفريقيا]، إن أكثر ما عُرف به (كونان دويل)، بالنسبة إلى العالم، هو أنه مبتكر (شيرلوك هولمز).

منذ العام 1887، تُرجمت كتب (شيرلوك هولمز) إلى كلّ لغة معروفة، ولم تتوقف طباعتها ونشرها أبداً. كان هولمز بطلًا لخمس عشرة مسرحية جدية مختلفة [تمت تأديتها على خشبة المسرح]، وأكثر من ألف تمثيلية إذاعية، وهو الآن يخوض أول ظهور تلفزيوني له في أمريكا، بعد أن ظهر على شاشة التلفزيون في إنجلترا.

بعض أساليب التحقيق، التي ابتكرها السير (آرثر) ليستعملها (هولمز)، تم تبنيها بعد ذلك بوقت قصير من قبل (سكوتلاند يارد)، وقوات الأمن الفرنسية وقوات الشرطة في العديد من الدول الأخرى. حتى إن هولمز أصبح كأنه رأس لطائفة بالنسبة إلى العديد من المجتمعات، وموضوعاً للعديد من عمليات التقليد، التي فشلت جميعها

---

(1) (Dictionary of National Biography) : المعروف اختصاراً بـ (DNB)، وهو قاموس السيرة الوطنية البريطانية، ظهرت أول نسخة له عام 1885م، ومنذ ذلك الحين يجري تحديثه بشكل مستمر، ويضمّ أسماء أكثر من خمسين ألفاً من عظماء الأمة البريطانية.

(2) حروب البوير (Boer Wars): حربان امتدت الأولى منهما بين عامي (1880–1881م)، والثانية بين عامي (1899 – 1902م)، بين المستوطنين ذوي الأصل الهولندي في مستعمرة ترانسفال في جنوب أفريقيا، وقوات الإمبراطورية البريطانية، انتهت الأولى بانتصار البوير، لكنّ البريطانيين حقّقوا الانتصار في الحرب الثانية.

في فهم روح الرجل، الذي يقول عنه (سامرست موغام) في كتابه الأخير (المزاج الجوّال) (The Vagrant Mood): «لم تحظَ أيّ قصص بوليسية بشعبية قصص (كونان دويل)، وبسبب ابتكار (شيرلوك هولمز)، أعتقد أنه يمكن الاعتراف بأنه لا توجد واحدة منها تستحق ذلك بكل هذه الجدارة».

من حسن حظ الملايين من المعجبين بهولمز أنّ هذه السلسلة الجديدة من القصص، «مفاخر (شيرلوك هولمز)» (The Exploits of Sherlock Holmes)، هي من تأليف الابن الأصغر للسير (آرثر)، (أدريان كونان دويل)، بالتعاون مع (جون ديكسون كار)، وهو مؤلف الكتاب المشهود له على نطاق واسع (حياة السير آرثر كونان دويل)، وقد ألّف أيضاً العديد من أفضل روايات الغموض المعاصرة.

(أدريان كونان دويل)، هو أيضا مؤلف (الجنة لها مخالب) (Heaven Has Claws)، وهو كتاب مكون من سلسلة تجارب شخصية عن رحلات الصيد التي قام بها في أعماق البحار، وقد نشأ في تقاليد العصر الفيكتوري، وكان على اتصال وثيق بوالده. الابن، مثل الأب، لديه عشق للمغامرة، ويوقّر آثار الماضي، وفوق كلّ شيء لديه حس الشهامة نفسه الذي كان يميز والده بشكل كامل.. أم هل ينبغي أن نقول الذي كان يميز (هولمز)؟

يستخدم (أدريان كونان دويل) المكتب نفسه الذي كتب عليه والده؛ إنه محاط بالأشياء نفسها التي تعامل معها والده، وقد سعى بكل الطرق إلى إعادة تكوين كل جزء من الأجزاء التي شكّلت بيئة السير (آرثر).

مجموعة «مفاخر (شيرلوك هولمز)» مبنية على القضايا التي لم يتم حلها، والتي أشار إليها (واطسون) في القصص القصيرة الأصلية الست والخمسون، وفي أربع روايات معروفة. سيجد «الشيرلوكيون» اهتماماً إضافياً بالاقتباسات، التي تظهر في نهاية كل قصة. والمقصود بها هنا الإشارات إلى قضايا (شيرلوك هولمز) غير المحلولة، كما ظهرت في القصص الأصلية التي كتبها (آرثر كونان دويل) نفسه، والتي استخدمها المؤلفان الحاليان نقاطَ انطلاق في القضايا الاثنتي عشرة التالية.

الحبكات جديدة، لكن القصص نسخٌ متعمّقة من النسخ الأصلية، في البناء، وكذلك في التركيب. كتب (كونان دويل) و(كار) معاً «مغامرة الساعات السبع» و«مغامرة صياد الذهب»، أما «مغامرة المقامرين الشمعيين»، و«مغامرة معجزة هايفيت» فقد كتبهما (كار) بالكامل تقريباً.

كذلك إن «مغامرة البارونة السوداء» و«مغامرة الغرفة المحكمة الإغلاق» كتبهما (كونان دويل) بالكامل تقريباً. القصص الست الأخيرة هي من تصوّر وكتابة (أدريان كونان دويل) بمفرده، بعد أن عانى (جون ديكسون كار)، فترةً وجيزة، من وعكة مرضية.

تم استلهام «المفاخر» تلبية لرغبة وحيدة، هي إنتاج قصص «كلاسيكية قديمة»؛ وإعادة تكوين لحظات السعادة الحقيقية تلك، عندما يخبرنا صوت خطوات العميل الجديد الذي يقترب بأن «اللعبة جارية على قدم وساق»، أو عندما يكشف (هولمز) عن إجاباته عن أسئلة زملائه الذين في حالة ذهول، كما تصف تلك الأسطر الأربعة

الشهيرة من «سيلفر بلايز [حريق الفضة]»، عندما يسأل المفتش (هولمز):

- هل هناك أيّ نقطة تودّ أن تلفت انتباهي إليها؟

- إلى حادثة غريبة وقعت للكلب في الليل.

- لم يفعل الكلب شيئاً في الليل.

قال هولمز:

- وهذا هو الحادث المثير للفضول.

الناشرون



1

مغامرة الساعات السبع

وجدتُ ملاحظة في دفتر ملاحظاتي تقول إنّه في ظهر يوم الأربعاء 16 نوفمبر 1887، أبدى صديقي السيد (شيرلوك هولمز) اهتمامه لأول مرة بحالة الرجل الذي كان يكره الساعات!

كما كتبتُ في مكان آخر في دفتر ملاحظاتي أنّني لم أسمع إلا رواية غير مكتملة عن هذه القضية، كونها حدثت بعد زواجي بوقت قصير[1] في الواقع، لقد ذهبت إلى حدّ القول إنّ مكالمتي الأولى، بعد الزواج، مع (هولمز)، كانت في مارس من العام التالي... لكنّ القضية المعنية كانت مسألة حسّاسة جداً، إلى درجة أنّ المؤكّد لديّ أنّ قرائي سوف يغفرون كتمانها من قبل شخص كان قلمه موجّهاً بالتحفّظ بدلاً من لغة الإثارة!

---

(1) لمحبي التفاصيل، إنّ الدكتور (واطسون) قد تزوّج مرتين، بحسب القصص الأصلية لـ(آرثر كونان دويل)؛ الأولى كانت من (Mary Morstan)، التي تعرّف عليها خلال أحداث رواية (The Sign of Four) (العلامات الأربع) لـ(ل(شيرلوك هولمز))، وهي الزيجة التي يقصدها الكاتب هنا.

بعد أسابيع قليلة من زواجي، حين اضطرّت زوجتي إلى مغادرة لندن، بسبب مسألةٍ تخصّ «ثاديوس شولتو»[1]، أثّرت بشكل بالغ في ثروتنا المستقبلية...

وجدت أنّ منزلنا الجديد لا يُطاق من دون وجودها، لمدة ثمانية أيام عُدت إلى الإقامة في المسكن القديم في شارع (بيكر)... رحّب بي (شيرلوك هولمز) من دون أيّ سؤال أو تعليق... ورغم ذلك يجب أن أعترف بأن اليوم التالي، 16 نوفمبر، بدأ بشكل مشؤوم!

كان الطقس قاسياً، وبارداً جداً... طوال الصباح كان الضباب الأصفر المائل الى البني ملتصقاً بالنوافذ... كانت المصابيح والمشاعل الغازية مشتعلة، ولمع ضوءها على مائدة الإفطار، التي لم تُنظّف في فترة ما بعد منتصف النهار من اليوم السابق...

كان (شيرلوك هولمز) متقلب المزاج ومنفعلاً... متكوّماً في كرسيه ذي الذراعين، وهو متدثر في رداء النوم القديم، الذي بلون الفئران، وفي فمه غليون مصنوع من خشب الكرز... كان يطالع الصحف الصباحية، وبين الحين والآخر، كان يُطلق بعض التعليقات الساخرة...

سألته:

- هل تجد القليل من الأشياء المثيرة للاهتمام؟

---

(1) ثاديوس شولتو: شخصية رئيسة ومحورية ظهرت في رواية (علامة الأربعة) (The Sign of the Four)، وهي ثاني رواية طويلة لشخصية (شيرلوك هولمز) يكتبها (آرثر كونان دويل)، ويشير المؤلف هنا إلى أحداث هذه الرواية.

قال:

- يا عزيزي (واطسون)، بدأت أشعر بالخوف من أن تصبح الحياة تافهة ورتيبة منذ قضية «بليسينفتون»[1] سيئة السمعة...

اعترضت قائلاً:

- رغم ذلك، بالتأكيد كان هذا عاماً مليئاً بالقضايا التي لا تنسى؟ أنت مُنفعل بشكل مفرط، يا صديقي العزيز.

- يا إلهي، «واطسون»، أنت نادراً ما تكون الرجل الذي يعظُ بشأن هذا الموضوع. الليلة الماضية، بعد أن تجرّأت على تقديم زجاجة من نبيذ «بون» لك على العشاء، تحدّثت مطوّلاً من دون توقّف عن بهجة الزواج، إلى درجة أنني خشيت أنك لن تتوقّف أبداً!

- أنت تلمح إلى أنني كنت نشطاً بشكل مفرط بسبب النبيذ...

تأملني (هولمز) بطريقته الفريدة قبل أن يقول:

- ربما ليس بسبب النبيذ، ولكن...

ثمّ أشار إلى الصحف....

- هل ألقيت نظرة على الهراء الذي رأت الصحافة أنّه مناسب لتسلّينا به!

- أخشى أنني لم أفعل. هذه نسخة من المجلة الطبية البريطانية...

قال:

---

(1) يشير هنا إلى قضية (The Adventure of the Resident Patient).

- حسناً، حسناً! هنا نجد عموداً تلو الآخر مخصصاً لموسم السباق في العام المقبل. لسببٍ ما يبدو أنّ كون حصان ما يمكن أن يركض أسرع من حصانٍ آخر هو أمرٌ مذهل على الدوام بالنسبة إلى الجمهور البريطاني! كما خُصص مقالٌ رئيس كامل للسؤال الواضح الذي لا ريب فيه: «هل يجب أن يتزوج العاملون في المتاجر؟».

كففت نفسي عن مقاطعته، لئلا تزداد المرارة التي يشعر بها...

- أين هي الجريمة يا (واطسون)؟ أين هو عنصر الغرابة؟ أين تلك اللمسة من الغرابة التي من دونها تكون المشكلة، في حدّ ذاتها، مثل الرمل والعشب الجاف؟ هل فقدناها إلى الأبد؟

فجأة رنّ الجرس بشكل متكرّر. قلت له:

- أصغِ! بالتأكيد كان هذا الجرس؟

- شخصٌ ما في عجلة من أمره، إذا جاز لنا استنتاج ذلك من ضوضاء الجرس!

وفي تجاوب، سرنا معاً إلى النافذة، ونظرنا إلى الأسفل نحو شارع (بيكر)...

كان الضباب قد زال جزئياً...

عند الرصيف أمام بابنا، كانت هناك عربة مغلقة جميلة[1]، كان السائق الذي يرتدي قبعةً طويلة، ويرتدي زياً خاصاً، يغلق للتوّ باب العربة، التي تحمل لوحتها الحرف «M» من الأسفل. صدرت همهمة

---

(1) عربة الأومنيبوس (omnibus): هي عربة مقفلة للركاب.

الأصوات التي أعقبها صوت خطوات خفيفة وسريعة على الدرج، وانفتح باب غرفة الجلوس في بيتنا.

فوجئنا كلانا، على ما أعتقد، عندما أدركنا أن زائرتنا كانت سيدة شابة: فتاة، بالأحرى؛ حيث إنها كانت تكاد تبلغ الثامنة عشرة من عمرها، ونادراً ما رأيت في وجه شاب مثل هذا الجمال والرقي، بالإضافة إلى الرقة أيضاً... تأملتنا عينيها الزرقاوين الكبيرتين بمناشدة جيّاشة...

كان شعرها البني الكثيف حبيس قبعة صغيرة؛ وارتدت فوق فستان السفر سترة ذات لون أحمر داكن مزينة بشرائط من (الأستراخان)[1]... في يدها، التي كانت ترتدي قفازاً، كانت تحمل حقيبة سفر عليها ما يشبه الملصق عليه الأحرف «.C.F»...

كانت يدها الأخرى تضغط على قلبها...

- أوه، رجاءً، سامحوني على هذا التطفل!

قالتها مناشدة، بصوت لاهث، لكنه كان منخفضاً ورخيماً...

- من منكما -لو سمحتما- السيد (شيرلوك هولمز)؟

أمال رفيقي رأسه...

- أنا السيد (هولمز). هذا صديقي وزميلي الدكتور (واطسون).

- الحمد لله. لقد وجدتك في المنزل! مهمتي...

---

(1) الأستراخان (Astrakhan): فرو الغنم الداكن اللون، الذي كان يُلبس بكثرة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

لكن زائرتنا لم تتمكن من أن تنطق أكثر من «مهمتي»، فقد تلعثمت، واحمرّ وجهها بشدّة، ونظرت إلى الأسفل...!

أخذ (شيرلوك هولمز) حقيبة السفر من يدها برفق، ودفع كرسياً بذراعين نحو المدفأة...

قال وهو يضع جانباً غليونه المصنوع من خشب الكرز:

- رجاءً، اجلسي يا سيدتي، واهدئي...

أجابت السيدة الشابة، وهي تنكمش جالسة على الكرسي، وتعطيه نظرة امتنان:

- أشكرك يا سيد (هولمز). يقولون، يا سيدي، إنه يمكنك قراءة قلب الإنسان...!

- هممم! بالنسبة إلى الشعر، على ما أخشى، عليكِ أن تخاطبي (واطسون)!

استمرت قائلة، متجاهلة تعليق (هولمز) الساخر:

- أقصد أنه يمكنك قراءة أسرار عملائك، حتى المهمات التي يأتون لتأديتها، من غير أن يقولوا كلمةً واحدة!

أجاب وهو يبتسم:

- لقد بالغوا في تقدير قواي. بصرف النظر عن الحقائق الواضحة بأنّك رفيقة لسيدة من طبقة راقية، وأنك نادراً ما تسافرين، لكنك عدت مؤخراً من رحلة إلى (سويسرا)، وأنّ مهمّتك هنا تتعلق برجل قد شغفك حباً، لا يمكنني أن أستنتج أي شيء!

جفلت الشابة بعنف، وأنا نفسي ذُهلت وصرخت:

- (هولمز)، هذا كثير. كيف عرفت كل هذا؟

رددت الشابة:

- كيف، بالفعل؟

- أرى الشيء، فألاحظه... حقيبة السفر، على الرغم من كونها بعيدة كلّ البعد عن كونها جديدة، هي ليست بالية، ولم تتعرض للصدمات بسبب السفر، ورغم ذلك، لا أحتاج إلى التقليل من شأن ذكائكما من خلال لفت الانتباه إلى الملصق الورقي لفندق (سبلنديد)، في (غريندلفالد) في (سويسرا)، الذي تم إلصاقه بالملكة على جانب الحقيبة...

أصررت:

- لكن النقطة الأخرى؟

- ملابس السيدة، على الرغم من أنها ذات ذوق رفيع للغاية، ليست جديدة ولا باهظة الثمن، ورغم ذلك، أقامت في أفضل فندق في (غريندلفالد)، ووصلت إلى هنا في عربة من عربات الأثرياء، ولمّا كانت الأحرف الأولى من اسمها «C.F.» لا تتطابق مع الـ«M»، التي على لوحة العربة، فسوف نفترض أنها تشغل وظيفة مساوية في أسرة ثرية... صغر سنها يجعلنا نستبعد وظيفة المربية، بقيت لنا وظيفة رفيقة سيدة، أما الرجل الذي شغفها حباً، فاحمرار وجهها خجلاً، وجفونها المُخفضة تدلّ على ذلك. هذا سخيف، أليس كذلك؟

صرخت زائرتنا، وهي تشبك يديها معاً في حالة حماسة أشد:

- لكن هذا صحيح يا سيد (هولمز)! اسمي (سيليا فورسايث)، وأنا على مدار أكثر من عام كنت رفيقةً للسيدة (مايو)، من (غروكستون لو هول)، في (سُري)[1]، (تشارلز)..

- (تشارلز)؟ هذا هو اسم الرجل المعني؟

أومأت الآنسة (فورسايث) برأسها دون أن ترفع نظرها...

ثم تابعت:

- إذا ترددت في الحديث عنه، فذلك لأنني أخشى أن تضحك علي؛ أخشى أن تعتقد أنني مجنونة؛ أو الأسوأ من ذلك، أن (تشارلز) المسكين نفسه مجنون...!

- ولماذا سأعتقد ذلك يا آنسة (فورسايث)؟

- سيد (هولمز)، لا يمكنه تحمل رؤية ساعة حائط!

- رؤية ساعة؟

- في الأسبوعين الماضيين، يا سيدي، ومن دون سبب قابل للتفسير، قام بتحطيم سبع ساعات؛ اثنتين منها قام بتحطيمهما على الملأ، وأمام عينيّ!

فرك (شيرلوك هولمز) أصابعه الطويلة والرفيعة ببعضها...

قال وقد نظر الي:

---

(1) سَري (surrey): مقاطعة إنجليزية تقع جنوب لندن.

– انظر. هذه الأمور الأكثر إثارة للفضول... ثم التفت ناحية الفتاة قائلاً:

– رجاءً واصلي روايتك...

– إن القصة تصيبني باليأس والضيق يا سيد (هولمز)، ورغم ذلك سأحاول الاستمرار، طوال السنة الماضية، كنت سعيدةً جداً في عملي مع السيدة (مايو). عليّ أن أخبرك أن والديّ قد توفيا، لكنني تلقيت تعليماً جيداً؛ ومثل هذه المؤهلات، التي تمكنت من الحصول عليها، كانت كافية لحسن الحظ... لا بد لي من الاعتراف بأن السيدة (مايو) تبدو غير ودودة نوعاً ما... هي ممن يتبعون التقاليد القديمة بصرامة، ورغم ذلك، كانت بالنسبة إلي هي اللطف بذاته. في الواقع، كانت هي من اقترحت أن نقضي الإجازة في (سويسرا)، خوفاً من أن يؤدي الانعزال في (غروكستون لوهول) إلى تثبيط معنوياتي... وخلال رحلتنا في القطار بين (باريس) و(غريندلفالد)[1] التقينا بـ(تشارلز)... (تشارلز هندون).

ارتد (هولمز) في الكرسي ذي الذراعين، جاعلاً أطراف أصابعه تلامس بعضها البعض كما هي عادته عندما يكون في مزاج لإطلاق الأحكام.

سألها:

– إذاً، كانت هذه هي المرة الأولى التي تقابلين فيها هذا السيد؟

– أوه، نعم!

---

(1) غريندلفالد (Grindelwald): قرية سويسرية.

- وكيف حصل هذا التعارف؟

- كان أمراً تافهاً يا سيد (هولمز)، كنا وحدنا نحن الثلاثة في عربة من الدرجة الأولى. أخلاق (تشارلز) جميلة للغاية، وصوته رائع للغاية، وابتسامته آسرة جداً...

- لا شك في هذا، ولكن رجاءً كوني دقيقة في التفاصيل؛ كيف تعرفت عليه؟

فتحت الآنسة (فورسايث) عينيها الزرقاوين على اتساعهما... قبل أن تقول:

- أعتقد أنه بسبب النافذة. (تشارلز)، الذي يتمتع بعينين رائعتين وشارب بني كثيف، انحنى وطلب الإذن من السيدة (مايو) لإنزال النافذة، وهي وافقت، وخلال لحظات قليلة كانا يتحدثان معاً مثل الأصدقاء القدامى!

- هممم! فهمت.

- السيدة (مايو)، بدورها، قدمتني إلى (تشارلز). مرّت الرحلة إلى (غريندلفالد) بسرعة وبسعادة، ورغم ذلك، ما إن دخلنا بهو فندق (سبلنديد)، حتى حدثت أولى الصدمات الرهيبة، التي جعلت حياتي منذ ذلك الحين تعيسة...

استطردت قائلة:

- على الرغم من اسمه، ثبت أنّ الفندق كان في الواقع صغيراً وساحراً... حتى حينها، كنت أعرف أن السيد (هندون) رجل ذو أهمية

نوعاً ما، رغم أنه قدم نفسه بشكل متواضع بأنه سيّد أعزب يسافر مع خادم واحد فقط، لكن فور دخولنا اقترب مدير الفندق، (م. برانفر)، وانحنى للسيدة (مايو) والسيد (هندون)، وتبادلا بعض الحديث مع (م. برانفر) بصوت منخفض. عندئذٍ استدار (تشارلز)، وهو يبتسم، ثم فجأةً تغيّر سلوكه بالكامل...!

صمتت برهةً قبل أن تقول:

- لا يزال بإمكاني رؤيته واقفاً هناك، مرتدياً معطفه وقبعته الطويلة، ويحمل عصا مشي ثقيلة مصنوعة من (الملقا)[1] تحت ذراعه. كان ظهره موجهاً نحو نصف دائرة من الزينة المكونة من نبات السرخس والأشجار الدائمة الخضرة، التي تحيط بمدفأة ذات رفّ منخفض كانت عليه ساعة سويسرية ذات تصميم رائع... قبل تلك اللحظة لم أكن قد لاحظت الساعة حتى... لكن (تشارلز) أطلق صرخة مخنوقة، واندفع نحو الموقد. رفع عصا المشي الثقيلة، وأسقطها بقوة على غطاء الساعة، وانهال بالضربة تلو الضربة حتى سقطت الساعة حطاماً رنّاناً على أرضية المدفأة...!

ثم استدار وسار عائداً ببطء، ومن دون أيّ شرح، أخرج دفتر الجيب، وأعطى (م. برانفر) سنداً مصرفياً كانت قيمته أكثر من عشرة أضعاف ثمن الساعة، وبدأ يتحدث برفق عن أمور أخرى... ربّما تتخيل فعلياً، يا سيد (هولمز)، أننا قد وقفنا كما لو كنّا مذهولتين...

(1) عصا الملقا (Malacca cane): عصا مشي مصنوعة من نوعٍ من النخيل الآسيوي.

كان انطباعي هو أن السيدة (مايو)، على الرغم من هيبتها، كانت خائفة، ورغم ذلك، أقسم إن (تشارلز) لم يكن يشعر بالخوف؛ لقد كان فقط غاضباً وثابتاً.

عندها، رأيت خادم (تشارلز)، الذي كان يقف في الخلفية وسط الأمتعة، إنه رجل صغير الحجم، هزيل الجسم، ذو سوالف رفيعة عند الصدغين، وعريضة أسفل الفكّين؛ ولم يظهر على وجهه سوى تعبير ينمّ عن الإحراج والخجل الشديد...

لم ينطق أحدٌ بأيّ كلمة حينها، وتمّ نسيان الحادث. مدةَ يومين كان (تشارلز) على طبيعته الهادئة... وفي صباح اليوم الثالث، عندما التقينا به في غرفة الطعام لتناول الإفطار، حدث ذلك مرة أخرى...

استمرت قائلة:

- كانت ستائر نوافذ غرفة الطعام الثقيلة مسحوبةً جزئياً عن تألّق ضوء الشمس الساطع على الثلج... كانت الغرفة مليئة بالضيوف الآخرين، الذين كانوا يتناولون وجبة الإفطار. عندها فقط لاحظت أنّ (تشارلز)، الذي عاد لتوه من المشي الصباحي، كان لا يزال يحمل عصا المشي في يده. ويقول للسيدة (مايو) بمرح:

«تنفسي هذا الهواء يا سيدتي! سوف تجدينه منشّطاً بقدر أيّ طعام أو شراب!».

توقّف فجأة، ونظر إلى إحدى النوافذ. تجاوزنا مندفعاً، ثمّ ضرب الستارة بشدّة، ثم أزاحها بقوّة جانباً، ليكشف عن حطام ساعة كبيرة على شكل وجه شمس مبتسم. أعتقد أنّني كنت سأفقد وعيي لو لم تكن السيدة (مايو) قد أمسكت ذراعي...

خلعت الآنسة (فورسايث) قفازاتها، وضغطت بيديها على خدّيها، وتابعت قائلة:

- لكن (تشارلز) لم يكتفِ بتحطيم الساعات؛ إنه يدفنها في الثلج، بل يخفيها في خزانة غرفته!

كان (شيرلوك هولمز) مسنداً ظهره إلى كرسيه وعيناه مغمضتان، ورأسه غارق في وسادة، لكنّه الآن فتح جفنيه نصف فتحة... وصرخ فجأةً، وهو عابس:

- في الخزانة؟ هذا غريب! كيف علمت أمراً كهذا؟

- من الخجل الذي شعرتُ به، يا سيد (هولمز)، تحوّلت إلى استجواب خادمه...!

- من الخجل الذي شعرتِ به؟

- لم يكن لديّ الحق في القيام بذلك، بسبب منزلتي المتواضعة. لم أكن أهمّ (تشارلز). لا يمكنني أن أعني شيئاً له! لم يكن لديّ أيّ حق!

أجاب (هولمز) بلطف:

- كان لك كلّ الحق يا آنسة (فورسايث). ماذا قال لك الخادم، الذي وصفته بأنّه رجل صغير الحجم، هزيل الجسم، ذو سوالف رفيعة عند الصدغين وعريضة أسفل الفكّين. بالمناسبة، ما اسمه؟

- اسمه (تريبلي)، على ما أعتقد. أكثر من مرة سمعت (تشارلز) يخاطبه بـ (تريب)، وأقسم، يا سيد (هولمز)، إنه أكثر مخلوق يمشي على هذه الأرض إخلاصاً. حتى رؤية وجهه الإنجليزي الجامد كانت

تريحني... كان يعلم، كان يشعر، لقد أحسّ بـ... باهتمامي، وأخبرني أن سيده قد دفن أو أخفى خمس ساعات أخرى، فرغم أنّه رفض قول ذلك، يمكنني القول إنّه كان يشاركني مخاوفي، ورغم ذلك، إن (تشارلز) ليس مجنوناً! إنه ليس كذلك! يجب أن تعترف أنت نفسك بذلك، بسبب الحادث الأخير...

- نعم؟

- حدث هذا قبل أربعة أيام فقط. يجب أن تعلم أنّ جناح السيدة (مايو) كان يضم غرفة جلوس صغيرة فيها (بيانو). أنا محبّة جداً للموسيقا، وكان من عادتي أن أعزف للسيدة (مايو) ولـ(تشارلز) بعد شرب الشاي. ساعةَ هذه الحادثة أكاد أكون قد بدأت العزفَ عندما دخل أحد موظفي الفندق ومعه رسالة لـ(تشارلز)...

- هل لاحظت الختم البريدي؟

تكلّمت الآنسة (فورسايث) بشيء من الدهشة:

- نعم. لقد كان أجنبياً، لكن بالتأكيد لم يكن له أيّ أهمية؛ لأنك...

- لأنني ماذا؟

ظهرت لمسة مفاجئة من الحيرة على تعابير وجه عميلتنا، وبعدها، كما لو أنّها كانت تريد التخلص من حيرةٍ ما، سارعت في سرد روايتها...

- مزّق تشارلز ظرف الرسالة ليفتحها، ثمّ قرأها، وتحوّل لونه ليصبح شاحباً كالميّت. ومع صراخ غير مفهوم، اندفع خارجاً من الغرفة. وعندما نزلنا بعدها بنصف ساعة. ما كان منّا إلا أن اكتشفنا

أنه هو و(تريبلي) قد غادرا مع كلّ أمتعته. لم يترك أيّ رسالة. لم يرسل أيّ رسالة، ولم أره منذ ذلك الحين...

أخفضت (سيليا فورسايث) رأسها، ولمعت الدموع في عينيها...

- الآن، يا سيد (هولمز)، لقد كنتُ صريحةً معك. أرجو أن تكون صريحاً معي بالقدر نفسه... ما الذي كتبته في تلك الرسالة؟

كان السؤال مذهلاً إلى درجة أنني، أنا شخصياً، ملْتُ إلى الخلف، واستندت إلى ظهر كرسيي...

كان وجه (شيرلوك هولمز) خالياً من التعابير... أصابعه الطويلة المتوترة امتدت لتأخذ شيئاً من التبغ في الخفّ الفارسي[1]، وبدأت تملأ غليوناً من الفخار...!

- أنت تقولين في الرسالة

قالها ذاكراً وليس سائلاً..

- أجل! أنت من كتب تلك الرسالة. رأيت توقيعك؛ لهذا أنا هنا!

رد (هولمز):

- يا إلهي!

كان صامتاً عدةَ دقائق، والدخان الأزرق يتلوّى حوله، وعيناه كانتا مثبتتين على الساعة التي على رفّ المدفأة، وكانت نظراته خاليةً من التعابير.

---

(1) الخف الفارسي أو النعال الفارسية (Persian slippers): زوج من النعال اعتاد (شيرلوك هولمز) حفظ التبغ الخاص به داخلهما، وكانا معلقين دائماً بالقرب من كرسيّه.

قال أخيراً:

- هناك أوقاتٌ يا آنسة (فورسايث)، ينبغي للمرء أن يكون فيها حذراً في ردوده. لدي سؤال واحد فقط لأطرحه عليك...

- حسناً ما هو يا سيد (هولمز)؟

- هل ما زالت السيدة (مايو) محافظةً على صداقتها مع السيد (تشارلز هندون)؟

- أوه، نعم! لقد أصبحت متعلّقة به بشدّة. أكثر من مرّة سمعتها تخاطبه بـ(أليك). يبدو أنّ هذا هو لقب التحبّب الذي اختارته له...

توقفت الآنسة (فورسايث)، وبدا عليها الشك، وحتى الاشتباه...

- ولكن ماذا يمكن أن تقصد بسؤالٍ كهذا؟

نهض (هولمز) ووقف...

- سأكون، يا سيدتي، سعيداً فحسب بأن أنظر في هذه المسألة من أجلك... هل ستعودين إلى (غروكستون لو هول) هذا المساء؟

- أجل، ولكن لديك بالتأكيد أكثر من هذا لكي تقوله لي؟ لم تجب عن أيٍّ من أسئلتي!

- حسناً، حسناً! لديّ أساليبي الخاصة، كما قد يخبرك بهذا (واطسون) هنا. لكن إن وجدت أنّ من الممكن لك المجيء إلى هنا -لنقل بعد أسبوع من اليوم- في الساعة التاسعة مساءً، فشكراً لك. بعدها آمل أن يكون لديّ بعض الأخبار لكِ.

من الواضح أنّ هذه كانت طريقة ليطلب منها المغادرة. نهضت

الآنسة (فورسايث)، ووقفت، ونظرت إليه بشكل يائسٍ للغاية إلى درجة أنّني شعرت بالحاجة إلى قول كلمة مواساة.

صرخت قائلاً، وأنا أمسك بيدها برفق:

- كوني سعيدة يا سيدتي! يمكن أن تثقي تماماً بصديقي السيد (هولمز)؛ و -إذا جاز لي أن أقول- فيّ أنا أيضاً...

كوفئتُ بابتسامة رقيقة فيها امتنان. عندما انغلق الباب خلف زائرتنا الجميلة، التفتُّ إلى رفيقي بشيءٍ من الحدّة...

- أعتقد، يا (هولمز)، أنّه كان من الممكن أن تتعامل مع الشابة بمزيد من التعاطف!

- أوه؟ هل هذا هو الحال؟

- (هولمز)، يا للعار!

قلتها وأنا ألقي بنفسي على كرسيي...

- هذه القضية تافهة بلا شك. أما السبب الذي يجعلك تكتب رسالة إلى هذا الرجل المجنون الذي يحطّم الساعات، فلا أستطيع أن أخمّنه!

انحنى (هولمز) مقترباً، ووضع سبابته الطويلة الرفيعة على ركبتي، قائلاً:

- (واطسون)، أنا لم أكتب رسالة كهذه!

صرخت:

- ماذا؟!

- تلك ليست المرة الأولى التي يستعير فيها الآخرون اسمي! هناك شيء خبيثٌ هنا، يا (واطسون)، ما لم أكن مخطئاً!

- أنت تأخذ الأمر بجديّة إذاً؟

- بغاية الجديّة، إلى درجة أنني سأغادر إلى القارة[1] الليلة..

- إلى القارة؟ إلى (سويسرا)؟

- لا، لا. وما علاقتنا بـ(سويسرا)؟ طريقنا يقع في مكانٍ أبعد!

- إذاً إلى أين أنت ذاهب؟

- بالتأكيد هذا واضح!

- يا عزيزي (هولمز)، أجبني!

رفض أن يجيبني إلى أين هو ذاهب، بل فضّل القول:

- رغم أنّ كلّ المعطيات تقريباً أمامك، وكما أخبرت الآنسة (فورسايث)، أنت تعرف أساليبي... استخدمها يا (واطسون)... استخدمها!

كانت المصابيح الأولى قد بدأت تشعّ بخفوتٍ عبر الضباب في شارع (بيكر)، عندما اكتملت تجهيزات صديقي البسيطة. كان يقف عند مدخل غرفة الجلوس التي في بيتنا...

(1) يقصد هنا القارة الأوربية. ورغم أن (بريطانيا) تقع جغرافياً ضمن أوروبا، تتكوّن من مجموعة جزرٍ منفصلة عن الكتلة الرئيسة للقارة.

طويلاً ونحيلاً، وهو يرتدي قبعة السفر ذات الرفرفين لحماية الأذنين، ومعطفَ (إنفيرنيس) الطويل، وحقيبة (غلادستون) عند قدميه، كان يتأملني بثبات استثنائي.

- كلمة أخيرة يا (واطسون)، لمّا كنت لا تزال تبدو كأنّك لم تفهم الأمر، أودّ أنّ أذكّرك بأنّ السيد (تشارلز هندون) لا يستطيع تحمّل رؤ□

قاطعته قائلاً:

- لكنّ هذا واضح بما فيه الكفاية! لا يمكنه تحمّل رؤية ساعة!

هزّ (هولمز) رأسه... قائلاً:

- ليس بالضرورة. أودّ أن ألفت انتباهك أيضاً إلى الساعات الخمس الأخرى، كما وصفها الخادم.

- السيد (تشارلز هندون) لم يحطّم تلك الساعات!

- لهذا السبب لفت انتباهك إليها. أراك الساعةَ التاسعة صباحاً في هذا اليوم نفسه بعد أسبوع، يا (واطسون).

بعد لحظة، كنت وحدي...

خلال ذلك الأسبوع المملّ الذي أعقب ذلك، شغلتُ نفسي قدرَ المستطاع. لقد لعبت (البلياردو) مع (ثورستون)، ودخنت الكثير من غلايين (شيب)، وفكرت بعمق في الملاحظات التي تخصّ قضية السيد (تشارلز هندون)...

لا يرافق المرء (شيرلوك هولمز) عدةَ سنوات من دون أن يصبح أقوى ملاحظة من أغلب الناس.

بدا لي أنّ هناك خطراً ظلامياً وشريراً يتربّص بتلك السيدة الشابة المسكينة، الآنسة (فورسايث)، ولم أثق في (تشارلز هندون) الوسيم جداً، ولا بالسيدة (مايو) الغامضة.

في يوم الأربعاء، 23 نوفمبر، رجعت زوجتي بأخبار سارّة مفادها أنّ ثرواتنا قد أصبحت في حالة أفضل، وأنّني سأتمكن قريباً من شراء عيادة صغيرة. كانت عودتها إلى المنزل عودة مُفرحة.

في تلك الليلة، عندما جلسنا، وكلانا يمسك يدَ الآخر أمام النار في بيتنا، أخبرتها شيئاً عن المشكلة الغريبة التي طُرِحت أمامي.

تحدثت عن الآنسة (فورسايث)، وتطرّقت إلى مأزقها المحفوف بالمخاطر، وإلى شبابها وجمالها ورقيّها. لم تردَّ زوجتي، لكنّها جلست وهي تنظر بإمعان إلى النار.

لقد كان صوت رنين ساعة «بيغ بن» البعيد، عند الساعة الثامنة والنصف، هو ما أيقظني.

صرخت قائلاً:

- يا إلهي، (ماري)! لقد كدت أنسى!

كرّرت زوجتي مع جفلة طفيفة:

- نسيتَ ماذا؟

- لقد وعدتُ أن أكون في شارع (بيكر) عند الساعة التاسعة مساءً. الآنسة (فورسايث) ستكون هناك.

سحبت زوجتي يدها من يدي، وقالت ببرودةٍ أدهشتني:

– إذاً، عليك أن تنطلق فوراً. أنت دائماً مهتمّ جداً بقضايا السيد (شيرلوك هولمز)...

وأنا محتار ومشاعري مجروحة بعضَ الشيء، أخذتُ قبعتي، وغادرتُ...

كانت ليلةً قارسة البرودة، ولا وجود للضباب فيها، لكنّ الطرق كانت مسدودةً بالوحل...

خلال نصف ساعة، أوصلتني عربة ذات عجلتين[1] إلى شارع (بيكر) مع دفعة مفاجئة من الإثارة. لاحظت أنّ (شيرلوك هولمز) قد عاد من مهمّته...

كانت النوافذ العلويّة مضاءةً، ورأيت ظلّه النحيلَ عدّة مرات، وهو يمرّ ويعاود الظهور على الستائر..

بعد أن سمحت لنفسي بالدخول، مستخدماً مفتاح الباب الخارجي، صعدتُ السلّم بهدوء، وفتحتُ باب غرفة الجلوس...

من الواضح أنّ (هولمز) كان قد عاد لتوّه؛ لأنّ رداءه وقبعته القماشية والحقيبة الـ«غلادستون» القديمة كانت جميعها مبعثرة في أنحاء الغرفة بأسلوبه المعتاد غير المرتّب.

وقف عند مكتبه، وظهرُه موجّهٌ إلي، وضوء مصباح المكتب المظلّل باللون الأخضر كان ساقطاً عليه، وهو يمزّق الأظرف التي في كومةٍ صغيرة من الرسائل ليفتحها.

---

(1) The hansom cab: عربة ذات عجلتين.

استدار عند فتح الباب، لكنّ وجهه بدت عليه خيبة الأمل...

- آه، (واطسون)، هذا أنت. كنت آملُ أن أرى الآنسة (فورسايث). لقد تأخرت...

- يا إلهي، يا (هولمز)! إذا كان هؤلاء الأوغاد قد أساؤوا إلى السيدة الشابة، أقسم إنهم سيضطرّون إلى التعامل معي!

- الأوغاد؟

- أقصد السيد (تشارلز هندون)، رغم أنه يحزنني أن أقول مثل هذا الكلام عن امرأة، والسيدة (مايو) أيضاً.

ارتخت خطوط وجهه القاسية والمتلهّفة قائلاً:

- (واطسون) الطيّب ذاته! دائماً ما تسرع لإنقاذ الجمال الذي في محنة، والمزيج الجميل الذي تصنعه من هذا في بعض الأحيان.

أجبته بوقار:

- إذاً، من المؤكّد لي أنّ مهمتك في القارة كانت ناجحة؟

- قليلاً، يا (واطسون)! أرجوك سامحني على فورة أعصابي هذه. لا، لم تكن مهمتي ناجحة. بدا لي أنّني قد تلقيتُ استدعاءً مباشراً إلى مدينة أوروبية معيّنة ستستنتج اسمها بسهولة. ذهبت إلى هناك، وعدتُ في ما أتخيّل أنه وقت قياسي.

- حسناً؟

- السيد (هندون)، يا (واطسون)، رجل خائف بشدة. ورغم ذلك، هو لا يفتقر إلى الفطنة. لم يكد يغادر (سويسرا)؛ إذ لا بد أنه قد تكهّن

أنّ الرسالة الكاذبة كانت شركاً للإمساك به، لكنّني فقدته. أين هو الآن؟ وكنْ جيداً بما يكفي في توضيح سبب وجوب تسميته بالوغد.

- ربّما قلتها وأنا في حالة غضب مؤقّت، ورغم ذلك لا يسعني إلا كره هذا الرجل.

- لماذا؟

- لو كان المرء ذا منزلة رفيعة لا ريبَ فيها، فمن الجائز أن يكون هناك بعض الرقيّ في السلوك، لكنّه ينحني كثيراً! ويصنع الفضائح في الأماكن العامة. إنّه يؤثر على العادة القاريّة المتمثلة في مخاطبة سيدة إنجليزية بصفتها «سيدة»، بدلاً من «سيدة» أصيلة. (هولمز)، كلّ شيء يبدو «غير إنجليزي» بشكل محيّر!

تأمّلني صديقي بطريقة غريبة، وكأنّه قد فوجئ، وكان على وشك أن يردّ عندما سمعنا قعقعة عربةٍ ذات أربع عجلات، وهي تقف خارج بابنا الذي يؤدي إلى الشارع.

بعد أقلّ من دقيقة، كانت (سيليا فورسايث) في الغرفة، تبعها رجلٌ صغير قاسي الملامح، متصلّب الوجه، يرتدي قبعة مستديرة من اللباد ذات حافة متجعّدة، من سوالفه الرفيعة عند الصدغين والعريضة تحت الفكّين، استنتجت أنّه (تريبلي)، الخادم.

كان وجه الآنسة (فورسايث) متوهجاً بسبب البرد. كانت ترتدي سترة قصيرة من الفرو، وتحمل موفةً[1] أنيقة للسيدات تستخدم للحفاظ على دفء اليدين.

---

(1) الموفة (Muff): أسطوانة من الفرو أو القماش السميك مفتوحة الطرفين، تُدخل فيها الأيدي للحفاظ عليها دافئة في الطقس البارد.

قالت فجأة ومن دون مقدّمات:

- سيد (هولمز). (تشارلز) في إنجلترا!

- هذا ما كنت قد افترضته بالفعل. وأين هو؟

- في (غروكستون لو هول). كان يجب أن أرسل برقيّة أمس، لولا أن السيدة (مايو) قد منعتني من القيام بذلك.

قال (هولمز) وهو يضرب بقبضته على المنضدة:

- يا لي من أحمق! لقد تحدّثت عن عزلتها على ما أعتقد (واطسون)! هلّا تكرّمت وأحضرتَ خريطة مكبّرة لـ(سُري)... شكراً لك...

أصبح صوته أكثر قسوةً....

- ما هذا، ما هذا؟

قلت معترضاً:

- يا صديقي العزيز، هل يمكنك قراءة حقيقة النذالة في خريطة؟

- منطقة ريفية مفتوحة يا (واطسون)! حقول... غابات... أقرب محطة سكة حديد على بعد ثلاثة أميال من (غروكستون لو هول)!

تأوّه (هولمز)...

- آنسة (فورسايث)، آنسة (فورسايث). لديك الكثير من الأشياء التي تتحمّلين مسؤوليتها!

تراجعت الشابة خطوةً وهي مندهشة!

صرخت قائلة:

- لديّ الكثير من الأشياء لأتحمّل مسؤوليتها؟ هل يمكنك أن تصدّقني، يا سيدي، عندما أقول لك إن الكثير من الغموض المستمر قد أدّى إلى تعطيل فطنتي؟ لم ينطق (تشارلز) ولا السيدة (مايو) بكلمة واحدة لتوضيح ما يحدث!

أومأت برأسها نحو الخادم...

- أرسل (تشارلز) (تريبلي) إلى (لندن) برسالة، ليتمّ تسليمها باليد، وأنا غير مسموحٍ لي حتى بمعرفة محتوياتها.

قال الرجل الصغير الحجم، بفظاظة، ولكن باحترام:

- آسف يا آنسة. هذه هي الأوامر.

للمرة الأولى، لاحظتُ أنّ (تريبلي)، الذي كان يرتدي ملابسَ وكأنّه عريس أكثر من كونه خادماً، يتمسّك بغيرةٍ بالظرف الذي بين يديه، كما لو أنه كان يخشى أن ينتزعه شخصٌ ما منه. كانت عيناه الشاحبتان، المحاطتان بالسالفين، تتحركان ببطء في أنحاء الغرفة. تقدم (شيرلوك هولمز) نحوه، قائلاً:

- ستكون طيباً بما يكفي لتريني هذا الظرف، يا صديقي...

لقد لاحظت، في كثير من الأحيان، أن الشخص الغبي هو الأكثر ولاء. كانت عينا (تريبلي) تقريباً عيني رجلٍ متشدّد.

- أرجو المعذرة، يا سيدي، لكنّني لن أفعل. سأفعل ما أُمِرت به، مهما حدث!

- أقول لك يا رجل: هذا ليس وقت التردد. لا أرغب في قراءة الرسالة. أودّ فقط أن أرى العنوان الذي على مقدمة الظرف، والختمَ الذي على ظهره. بسرعة، الآن! قد يكلّف ذلك حياة سيّدك!

تردّد (تريبلي)، وبلّل شفتيه. بحذر شديد، وهو لا يزال يمسك أحد أطراف الظرف، قدّمه من دون أن يتخلّى عنه تماماً. صفّر (هولمز).

قال:

- انظر! إنّها موجَّهة إلى السير (تشارلز وارين) ذاته، مفوّض شرطة المدينة. والختم؟ آه! كما ظننت... أنت مطلوبٌ منك تسليم هذه الرسالة في الحال؟

- نعم يا سيد (هولمز).

- إذاً، غادر في الحال! لكن اترك العربة ذات العجلات الأربع؛ لأن الباقين هنا يحتاجون إليها الآن.

لم يتكلم إلى أن هبط (تريبلي) على السلالم، لكن الحماسة القديمة عادت إليه.

- والآن يا (واطسون)، يمكنك اللحاق بالترام في «برادشو»... هل أنت مسلّح؟

- معي عصاي.

- هذه المرة، أخشى أنها لن تكون كافية...

ثمّ فتح الدرج الأيسر لطاولة المكتب...

- هلّا تكرّمتَ ووضعتَ هذا في جيب معطفك الطويل والثقيل. هذا مسدّس من نوع «ويبلي 320»، مع خراطيش من نوع «إيلي رقم 2».

لمعت ماسورة المسدس، فأطلقت (سيليا فورسايث) صرخةً، ووضعت إحدى يديها على رف الموقد لتمنع نفسها من السقوط...

- سيد (هولمز)!

هكذا بدأت كلامها، ثم بدت وكأنها قد غيّرت رأيها...

- هناك قطاراتٌ تذهب باستمرار إلى محطّة «غروكستون»، التي، كما قلتَ، تبعد ثلاثة أميال عن القصر. في الواقع، هناك قطار سيصل خلال عشرين دقيقة.

- ممتاز!

- لكن يجب ألا نركبه.

- يجب ألا نركبه يا سيدتي؟

- لم يكن لديّ وقت لأخبرك، لكن السيدة (مايو) نفسها تناشدك الآن أن تساعدها، بعد ظهر هذا اليوم فقط، أقنعتها... تطلب السيدة (مايو) أن نستقل قطار الساعة 10:25، وهو القطار الأخير، وستلتقي بنا في محطة «غروكستون» مع العربة...

عضّت الآنسة (فورسايث) شفتها...

- السيّدة (مايو)، على الرغم من لطفها، مستبدّة. يجب ألا يفوتنا ذلك القطار الأخير!

ورغم ذلك كدنا نفوّته. بعد أن نسينا الشوارع المليئة بالطين المتجمّد، وسُقاط المركبات تحت المصابيح القوسية الزرقاء، التي تصدر صوت فرقعة، وصلنا إلى «واترلو» بالضبط في الوقت المحدد.

حالياً، مع ظهور القطار في منطقة مفتوحة، اكتسبت المقصورة ذات الإضاءة الخافتة طابعاً من الغرابة بدرجة أكبر مع كلّ نقرة للعجلات. جلس (هولمز) بصمت، منحنياً قليلاً إلى الأمام. كان بإمكاني أن أرى صورة وجهه الجانبية، التي تشبه صورة الصقر، تحت الغطاء الأمامي والخلفي، واضحةَ المعالم تحت الإشعاع البارد للقمر المكتمل. كانت الساعة تقارب الحادية عشرة والنصف عندما نزلنا في محطة تقع على جانب الطريق، كانت في قرية قد أصبحت خالية من الأضواء ونائمة منذ وقت طويل.

لم يتحرّك أيّ شيء هناك. لم ينبح أي كلب... بالقرب من المحطة كانت هناك عربةٌ مفتوحة ذات أربع عجلات، تجرّها الخيل، من دون أن يصدر صوت طقطقة لجام من الخيول. جلس سائق العربة منتصباً. كان بلا حراكٍ مثلَ السيدة العجوز القصيرة التي كانت جالسة في الجزء الخلفي من العربة، وهي تراقبنا من دون إظهار أيّ مشاعر ونحن نقترب.

بدأت الآنسة (فورسايث) الكلامَ بلهفةٍ، لكن السيدة المسنة، التي كانت ترتدي فراءً رمادياً، وكانت لديها قدرة كبيرة على التنبؤ، رفعت يدها لتمنعها.

- السيد (شيرلوك هولمز)؟

قالتها بصوت موسيقي وعميق بشكل فريد...

- وهذا السيد الآخر، على ما أفهم، هو الدكتور (واطسون). أنا السيدة (مايو).

قامت بتفحّصنا لحظةً بزوجٍ من العيون الحادة والفريدة من نوعها، ثم تابعت:

- رجاءً ادخلوا إلى العربة. سوف تجدون عدداً لا بأس فيه من حِرام العربة[1]، على الرغم من أنني آسفة لضرورة تقديم وسيلة نقل مفتوحة في ليلة شديدة البرودة كهذه، لكن ولع سائقي بالقيادة السريعة...

وأشارت إلى السائق، الذي رفع كتفيه، وانحنى إلى الأمام...

- قد تسبّب في كسر محور العربة المغلقة. إلى القصر، (بيلينغز)! أسرع!

صدر صوت وقع السوط، مع التأرجح المضطرب للعجلات الخلفية. انطلقت عربتنا بسرعة على طول طريق ضيّق يحدّه سياج من الشجيرات الشائكة وأشجار بلا أوراق.

قالت السيدة (مايو):

- لكنني لم أمانع -يا للعجب- يا سيد (هولمز)! أنا امرأة عجوز جداً. كانت أيام شبابي أيام القيادة السريعة، والعيش السريع أيضاً.

سأل صديقي:

(1) الحِرام: قطعة من الصوف كانت تُستخدم لتغطية سيقان راكبي العربات، وتُستخدم لشخصين فقط.

- هل كانت أيضاً أيام موتٍ سريع؟ ميتة كهذه، مثلاً، قد تُدرك صديقنا الشاب الليلة؟

رنت ضربات الحوافر على الطريق الجليدي...

قالت بهدوء:

- أعتقد، يا سيد (شيرلوك هولمز)، أنني أنا وأنت يفهم أحدُنا الآخر.

- مؤكَّدٌ لديّ ذلك، يا سيدة (مايو)، لكنّك لم تجيبي عن سؤالي.

- لا تخف يا سيد (هولمز)؛ إنه بأمان الآن...

- هل هذا مؤكَّد لك؟

- أقول لك، إنّه آمنٌ تماماً! الحديقة التي في (غروكستون لو هول) تمرّ فيها الدوريات، والمنزل محروس. لا يمكنهم مهاجمته.

لا أستطيع أن أعرف، حتى يومنا هذا، ما إذا كانت فورة غضبي ناتجة عن ضربة سريعة من العربة، أو الرياح التي تضرب بقوّة في آذاننا، أو الطبيعة التي تُثير الجنون للمشكلة نفسها.

صرخت قائلاً:

- اعذر فظاظةَ ناشط عجوز لا يملك أيّ إجابة لأيّ شيء. لكن على الأقل أشفق على السيدة الشابة المسكينة التي بجانبك! من هو السيد (تشارلز هندون)؟ ولماذا يحطم الساعات؟ ولأي سبب حياته في خطر؟

قال (هولمز) بشيء من الحدّة:

- تسك[1]، يا (واطسون). أنت نفسك أذهلتني من خلال تعداد النقاط التي يكون فيها السيد (تشارلز هندون)، كما وصفته، غير إنجليزي بشكل محيّر.

- حسناً؟ ولماذا يساعدنا ذلك؟

- لأن من يسمى «تشارلز هندون» بالتأكيد ليس إنجليزياً...

قالت (سيليا فورسايث) وهي تمد يدها:

- ليس إنجليزياً؟ لكنّه يتحدث الإنجليزية بإتقان!

توقف النفس في حلقها. همست قائلة:

- بإتقان زائد!

صرختُ:

- هذا الشاب ليس ذا مكانة مرموقة إذاً؟

- بالعكس، يا صديقي العزيز. فطنتك لا تخيب أبداً؛ إنه يتمتع بمكانة مرموقة بالفعل. والآن اذكر لي اسم البلاط الإمبراطوري الوحيد في أوروبا - أجل يا (واطسون)، بلاط إمبراطوري! استُبدِل فيه الكلام باللغة الإنجليزية بلغته الأصلية.

- لا أستطيع التفكير... لا أعرف...

- إذاً، حاول أن تتذكر ما تعرفه بالفعل. قبل وقت قصير من زيارة الآنسة (فورسايث) الأولى لنا، قرأت بصوتٍ عالٍ بعض الموضوعات من

(1) TSK: صوت يدل على الانزعاج.

الصحف اليومية التي بدت، في ذلك الوقت، غير مهمّة بشكل مضجر. ذكر أحد الموضوعات أن العدميين[1]، تلك المجموعة الخطيرة من الفوضويين الذين سحقوا الإمبراطورية الروسية إلى العدم، كانوا مشتبهين في أنّهم يتآمرون ضدّ حياة الدوق الأكبر (أليكسي) في (أوديسا)... الدوق الأكبر (أليكسي)، كما ترى. الآن اللقب المحبب الذي اختارته السيدة (مايو) للسيد (تشارلز هندون) كان...

صرختُ أنا:

- (أليك)!

قال (هولمز) وهو يهزّ كتفيه:

- ربما كانت هذه هي المصادفة الأكثر بساطة. ورغم ذلك، عندما نفكر في التاريخ الحديث، إننا نتذكر أنه في محاولة سابقة لاغتيال قيصر عموم روسيا الراحل، الذي تم تفجيره إلى أشلاء في العام 81، بانفجار قنبلة ديناميت، اختفى صوت تكتكة القنبلة تحت صوت عزف البيانو.

قنابل الديناميت، يا (واطسون)، من نوعين؛ أحدهما مغلّف بالحديد وخفيف إلى حدٍّ ما، يمكن إشعاله بفتيل قصير ورميه، والآخر هو أيضاً من الحديد، يتمّ تفجيره بواسطة آلية ساعيّة يكشف صوت دقّاتها العالي وحدَه عن وجودها.

سُمع صوت وقع سوط السائق، وبدا السياج وكأنه يكرّ كما لو أنه في

---

(1) العدميون من العدمية (Nihilism): من يؤمنون بأن الحياة لا معنى لها، ويرفضون كل المبادئ الدينية والأخلاقية.

حلم. جلست أنا و(هولمز) وظهرنا موجّه إلى السائق، ووجهاً لوجهي السيدة (مايو) و(سيليا فورسايث) اللذين يبيّضهما القمر.

- (هولمز). كلّ هذا أصبح واضحاً كالشمس! لهذا السبب لا يستطيع الشاب تحمل رؤية الساعات!

- لا يا (واطسون). لا! بل صوت الساعة!

- الصوت؟

- بالضبط، عندما حاولت إخبارك بهذا القدر من المعلومات، قاطعتني قلّةُ الصبر المتأصّلة فيك عند أول حرف. في الحالتين عندما حطّم ساعة على الملأ، ضع في اعتبارك أنه، في كلتا الحالتين، لم يكن بإمكانه رؤية الساعة بالفعل. في إحدى الحالتين، كما أخبرتنا الآنسة (فورسايث)، كانت مخفيّة خلف ستار من النباتات الخضراء؛ وفي الأخرى كانت وراء ستارة... عندما سمع فقط صوت تلك الدقات العالية، ضرب قبل أن يتاح له الوقت للتفكير. كان هدفه، بطبيعة الحال، تحطيم الآلية الساعيّة، وأن يُبطل ما كان يُعتقد أنه قنبلة.

اعترضتُ قائلاً:

- لكنَّ المؤكّد أنَّ تلك الضربات بالعصا كان من الممكن أن تشعل القنبلة وتفجّرها؟

مرة أخرى هزّ (هولمز) كتفيه.

- لو أنها كانت قنبلة حقيقية. من يمكن أن يعرف؟ ورغم ذلك، على غلاف حديدي، أعتقد أن الأمر مشكوك فيه. في كلتا الحالتين، نحن نتعامل مع سيّد شجاع للغاية، مُعذّب ومُطارد، وهو يهرع ويضرب بشكل

أعمى. ليس من غير الطبيعي أن ذكرى وفاة والده، ومعرفة أن المنظمة نفسها كانت تبحث عنه، تجعلانه يجنح إلى التصرّف بتسرّع.

- وبعدها؟

رغم ذلك، ظل (شيرلوك هولمز) مضطرباً. لاحظت أنه قد نظر أكثر من مرة إلى الامتداد الوحيد للريف الرمادي الممتد في تموّجات طفيفة.

قال:

- حسناً، بعد أن حدّدت هذا القدر في مقابلتي الأولى مع الآنسة (فورسايث)، بدا من الواضح أن الرسالة المزورة كانت طُعماً لجذب الدوق الأكبر إلى (أوديسا)، لحثه على التحلّي بالشجاعة لمواجهة هؤلاء الرجال الحقودين. لكن، كما أخبرتك، لا بد أنه قد شكّ في الأمر. لذلك سيذهب إلى أين؟

قلت:

- إلى إنجلترا، لا. بل أكثر من هذا إلى (غروكستون لو هول)، مع الحافز الإضافي الذي هو السيدة الشابة الجذابة، التي أحثّها على ترك البكاء وتجفيف دموعها...

بدا (هولمز) مغتاظاً...

أجاب:

- على الأقل يمكنني القول إن توازن الاحتمالات يكمن في هذا الاتجاه. بالتأكيد كان واضحاً من البداية أن أحداً في منزلة السيدة

(مايو) لن يدخل أبداً بشكل عرضي في محادثة في عربة قطار مع شاب ما لم يكونا، بحسب عبارة الآنسة (فورسايث) غير المقصودة لكن الموضحة في الوقت نفسه، «أصدقاءَ قدامى»...

- لقد استخفّيت بقدراتك يا سيد (شيرلوك هولمز)...

قالتها السيدة (مايو)، التي كانت تربت على يد (سيليا). قالتها بقسوة.

- نعم. كنت أعرف (أليكسي) عندما كان طفلاً صغيراً يرتدي بدلة بحار في «سانت بطرسبرغ».

- حيث كان زوجك، كما اكتشفتُ، السكرتيرَ الأول في السفارة البريطانية. في أوديسا اكتشفتُ حقيقةً أخرى ذات أهمية كبيرة.

- هاه؟ وما هي؟

- اسم العميل الرئيس للعدميين؛ شخصية جريئة، ومجنونة، ومتشدّدة، كان قريباً جداً من الدوق الأكبر بعضَ الوقت.

- مستحيل!

- لكنه صحيح.

للحظة، جلست السيدة (مايو) وهي تنظر إليه؛ تعابير وجهها كانت بعيدة جداً عن انعدام المشاعر، بينما اصطدمت عجلات العربة بشقٍّ في الطريق، وانحرفت.

- أصغِ إليَّ، يا سيد (هولمز). لقد كتب عزيزي (أليك) بالفعل إلى الشرطة، إلى السير (تشارلز وارين)، المفوض.

- شكراً لك؛ لقد رأيت الرسالة. لقد رأيت أيضاً الشعار الإمبراطوري الروسي على الختم.

وتابعت هي:

- في هذه الأثناء، أكرّر أن الحديقة محروسة بدوريات، والمنزل محروس...

- رغم ذلك، قد يفلت الثعلب من الكلاب.

- إنها ليست مسألة حراس فقط! في هذه اللحظة، يا سيد (هولمز)، يجلس المسكين (أليك) في غرفة قديمة ذات جدران سميكة، وبابها مغلق بقفلين من الداخل. النوافذ محمية بقضبان من الحديد متقاربة بشكل وثيق، إلى درجة أنه لا أحد يستطيع أن يمدّ يده إلى الداخل. بناء الموقد المؤدي إلى المدخنة قديم ومغطى، ولكن بفتحة ضيقة للغاية؛ حيث لا يمكن لأي شخص النزول فيها وهناك حريق يشتعل فيها. كيف يمكن للعدو أن يهاجمه؟

تمتم (هولمز). عضّ شفته ونقر بأصابعه على ركبته:

- كيف؟ صحيح أنه قد يكون بأمان لليلة واحدة، كونه...

أومأت السيدة (مايو) بإيماءة انتصار خفيفة، وقالت:

- لم يتم إهمال أيّ احتياطات. حتى السطح محميّ. خادم (أليك)، (تريبلي)، بعد تسليم الرسالة في لندن بسرعة جديرة بالثناء، عاد بقطار يسبق قطارك، واستعار حصاناً في القرية. في هذه اللحظة هو على سطح القصر يحرس سيده بإخلاص.

كان تأثير هذا الكلام غير عادي. قفز (شيرلوك هولمز) واقفاً في العربة، وارتفع رداؤه في صورة ظليّة سوداء غريبة، وهو يمسك بحاجز العربة ليحافظ على توازنه.

ردد:

- على السطح؟ على السطح؟

ثم استدار وأمسك بكتفي السائق، وصرخ:

- اجلد الخيول! حباً في الله، اجلد الخيول! ليس لدينا ثانية لنضيّعها!

كراك! كراك! هكذا كان صوت وقع السوط على آذان الحصان الذي في المقدمة. الخيول، وهي تصهل، قررت أن تعدو، واندفعت مسرعة. في حالة الارتباك هذه، وقد اندفعنا جميعاً معاً، ارتفع صوت السيدة (مايو) الغاضب.

- سيد (هولمز)، هل فقدت عقلك؟

- سترين ما إذا كنت قد فعلت! آنسة (فورسايث)، هل سمعت في الواقع الدوق الأكبر يخاطب رجله باسم (تريبلي)؟

تلعثمت (سيليا فورسايث)، وقد أيقظتها الصدمة:

- أنا... لا! كما أخبرتك، (تشار... أوه، فلتساعدني السماء! — كان الدوق الأكبر يناديه (تريب). لقد افترضت...

- بالضبط! لقد افترضتِ، لكن اسمه الحقيقي هو (تريبوف). من وصفك الأول عرفت أنه كاذب وخائن.

كانت شجيرات السياج تمر بسرعةٍ خاطفةٍ بجانبنا؛ جلجلت الشكيمة واللجام، وطرنا مع الرياح.

تابع (هولمز):

- لعلك تذكرين النفاق البارع لذلك الرجل عندما حطم سيده الساعة الأولى؟ لقد كانت نظرة فظيعة من الإحراج والعار، أليس كذلك؟ كان سيجعلك تعتقدين أن السيد (تشارلز هندون) مجنون. كيف لك أن تعرفي أمرَ الساعات الخمس الأخرى، التي كانت خيالية بحتة؟ لأن (تريبوف) أخبرك عنها. إن إخفاء ساعة أو قنبلة حية في الخزانة كان سيكون ضرباً من الجنون بحقّ، إذا كان الدوق الأكبر (أليكسي) في الواقع قد فعل ذلك أصلاً!

قلت محتجاً:

- لكن يا (هولمز)، لمّا كان (تريبوف) هو خادمه الشخصي...

- أسرع أيها السائق! أسرع! نعم يا (واطسون)!

- لابد أنه قد سنحت لـ(تريبوف) مئة فرصة لقتل سيده بالتأكيد، بالسكين أو ربما بالسم، من دون هذه الإضافة المذهلة للقنبلة؟

- هذه الإضافة المذهلة، كما تسميها أنت، هي ما يميز عمل الثوار. لن يتصرفوا من دونها. يجب أن يتم تفجير ضحيتهم في حادث انفجاري مدمر، وإلا فقد لا يلاحظهم العالم أو يلاحظ قوتهم.

صرخت السيدة (مايو) قائلة:

- لكن الرسالة التي بعث إلى السير (تشارلز وارين)؟

- لا شك في أنه تم إلقاؤها في أقرب مصرف مجاري في الشارع... ها! أعتقد أنه يجب أن يكون ذلك (غروكستون لو هول) أمامنا مباشرة.

الأحداث اللاحقة في تلك الليلة مشوشة نوعاً ما في ذهني. أتذكر منزلاً طويلاً ومنخفض البناء، من الطراز اليعقوبي[1]، مبنيّاً من الطوب الأحمر الناعم، وذا نوافذ ذات أعمدة في وسطها، وسطح مستوٍ، بدا وكأنه يندفع إلينا على طريق من الحصى. طارت حِزامات العربة وهي مفتوحة على مداها. أصدرت السيدة (مايو)، وهي ثائرة تماماً، تعليمات حادة لمجموعة من الخدم المتوترين.

بعدها كنت أنا و(هولمز) نسرع خلف الآنسة (فورسايث) صاعدين سلسلةً من السلالم، من درج عريض مصنوع من خشب البلوط، ومغطى بالسجاد في القصر، إلى مجموعة من الدرجات الضيقة، التي كانت تقريباً مثل سلّم يقود إلى السطح. أسفلها، توقّف (هولمز) لحظةً ليضع أصابعه على ذراع الآنسة (فورسايث).

قال بهدوء:

- أنت ستبقين هنا...

صدر صوت نقرة معدنية، وهو يضع يده في جيبه، وللمرة الأولى علمت أن (هولمز) كان مسلحاً أيضاً.

قال:

- تعال يا (واطسون)...

---

(1) طراز يعقوبي: طراز بناء يُنسب إلى الملك جيمس الأول ملك إنجلترا. «جيمس هو النطق الإنجليزي لاسم يعقوب».

تبعته على الدرجات الضيقة، بينما كان يرفع برفق الباب الأفقي المؤدي إلى السطح.

همس قائلاً:

- لا تُصدر أيّ صوت، أياً كان! أطلق النار إذا رأيته.

- ولكن كيف لنا أن نجده؟

هبّ الهواء البارد مرةً أخرى على وجهينا... تسلّلنا بحذرٍ إلى الأمام عبر السطح المسطّح... كانت تحيط بنا المداخن؛ مداخن رفيعة وطويلة تبدو كالأطياف، ومجموعات من الأواني القصيرة والعريضة والمسودّة من الدخان تحيط بقبة كبيرة رصاصية كانت تتلألأ مثل الفضة تحت القمر.

في الطرف البعيد، حيث قمة السطح التي هي جملون[1] قديم كان يرتفع تحت السماء، بدا أنّ هناك هيئة قاتمة وكأنها تجلس جلوس القرفصاء فوق مدخنة واحدة يغمرها ضوء القمر.

اشتعل عود ثقاب مصنوع من الكبريت بلهب أزرق اللون، ثمّ احترق بتوهج أصفر مثل خشب الأرز، وبعدها بلحظة، صدر صوت هسهسة فتيلٍ مشتعلٍ تبعه صوت فعقعة في المدخنة. ركض (هولمز) إلى الأمام، وهو يستدير وينعطف، عبر متاهة من المداخن والحواجز، نحو الهيئة المحدودبة، التي بدأت الآن تتسلّق مبتعدة بسرعة.

---

(1) الجزء الأعلى من السطح المثلث المصنوع من القرميد.

- أطلق النار يا (واطسون)! أطلق النار!

صدح صوت مسدسينا معاً. رأيت وجه (تريبوف) الشاحب يلتفت بسرعة نحونا، بعدها، وفي اللحظة نفسها، ارتفعت المدخنة بأكملها في الهواء في عمود غير منقطع من نار بيضاء. ارتفع السقف تحت قدميّ، وكنت أعي، بضعفٍ، أنني تدحرجت على طول الممرات، بينما كانت شظايا وقطع الطوب المكسور تتطاير فوق رأسي، أو ترن عندما تصطدم بالقمّة المعدنية للقبة.

نهض (هولمز) واقفاً بشكل غير مستقر. قال وهو يلهث:

- هل تأذيت يا (واطسون)؟

أجبته:

- صعوبة طفيفة في التنفّس فقط، لكن كان من حسن الحظ أننا ارتمينا على وجهينا. وإلا...

أشرت نحو المداخن الممزقة والمتأثرة بالانفجار الرابضة حولنا.

كنا قد تقدمنا بضع ياردات فقط عبر سحابات الغبار الرملي عندما صادفنا الرجل الذي كنا نبحث عنه.

- عليه الآن أن يمثل أمام محكمة أكبر.

قالها هولمز وهو ينظر إلى الشيء المروّع الممدّد على الممرّات.

- طلقاتنا جعلته يتردّد تلك الثانية القاتلة، فتلقّى الانفجار الكامل للقنبلة في المدخنة.

أبعد صديقي نظره، ثم أضاف:

- تعال.

كان صوته مريراً من عتاب النفس.

- لقد كنا بطيئين للغاية في إنقاذ عميلنا، وقد فات الأوان للانتقام لأجله من خلال آلية العدالة الإنسانية.

فجأة تغيرت تعابير وجهه وأمسك ذراعي، ثم صرخ قائلاً:

- يا إلهي، (واطسون)! لقد أنقذت حياتنا مدخنة واحدة! ما الكلمة التي استخدمتها تلك المرأة؟ مغطّى! كان ذلك هو: مغطّى! بسرعة؛ ليس هناك لحظة لنضيعها!

أسرعنا عبر الباب الأفقي، ونزلنا السلالم إلى المهبط الرئيس. في الطرف البعيد، من خلال ضباب من الدخان الكريه الرائحة، تمكنّا من تبيّن أنقاض باب متكسّر. بعد لحظة اندفعنا إلى غرفة نوم الدوق الأكبر. تأوّه (هولمز) بصوتٍ عالٍ أمام المشهد الذي قابل أعيننا.

ما كان يوماً ما مدفأة فخمة انفغر الآن ليصبح حفرة كبيرة ممزّقة الحواف تحت بقايا غطاء حجري ثقيل. كانت النيران المنبعثة من الموقد قد اندفعت إلى الغرفة، وكان الهواء كريه الرائحة بسبب الرائحة البشعة للسجادة التي كانت تحترق ببطء، ويتصاعد منها الدخان تحت مسحوق الرماد الأحمر الساخن. اندفع (هولمز) إلى الأمام عبر الدخان، وبعدها بلحظة رأيته ينحني خلف حطام البيانو.

صرخ قائلاً:

- بسرعة يا (واطسون)! لا تزال هناك حياة فيه! هذا هو الوقت الذي لا يمكنني فيه فعل أيّ شيء، ويمكنك أنت أن تفعل كلّ شيء.

لكن الحالة كانت خطرة. طوال الفترة المتبقية من تلك الليلة، كان الدوق الشاب بين الحياة والموت في غرفة النوم القديمة المكسوّة جدرانها بالألواح الخشبية التي حملناه إليها. ورغم ذلك، عندما أشرقت الشمس فوق الأشجار في الحديقة، لاحظت بارتياح أنّ الغيبوبة الناجمة عن الصدمة كانت تتحوّل بالفعل إلى نوم طبيعي.

قلت:

- جروحه سطحية، لكن الصدمة وحدها كان يمكن أن تكون قاتلة. والآن بعد أن أصبح نائماً، سيعيش، وليس لديّ أدنى شكّ في أن وجود الآنسة (سيليا فورسايث) سيسرّع من تعافيه.

- في حال قمت بتسجيل وقائع هذه القضيّة الصغيرة.

قالها (هولمز) بعد بضع دقائق، بينما كنا نتجول عبر العشب المليء بالندى في حديقة الغزلان، الذي كان يتلألأ ويلمع في جمال الفجر المنعش.

- عندها عليك أن تتحلى بالأمانة عندما تنسب الفضل إلى مستحقّه.

- ولكن ألا يُنسب هذا الفضل إليك؟

- لا يا (واطسون). إنّ نجاح النتيجة يعود بالكامل إلى حقيقة أنّ أسلافنا قد فهموا فنّ البناء. لقد أنقذت قوة غطاء الموقد، البالغ من العمر مئتي عام، رأس ذلك الشاب من أن ينفجر فوق كتفيه. إنه لمن حسن حظ الدوق الأكبر (أليكسي) من روسيا، وسمعة السيد (شيرلوك

هولمز) من شارع بيكر، أنّه في أيام الملك (جيمس) الطيب، لم يهمل صاحب المنزل أبداً التفكير في ميول جاره العنيفة.

من وقت إلى آخر، كنت أسمع بعض الروايات الغامضة عن أفعاله؛ عن استدعائه إلى أوديسا في قضية مقتل (تريبوف).

من «فضيحة في بوهيميا».

2

مغامرة صياد الذهب

- سيّد (هولمز). لقد كان هذا موتاً بعقاب الرب!

لقد سمعنا العديد من العبارات الاستثنائية في مسكننا في شارع بيكر، لكن القليل منها كان أكثر إثارة للهلع من هذا التلفّظ الذي نطق به القس السيد (جيمس أبلي).

لستُ بحاجة إلى الرجوع إلى دفتر ملاحظاتي لأتذكر أنه كان يوماً صيفياً جميلاً في العام 1887. وصلت برقيّة عندما كنّا نتناول الإفطار؛ ألقى بها السيد (شيرلوك هولمز) نحوي، مع شكوى من نفاد صبره. قالت البرقية فقط إن القس (جيمس أبلي) طلب التفضّل بانتظاره في ذلك الصباح، للتشاور معه في مسألة تخص الكنيسة.

- حقاً يا (واطسون).

قالها (هولمز) بشيءٍ من الحدّة، وهو يشعل غليونه الذي يدخّنه عادة بعد الإفطار.

– لقد وصلت الأمور بالفعل إلى مسار رائع عندما يطلب رجال الدين نصيحتي في ما يتعلق بطول خطبهم، أو إدارة مهرجان الحصاد. أشعر بالإطراء ولكن هذا يفوق طاقتي. ماذا يقول «كروكفورد»[1] عن هذا العميل الغريب؟

في محاولةٍ لاستباق أساليب صديقي، قمت بالفعل بالبحث في دليل رجال الدين هذا. لم أجد سوى أنّ الرجل المعنيّ كان قساً لأبرشيّة صغيرة في (سومرست)، وقد كتب دراسة عن الطب البيزنطي.

علّق (هولمز):

– عمل غير عادي لرجل دين في الريف. ولكن ها هو، ما لم أكن مخطئاً، الرجل نفسه.

عندما قال ذلك، ارتفع من الأسفل صوت دويّ جلجلة مهتاجة لجرس الباب، وقبل أن تعلن السيدة (هدسون) عن وصوله، اقتحم زائرنا الغرفة. كان رجلاً طويل القامة، نحيفاً، ذا أكتاف عالية، يرتدي لباساً دينياً ريفياً، ووجهه، الذي يدلّ على أنه متعلّم، كان مؤطّراً بشعيرات جانبية مهملة من النوع الذي كان يُعرف سابقاً باسم «سوالف داندري»[2].

صرخ وهو ينظر إلينا، وقد بدا عليه أنّه مصاب بقصر نظر، من وراء نظارات بيضاوية:

---

(1) (Crockford's Clerical Directory): هو الدليل الرسمي لرجال الدين والكنائس الأنجليكانية في المملكة المتحدة وأيرلندا.

(2) Dundreary Weepers: نسبة إلى اللورد (داندري).

- يا سادتي الأعزاء، رجاءً اقبلوا تأكيدي أنّ ضغط الأحداث فقط هو الذي دفعني إلى التعدّي على خصوصيتكم.

قال (شيرلوك هولمز) بهدوء، وهو يشير له إلى كرسي من الخيزران أمام المدفأة الفارغة:

- هيّا، تفضّل، أنا محقق استشاري، ومن ثَمَّ إن خصوصيتي ليست أكثر أهمية من خصوصية طبيب.

كرّر (شيرلوك هولمز)

- موتاً بعقاب الرب.

لم يكد رجل الدين يجلس حتى نطق فجأة الكلمات غير العادية التي بدأتُ بها هذه الرواية.

على الرغم من أن صوته كان خافتاً، بدا لي أنّ الكلمات كانت مليئة بالإثارة والتشوّق.

- إذاً، بالتأكيد، يا سيدي العزيز، الأمر يقع ضمن اختصاصك، وليس اختصاصي؟

قال القس على عجل:

- أرجو منك المعذرة. ربما كانت كلماتي مفرطةً في التشديد، وحتى غير متسمة بالاحترام، لكنك ستفهم أنّ هذا الحدث الرهيب، هذا ...

انخفض صوته تقريباً إلى مستوى الهمس، وهو يميل إلى الأمام، وهو جالس على كرسيه.

- سيد (هولمز)، إنّه لإجرامٌ؛ إجرام بدم بارد، ومتعمّد!

- صدقني يا سيدي، أنا كلي آذان صاغية.

- كان السيد (جون تريلاوني)- أو (سكواير تريلاوني)[1] كما كنّا نسمّيه- أغنى مالك لأميالٍ من الأراضي في المنطقة. قبل أربع ليالٍ؛ أي قبل ثلاثة أشهر فقط من عيد ميلاده السبعين، مات في سريره.

- هممم! هذا ليس غير مألوف.

صرخ القس وهو يرفع إصبعه السبابة الطويل الملطخ بطريقة غريبة على طرفه:

- لا يا سيدي، لكن اسمعني! كان (جون تريلاوني) رجلاً يتمتع بصحّة جيّدة، ولم يكن يعاني من أيّ مرض عضوي. كان يصلح لأن يعيش مدة اثني عشر عاماً أخرى على الأقل في هذا الميدان الدنيوي. الدكتور (بول غريفين)، طبيبنا المحلي، وابن أختي، رفض رفضاً قاطعاً إصدار شهادة وفاة. كان هناك عمل مروّع للغاية يسمى فحص ما بعد الوفاة للجثة.

كان (هولمز)، الذي لم يكن قد خلع ثوبه الذي بلون الفئران بعد، مسنداً ظهره في كرسيه ذي الذراعين بفتور، والآنَ فتح عينيه نصف فتحة.

قال:

- فحص بعد الوفاة! يقوم به ابن أختك؟

تردّد السيد (أبلي).

---

(1) سكواير: الإقطاعي أو مالك الأرض.

- لا يا سيد (هولمز). قام به السير (ليوبولد هاربر)، صاحب السلطة الحية الرئيسة لدينا في علم القانون الطبي. يمكنني أن أخبرك، هنا والآن، أنّ (تريلاوني) المسكين لم يمت ميتةً طبيعية. لم يتم استدعاء الشرطة فحسب، بل سكوتلاند يارد أيضاً تمّ استدعاؤهم.

- آه!

تابع السيد (أبلي) بانفعال:

- من ناحية أخرى، لم يُقتل (تريلاوني)، ولم يكن من الممكن أن يكون قد قُتل. لقد تم استخدام أعظم مهارة طبية لإعلان أنه لا يمكن أن يموت من أيّ سبب على الإطلاق.

ساد الصمت لحظةً في غرفة الجلوس؛ حيث تمّ سحب الستائر إلى نصف المسافة أمام شمس الصيف.

قال (هولمز) بشكل ودّي:

- عزيزي (واطسون)، هل ستكون طيباً بما يكفي لتحضر لي غليوناً فخارياً من الرف الذي فوق الأريكة؟ شكراً لك. وجدت، يا سيد (أبلي)، أنّ الفخّار أكثر ما يفضي إلى التأمل. انظر، أين دلو الفحم؟ هل لي أن أجرؤ على أن أقدّم لك سيجاراً؟

- Cras ingens iterabimus aequor[1]

قالها القس، وهو يمرّر أصابعه المرقطة بشكل غريب على سوالفه الجانبية.

---

(1) باللاتينية: غداً سنمود إلى البحر العظيم.

- حاليّاً، أشكرك، لا. لا أستطيع التدخين. لا أجرؤ على التدخين! إنه سيخنقني. أدرك أنّ عليّ أن أخبرك بالحقائق بالتفصيل الدقيق. لكنّ هذا صعب. ربما تكون قد لاحظت أنني أُعتبر شارد الذهن نوعاً ما؟

- بالفعل.

- نعم يا سيدي. في شبابي، قبل استدعائي إلى الكنيسة، كنت أرغب، ذات مرة، في دراسة الطب، لكن والدي الراحل منعني من ذلك بسبب هذا الشرود الذهني. قال والدي لو كنت سأصبح طبيباً، فعلى الفور سأقوم بتخدير المريض بالكلوروفورم وإزالة حصيّات المرارة، رغم أنّه قد يكون جاء للاستفسار فحسب عن سعال خفيف.

قال (هولمز) بشيء من نفاد الصبر:

- حسناً، حسناً. لكنّ عقلك كان مضطرباً هذا الصباح.

قالها وهو يتأمّل عميلنا بنظرة ثاقبة.

- هذا -لا شك- هو سبب رجوعك إلى العديد من الكتب في غرفة مكتبك قبل ركوب القطار المتّجه إلى لندن هذا الصباح؟

- نعم يا سيدي. كانت أعمالاً طبية.

- ألا تجد أنَّ من غير الملائم أن تكون رفوف الكتب في غرفة مكتبك مركّبة على ارتفاع عالٍ جداً؟

- يا إلهي، لا. هل يمكن لأيّ غرفة أن تكون عالية جداً أو كبيرة جداً لكتب المرء؟

فجأة توقّف القس. أصبح وجهه الطويل، المحاط بسوالف داندري، أطول عندما انفتح فمه.

قال:

- الآن مؤكَّد لديّ، مؤكّد لدي تماماً أنني لم أذكر كتبي، ولا ارتفاع الرفوف في مكتبي! كيف أمكن لك أن تعرف هذه الأشياء؟

- تسك. هذا شيء تافه! كيف لي أن أعرف، على سبيل المثال، أنّك إمّا أعزب وإما أرمل، وأنّ لديك مدبّرة منزل مهملة للغاية؟

صرخت قائلاً:

- حقاً يا (هولمز)، هناك شخص آخر بالإضافة إلى السيد (أبلي)، يودّ أن يعرف كيف استنتجت هذا!

- الغبار يا (واطسون)! الغبار!

- أيّ غبار؟

- لطفاً، لاحظ إصبع السبابة في يد السيد (أبلي) اليمنى؛ ستلاحظ، على طرفه لطخات من ذلك الغبار الرمادي الداكن اللون الذي يتراكم على الكتب؛ اللطخات، التي تلاشت إلى حدٍّ ما، تكوّنت في وقت لا يتعدّى هذا الصباح. وكون السيد (أبلي) رجلاً طويلاً ذا ذراعين طويلتين، فمن الواضح أنّه قد تناول الكتب من رفٍّ عالٍ. عندما نضيف إلى هذا التراكم من الغبار قبعةً طويلة غير منظفة بالفرشاة، يتطلب الأمر قدراً ضئيلاً من الفطنة لمعرفة أنه ليس لديه زوجة، بل مدبرة منزل مريعة.

قلت:

- رائع!

قال:

- مغر... أعتذر لضيفنا لمقاطعة روايته.

تابع زائرنا:

- هذه الوفاة لم تكن مفهومة إلى درجة تتعدّى كل المقاييس! لكنك لم تسمع الأسوأ بعد. يجب أن أخبرك أن (تريلاوني) لديه قريبة واحدة على قيد الحياة: ابنة أخت تبلغ من العمر 21 عاماً؛ اسمها الآنسة (دولوريس ديل)؛ ابنة السيدة (كوبلي ديل) الراحلة، من (غلاستونبري). لعدة سنوات، اعتنت السيدة الشابة بالمنزل من أجل (تريلاوني) في منزله الأبيض الكبير، المسمّى «غودمانز ريست». كان من المفهوم دائماً أن (دولوريس)، المخطوبة لشاب طيب يدعى (جيفري أينسوورث)، سترث ثروة خالها. عندما أقول لك إنه لم تكن هناك شخصية أكثر عذوبة أو لطفاً من شخصيتها، وإن شعرها أكثر غمقاً من بحر هوميروس الداكن مثل لون النبيذ، وإنها، في بعض الأحيان، يمكن أن تكون كالنار في الهشيم توحي بالدم الجنوبي...

- نعم، نعم.

قالها (هولمز)، وأغمض عينيه.

- لكنك قلت إنني لم أسمع الأسوأ؟

- صحيح. ها هي الحقائق. قبل وفاته بفترة وجيزة، عدّل (تريلاوني) وصيّته، وحرم ابنة أخته من الميراث، وعدَّها الرجل العجوز الصارم طائشةً للغاية، وترك ثروته بالكامل لابن أختي، الدكتور (بول غريفين).

سيدي، كان هذا فضيحة الريف! بعد أسبوعين، مات (تريلاوني) في سريره، وأصبح ابن أختي التعيس الآن مشتبهاً فيه بارتكاب جريمة قتل.

قال (هولمز):

- رجاءً، كن دقيقاً في التفاصيل التي تعطيها.

تابع القس:

- أولاً، يجب أن أصف الراحل (سكواير تريلاوني) بأنّه رجلٌ من عادته أن يكون صارماً وعنيداً. يبدو أنني أراه دائماً، طويل القامة وضخم البنية، مع رأسه الضخم ولحيته الفضية الشيباء، على اللون البني لحقلٍ محروث، أو خط من الأشجار الخضراء الكثيفة.

- كلَّ مساء، في غرفة نومه، كان يقرأ فصلاً من الكتاب المقدس. وبعدها، كان يقوم بتعبئة ساعته، التي كانت تقريباً تنفد في تلك الساعة، ثمّ يذهب للنوم في الساعة[1] العاشرة بالضبط، ويستيقظ في الخامسة كلّ صباح.

قاطعه (هولمز):

- لحظة واحدة! هل سبق أن اختلفت عاداته هذه؟

- حسناً، في حال انغمس في الكتاب المقدس، قد يقرأ حتى وقت متأخر جداً، لكن نادراً ما حدث هذا يا سيد (هولمز)، إلى درجة أنني أعتقد أنّك قد تتجاهل هذا.

- شكراً لك. هذا واضح تماماً.

---

(1) المقصود، في الظاهر، أنّ ساعته كانت زنبركيّة.

- ثانياً، يؤسفني أن أقول إن علاقته بابنة أخته لم تكن أبداً في أفضل حال. لقد كان صارماً إلى درجة الوحشية. في إحدى المرات، قبل عامين، ضرب (دولوريس) المسكينة بمُشحِذة شفرات الحلاقة[1]، وحبسها في غرفتها، وجعلها تعيش على الخبز والماء؛ لأنها ذهبت إلى بريستول لمشاهدة عرض أوبرا جيلبرت وسوليفان الكوميدية (الصبر). لا يزال بإمكاني رؤيتها والدموع تنهمر على خديها المحمرّين. هذا سيجعلك تغفر الإسراف الذي في كلامها. قالت وهي تبكي: «شيطان عجوز. شيطان عجوز!».

قاطعه (هولمز):

- هل أفهم أنّ رفاهية السيدة الشابة المستقبلية تعتمد على وراثة هذه الأموال؟

- لا. أبداً. خطيبها، السيد (أينسوورث)، محامٍ شاب صاعد يشقّ طريقه بالفعل هذا العالم. كان (تريلاوني) نفسه مِن بين عملائه.

قال (هولمز):

- يبدو أنني لاحظت تخوّفاً معيناً عندما ذكرت ابن أختك. لمّا كان الدكتور (غريفين) سيرث هذه الثروة، فمن المفترض أنه كان على علاقة ودية مع (تريلاوني)؟

تحرّك القس في كرسيه بشكل غير مريح، وأجاب بشيء من التسرع:

- على أكثر علاقة وديّة ممكنة. في الواقع، في إحدى المرات أنقذ حياة مالك الأرض هذا. وفي الوقت نفسه، يجب أن أعترف بأنه كان

(1) حزام أو سير جلدي كان يُستخدم لشحذ شفرات الحلاقة في ذلك الوقت.

دائماً رجلاً شرساً وحاد الطبع. لقد وصل سلوكه المتطرّف إلى حدّ خلق تحيّز ضده في المنطقة أصبح قوياً الآن. إذا تمكنت الشرطة من إظهار الكيفية التي مات بها (تريلاوني)، فقد يكون ابن أختي قيد الاعتقال في هذه اللحظة.

توقف القس ونظر حوله. كان هناك طرقٌ قوي على الباب. بعد لحظة، بينما كان الباب ينفتح، لمحنا السيدة (هدسون) خلف رجل قصير نحيل وجهه ذو ملامح كملامح فأر، يرتدي بدلة عليها مربعات وبرنيطة[1]. عندما وقعت عيناه الزرقاوان القاسيتان على السيد (أبلي)، توقف مؤقتاً عند العتبة، وأطلق صوتاً يدلّ على أنه فوجئ.

قال (هولمز) بفتور:

- لديك موهبة معيّنة، يا (ليستريد)، في توقيت حضورك مع لمسة رائعة من الدراما.

قال المحقق، وهو يضع قبعته بجانب الغازوجين[2]:

- ومربكٌ للغاية بالنسبة إلى بعض الناس. حسناً، من وجود هذا السيد المحترم، أفهم أنك على اطلاع بجريمة القتل الانتهازية الصغيرة هذه في (سومرست). الحقائق واضحة جداً، وكلها تشير إلى طريق واحد واضحٍ مثل اللافتات الإرشادية. أليس كذلك يا سيد (هولمز)؟

قال (هولمز):

---

(1) الأرصوصة، قبعة مستديرة من اللباد، تسمى أيضاً قبعة الرامي.

(2) غازوجين: جهاز كان يستخدم وقتها لإنتاج المياه المكربنة.

- لسوء الحظ، يمكن بسهولة تحريك اللافتات إلى الاتجاه المعاكس. من الحقائق البديهية، التي قدمتها لكم، واحدة أو اثنتان من الشروحات الصغيرة في الماضي، يا (ليستريد).

احمرّ وجه رجل سكوتلانديارد بغضب.

- حسناً، حسناً، يا سيد (هولمز). قد يكون الأمر هكذا وقد لا يكون، لكن ليس هناك شك هذه المرة. الدافع والفرصة كلاهما موجود. نحن نعرف الرجل، تبقى فقط معرفة الطريقة.

قاطعهما رجل الدين بشكل مشتّت للانتباه:

- أقول لكم إن ابن أختي التعيس...!

- أنا لم أذكر أيّ أسماء.

- لكنّك جعلت هذا جليّاً منذ اللحظة التي سمعت فيها أنه طبيب (تريلاوني)! لا يمكن إنكار أنه سيستفيد بناءً على تلك الوصية البائسة.

قال (ليستريد) بتجهّم:

- لقد نسيت ذكر سمعته الشخصية، يا سيد (أبلي).

- شرس، نعم، ورومانسي، وحاد الطبع إن أردت! لكن أن يكون قاتلاً بدم بارد... مستحيل! أنا أعرفه منذ أن كان في مهده.

- حسناً، سنرى. سيد (هولمز)، سأقدر سماحك لي بالتحدّث معك.

خلال تبادل الحديث هذا بين عميلنا التعيس و(ليستريد)، كان (هولمز) يحدّق في السقف بتلك النظرة الحالمة البعيدة على وجهه،

التي كنت ألحظها فقط في تلك الأحيان التي يهمس فيها عقله بأنّ هناك طرفَ خيطٍ لدليلٍ ما كان قد أصبح حاضراً لكي يتمّ تسليمه، لكنّه كان مدفوناً حتى الآن في متاهة من الحقائق الواضحة والشكوك التي لا تقلّ وضوحاً. نهض فجأة، والتفت إلى القس.

- أفهم أنك ستعود إلى (سومرست) بعد ظهر اليوم؟

- بحلول الساعة 2:30 من (بادينغتون).

كان هناك مسحة من تغيّر اللون في وجهه وهو يقفز واقفاً.

- هل أفهم، إذاً، يا عزيزي السيد (هولمز) ...؟

- دكتور (واطسون) وأنا سنرافقك. هلّا تفضلت وطلبت من السيدة (هدسون) أن تستدعي عربة أجرة يا سيد (أبلي)؟

نزل عميلنا على السلالم مصدراً صوت قعقعة.

قال (هولمز):

- هذه قضية غريبة نوعاً ما.

قالها وهو يملأ حقيبة السفر بتبغ قوي من الخفّ الفارسي.

قلت:

- أنا سعيد لأنك أخيراً فهمتها هكذا، يا صديقي العزيز، لأنّه قد بدا لي أنّك كنت غير صبور بعض الشيء منذ البداية مع القس الفاضل، وخاصة عندما انحرف في حديثه إلى طموحاته الطبية السابقة، واحتمالية أن يقوم، وهو شارد الذهن، بإزالة حصيّات المرارة لدى مريض ما.

كان تأثير هذه الملاحظة العارضة غير عادي. بعد أن حدّق بثبات في الفراغ، قفز (هولمز) واقفاً. صاح قائلاً:

- يا إلهي! يا إلهي!

كان هناك لمسة من تغيّر اللون في عظام وجنتيه المرتفعتين، وذلك اللمعان المفاجئ في عينيه الذي أعرفه منذ زمن طويل.

واصل كلامه بحرارة:

- كالعادة يا (واطسون)، كانت مساعدتك لا تُقدَّر بثمن، على الرغم من أنّك لست منيراً، إلا أنك موصِلٌ إلى الضوء.

- هل ساعدتك؟ بذكر حصيّات القس؟

- بالضبط.

- حقاً يا (هولمز)!

- في الوقت الحالي، يجب أن أجد اسمَ عائلة معيناً. نعم، لا شك في أنني يجب أن أجد اسم عائلة معيناً. هلّا أعطيتني الكناشة[1] التي تحت الحرف «ب»؟

أعطيته المجلّد الضخم، وهو واحد من كثير من المجلدات التي قام فيها بلصق قصاصات من الصحف لأيّ حوادث لفتت انتباهه، قبل أن يُتاح لي الوقت للتفكير.

- لكن، (هولمز)، لا يوجد أحد في هذه القضية يبدأ اسم عائلته بالحرف «ب»!

(1) الكناشة: الكتاب يستخدم كدفتر لحفظ المعلومات.

- هذا صحيح. كنت أعلم هذا. ب-أ، با-ر، (بارتليت)! هممم! ها! الفهرس الرائع نفسه.

بعد قراءة قصيرة، وهو يقلّب الصفحات بتلهّف، أغلق الكتاب مصدِراً صوتاً عالياً، وجلس ينقر على غلافه بأصابعه الطويلة المتوترة. وخلفه كانت الأنابيب وأكواب المختبر الزجاجية والمعوجات[1] على الطاولة الكيميائية تتلألأ تحت ضوء الشمس.

وأضاف بتأمّل:

- لم تكن لديّ كلّ البيانات بطبيعة الحال. حتى الآن هي غير مكتملة.

لفت انتباهي (ليستريد)، وغمز لي. قال مع ابتسامة:

- إنها كاملة بما يكفي بالنسبة إليّ! لا يمكنهم خداعي. ذلك الطبيب ذو اللحية الحمراء هو شيطان قاتل. نحن نعرف الرجل، ونعرف الدافع.

- إذاً، لماذا أنت هنا؟

- لأن هناك شيئاً واحداً ينقصنا. نحن نعلم أنه هو من فعلها، هذا صحيح بما فيه الكفاية! لكن كيف فعلها؟

سأل (ليستريد) السؤال نفسه ما لا يقلّ عن اثنتي عشرة مرة خلال رحلتنا، حتى بدا وكأنه ينبض ويتردّد في رأسي مع كلّ نقرة لعجلات القطار.

لقد كان يوماً طويلاً وحاراً، وكان التوهّج اللاحق لغروب الشمس على قمم تلال (سومرست شاير) المستديرة بنعومة، عندما نزلنا

---

(1) المعوجة: أداة زجاجية تُستخدم للتقطير.

أخيراً في المحطة الصغيرة التي على جانب الطريق. على سفح التل، خلف قمم أسطح البيوت المثلثة نصف الخشبية في القرية، رابضاً وسط أشجار الدردار البارزة من هناك، حتى من على تلك المسافة، حمل هواء المساء الصافي نعيق الغربان الزاجلة. برز هناك بوضوح منزل أبيض كبير.

قال (ليستريد) بمرارة:

- أمامنا ميل واحد.

قال (هولمز):

- أفضّل عدم الذهاب إلى المنزل في البداية. هل تؤدي هذه القرية إلى نزل؟

- هناك نزل «كامبرويل آرمز».

- إذاً، دعونا نذهب إلى هناك. أفضّل أن أبدأ على أرض محايدة.

صرخ (ليستريد):

- حقاً يا (هولمز)! لا يمكنني أن أتخيل...

علّق (هولمز):

- بالضبط.

ولم ينطق كلمة أخرى إلى أن أصبحنا جميعاً مستقرّين في ردهة ذلك النزل القديم المنعزلة. كتب (هولمز) بضعة أسطر في دفتر ملاحظاته، ومزق ورقتين.

والآن، يا سيد (أبلي)، هل يمكنني أن أرسل السائس الذي يعمل لديك بهذه الرسالة إلى «غودمانز ريست»، والأخرى إلى السيد (أينسوورث)؟

- هذا مؤكّد.

- ممتاز. إذاً، لدينا وقت لتدخين الغليون قبل أن تنضم إلينا الآنسة (دولوريس) وخطيبها.

جلسنا في صمت بعضَ الوقت. كلٌّ واحد منّا مشغول بأفكاره. بالنسبة إلي، كانت لديّ ثقةٌ كبيرة في صديقي لقبول ما هو واضح بلا شك، طالما أنّه بدا حائراً في تفكيره.

أخيراً قال (ليستريد) بصرامة:

- حسناً، يا سيد (هولمز). لقد كنت غامضاً بما يكفي لإرضاء الدكتور (واطسون) هنا. دعنا نسمع نظريتك.

- ليس لدي أيّ نظرية. أنا فقط أقول الحقائق التي لدي.

- حقائقك تغاضت عن المجرم.

- هذا يبقى غير معروف بعد. بالمناسبة، أيّها القس، ما طبيعة العلاقة بين الآنسة (دولوريس) وابن أختك؟

أجاب السيد (أبلي):

- من الغريب أن تذكر هذا. كانت علاقتهما مصدر ألم بالنسبة إليّ قبل فترة من الزمن. لكن حتى أكون عادلاً يجب أن أضيف أنّ الخطأ يقع على عاتق السيدة الشابة. من دون سبب، تسيء إليه بلا مبرر. والأسوأ من كل ذلك أنها تظهر كرهها علناً.

- آها والسيد (أينسوورث)؟

- (أينسوورث) شاب طيب للغاية إلى درجة أنه لا يستهجن سلوك خطيبته تجاه ابن أختي. إنّه يَعدُّ هذا تقريباً إهانة شخصية.

- بالفعل. جديرٌ بالثناء، لكن ها هم زوّارنا، ما لم أكن مخطئاً.

انفتح الباب القديم مصدراً صوت صرير، ودخلت الغرفة فتاة طويلة ورشيقة. تحوّلت عيناها القاتمتان، اللتان كانتا تتوهجان بتألّق غير طبيعي، من الواحد منا إلى الآخر، بنظرة باحثة طويلة كان فيها انعكاس للعداء، وشيء أكثر من اليأس. تبعها شاب نحيل ذو شعر فاتح اللون، وذو بشرة نضرة، وزوج من العيون الزرقاء الثاقبة والصافية بشكل فريد. حيّا (أبلي) بكلمة ودودة.

صرخت الشابة قائلة:

- من منكم السيد (شيرلوك هولمز)؟ آه، نعم. أتخيل أنك قد كشفت عن أدلة جديدة؟

- لقد جئت لأسمع هذا يا آنسة (ديل). بالفعل، لقد سمعتُ كلّ شيء باستثناء ما حدث بالفعل في الليلة التي —مات فيها خالك.

- أنت تشدّد على كلمة «مات» يا سيد (هولمز).

- لكن بئساً لكلّ شيء، يا عزيزتي، ماذا يمكن له أن يقول غير ذلك؟

سألها هذا الشاب (أينسوورث)، مع محاولة للضحك.

- من المحتمل أن يكون لديك الكثير من الهراء الخرافي في رأسك؛ لأنّ العاصفة الرعدية ليلة الثلاثاء قد أزعجت خالك، لكنّها انتهت قبل وفاته.

- وكيف عرفت ذلك؟

- قال الدكتور (غريفين) إنّه لم يمت حتى الساعة الثالثة صباحاً تقريباً. على أيّ حال، كان بخير في الساعات الأولى!

- تبدو متأكداً جداً.

نظر الشاب إلى (هولمز) بحَيْرة واضحة.

- من المؤكد أنا كذلك. كما يمكن للسيد (ليستريد) أن يخبرك، كنت موجوداً في تلك الغرفة ثلاث مرات أثناء الليل. طلب منّي مالكُ الأرضِ الذهابَ إلى هناك.

- إذاً، كونا طيّبين بما يكفي للسماح لي بالحصول على الحقائق من البداية. ربّما يا آنسة (ديل)...؟

- حسناً، يا سيد (هولمز). ليلةَ الثلاثاء، طلب خالي من خطيبي ومن الدكتور (غريفين) تناول العشاء معنا في «غودمانز ريست». منذ البداية، كان متضايقاً. ظننتُ أنّ السبب هو دمدمة الرعد الآتية من بعيد. كان يكره العواصفَ ويخشاها، لكنني الآن أتساءل عما إذا كان عدم ارتياحه يكمن في عقله أو في ضميره. أياً كان سبب ذلك، أصبحت أعصابنا متوترة أكثر فأكثر مع مرور المساء، ولم يحسّن حسّ الدعابة، الذي لدى الدكتور (غريفين)، الأمور عندما ضرب البرق شجرة في الغابة. قال: «يجب أن أعود بالعربة إلى المنزل الليلة، وآمل أن لا يحدث لي شيء في هذه العاصفة». الدكتور (غريفين) لا يُطاق بالتأكيد!

ضحك (جيفري): «حسناً، أنا سعيد لأنني سأبقى. نحن محميّون بدرجة كافية مع موصلات البرق الجيدة دائماً».

قفز عمّي من كرسيه، وصرخ قائلاً:

- أيّها الأحمق الشاب! ألا تعلم أنّه لا يوجد أيٌّ منها فوق هذا المنزل؟ ووقف عمي في مكانه وهو يرتجف مثل رجل مذعور.

قاطعها (أينسوورث) بسذاجة:

- لم أستطع تخيّل ما قلتُه. بعدها، عندما تحدث بإسهاب عن كوابيسه...

قال (هولمز):

- كوابيس؟

- نعم. لقد صرخ قائلاً إنه كان يعاني من الكوابيس، وإن هذه ليست ليلة مناسبة لكي يكون أيّ أحد بمفرده.

واصلت الآنسة (ديل):

- لقد أصبح أكثر هدوءاً، عندما عرض (جيفري) أن يتفقّده مرةً أو مرتين أثناء الليل. كان هذا حقاً مثيراً للشفقة. دخل خطيبي - متى كان ذلك يا (جيفري)؟

- مرةً في العاشرة والنصف، ومرةً عند منتصف الليل، وأخيراً في الواحدة صباحاً.

سأل (شيرلوك هولمز):

- هل تحدثت معه؟

- لا، لقد كان نائماً.

- إذاً، كيف لك أن تعرف أنه كان على قيد الحياة؟

- حسناً، مثل الكثير من كبار السن، أبقى مالك الأرض ضوءاً ليلياً؛ كان نوعاً من ضوء شمعة من اللبّ مغموسة في الدهن المتوهج باللون الأزرق في وعاء على المدفأة. لم أستطع رؤية الكثير، لكنّني سمعت أنفاسه القويّة مع صوت هبوب العاصفة.

قالت الآنسة (ديل):

- كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة من صباح اليوم التالي بقليل، عندما ... لا يمكنني الاستمرار!

انفجرت.

- لا أستطيع!

قال (أينسوورث)، الذي كان ينظر إليها بثبات:

- رويداً يا عزيزتي. سيد (هولمز)، لقد كان هذا ضغطاً كبيراً على خطيبتي.

اقترح القس قائلاً:

- ربما يُسمح لي بالإكمال. كان الفجر قد بزغ للتو عندما أيقظني الضرب الشديد على باب مسكن القس. لقد تم إرسال صبي من الإسطبلات على عجل من «غودمانز ريست» بأخبار مروّعة. يبدو أنّ الخادم كانت تحمل شاي الصباح إلى مالك الأرض كالمعتاد. عند إزاحة الستائر، صرخت في رعب عند رؤية سيدها ميتاً في السرير. ارتديت ملابسي في عجل، وهرعت إلى «غودمانز ريست». عندما

دخلت غرفة النوم، متبوعاً بـ (دولوريس) و(جيفري)، كان الدكتور (غريفين)، الذي تم استدعاؤه أولاً، قد أنهى فحصه.

قال الطبيب: «إنّه ميت منذ نحو ساعتين، لكن مهما فعلت فلا أستطيع أن أفهم كيف مات».

- انتقلت إلى الجانب الآخر من السرير، وجهّزت نفسي للصلاة، عندما وقع نظري على ساعة (تريلاوني) الذهبية، التي تلمع تحت شعاع من ضوء شمس الصباح. كانت الساعة من النوع الذي تتمّ تعبئته عن طريق تدوير مقبض على الجذع، من دون مفتاح. كانت على منضدة صغيرة مغطّاة بالرخام، وسط مجموعة مبعثرة من زجاجات الأدوية المسجّلة وزجاجات المراهم، التي كانت تنبعث منها رائحة قوية في الغرفة المسدودة بلا تهوية.

- لقد قيل لنا إنه في أوقات الأزمات سوف تشغل عقولنا نفسها بالأشياء التافهة. هذا صحيح، وإلا فلن أتمكّن من تفسير سلوكي.

- ظننتُ أن الساعة لم تكن تتكتك، رفعتها إلى أذني، لكنها كانت تتكتك. أدرتُ الجذعَ دورتين كاملتين حتى تمّ إيقافه من قبل الزنبرك؛ لكن، على أيّ حال، لم يكن يجب أن أستمرّ. تسبّب اللف في ضوضاء مزعجة، كر-ر-اك، جعلت (دولوريس) تطلق صرخة مخيفة. أتذكر كلماتها بالضبط.

- «أيّها القس! أنزلها! إنّها مثل: مثل خشخيشة موت».

جلسنا في صمت للحظة. أدارت الآنسة (ديل) رأسها بعيداً.

قال (أينسوورث) بجدية:

- سيد (هولمز)، هذه الجروح حديثة جداً. هل لي أن أتوسل إليك أن تعفي الآنسة (ديل) من أيّ أسئلة أخرى الليلة؟

نهض (هولمز) واقفاً.

قال:

- المخاوفُ أشياءٌ لا أساس لها من الصحة من دون دليل، يا آنسة (ديل).

أخرج ساعته، ونظر إليها بتمعن.

علّق (ليستريد):

- الوقت ينفد، أليس كذلك يا سيد (هولمز).

- لم يخطر هذا في بالي، لكنك على حق. والآن، إلى «غودمانز ريست».

قادتنا رحلة قصيرة في عربة القس إلى زوج من البوابات تنفتحان على طريق ضيّق. كان القمر قد أشرق وامتدّ على الطريق الطويل اللامع أمامنا، وكله مرقّط ومضلع بظلال أشجار الدردار الضخمة. بينما كنا ننحرف عند المنعطف الأخير، كانت المخاريط الذهبية للضوء الساقط من مصابيح العربة تضيء بشكل خافت على واجهة قصر هزيل وقبيح. كانت جميع مصاريع النوافذ المطلية باللون الباهت مغلقةً على الأطر، وكان الباب الأمامي مغطّى بقماش رقيق أسود.

قال (ليستريد) بصوت خافت، وهو يسحب مقبض الجرس:

- إنّه لمنزلٌ كئيب بالفعل. مرحباً! كيف هذا! ماذا تفعل هنا يا دكتور (غريفين)؟

كان الباب قد انفتح، وكان واقفاً في المدخل رجلٌ طويل ذو لحية حمراء، يرتدي سترة نورفولك فضفاضة، وبنطالاً من نوع «نيكربروكر»[1]. بينما كان يحدق فينا بحدّة من أحدنا إلى الآخر. لاحظت اليدين المشدودتين والصدر الذي يتحرّك بقوة ما دلّ على بعض التوتر الداخلي المخيف.

صرخ قائلاً:

- هل يجب أن أحصل على إذن منك لأمشي مسافة ميل يا سيد (ليستريد)؟ ألا يكفي أن شكوكك الملعونة قد أثارت الريف كلّه ضدي؟

اندفعت يده الضخمة، وأمسكت كتف صديقي.

قال بحماسة:

- أنت (هولمز)! لقد تلقّيت رسالتك، وها أنا ذا. أرجو من الله أن ترقى إلى مستوى سمعتك. بناء على ما أرى، أنت فقط من يقف بيني وبين الجلاد. اهدئي الآن، يا لي من متوحّش! لقد أخفتها.

مع تأوّه خافت، دفنت الآنسة (ديل) وجهها في يديها.

قالت وهي تبكي:

- إنّه التوتر: إنه - إنه كلّ شيء! أوه، رعب لا يمكن تصوره!

لقد كنت منزعجاً جداً من (هولمز)؛ لأنه، بينما كنّا نجتمع حول الفتاة الباكية بكلمات مواساة، كان هو فقط يخبر (لستريد) أنّ جثة

---

(1) بنطال مطوي تحت الركبة مباشرة.

الرجل الميت من المفترض أن تكون في الداخل. بينما كان ظهره موجهاً إلينا، سار داخلاً إلى المنزل، وأخرج عدسة جيب، وهو يفعل ذلك.

بعد فترة زمنية لائقة، أسرعتُ خلفه، و(ليستريد) خلفي مباشرة. من خلال باب على يسار ممرٌ مظلم كبير، رأينا لمحة من غرفة مضاءة بالشموع مكدّسة بأزهار نصف ذابلة. وبهيئة (هولمز) الطويلة والنحيفة، وقد كان ينحني فوق هيئة مكسوّة بالأبيض في التابوت المفتوح، لمع ضوء الشموع على عدسته، وهو ينحني إلى الأسفل إلى أن أصبح وجهه على بعد بضع بوصات فقط من وجه الرجل الميت. كانت هناك فترة من السكون المطلق بينما كان يدقّق في الملامح الهادئة التي تحته. بعدها رفع الملاءة برفق، وأبعد نظره.

كنت سأتكلّم، لكنه سارع من أمامنا ليتجاوزنا بسرعة وبصمت، مع ما لا يزيد على إيماءة مقتضبة، باتجاه السلالم. في المهبط العلوي، قاد (ليستريد) المسير إلى غرفة نوم فيها أثاثٌ ضخم داكن اللون بدا كئيباً تحت ضوء مصباح مظلل كانَ يشتعل على طاولة بجانب كتاب مقدس كبير مفتوح. الكتم المغث لأزهار الجنازة، فضلاً عن رطوبة المنزل، تبعاني في كل مكان.

كان (هولمز)، الذي شدّ حواجبه ليكوّنا خطين أسودين مشدودين، يزحف على أطرافه الأربعة تحت النوافذ، ويفحص كلّ بوصة من الأرض بعدسته. عندما قلت شيئاً بشكل صارم لأحذّره، نهض ووقف.

– لا يا (واطسون)! هذه النوافذ لم تُفتح قبل ثلاث ليال. لو كانت مفتوحة أثناء عاصفة شديدة هكذا لكنت وجدت آثاراً بالتأكيد.

استنشق الهواء.

- لكن لم يكن من الضروري فتح النوافذ.

قلت:

- أنصت! ما هذه الضوضاء الغريبة؟

نظرت باتجاه السرير، بستائره ومظلته العالية الداكنة اللون.

عند رأس السرير، ثبت نظري على منضدة مغطاة بالرخام مليئة بزجاجات الأدوية المغبرة.

- (هولمز)، إنّها ساعة الرجل الميت الذهبية! إنها موضوعة على تلك الطاولة الصغيرة هناك، وهي لا تزال تتكتك.

- هل يدهشك هذا؟

- بالتأكيد، بعد ثلاثة أيام، أما كانوا سيسمحون لها بالتوقّف؟

- وهذا ما فعلوه، لكنني قمت بتعبئتها. صعدت إلى هنا قبل أن أفحص الرجل الميت في الطابق السفلي. في الواقع، قمت بهذه الرحلة بأكملها من القرية لكي أقوم بتعبئة ساعة مالك الأرض (تريلاوني) عند الساعة العاشرة بالضبط.

- يا إلهي، (هولمز)...!

تابع وهو يسرع إلى الطاولة الصغيرة المعنية:

- وانظر، يا له من كنز - لدينا دفينة هنا! انظر إلى هذا، (ليستريد)! انظر إليه!

- لكن، (هولمز)، إنه مجرد إناء صغير من الفازلين مثل الذي يمكنك شراؤه من أيّ متجر للأدوية والكيميائيات!

- على العكس من ذلك، هذا هو حبل المشنقة. ورغم ذلك...

انتهى وهو مستغرقٌ في التفكير.

- لا تزال هناك تلك النقطة التي لا تزال تحيّرني؛ كيف كان من الممكن لك استغلال السير (ليوبولد هاربر)؟

سأل هذا السؤال فجأةً، وهو يلتفت إلى (ليستريد).

- هل يعيش هنا؟

- لا، إنه يقيم مع بعض الأصدقاء في الحي. عندما تقرّر فحص الجثة، نظرت الشرطة المحلية إلى الأمر على أنه قليل من الحظ أن يكون الخبير الأكثر شهرة في إنجلترا في مجال القانون الطبي قريباً، لذلك أرسلوا في طلبه. وقد استمتعوا بجعله يقوم به.

أضاف ذلك مع ابتسامة خبيثة.

- لماذا؟

- لأنه كان في السرير مع زجاجة ماء ساخن، وكأس من مشروب ساخن، وأعراض زكام في رأسه.

قذف (هولمز) ذراعيه في الهواء، وصرخ:

- اكتملت قضيتي.

نظرنا أنا و(ليستريد) أحدنا إلى الآخر بذهول. قال (هولمز):

- لديّ تعليمة واحدة أخرى فقط لأعطيها. (ليسترید)، لا يجب أن يغادر أحدٌ هذا المنزل الليلة. سأترك لك لباقة احتجاز الجميع هنا. سنبقى أنا و(واطسون) في هذه الغرفة حتى الساعة الخامسة من صباح الغد.

كان من العبث، نظراً إلى طبيعته البارعة، أن نسأل لماذا يجب علينا القيام بذلك. بينما كان جالساً على الكرسي الهزاز الوحيد، كان من العبث الاحتجاج على أنني لم أستطع حتى الجلوس على سرير الرجل الميت، ناهيك عن أخذ غفوة قصيرة هناك. اعترضت بعض الوقت. لقد اعترضت إلى أن...

- (واطسون)!

أيقظني هذا الصوت من النوم، وهو يشقّ أحلامي. جلست منتصباً على اللحاف، وشعرت بأنني فوضوي المظهر، وشمس الصباح في عيني، وساعة الرجل الميت لا تزال تتكتك بالقرب من أذني.

وقف (شيرلوك هولمز)، بمظهره الهادئ المهندم المعتاد، وهو يراقبني.

قال:

- إنها الخامسة وعشر دقائق، وأنا شعرت بأنَّ من الأفضل أن أوقظك.

ثم تابع عندما كان هناك طرق على الباب:

- آه، (ليسترید)، مؤكّدٌ لديَّ أن الآخرين معك. رجاءً، تفضّلوا بالدخول.

قفزتُ من على السرير عندما دخلت الآنسة (ديل) الغرفة، وتبعها الدكتور (غريفين)، و(أينسوورث) الشاب، وبشكل أدهشني، القس.

صرخت (دولوريس ديل) وعيناها تلمعان من الغضب:

- حقاً يا سيد (هولمز). إنّه لشيء لا يُحتمل أن مجرّد نزوةٍ يجب أن تبقينا هنا طوال الليل - حتى السيد (أبلي) المسكين.

- لم تكن هذه نزوة، صدقيني. أريد أن أشرح كيف قُتل السيد (تريلاوني) بدمٍ بارد.

انفجر الدكتور (غريفين) قائلاً:

- قُتل، حقاً! إذاً، المفتش (ليستريد) يريد أن يسمعك. لكن الطريقة...؟

- كانت شيطانيّة في بساطتها. كان الدكتور (واطسون) هنا ذكياً بما يكفي للفت انتباهي إليها. لا، (واطسون)، لا تقل أيّ كلمة! أعطانا السيد (أبلي) الدليل عندما قال إنه في حال مارس الطب فقد يقوم، وهو شارد الذهن، بإزالة حصيات المرارة من مريض ما. ولكن لم يكن هذا كلّ ما قاله، فقد ذكر أنّه أولاً كان سيخدّر المريض بالكلوروفورم، وكانت الكلمة الموحية هي كلوروفورم.

- كلوروفورم!

قالها الدكتور (غريفين) مردّداً بعنف نوعاً ما.

- بالضبط. قد توحي بنفسها لقاتل ما، منذ العام الماضي فقط، في محاكمة جريمة قتل شهيرة في «أولد بايلي»، تمّت تبرئة السيدة

(اديلايد بارتليت) من تهمة تسميم زوجها عن طريق سكب الكلوروفورم السائل في حلقه وهو نائم.

- لكن، اللعنة! (تريلاوني) لم يبتلع أيّ كلوروفورم!

- من المؤكّد، لا. لكن لنفترض يا دكتور (غريفين)، أنّني أخذت بطانة كبيرة من القطن المشبع بالكلوروفورم، وضغطت بها على فم وفتحات أنف رجل عجوز؛ رجلٍ نومه ثقيل، نحو عشرين دقيقة. ما الذي قد يحدث؟

- سيموت. لكن لا يمكنك فعل ذلك من دون ترك أيّ آثار!

- آه، ممتاز! ما الآثار؟

- يميل الكلوروفورم إلى حرق الجلد، أو ترك تقرّحات عليه. ستكون هناك حروق، على الأقل حروق صغيرة جداً.

قذف (هولمز) ذراعه الطويلة باتجاه المنضدة المكسوّة بالرخام.

قال وهو يمسك بإناء الفازلين الصغير:

- والآن فلتفترض، يا دكتور (غريفين)، أنني قبلها قمت بهدوء بدهن طبقة رقيقة من مرهمٍ مثل هذا على وجه الضحية. هل سيكون هناك حروق بعدها؟

- لا، لن يكون هناك حروق!

- لقد استشفّيت أنّ معرفتك الطبية ستسبقني وتتوقّع ما يصدر عني. الكلوروفورم متطاير؛ إنّه يتبخر ويختفي سريعاً من الدم. قم

بتأخير فحص الجثة ما يقرب من يومين، كما تمّ تأخير هذا الفحص، ولن يبقى أيّ أثر.

- ليس بهذه السرعة يا سيد (شيرلوك هولمز)! هناك ال...

- هناك احتمال ضعيف، ضعيف للغاية، بأنّ رائحة الكلوروفورم قد يتمّ اكتشافها إمّا في الغرفة التي حصلت فيها الوفاة وإما عند تشريح الجثة. لكن هنا قد تكون مخفيّة بسبب الحدّة الشديدة لرائحة الأدوية والمراهم. عند فحص الجثة بعد الوفاة كان من الممكن أنّه قد أخفاها الزكام الشديد في الرأس الذي عانى منه السير (ليوبولد هاربر).

بدا وجه الدكتور (غريفين) أبيضَ بشكلٍ بارزٍ على لون لحيته الحمراء.

- يا إلهي، هذا صحيح!

- والآن، نسأل أنفسنا، كما قد يفعل القس: من المسؤول؟ من الذي سيستفيد من هذه الجريمة الخسيسة؟

لقد لاحظتُ أنّ (ليستريد) قد اقترب خطوةً من الطبيب.

زمجر (غريفين):

- انتبه، لعنك الله!

أنزل (هولمز) المرهم، وحمل ساعة الرجل الميت الذهبية الثقيلة، التي بدت وكأنّها تتكتك بصوت أعلى.

- أودّ أن ألفت انتباهكم إلى هذه الساعة من النوع المعروف باسم صيّاد الذهب. في الليلة الماضية، قمت بلفّها لتعبئتها بالكامل في الساعة العاشرة. إنها الآن، كما ترون، الخامسة والعشرون دقيقة.

صرخت الآنسة (ديل):

- وماذا يعني ذلك؟

- هذا بالضبط هو الوقت نفسه -إن كنت تذكرين- الذي قام فيه القسّ بتعبئة هذه الساعة نفسها في الصباح الذي وجدت فيه خالك ميتاً. على الرغم من أنّ الأداء قد يزعجك الآن، إلا أنّني أتوسل إليك أن تنصتي.

كر-ر-ر-اك هكذا كان الصوت الحاد الخشن الذي صدر عندما بدأ (هولمز)، ببطء، تعبئتها. بدا وكأنه يستمر، بينما كان جذع الساعة لا يزال يلتف.

قال الدكتور (غريفين):

- توقّف! هناك خطب ما!

- مرة أخرى ممتاز! وما الخطب؟

- اللعنة، لقد قام القسّ بلفّ ذلك الجذع دورتين كاملتين فقط، وأصبحت معبّأة بالكامل! لقد قمت بلفّها سبع أو ثماني دورات، لكنّها لم تُعبّأ بالكامل بعد!

أجاب (هولمز):

- بالضبط، هذا صحيح، لكنّي لا أؤكّد حدوث هذا لهذه الساعة بالذات. أيُّ ساعة إذا تمّت تعبئتها في الساعة العاشرة مساءً فلا يمكن أن تُلف بالكامل في صباح اليوم التالي بدورتين فقط.

همس الطبيب وهو يحدّق في (هولمز):

- يا إلهي!

- ومن ثَمَّ، إن السيد (تريلاوني) الراحل لم يذهب إلى الفراش في الساعة العاشرة. بالتأكيد، بالنظر إلى أعصابه المضطربة بشدّة، والعاصفة الرعدية المستمرّة، الأرجح أنّه جلس يقرأ كتابه المقدس حتى ساعة متأخرة جداً، كما قال القس إنّه يفعل ذلك أحياناً. ورغم أنّه قد عبّأ ساعته كالمعتاد، لم يذهب للنوم حتى الساعة الثالثة صباحاً. وجده القاتل وهو يغطّ في نومٍ ثقيل.

- وبالتالي؟

قالتها (دولوريس) وهي تصرخ تقريباً.

بالتالي، لمّا كان شخصاً واحداً أخبرنا بأنّه رأى (تريلاوني) نائماً في الساعة العاشرة والنصف، وعند منتصف الليل، ومرةً أخرى في الساعة الواحدة، فقد أخبرنا هذا الشخص كذبةً مُدينةً وقابلة للإثبات.

صرختُ:

- (هولمز)، أخيراً أصبحت أرى الاتجاه الذي يشير إليه كلّ هذا. الجاني هو...

قفز (جيفري أينسوورث) متجهاً نحو الباب.

صاح (ليستريد):

- آه، هلّا فعلت!

ألقى بنفسه على الشاب، وصدر صوت إغلاق الأصفاد.

ركضت الآنسة (دولوريس ديل) إلى الأمام وهي تبكي. لم تركض نحو (أينسوورث)، بل اندفعت إلى ذراعي الدكتور (بول غريفين) الممدودتين.

- كما ترى، يا (واطسون)...

اختتم السيد (شيرلوك هولمز) كلامه؛ حيث جلسنا في تلك الليلة مرة أخرى في شارع بيكر، ونحن ننعش أنفسنا بالويسكي والصودا...

- احتماليّة أن يكون المذنب هو (أينسوورث) الشاب، الذي كان يرغب في الزواج من السيدة الشابة بشكل محموم من أجل مالها، كانت ظاهرة على الأقل حتى من دون دليل الساعة.

اعترضت قائلاً:

- بالتأكيد لا!

- يا صديقي العزيز، فكّر في وصيّة (تريلاوني).

- إذاً، في النهاية، لم يقم (تريلاوني) بكتابة تلك الوصيّة غير العادلة؟

- لقد فعل ذلك بالفعل، وأعلن أن هذه كانت نيته، وقد نفذ تلك النية. ولكن لم يكن هناك سوى شخص واحد كان على علم بالنتيجة النهائية؛ أي أنه لم يوقعها بالفعل.

- هل تعني (تريلاوني) نفسه؟

- أعني (أينسوورث)، المحامي الذي صاغ الوصية. لقد اعترف بذلك في اعترافه.

انحنى (هولمز) إلى الخلف في كرسيه، وجعل أطراف أصابعه تتلامس معاً.

- يمكن الحصول على الكلوروفورم بسهولة، كما عرف الجمهور البريطاني من قضية (بارتليت). في مجتمع صغير كهذا، صديقٌ للعائلة، مثل (أينسوورث)، سيجد سهولةً في الوصول إلى الأعمال الطبية التي في مكتبة القس. لقد طور خطة ذكية نوعاً ما في أوقات فراغه. في تحليلي الصغير الليلة الماضية، كان من المفترض أن أكون أقل ثقة ما لم يكشف فحص وجه الرجل الميت بالعدسة الدليل المحكم المتمثل في حروق صغيرة جداً، وآثار للفازلين في مسام الجلد.

- لكن الآنسة (ديل) والدكتور (غريفين)! لقد حيّرك سلوكهما؟

- حسناً، النساء غريبات.

- يا عزيزي (واطسون). عندما أسمع عن امرأة شابة، ذات مزاج حادّ وحساسة للغاية، وتمّ الزجّ بها في صحبة رجلٍ له الخصائص نفسها تماماً- في تناقضٍ حادٍّ مع محام بارد الذهن ويراقبها بعناية- تثور شكوكي، خاصة عندما تعرب عن كراهيةٍ غير مبرّرة في جميع المناسبات العامة.

- إذاً، لماذا لم تفسخ خطوبتها ببساطة!

- إنك تتغاضى عن حقيقة أن خالها كان ينتقدها دائماً بسبب تقلّبها. لو أنها ألغت التزامها هذا، لكانت في نظرها قد فقدت كرامتها. ولكن لماذا بحقّ السماء يا (واطسون) أنت تضحك الآن؟

- مجرّد إحساس بالتناقض. كنت أفكّر في الاسم الفريد لتلك القرية في (سومرست).

قال (هولمز) مبتسماً:

- قرية (كامبرويل)؟ نعم، إنه يختلف بالفعل عن حي (كامبرويل) في لندن. يجب أن تعطي تسجيلنا لهذه الأحداث عنواناً مختلفاً يا (واطسون)، حتى لا يختلط على القراء المكان الحقيقي لقضية تسميم كامبرويل.

وفّرت لنا سنة 87 سلسلة طويلة من القضايا ذات الأهمية الأكبر أو الأقل، التي أحتفظ بسجلاتها. من بين عناويني تحت الاثني عشر شهراً هذه أجد... قضية تسميم كامبرويل.

من «بذور البرتقال الخمس»



3

مغامرة المقامرين الشمعيين

عندما لوى صديقي السيد (شيرلوك هولمز) كاحله، كانت السخرية تتبعها السخرية. خلال ساعات فقط، عُرضت عليه مشكلة بدت طبيعتها الفريدة كأنها تحتم زيارة تلك الغرفة المشؤومة التي تحت الأرض، والمعروفة جيداً لدى العامة.

وقع حادث صديقي بسبب سوء الحظ. كان ذلك من أجل المتعة فقط؛ وافق على مباراة ملاكمة مرتجلة مع (بولي بوي راشر)، محترف شهير متوسط الوزن، في نادي (كريب سبورتينغ) القديم في شارع (بانتون). مع اندهاش المتفرجين، هزم (هولمز) (بولي بوي) بالضربة القاضية قبل أن يتمكن الأخير من الانخراط في مباراة ملاكمة طويلة وقاسية.

بعد أن كسر واقي (راشر)، ونجا من يده اليمنى، كان صديقي يغادر صالة الملاكمة عندما تعثّر على تلك السلالم المتداعية السيّئة الإضاءة، التي من المؤكد لديّ أن السكرتير الفخري للنادي قد وجّه بإصلاحها منذ ذلك الحين.

وصلتني المعلومات عن هذا الحادث المؤسف عندما كنّا ننهي أنا وزوجتي وجبة منتصف النهار في موسم بارد من الأمطار والرياح التي تهبّ بصوتٍ عالٍ.

رغم أن دفتر ملاحظاتي لم يكن في متناول يدي، أعتقد أنه كان الأسبوع الأول من شهر مارس من العام 1890. أطلقت صرخة تعجب عندما قرأت البرقية التي أرسلتها السيدة (هدسون)، وسُلّمت الرسالة إلى زوجتي.

قالت:

- يجب أن تذهب في الحال، وأن تهتم براحة السيد (شيرلوك هولمز) يوماً أو يومين. (أنستروثر) سيؤدّي عملك دائماً نيابة عنك.

لمّا كان منزلي في ذلك الوقت في منطقة (بادينغتون)، لم يستغرق الوصول إلى شارع بيكر وقتاً طويلاً.

كان (هولمز)، كما توقعت، جالساً على الأريكة وظهره إلى الحائط. كان يرتدي رداءً أرجوانياً وكاحله الأيمن الملفوف بالضمادات كان على كومة من الوسائد. كان هناك مجهر منخفض الطاقة على طاولة صغيرة عند يده اليسرى، بينما على الأريكة التي على يمينه كان هناك تراكم كامل من الصحف الملقاة.

على الرغم من تعبيرات وجهه المرهقة، وعينيه اللتين كانتا مفتوحتين بصعوبة، ما حجب طبيعته المتحمسة والمتلهّفة، استطعت أن أرى أن تلك الحادثة المؤسفة لم تُلطّف من طبعه. نظراً إلى أن برقية السيدة (هدسون) لم تذكر سوى السقوط على بعض السلالم، طلبت توضيحاً، وتلقّيت ما استخدمته مقدمةً لهذا السرد.

وأضاف بمرارة:

- كنت فخوراً بنفسي يا (واطسون)، وغير منتبهٍ إلى خطواتي. يا لغبائي!

- لكن من المؤكّد أنّ درجة متواضعة من التفاخر كانت ستكون لائقة! (بولي بوي) ليس خصماً عادياً.

- بالعكس، لقد وجدته ذا تقدير مبالغ فيه ونصف مخمور، لكنني أرى، يا (واطسون)، أنّك نفسك منزعج بسبب صحتك.

- يا إلهي يا (هولمز)! صحيح أنني أشكّ في بداية إصابتي بنزلة برد، لكن، لمّا كانت لا توجد حتى الآن أيّ أعراض في مظهري أو صوتي، فمن المدهش أنه يمكنك معرفة ذلك!

- مدهش؟ إنه لشيء بسيط. لقد كنت تقيس نبضك. لقد انتقل أثر صغير جداً من نترات الفضة من على إصبعك السبابة الأيمن إلى بقعة معتبرةٍ على معصمك الأيسر. لكن ما الذي تفعله الآن بحق السماء؟

مهملاً احتجاجاته، فحصت كاحله، وأعدت تضميده.

واصلت كلامي، محاولاً رفع معنوياته بالطريقة نفسها التي قد أستخدمها لأبهج أيّ مريض:

- رغم ذلك، يا صديقي العزيز، من جهة، يسعدني جداً أن أراك مقعداً هكذا!

نظر إليّ (هولمز) بثبات، لكنه لم يتكلم.

قلت، وأنا أواصل محاولة رفع معنوياته:

- نعم، يجب أن نحدّ من قلّة صبرنا بينما نحن مقيدون بأريكتنا مدةَ أسبوعين أو ربما أكثر، لكن لا تسئ فهمي. عندما تشرفت بمقابلة أخيك في الصيف الماضي، (مايكروفت)، ذكرت أنت أنه يتفوّق عليك في الملاحظة والاستنتاج.

- لقد قلت الحقيقة. إذا بدأ فنّ الكشف، وانتهى في الاستدلال من كرسي بذراعين، فسيكون أخي أعظم عميل جنائي عاش على وجه الأرض.

- هذا اقتراح سأعطي نفسي حريّة التشكيك فيه. والآن انظرا ها أنت ذا مُجبر على أن تكون في وضعية الجلوس. سيسعدني أن أراك تُظهر تفوقك عندما تُعرض عليك قضية ما...

- قضية؟ ليس لديّ قضية!

- تشجّع. ستأتي قضية.

- عمود الشكاوى[1] في صحيفة التايمز...

قالها وهو يشير برأسه نحو الصحف المتراكمة...

- رتيب. حتى مباهج دراسة جرثومة مرض جديد ليست شيئاً لا ينضب. بينك وبين مواسٍ آخر، يا (واطسون)، أنا أفضل (جوبز) حقاً.

قاطعه لحظياً دخول السيدة (هدسون)، التي كانت تحمل رسالة تمّ تسليمها باليد. على الرغم من أنني لم أتوقع أن تتحقق نبوءتي بمثل

(1) يسمى أيضاً عمود بريد القراء؛ حيث تُعطى نصائح لمشاكل القراء الشخصية ممن يرسلونها إلى الصحيفة.

هذه السرعة فعلياً، لم يسعني إلا أن ألاحظ أنّ ورقة الرسالة كانت تحمل شارة، ولا بد من أن الحزمة الكاملة من هذا الورق كانت ستكلف نصف كراون[1]. ورغم ذلك، كنت محكوماً بخيبة أمل. بعد تمزيق الظرف وفتح الرسالة بشغف، أطلق (هولمز) صوت تذمر من الغيظ.

قال وهو يكتب رداً لصاحبة منزلنا لكي تعطيه لساعي المنطقة:

- يا لنفع تنبُّئك! إنّها مجرد رسالة مكتوبة بتهجئة غير صحيحة من السير (جيرفاس دارلينغتون)، يطلب فيها تحديد موعد في الساعة الحادية عشرة من صباح الغد، ويطلب تسليم تأكيد ذلك باليد إلى نادي «هرقل».

قلت:

- (دارلينغتون)! بالتأكيد ذكرتَ هذا الاسم من قبل؟

- نعم، لقد فعلت، لكن حينها كنت أقصد (دارلينغتون) تاجر الأعمال الفنية، الذي تسبب استبداله لوحةَ (ليوناردو) الحقيقية بلوحة مزيّفة في فضيحة في معارض «غروسفينور» الفنيّة. السير (جيرفاس) هو (دارلينغتون) مختلف وأعلى مكانة، وإن لم يكن أقل ارتباطاً بالفضائح.

- ومن يكون؟

- السير (جيرفاس دارلينغتون)، يا (واطسون)، هو البارون الجريء والسيئ للخيال، والمدمن على الملاكمة والسيدات الفاسقات،

---

(1) عملة قديمة تساوي 5 شلنات.

لكنّه ليس، بأي حال من الأحوال، شخصيةً مختالة من الخيال؛ فقد عاش الكثير من هؤلاء الرجال في زمن أجدادنا.

بدا صديقي مستغرقاً في التفكير.

- حالياً، كان من الأفضل له الانتباه إلى خطواته.

- أنت تثير اهتمامي. لماذا؟

- حسناً، أنا لست رجل سباقات. ورغم ذلك، أذكر أن السير (جيرفاس) قد ربح ثروة خلال مباراة الديربي العام الماضي. ووسوس أشخاص عدائيون بأنّه فعل ذلك عن طريق الرشوة والمعلومات السرية. كن طيباً، يا (واطسون)، وأبعد هذا المجهر.

فعلت ما طلب. بقيت على الطاولة الصغيرة فقط ورقة الرسالة ذات الشارة، التي رمى بها (هولمز) هناك. من جيب ردائه، أخرج علبة السعوط المصنوعة من الذهب القديم، مع حجر جمشت[1] كبير في وسط الغطاء، الذي كان هدية من ملك بوهيميا.

وأضاف:

- ورغم ذلك، تتم الآن مراقبة كلّ خطوة يقوم بها السير (جيرفاس دارلينغتون) بعناية. وإذا حاول التواصل مع أيّ شخص مشبوه، فسيتم إبعاده عن المضمار حتى لو لم ينتهِ الأمر به في السجن. أنا لا أستطيع تذكّر اسم الحصان الذي راهن عليه...

صرخت:

---

(1) Amethyst: نوع من الأحجار الكريمة.

- «سيدة البنغال» للورد (هوف)، من قبل راجا هندي من «كونتيسة». أنهت ثلاث فرلنغات[1] متقدّمة على بقية الخيول المشاركة في السباق.

وأضفت:

- مع أنني، بطبيعة الحال، أعرف القليل عن مسائل السباقات أكثر منك.

- حقاً يا (واطسون)؟

- (هولمز)، مثل هذه الشكوك التي يبدو أنك تستمتع بها هي دنيئة وتافهة! أنا رجل متزوج وذو رصيد مصرفي مستنزف. بالإضافة إلى ذلك، ما السباق الذي يمكن إقامته في مثل هذا الطقس العاصف؟

- حسناً، لا يمكن أن يكون «السباق الوطني الكبير» بعيداً جداً.

- يا إلهي، أجل! اللورد (هوف) لديه مشتركان في السباق الوطني الكبير. كثير من الناس معجبون بـ «فتى الرعد» (Thunder Lad)، على الرغم من أنه لا يُتوقع الكثير من «شيرنيس» (Sheerness)[2].

وأضفت:

- لكن بالنسبة إلي، الفضيحة المرتبطة برياضة الملوك لا تُصدّق. اللورد (هوف) رجل محترم.

- بالضبط. لكونه رجلاً محترماً، هو ليس صديقاً للسير (جيرفاس دارلينغتون).

---

(1) Furlong: جمع فرلنغ، وهو وحدة لقياس المسافة تعادل الميل..

(2) الاسم يعني «الشفافية».

- ولكن لماذا أنت متأكد من أن السير (جيرفاس) لن يجلب لك أيّ شيء مثير للاهتمام؟

قال (هولمز):

- لو أنك كنت تعرف هذا السيد، يا (واطسون)، لكنت ستبرّئه من أن يكون معنياً بأيّ شيء مهما كان مثيراً للاهتمام، باستثناء أنّه بحقّ ملاكم كبير من الوزن الثقيل. انظر! كان السير (جيرفاس) من بين أولئك الذين شهدوا مواجهتي التافهة مع (بولي بوي) هذا الصباح.

- إذاً، ماذا يريد منك؟

- حتى لو طُرح هذا السؤال في أيّ لحظة، ليس لدي أيّ بيانات. هل تريد قليلاً من السعوط يا (واطسون)؟ حسناً، حسناً، أنا نفسي لست معجباً به، رغم أنه يمثّل تغييراً عرضياً عن كثرة التسميم الذاتي بالنيكوتين.

لم أستطع منع نفسي من الضحك.

- يا عزيزي (هولمز)، حالتك نموذجية. يعرف كلّ طبيب أنّ مريضاً مصاباً بمثل إصابتك، رغم أنّ الإصابة طفيفة حتى إنها ذات طابع مضحك، يصبح غير عقلاني مثل الطفل.

أغلق (هولمز) علبة السعوط بقوة، ووضعها في جيبه.

قال:

- (واطسون)، على الرغم من أنّني ممتنّ لوجودك، سأكون ممتنّاً إذا لم تنطق كلمة واحدة أخرى على الأقل خلال الساعات الستّ المقبلة، حتى لا أقول شيئاً قد أندم عليه.

وهكذا، بقينا صامتين حتى عند العشاء، جلسنا في وقتٍ متأخر جداً في غرفة الاستراحة. قام (هولمز)، بشكل مزاجي، بفهرسة سجلات الجرائم التي لديه، وأنا كنت مستغرقاً في صفحات المجلة الطبية البريطانية. باستثناء دقات الساعة وفرقعات النار، لم يكن هناك صوت سوى صياح عاصفة شهر مارس، التي دفعت المطر ليضرب النوافذ مثل حفنة من الطلقات الصغيرة، التي كانت تهدر وتزعق في المدخنة.

وأخيراً، قال صديقي شاكياً، بعد طول انتظار:

- لا، لا. التفاؤل هو الغباء. بالتأكيد لن تأتي إلي أيّ قضية -أنصت! ألم يكن ذلك الجرس؟

- نعم. سمعته بوضوح، بالرغم من صوت الريح، لكن من يمكن أن يكون هذا؟

قال (هولمز)، وهو يرفع رقبته الطويلة لإلقاء نظرة على الساعة:

- إذا كان هذا عميلاً، فلا بد من أنّ الأمر بالغ الجدية؛ حيث تطلّب خروج أحد ما في الثانية صباحاً، وفي مثل هذه العاصفة.

بعد شيء من التأخير، الذي استغرقت السيدة (هدسون) خلاله وقتاً طويلاً لكي تنهض من سريرها، وتفتح الباب المؤدّي إلى الشارع، تمّ إيصال ما لا يقلّ عن اثنين من العملاء إلى غرفتنا. كلاهما بدأ الحديث في الحال، لكنّ حديثهما أصبح مختلفاً عندما اقتربا من مدخل الباب.

- جدّي، لا يجب أن تفعل هذا!

كان هذا صوت شابّة.



- للمرة الأخيرة، من فضلك! أنت لا تريد أن يعتقد السيد (هولمز) أنك...

هنا خفّضت صوتها إلى درجة الهمس:

- «مغفّل»[1]

صرخ مرافقها:

- أنا لست مغفّلاً! اللعنة يا (نيلي)، أنا أرى ما أرى! كان يجب أن آتي لأخبر السيد صباح أمس، لكن أنت فقط لا تريدين أن تعي ذلك.

- لكن، يا جدي، غرفة الأهوال تلك مكان مخيف بشكل مرعب. لقد تخيّلت هذا يا عزيزي.

قال الرجل العجوز بفخر:

- عمري ستة وسبعون عاماً، لكن لم يعد لديّ خيال أكثر من واحد من تلك التماثيل الشمعية. أنا أتخيّل هذا؟ أنا، الذي كنت حارساً ليلياً منذ فترة طويلة قبل أن يتم نقل المتحف إلى حيث هو الآن، وما زال هنا في شارع بيكر؟

توقف الزائران الجديدان. الزائر الطاعن في السن قصير وعنيد المظهر، يرتدي معطفه البني الذي بلله المطر، وبنطال راع مقلّماً. كان رجلاً صلباً من الناس ذوي الشعر الأبيض الحسن. الفتاة كانت مختلفة؛ رشيقة وجميلة، ذات شعر أشقر وعينين رماديتين تحيط بهما رموش

(1) في النص الأصلي قالت «بسيط»، لكنّ القصد، بطبيعة الحال، «مغفل»، أو ما يرادف ذلك.

سوداء، كانت ترتدي زياً بسيطاً أزرق اللون مع كشكش أبيض ضيّق عند الرسغين والعنق. كانت هناك رشاقة، وكذلك خجل في حركاتها.

لكنّ يديها الرقيقتين كانتا ترتجفان. بظرافة، تعرّفت على (هولمز) وعليّ، واعتذرت عن هذه الزيارة في هذا الوقت المتأخر.

وأضافت:

- أنا —اسمي (إليانور باكستر)، وكما قد تكونا قد فهمتما، إن جدي المسكين هو مضيف ليلي في معرض «مدام توبين» لتماثيل الشمع الذي يقع في طريق «ماريليبون».

ثمّ توقفت فجأة.

- أوه! كاحلك المسكين!

قال (هولمز):

- إصابتي ليست بالشيء المهم يا آنسة (باكستر). كلاكما مرحب به أشدّ ترحيب. (واطسون)، معاطف ضيوفنا، المظلة؛ وهكذا. الآن، يمكنكما الجلوس هنا أمامي. رغم أنني أمتلك عكازاً من نوع ما هنا، أنا متأكد من أنكما ستسامحاني إذا بقيت حيث أنا. كنت تقولين؟[1].

الآنسة (باكستر)، التي كانت تنظر بثبات إلى الطاولة الصغيرة في ضيقٍ واضح من كلمات جدها، جفلت الآن، وتغيّر لونها، عندما وجدت أنّ عين (هولمز) المهتمة كانت عليها.

- سيدي، هل تعرف تماثيل «مدام توبين» الشمعية؟

---

(1) أي يطلب منها أن تكمل حديثها..

- إنها مشهورة بحق.

خجلت (إليانور باكستر):

- سامحني! ما قصدته، هل زرته من قبل؟

- همم! أخشى أنني مثل أبناء بلدنا. في حال كان هناك مكان بعيد، أو يتعذر الوصول إليه، فالإنجليزي مستعدّ لأن يفقد حياته لكي يعثر عليه، لكنّه لن ينظر إليه حتى عندما يقع على بعد بضع مئات من الأمتار من باب منزله الأمامي. هل زرت «مدام توبين» يا (واطسون)؟

أجبته:

- لا، أخشى أنني لم أفعل. على الرغم من أنني سمعت الكثير عن غرفة الأهوال التي تحت الأرض. يقال إن الإدارة تعرض مبلغاً كبيراً من المال لأيّ شخص يقضي ليلة هناك.

الرجل العجوز العنيد المظهر، الذي يُظهر للعين الطبيّة أعراض ألم جسدي شديد، ضحك، بالرغم من ذلك، بصوت أجش وهو يجلس.

- ليباركك الرب يا سيدي، لا تصدق أيّ كلمة من هذا الهراء.

- هذا ليس صحيحاً، إذاً؟

- ليس صحيحاً أبداً يا سيدي. لن يسمحوا لك بفعل ذلك حتى؛ لأنه ربما يشعل رجل لاهٍ سيجاراً أو شيئاً ما، وهم يخافون النار خوف الموت.

قال (هولمز):

- إذاً، أعتبر أنك لست منزعجاً جداً من غرفة الأهوال؟

- لا يا سيدي، أبداً لا. بشكل عام، لديهم (تشارلي بيس) العجوز هناك؛ إنه مع (مارووود) أيضاً، الجلاد الذي شنق (تشارلي) قبل أحد عشر عاماً - لكنهم ودودون.

ثم ارتفع صوته.

- لكن حتى أكون عادلاً يا سيدي؛ أنا لا أحب ذلك أبداً عندما تبدأ تلك التماثيل الشمعية المباركة بلعب الورق!

ضربت هبّة من المطر النوافذ. انحنى (هولمز) إلى الأمام.

- تقول التماثيل الشمعية، كانت تلعب الورق؟

- نعم يا سيدي. هذه كلمة (سام باكستر)!

- أَكلّ التماثيل الشمعية تشارك في لعبة الورق هذه أم بعضها فقط؟

- اثنان منها فقط يا سيدي.

- كيف تعرف هذا يا سيد (باكستر)؟ هل رأيتهم؟

- يا إلهي، يا سيدي، آمل أن لا يحصل ذلك! لكن ما الذي يجب أن أعتقده، عندما يكون أحدهم قد رمى ورقة لعب، أو فاز بورقة في اللعبة، والأوراق كلها مبعثرة على الطاولة؟ ربما يجب علي أن أشرح، يا سيدي المحترم؟

دعاه (هولمز) لفعل ذلك بشيء من الارتياح:

- رجاءً، افعل.

- انظر يا سيدي، في الليلة الواحدة، أقوم بجولة واحدة أو جولتين فقط في غرفة الأهوال؛ إنها غرفة كبيرة، ذات أضواء خافتة. سبب

عدم قيامي بالمزيد من الجولات هو إصابتي بالروماتيزم. الناس لا يعرفون مدى قسوة معاناتك من الروماتيزم! قد يجعلك تنحني من الألم، بالفعل.

- يا إلهي!

قالها (هولمز) متذمراً بتعاطف، وهو يدفع علبة التبغ المصنوعة من القصدير باتجاه الرجل العجوز.

- على أيّ حال، يا سيدي! ابنتي (نيلي) هذه فتاة طيبة، على الرغم من التعليم الذي تلقّته والعمل الجيد الذي تقوم به. كلّما أصبح الروماتيزم الذي لديّ سيئاً، وقد كان سيئاً طوال هذا الأسبوع، كانت تستيقظ كلّ صباح مبارك، وتأتي لإحضاري في الساعة السابعة- وهو الوقت الذي أذهب فيه إلى العمل- حتى تساعدني في ركوب حافلة عموميّة.

- الآن الليلة، لكونها قلقة عليّ- وهو ما لا يجب أن تكون عليه- حسناً، حضرت (نيلي) قبل ساعة فقط، مع شاب اسمه (بوب بارسنيب). تولى (بوب) ورديتي بدلاً مني، لذا قلت: «لقد قرأت كلّ شيء حول هذا السيد (هولمز)، وهو على بعد خطوة واحدة؛ دعينا نذهب ونخبره». وهذا هو سبب وجودنا هنا.

أمال (هولمز) رأسه.

- فهمت، يا سيد (باكستر)، لكنك كنت تتحدث عن الليلة الماضية؟

- آه! حسناً، حول غرفة الأهوال. من جهة، هناك سلسلة من التابلوهات؛ أعني بذلك أنّ هناك حُجَرات منفصلة، كلّ واحدة منها

خلف درابزين حديدي حتى لا يستطيع أيّ أحد أن يتدخّل، وتماثيل شمعية في كلّ حجرة. التابلوهات تروي قصة اسمها «تاريخ جريمة».

- تحكي «تاريخ جريمة» هذه قصة سيد شاب- يا له من شاب لطيف أيضاً، لكنه ضعيف- يدخل في رفقة سيئة؛ يقامر ويخسر أمواله؛ ثم يقتل الرجل الشرير الأكبر سناً؛ وفي النهاية يُشنق بالسرعة نفسها التي شُنق بها (تشارلي بيس). القصد منها أن تكون د ... د ...

- درساً أخلاقياً، أجل. فلتحذر يا (واطسون). حسناً، سيد (باكستر)؟

- حسناً، يا سيدي! إنه تابلو القمار البائس ذاك. لا يوجد سوى اثنين منهم هناك، السيد الشاب والرجل الشرير؛ إنهما يجلسان في غرفة جميلة، على طاولة عليها مسكوكات ذهبية؛ لكنها ليست من الذهب الحقيقي بطبيعة الحال. إنه ليس شيئاً يحدث اليوم، كما ترى، لكن في العصور القديمة عندما كان لديهم جوارب وسراويل قصيرة.

- زيّ من القرن الثامن عشر، ربما؟

- هذا كلّ شيء يا سيدي. السيد الشاب يجلس إلى الجانب الآخر من الطاولة، لذا هو يواجهك بشكل مباشر، لكن الرجل الشرير العجوز يجلس وظهره مُدار، وهو يُمسك أوراقه كما لو أنه كان يضحك، و يمكنك أن ترى الأوراق التي في يده.

- الآن، الليلة الماضية! عندما أقول الليلة الماضية، يا سيدي، أقصد بطبيعة الحال قبل ليلتين؛ لأن الوقت يقترب من الصباح الآن؛ مشيت مباشرة بجانب ذلك التابلو المبارك من دون أن أرى شيئاً. بعدها، بعد

نحو ساعة، فكّرت فجأة: «ما الخطأ في ذلك التابلو؟». لم يكن هناك الكثير من الخطأ، وأنا معتاد على ذلك جداً إلى درجة أنني الوحيد الذي لاحظ ذلك. فكرت «ما الخطأ؟»؛ لذا نزلت وألقيت نظرة أخرى.

- أقسم يا سيدي، وليساعدني الرب! الرجل الشرير الأكبر سناً، الذي يمكنك رؤية ما في يده، كان يحمل أوراقاً أقل مما كان يحمل عادةً. ربما كان قد رمى، أو لعب، أوراقاً، وكانا يعبثان بالأوراق على الطاولة.

- ليس لدي خيال، أقول لك. لا أريد شيئاً، لكن عندما جاءت (نيلي) هنا لإحضاري في الساعة السابعة صباحاً، أحسست بالألم، بسبب الروماتيزم، وبسبب هذا الأمر أيضاً، لم أخبرها بالمشكلة - حسناً، فقط في حالة ما إذا كنت قد تخيّلت أشياء. اليوم اعتقدت أنني ربما قد حلمت بهذا، لكنني لم أفعل! لقد حدث ذلك مرة أخرى الليلة.

- الآن، يا سيدي، أنا لست مجنوناً. أنا أرى ما أراه! قد تقول، ربما فعل أحدهم ذلك من أجل المتعة؛ غيّر أوراق اللعب، وبعثرها، وما إلى ذلك، لكن لا أحد يستطيع فعل ذلك في النهار، وإلا فستتم رؤيتهم. قد يُفعل ذلك في الليل؛ لأن هناك باباً جانبياً واحداً لا يُقفل بشكل صحيح، لكن ليس الأمر وكأنه أحد مقالب الجمهور؛ حيث يلصقون لحية مستعارة على تمثال الملكة (آن) أو ربما قبعة واقية[1] على رأس تمثال (نابليون). هذا نادر الحدوث جداً إلى درجة أن لا أحد يلاحظه، لكن إذا كان أحدهم يلعب الورق من أجل هاتين الدميتين المباركتين، فمن فعل ذلك إذاً، ولماذا؟

---

(1) من النوع الذي تلبسه النساء والأطفال.

لبعض اللحظات، ظل (شيرلوك هولمز) صامتاً.

قال بجدية، وهو ينظر إلى كاحله المغطّى بضمادة:

- سيد (باكستر)، صبرك يخجلني في سرعة غضبي الأحمق... سيسعدني النظر في هذا الأمر.

صرخت (إليانور باكستر) في حيرة شديدة:

- لكن يا سيد (هولمز)، من المؤكد أنه لا يمكنك أن تأخذ هذه المسألة على محمل الجد؟

- سامحيني يا سيدتي، سيد (باكستر)، ما لعبة الورق المعيّنة التي يلعبها التمثالان الشمعيّان؟

- لا أدري يا سيدي. اعتدت أنا نفسي أن أتساءل عن ذلك، قبل فترة طويلة عندما كنت جديداً في المكان... «نابليون» أو «ويست»، ربما؟ لكنني لا أعرف.

- أنت تقول إن التمثال الذي ظهره مُدارٌ يحمل أوراقاً أقلّ مما كان يحمل عادةً. كم عدد الأوراق التي تمّ لعبها من يده؟

- سيدي؟

- ألم تلاحظ؟ تبّاً، هذا مؤسف للغاية! إذاً أرجو منك أن تفكر بعناية في سؤال مهم للغاية. هل كانت هذه التماثيل تقامر؟

بدأت الكلام:

- عزيزي (هولمز) ...

لكن نظرة صديقي جعلتني أتوقّف.

- قل لي، يا سيد (باكستر)، إن الأوراق الموجودة على الطاولة قد تم تحريكها أو بعثرتها على الأقل. هل تم تحريك المسكوكات الذهبية أيضاً؟

أجاب السيد (صموئيل باكستر) بعد وقفة:

- عندما أفكّر في هذا، لا يا سيدي، لم تتحرّك! هذا غريب أيضاً.

كانت عينا (هولمز) تلمعان. فرك يديه معاً.

قال:

- لقد تخيّلت هذا. حسناً، لحسن الحظ أنني قد أكرّس طاقاتي من أجل هذه المشكلة؛ حيث إنه ليس لدي أيّ شيء في الوقت الحالي باستثناء مسألة مستقبلية مملّة يبدو أنها تتعلّق بالسير (جيرفاس دارلينغتون)، وربما باللورد (هوف) أيضاً. اللورد (هوف) - يا إلهي، آنسة (باكستر)، هل هناك خطب ما؟

(إليانور باكستر)، التي نهضت واقفة، أصبحت تنظر إلى (هولمز) الآن بعينين مذهولتين. سألته:

- هل قلت اللورد (هوف)؟

- نعم، كيف من الممكن أن يكون الاسم مألوفاً لك. هل لي أن أسأل؟

- إنه رب عملي فحسب.

قال (هولمز) وهو يرفع حاجبيه:

- حقاً؟ آه، أجل. أفهم أنك تقومين بالكتابة باستخدام الآلة الكاتبة. الخط المزدوج في الزي الفخم فوق معصمك بقليل؛ حيث يضغط وزن الآلة الكاتبة على الطاولة، يوضح هذا. أنت تعرفين اللورد (هوف) إذاً؟

- لا، لم يسبق لي أن رأيته حتى، على الرغم من أنني أكتب الكثير في منزله الريفي في «بارك لين». يا لي من شخص متواضع جداً...!

- تبّاً، هذا مؤسف أكثر حتى! لكن، يجب أن نفعل ما في وسعنا. (واطسون)، هل تمانع الخروج في مثل هذه الليلة العاصفة؟

أجبته بدهشة كبيرة:

- لا، أبداً، لكن لماذا؟

- هذه الأريكة البغيضة، يا صديقي! لمّا كنت مقيداً بها كسرير مريض، يجب أن تكون أنت عينيّ. يزعجني التعدي على ألمك، يا سيد (باكستر)، ولكن هل من الممكن أن ترافق د. (واطسون) في زيارة قصيرة إلى غرفة الأهوال؟ شكراً لك؛ ممتاز.

سألته:

- ولكن ماذا علي أن أفعل؟

- في الدرج العلوي من مكتبي، يا (واطسون)، ستجد بعض المظاريف.

- حسناً، يا (هولمز)؟

- سأكون ممتناً لو قمت بعدّ الأوراق التي في يد كلّ تمثال شمعي. بعدها، مع الاحتفاظ بعناية بترتيبها الحالي من اليسار إلى اليمين، ضع

كلّ مجموعة في مظروف منفصل ستضع عليه علامة وفقاً لذلك. افعل الشيء نفسه مع الأوراق التي على الطاولة، وأحضرها إليّ بأسرع ما يمكنك إنجاز ذلك.

- سيدي...

بدأ الرجل العجوز الكلام بشيءٍ من الإثارة.

- لا، لا، سيد (باكستر)، أفضل عدم الكلام الآن. ليس لديّ سوى فرضية عمل، ويبدو أنّ هناك صعوبة واحدة لا يمكن التغلب عليها.

عبس (هولمز).

- ولكن الأهم هو أن نكتشف، بكلّ ما تعني الكلمة، ما اللعبة التي تُلعب في معرض الشمع ذاك.

معاً؛ مع (صموئيل باكستر) وحفيدته، تجرّأت على الخروج في الظلام الذي تجلده الأمطار. على الرغمِ من احتجاجات الآنسة (باكستر)، في غضون عشر دقائق كنا جميعاً واقفين أمام تابلو القمار في غرفة الأهوال.

شاب ليس سيئ المظهر يدعى (روبرت بارسنيب)، كان من الواضح أنه مسحور جداً بجمال (إليانور باكستر)، أشعل شرارات الغاز الزرقاء في الكرات الزجاجية المغبرّة. لكن حتى مع ذلك، بقيت الغرفة المعتمة في شبه ظلام بدت فيه رائحة التماثيل المصنوعة من الشمع الكالح مشبعة براحة شبيهة برائحة العناكب، وكأنها كانت تنتظر فقط حتى يلتفت الزائر بعيداً، قبل أن تمد يدها لتلمسه.

معرض «مدام توبين» معروف جداً إلى درجة أنه لا يحتاج إلى

وصف عام، لكنني تأثرت بشكل مزعج بالتابلو المسمى «تاريخ جريمة»؛ كانت المشاهد واقعية جداً من حيث المؤثرات واللون، مع الباروكات والسيوف الصغيرة من القرن الثامن عشر. لو كنت في الواقع مذنباً بهفوات القمار الخيالية هذه، التي اتهمني بها حس الدعابة الذي يتمتع به (هولمز) في توقيت غير مناسب، لربما قد يُضايق العرض ضميري.

كان هذا على وجه الخصوص عندما أنزلنا رؤوسنا تحت الدرابزين الحديدي، واقتربنا من اثنين من المقامرين في غرفة المحاكاة.

- اللعنة يا (نيلي)، لا تلمسي أوراق اللعب!

صرخ بها السيد (باكستر). إنه أسرع غضباً وأحدّ مزاجاً وهو في منطقته. لكن نبرته تغيرت عندما تكلّم معي.

- انظر هناك، يا سيدي! هناك...

أخذ يعد ببطء...

- هناك تسع أوراق في يد الرجل الشرير، وست عشرة في يد السيد الشاب.

همست الشابة:

- اسمع! أليس هناك من يمشي في الطابق العلوي؟

- اللعنة يا (نيلي)، إنه (بوب بارسنيب) فقط. من يمكن أن يكون غيره؟

قلت ملاحظاً:

- كما قلت، لم يتغيّر ترتيب الأوراق الموجودة على الطاولة كثيراً.

بالفعل، الكومة الصغيرة التي أمام «السيد الشاب» خاصتك لم يتغيّر ترتيبها على الإطلاق. اثنتا عشرة بطاقة موجودة عند مرفقه...

- آه، وتسع عشرة عند العجوز الشرير. إنها للعبة ورق غريبة يا سيدي!

اتفقت مع هذا، وصُدمت بفضول من لمسة أصابع من الشمع على أصابعي، ووضعت مجموعات مختلفة من أوراق اللعب في أربعة مظاريف معلّمة، وسارعت بالخروج من هذا الوكر المكتوم. الآنسة (باكستر) وجدّها، على الرغم من احتجاج الأخير المروّع، أصرّت على العودة إلى المنزل في سيارة أجرة جوّالة كان سائقها قد أوصل للتو رجلاً مخموراً إلى باب منزله.

لم أكن آسفاً للعودة إلى الدفء المريح في غرفة جلوس صديقي. ولكن، ما أثار استيائي، هو أن (هولمز) قد نهض من على الأريكة. كان يقف عند مكتبه ومعه المصباح المظلل باللون الأخضر، يدرس بلهفة أطلساً مفتوحاً، وهو يتكئ على عكاز أسفل ذراعه اليمنى.

أسكت احتجاجاتي قائلاً:

- كفى يا (واطسون)! هل لديك المغلفات؟ جيد، جيد! أعطني إياها. شكراً لك. في يد المقامر الأكبر سناً، التمثال الشمعي الذي ظهره مُدار، ألم يكن هناك تسع أوراق؟

- (هولمز)، هذا مذهل! كيف عرفت ذلك؟

- المنطق يا صديقي العزيز. الآن دعنا نرى.

قلت بحزم:

- لحظة واحدة. لقد تحدثت سابقاً عن عكاز، لكن أين تمكنت من الحصول على عكاز في وقت قصير كهذا؟ هذا عكاز غير عادي. يبدو أنه مصنوع من معدن خفيف الوزن، ويلمع حيث أشعة ضوء المصباح...

- أجل، نعم، لقد كان بحوزتي أصلاً.

- كان موجوداً عندك بالفعل؟

- إنه مصنوع من الألمنيوم، وهو من بقايا قضية قبل أن يأتي كاتب سيرتي الذاتية ليمجّدني. لقد سبق أن ذكرته لك، لكنك نسيت. الآن كن طيباً بما يكفي لكي تنسى العكاز وأنت تقوم بفحص أوراق اللعب هذه. أوه، جميل، جميل!

لو كانت كل جواهر «غولكوندا»[1] منثورة أمامه لما كان أكثر سعادة. حتى إنه ابتهج عندما أخبرته بما رأيته وسمعته.

- ماذا، أما زلت لا تفهم؟ إذاً، هل تفهم أمر هذه البطاقات التسع يا (واطسون). ضعها على المكتب بترتيبها نفسه، وأذكر اسم كل منها، وأنت تفعل ذلك.

قلت وأنا أضع أوراق اللعب تحت المصباح:

- ولد ديناري، سبعة قلوب، أص سنك... يا الهي، (هولمز)!

- هل فهمت شيئاً، إذاً؟

- نعم، هناك أصّان سنك، الواحد منهما يلي الآخر!

---

(1) Golconda: مدينة وحصن في جنوب الهند، اسُتخرج منها أشهر الماسات في العالم، من ضمنها ماسة «كوهينور» الموجودة في المملكة المتحدة الآن.

- ألم أقل إن هذا جميل؟ لكنك لم تعد سوى أربع أوراق. تابع مع الخمس المتبقية.

قلت:

- اثنان بستوني، عشرة قلوب - يا إلهي الرحيم، هذا أص ثالث من السنك، وولدان آخران من الديناري!

- وماذا تستنتج من ذلك؟

- (هولمز)، أعتقد أنني فهمت. يشتهر متحف «مدام توبين» بمؤثراته الواقعية. التمثال الشمعي للرجل الأكبر سناً هو مقامر وقح، يُصوّر على أنه يغشّ الشاب. وبمؤثّر خفي، أظهروا أنه يحمل أوراقاً مزيّفة ليربح اللعبة.

- بصعوبةٍ خفيٍّ، كما أتخيل. حتى لو كان مقامراً وقحاً مثلك أنت، يا (واطسون)، فبالتأكيد سيشعر ببعض الحرج عند إلقاء مجموعة أوراق لعب فائزة تحتوي على ما لا يقل عن ثلاثة أولاد من الديناري، وثلاثة أصّات من السنك؟

- نعم، هناك صعوبات.

- علاوة على ذلك، إذا عددت جميع البطاقات، سواء تلك الموجودة في اليدين أم الموجودة على الطاولة، فستلاحظ أن العدد الإجمالي لها هو ستة وخمسون؛ أي أربعة أكثر مما اعتدت أنا، على الأقل، استخدامَه في مجموعة واحدة.

- لكن، ماذا يمكن أن يعني هذا؟ ما الحل لمشكلتنا؟

كان الأطلس على المكتب؛ حيث رماه (هولمز) عندما أعطيته المغلفات. انتزع الكتاب، وهو يتأوه ويتمايل، وما إلى ذلك، لكنه سقط على ذلك المكاز المثير للفضول. فتح الكتاب بلهفة مرة أخرى.

قرأ:

- «عند مصب نهر التايمز، في جزيرة...».

- (هولمز)، سؤالي يتعلق بالحل لمشكلتنا!

- هذا هو الحلّ لمشكلتنا.

رغم أنني أكثر الرجال صبراً، احتججت بشدة عندما أرسلني إلى الطابق العلوي إلى غرفتي القديمة. اعتقدت أنه يجب أن لا أنام على سرير هذا اللغز، ورغم ذلك نمت نوماً ثقيلاً، وكانت الساعة تقترب من الحادية عشرة عندما نزلت لتناول الإفطار.

(شيرلوك هولمز)، الذي كان قد تناول إفطاره، عاد إلى الجلوس على الأريكة. كنت سعيداً بحلاقتي النظيفة والمنعشة عندما وجدته مستغرقاً في محادثة مع الآنسة (إليانور)، التي قلّل أسلوبه الهادئ من خجلها.

لكنّ شيئاً ما في الجديّة التي على وجهه أوقف يدي عندما قرعت الجرس طلباً لشرائح اللحم والبيض.

قال:

- آنسة (باكستر)، رغم أنه لا يزال هناك اعتراض على فرضيتي، حان الوقت لإخبارك بشيء ذي أهمية كبيرة. ولكن ماذا بحق الله...!

انفتح بابنا فجأةً بقوّة. حتى أكون دقيقاً، تمّ فتحه بركلة مع اصطدام قوي، لكن هذا لم يُفعل إلا على سبيل الدعابة من قبل الرجل الذي ركله؛ لأن انفجاره المفرط بالضحك بصوتٍ عالٍ رنّ مثل بوق نحاسي.

في فتحة الباب وقف رجلٌ ضخم الجثة ذو وجه أحمر يرتدي قبعة لامعة، ومعطفاً باهظ الثمن يصل إلى الركبة، مفتوحاً فوق صدرة بيضاء لإظهار حجارة الماس التي على ساعته، والياقوتة البرّاقة الوحيدة في ربطة عنقه.

رغم أنه لم يكن طويل القامة بقدر (هولمز)، كان أعرض وأثقل وزناً بكثير؛ بالفعل، كان ذا قوام لا يختلف عن قوامي. رنّت ضحكته الصاخبة مرة أخرى، ولمعت عيناه الصغيرتان الماكرتان وهو يرفع حقيبة جلدية ويهزّها.

صرخ قائلاً:

- ها أنت ذا يا صاح! أنت رجل سكوتلانديارد، أليس كذلك؟ ألف جنيه ذهبي، ويمكنك الحصول عليها بسهولة!

كان (شيرلوك هولمز)، رغم أنه كان مندهشاً، يتأمّله بهدوء شديد.

- السير (جيرفاس دارلينغتون)، على ما أعتقد؟

من دون أن يلاحظ أبداً وجود الآنسة (باكستر) أو وجودي، سار الزائر الجديد عبر وهزّ حقيبة القطع النقدية أمام (هولمز) مباشرة.

قال:

- هذا أنا، يا سيّد محقق! رأيتك تلاكم أمس. يمكن أن تكون أفضل،

لكنّك ستفي بالغرض. في يوم ما، يا صديقي، قد يجعلون الملاكمة من أجل الجوائز قانونياً. وإلى أن يفعلوا ذلك، يجب على الرجل أن يرتّب مباراة ملاكمة صغيرة متقنة في السر. لكن توقّف قيلاً!

فجأة، بقدميه الصغيرتين كأقدام القطط بالرغم من وزنه، ذهب إلى النافذة، ونظر إلى الأسفل باتجاه الشارع.

- اللعنة على (فيلياس بيلتش) ذاك! لقد عيّن رجلاً ليتبعني منذ شهور. أجل، وخادمين بغيضين على التوالي لفتح رسائلي بالبخار، لكنني كسرت ظهر أحدهم.

رنّت ضحكة السير (جيرفاس) المزعجة مرة أخرى.

- لا يهم!

بدا على وجه (هولمز) أنه يتغيّر، لكن بعد لحظة، عاد إلى طبعه الهادئ الثابت، بينما كان السير (جيرفاس دارلينغتون) يستدير إلى الخلف، وهو يقذف كيس النقود على الأريكة.

- احتفظ بالدراهم، يا رجل سكوتلانديارد. لست بحاجة إليها. الآن، إذاً. في غضون ثلاثة أشهر، سنجعلك تنازل (جيم غاريك)، الـ«بريستول سماشر». العب مباراة مزيّفة، وسأسلخ جلدك؛ اجعلني فخوراً، ويمكنني أن أكون راعياً جيداً. مع رجل مجهول مثلك، يمكنني الحصول على رهان باحتمالات ثمانية إلى واحد.

قال (هولمز):

- هل أفهم، يا سير (جيرفاس)، أنك تريدني أن ألاكم كمحترف في الحلبة؟

- أنت من يعمل مع سكوتلانديارد، أليس كذلك؟ أنت تفهم اللغة الإنجليزية، أليس كذلك؟

- عندما أسمعها، أجل.

- هذه مزحة، أليس كذلك؟ حسناً، وهذا أيضاً!

مازحاً، ومتعمداً، ضربت قبضته اليسرى بلفّة ذراع مرّت- كما كان من المفترض بها أن تمر- على بعد بوصة واحدة من أنف صديقي. (هولمز) لم يرمش حتى. مرة أخرى، قهقه السير (جيرفاس) ضاحكاً.

- انتبه إلى تصرّفاتك، يا سيد محقق. عندما تتحدث إلى رجل نبيل. يمكنني أن أشطرك إلى نصفين حتى لو لم يكن لديك كاحل مصاب، قسماً بالله!

أطلقت الآنسة (إليانور باكستر)، وقد ابيض وجهها، صرخةَ تأوّه، وبدت كأنها تحاول الانسحاب أمام الحائط.

صرختُ قائلاً:

- سير (جيرفاس)، لطفاً امتنع عن قول الكلام البذيء في حضور سيدة.

استدار ضيفنا على الفور، ونظر إليّ من الأعلى إلى الأسفل بطريقة هي الأكثر وقاحة وتكبّراً.

- من هذا؟ (واطسون)؟ الجرّاح؟ أوه.

فجأة دفع بوجهه الأحمر السمين على وجهي.

- هل تعرف أيّ شيء عن الملاكمة؟

قلت:

- لا، أعني — ليس كثيراً.

رد السير (جيرفاس) مازحاً:

- إذاً، احرص على أن لا تُلقّن درساً.

وزمجر بمرح مرة أخرى:

- سيدة؟ أيّ سيدة؟

عندمت رأى الآنسة (باكستر)، بدا مرتبكاً بعض الشيء، لكنّه رمقها بنظرة غرامية قاتلة.

- لا توجد سيدة، أيها الجرّاح، بل قطعة صغيرة غاية في الجمال، قسماً بالله!

قلتُ:

- سير (جيرفاس)، تمّ تحذيرك الآن، للمرة الأخيرة.

قاطعني صوت (شيرلوك هولمز) الهادئ:

- لحظة يا (واطسون)، يجب أن تسامح السير (جيرفاس دارلينغتون). لا شك في أن السير (جيرفاس) لم يتعافَ بعدُ من الزيارة التي قام بها قبل ثلاثة أيام إلى معرض الشمع لـ«مدام توبين».

في الصمت الوجيز، الذي أعقب ذلك، كان بإمكاننا سماع خشخشة الفحم في الموقد، وصوت ضرب المطر الذي لا نهاية له على النوافذ، لكن ضيفنا لا يمكن إثارة استيائه.

سخر قائلاً:

- رجل سكوتلانديارد، أليس كذلك؟ من قال لك إنني كنت في معرض مدام توبين قبل ثلاثة أيام؟

- لا أحد، لكن، من بعض الحقائق التي بحوزتي، كان الاستنتاج واضحاً. بدت زيارة كهذه بريئة، أليس كذلك؟ لن تثير أيّ شكوك من جانب أيّ شخص قد يتبع - تابعاً ما، على سبيل المثال، تمّ توظيفه من قبل الرياضي البارز السير (فيليس بيلتش)، الذي رغب في أن يتأكد له أنّك لم تربح ثروة أخرى عن طريق المعلومات السرية كما فعلت في دربي العام الماضي.

- أنت لا تثير اهتمامي يا صديقي!

- حقاً؟ رغم ذلك، مع ميولك الرياضية، أنا متأكد من أنك يجب أن تكون مهتماً بالأوراق.

- الأوراق؟

قال (هولمز) ببرود:

- أوراق اللعب.

أخرج بعضاً منها من جيب ردائه، ورفعها على شكل مروحة.

- في الواقع، أوراق اللعب التسع هذه.

- وما كلّ هذا بحق الله؟[1]

(1) في النص الأصلي «بحق الشيطان». ربما الأفضل استبدالها بـ«بحق الله»؟

- إنها حقيقة استثنائية، يا سير (جيرفاس)، أنّ زائراً غير مهتم يأتي إلى غرفة الأهوال، وعند مروره بتابلو القمار، يمكنه رؤية الأوراق التي في يد تمثال شمعي معيّن من دون حتى أن يعطيها أكثر من نظرة بريئة المظهر.

- الآن تم القيام ببعض التلاعب الغريب في إحدى الليالي بهذه الأوراق. لم يتم لمس البطاقات التي في يد اللاعب الآخر، «السيد الشاب»، كما اتضح من حالتها المغبرّة والرمليّة. لكنّ شخصاً ما، شخصاً معيّناً، قام بإزالة عدد من الأوراق من يد من يسمى «العجوز الشرير»، وبرميها على الطاولة، وعلاوة على ذلك، أضاف أربع ورقات من ما لا يقل عن مجموعتين إضافيتين.

- لماذا تمّ فعل ذلك؟ لم يكن ذلك لأنّ أحدهم رغب في عمل مقلب، عن طريق صنع الوهم بأنّ دمى الشمع كانت مشغولة بالمقامرة الطائشة. لو كان هذا دافع الجاني، لكان قد حرّك العملات الذهبية المقلّدة بالإضافة إلى أوراق اللعب، لكنّ القطع النقدية لم تُحرّك.

- الإجابة الحقيقية بسيطة وواضحة بالفعل؛ هناك ستة وعشرون حرفاً في أبجدية لغتنا؛ وستة وعشرون مضروبة باثنين، تعطينا اثنين وخمسين؛ وهو عدد أوراق اللعب في المجموعة. لنفترض أننا كنا عشوائياً نختار ورقة واحدة لكلّ حرف، يمكننا بسهولة أن نشكّل شكلاً طفولياً أولياً من رموز الاستبدال - الشيفرة...

دوّت ضحكة السير (جيرفاس دارلينغتون) القويّة بصوت حاد.

- شيفرات الاستبدال...

قالها ساخراً، ويده الحمراء على الياقوتة التي في ربطة عنقه...

- ماذا تكون هذه، هاه؟ ما الذي يتحدث عنه هذا الأحمق؟

قال (هولمز):

- ... التي ستنكشف، على أيّ حال، إذا كانت الرسالة المكوّنة من تسعة أحرف فقط تحتوي على حرفي «e» أو حرفي «s». دعنا نتخيل، إذاً، أن ولد الديناري يرمز إلى الحرف «s»، وأن أص السنك يرمز إلى الحرف «e».

تدخلت أنا:

- (هولمز)، قد يكون هذا مصدر إلهام، لكنّه ليس منطقياً! لماذا تعتقد أنّ الرسالة يجب أن تحتوي على تلك الأحرف؟

- لأنني أعرف الرسالة نفسها. أنت من أخبرني بها.

- أنا أخبرتك؟

- تسك، يا (واطسون). إذا كانت هذه البطاقات تمثّل الأحرف المشار إليها، فلدينا حرفا «e» في بداية الكلمة وحرفا «s» في نهايتها. يجب أن يكون الحرف الأول من الكلمة، كما فهمنا، هو «S»، وهناك الحرف «e» قبل حرفي «s» اللذين في النهاية. لا حاجة إلى المكر ليعطينا ذلك كلمة «شيرنيس» (Sheerness).

بدأت كلامي قائلاً:

- لكن ما دخل (Sheerness) بحق السماء...

قاطعني (هولمز) قائلاً:

- جغرافياً، ستجدها باتجاه مصبّ نهر التايمز، لكنه، أيضاً كما أبلغتني، هو اسم حصان يملكه اللورد (هوف). على الرغم من دخول هذا الحصان في السباق الوطني الكبير، أخبرتني أنه لا يُتوقع منه الكثير، لكن إذا تمّ تدريب الحصان بسريّة مطلقة كفائز ساحق آخر مثل «سيدة البنغال»...

قلت:

- سيكون هناك مكسب هائل لأيّ مقامر يمكنه أن يعرف هذا السر المحمي جيداً، ويدعم الحصان!

رفع (شيرلوك هولمز) مروحة البطاقات بيده اليسرى.

صرخ بصرامة حزينة:

- يا عزيزتي الآنسة (إليانور باكستر)، لماذا سمحت للسير (جيرفاس دارلينغتون) بأن يقنعك؟ لن يعجب جدّك سماع أنك استخدمت معرض الشمع لترك هذه الرسالة لإخبار السير (جيرفاس) بما رغب في معرفته من دون حتى التحدث إليه، أو الكتابة إليه، أو الاقتراب منه ضمن مسافة ميل واحد.

إذا كانت الآنسة (باكستر) قد شحب لونها في السابق، وأطلقت تأوهاً عند رؤية السير (جيرفاس)، فقد كان ذلك لا شيء مقارنة بالنظرة البائسة التي أصبحت الآن في عينيها الرماديتين الحزينتين. وبينما كانت تتمايل وهي واقفة، بدأت تنكر بتردد.

قال (هولمز) بلطف:

- لا، لا! هذا لن يفي بالغرض حقاً. خلال بضع لحظات من الوقت الذي دخلت فيه هذه الغرفة الليلة الماضية، كنت على علم بـ—بمعرفتك بالسير (جيرفاس) هنا.

- سيد (هولمز)، لا يمكن لك أن تكون قد عرفت هذا!

- أخشى أنني فعلت. رجاءً لاحظي الطاولة الصغيرة التي تكون على يساري عندما أجلس على الأريكة. عندما اقتربت مني، لم يكن هناك شيء على الطاولة، سوى صفحة من ورق الرسائل المزركش بشارة السير (جيرفاس دارلينغتون) البارزة إلى حد ما.

صرخت الشابة البائسة:

- أوه، فلتساعدني السماء!

- لكنك تأثرت بشكل غريب. لقد نظرت بثبات إلى الطاولة، كما لو أنك عرفتِ. عندما رأيت عيني تنظر إليك، جفلتِ وتغيّر لونك. من خلال الملاحظات العرضية في مظهرها، استنبطت حقيقة أن رب عملك هو اللورد (هوف)، مالك «شيرنيس» (Sheerness)...

- لا! لا! لا!

- كان سيكون من السهل عليك استبدال الأوراق الجديدة بتلك التي في يد التمثال الشمعي. كما قال جدك، هناك باب جانبي في متحف مدام توبين لا يمكن قفله بالشكل الصحيح. كان بإمكانك إجراء التبديل سراً في الليل، قبل أن تأتي كعادتك لمرافقة جدك إلى المنزل في الصباح.

- ربما كان بإمكانك إتلاف الأدلة قبل فوات الأوان، لو أخبرك جدك في الليلة الأولى بما كان ناقصاً في المتحف، لكنه لم يخبرك إلا في الليلة التالية، عندما كان هو و(روبرت بارسنيب) هناك، وأنت لم تتمكني من أن تكوني وحدك. ورغم ذلك، لا أتعجب من احتجاجك عندما رغب في رؤيتي. لاحقاً، كما أخبرني الدكتور (واطسون) بلا وعي، حاولت الاستيلاء على البطاقات وبعثرتها في يد التمثال الشمعي.

صرختُ:

- (هولمز)، كفاك هذا التعذيب! الجاني الحقيقي ليس الآنسة (باكستر)، بل هذا البلطجي الذي يقف ويضحك منّا!

قال (هولمز):

- صدقيني، يا آنسة (باكستر)، ما كنت لأضايقك. ليس لديّ شكّ في أنك عرفت عن طريق المصادفة قدرات «شيرنيس». سيتحدث الأقران الرياضيون بلا مبالاة، عندما يسمعون فقط النقر الهيّن لمن تعمل على الآلة الكاتبة من غرفة مجاورة، لكن السير (جيرفاس)، قبل وقت طويل من خضوعه للمراقبة بعناية، لا بد من أنه حثّك على الإنصات بانتباه والتواصل معه بهذه الطريقة المبتكرة في حال حصلت على معلومات ذات قيمة.

- في البداية بدت الطريقة مبتكرة للغاية. بالفعل، لم أستطع أن أفهم لماذا لم تكتفي بكتابة رسالة إليه، إلى أن وصل إلى هنا علمت أنه حتى رسائله كانت تُفتح باستخدام البخار. كانت أوراق اللعب هي الطريقة الوحيدة الممكنة، لكن أصبح لدينا الدليل الآن...

قال السير (جيرفاس دارلينغتون):

- لا والله! ليس لديك أيّ دليل على الإطلاق!

يده اليسرى، بسرعة ثعبان يهجم، انتزعت الأوراق من قبضة (هولمز). عندما وقف صديقي بشكل عفوي، جعله الألم الذي في كاحله المتورّم يكتمُ صرخة. يد السير (جيرفاس) اليمنى المفتوحة ضربت رقبة (هولمز)، ودفعته لينبطح مرة أخرى على الأريكة. مرةً أخرى رنّت ضحكة الانتصار.

- (جيرفاس»!

ناشدته الآنسة (باكستر) وهي تفرك يديها.

- أرجوك! لا تنظر إليّ هكذا! لم أقصد التسبّب في أيّ أذى!

قال والسخرية تعلو وجهه المتوحش:

- أوه، لا! ل-لا-ا-ا-!! تعالي إلى هنا، واكشفي أمري، هلّا فعلتِ؟ اجعليني أقفز من الرعب عندما أراك، هلّا فعلت؟ أنت لست أفضل مما يجب أن تكوني، وسأقول ذلك لأيّ أحد يسألني. الآن قفي جانباً، اللعنة عليك!

قلت:

- سير (جيرفاس)، لقد سبق أن حذرتك بالفعلِ للمرة الأخيرة.

- الطبيب الجرّاح يتدخل. أليس كذلك؟ سوف...

الآن، أنا أوّل من يعترف بأنّ هذا كان حظاً وليس قراراً، رغم أنني ربما أضيف أنني أسرع في الوقوف مما يفترض أصدقائي. يكفي أن أقول إن الآنسة (باكستر) صرخت.

على الرغم من ألم كاحله، قفز (شيرلوك هولمز) مرة أخرى من على الأريكة.

- يا إلهي يا (واطسون)! لم أشهد أبداً ضربة يسرى على الهدف ومباشرة على الرأس أروع من هذه! لقد أوقعته بقوّة إلى درجة أنه سيكون فاقداً للوعي لمدة عشر دقائق!

قلت وأنا أنفخ على براجمي المتشققة:

- ورغم ذلك، أنا متأكد من أن الآنسة (باكستر) المسكينة لم تتضايق كثيراً بسبب الاصطدام الذي ضرب به الأرض؟ إنه ليحزنني أيضاً أن أزعج السيدة (هدسون)، التي أسمع أنها تقترب ومعها اللحم المقدد والبيض.

- (واطسون) الطيّب نفسه!

- لماذا تبتسم يا (هولمز)؟ هل قلت شيئاً مضحكاً؟

- لا، لا. لا سمح الله! ولكن في بعض الأحيان أظن أنني قد أكون أكثر سطحيّة بكثير، وأنت أعمق بكثير، مما أنا معتاد على اعتقاده.

- سخريتك تفوق قدرتي على الاستيعاب. ورغم ذلك، ها هو الدليل، لكن يجب ألا تكشف حتى السير (جيرفاس دارلينغتون) علناً، لئلا تكشف أمر الآنسة (باكستر) أيضاً!

- أف! لديّ حساب لأصفّيه مع ذلك السيّد يا (واطسون). عرضه ليفتح لي مساراً مهنيّاً كملاكم محترف لم أستطع بصدق أن أستاء منه. بطريقتها، إنها لمجاملة كبيرة، لكن أن يعتقد أنني محقق يعمل في

شرطة سكوتلانديارد! أخشى أن تلك كانت إهانة لا أستطيع أن أنساها، ولا أن أغفرها.

- (هولمز)، كم معروفاً طلبت منك؟

- حسناً، حسناً، فليكن الأمر كما تشاء. سنحتفظ بأوراق اللعب فقط كحلٍّ أخير، إذا أساءت تلك الجميلة النائمة التصرف مرة أخرى. أما بالنسبة إلى الآنسة (باكستر)...

صرخت الشابة المسكينة بشغف:

- لقد أحببته! أو —حسناً، على الأقل، اعتقدت أنني أحبّه.

- على أي حال، يا آنسة (باكستر)، سيبقى (واطسون) صامتاً قدر ما تشائين. يجب ألا يتكلم حتى تاريخ بعيد جداً جداً، عندما، ربما كجدة قديمة، تبتسمين وتغادرين. سيمر نصف قرن قبل ذلك، ستكونين قد نسيتِ كلّ شيء عن السير (جيرفاس دارلينغتون).

- أبداً، أبداً، أبداً!

ابتسم (شيرلوك هولمز):

- أوه، أنا أتخيل ذلك On s'enlace؛ puis، un jour، on se lasse؛ c'est l' amour[1] هناك حكمة في هذه المقولة الفرنسية أكثر من الحكمة التي في الأعمال الكاملة لـ(هنريك إبسن).

---

(1) بالفرنسية: نحن نعانق بعضنا البعض، ثم يوماً ما نتعب: إنه الحب...

4
مغامرة معجزة هايغيت

رغم أننا كنا معتادين على تلقي برقيات غريبة في مسكننا في شارع بيكر، هناك برقية عملت على تقديم قضيّة استثنائية حتى في سجلات السيد (شيرلوك هولمز) السنويّة.

لقد قابلت (هولمز) في نزهة في حديقة (ريجنت) في عصر أحد الأيام المظلمة في شهر ديسمبر، الذي كان يتساقط فيه الرذاذ، لكنه لم يكن شديد البرودة؛ ناقشنا خلالها بعض المسائل الشخصية المعيّنة، التي كانت تخصّني، والتي لا أحتاج إلى إثقال كاهل القارئ بها. عندما عدنا إلى غرفة الجلوس الدافئة عند الساعة الرابعة، أحضرت السيدة (هدسون) البرقية مع صينية شاي كبيرة. كانت موجهة إلى (هولمز)، وكان محتواها:

«هل يمكنك أن تتخيّل رجلاً يعبد مظلة؟ الأزواج غير منطقيين. يُشتبه بوجود احتيال في الماس. سوف أزورك وقت الشاي... السيدة (غلوريا كابليجر)».

فرحت برؤية وميضٍ من الاهتمام يلمع في عيني (شيرلوك هولمز) الغائرتين.

- ما هذا، ما هذا؟

قالها، وبشهية غير عادية هاجم الكعكات الساخنة بالزبدة والمربى.

- ختم بريد «هايغيت». هذه تكاد تكون منطقة راقية، وتمّ إرسالها في الساعة الثالثة وسبع عشرة دقيقة. ادرسها، يا (واطسون)!

في هذا الوقت- لأكون أكثر دقة، كان أواخر شهر ديسمبر من العام 1896 -لم أكن أعيش في شارع بيكر، لكنني أتيت لبضعة أيام لزيارة المكان القديم. تحت العنوان الرئيس لهذا العام، يسجل دفتر ملاحظاتي عدداً قليلاً من القضايا. من بين تلك القضايا واحدة فقط، قضية السيدة (روندر)، الساكنة المخمّرة، التي وجدتها مناسبة حتى الآن للتسجيل؛ ولم تمنح مشكلة السيدة (روندر) مجالاً كبيراً لقدرات صديقي الرائعة.

وهكذا دخل (هولمز) فترة وجيزة من الركود واليأس. عندما رأيت محياه المضنى تحت ضوء مصباح الطاولة المظلل، لم أستطع إلا لوم نفسي. في أيّ لحظة كانت أموري التافهة أمام التعطش لمشاكل عويصة هائجة في ذلك العقل الاستثنائي؟

تابع (هولمز)، وهو يخطف البرقية ليستردّها ويقرأها مرة أخرى:

- من الممكن أن تكون هناك امرأتان في لندن تحملان الاسم (غلوريا كابليجر) الفريد واللافت هذا. لكنني أشك في هذا.

- إذاً، أنت تعرف السيدة؟

- لا، لا، لم أرها من قبل حتى. ورغم ذلك، أتخيل أنها قد تكون اختصاصية تجميل معينة، والتي... على أي حال، ماذا تفهم من هذا؟

- حسناً، إنها تقدم تلك الميزة الغريبة التي هي عزيزة عليك جداً؛ «هل يمكنك أن تتخيل رجلاً يعبد مظلة»، لكنها صعبة بعض الشيء.

- هذا صحيح يا (واطسون). المرأة، مهما كانت مسرفة في الأمور الكبيرة، فإنها عادةً تكون مقتصدة في الأمور الصغيرة. كانت السيدة (كابليجر) مقتصدةً للغاية في استخدام أدوات التعريف إلى درجة أنني لست متأكداً على الإطلاق مما تعنيه.

- ولا أنا.

- أَيعني هذا أنّ رجلاً ما يعبد مظلّة ما، أم يعني الإنسان بشكل مجرّد؛ ربما يرغب الرجل الإنجليزي في الانحناء للمظلة باعتبارها إلهه القبلي، ودرعه الواقي من المناخ؟ على الأقل، ما الذي يمكننا أن نستنتجه منها؟

- نستنتج؟ من البرقية؟

- بالتأكيد.

كنت سعيداً لأنّني ضحكت؛ لأنني في الفترة الوجيزة نفسها كنت أشعر بالروماتيزم، وبأنني أقلّ من شاب.

- (هولمز)، ربّما لا يمكننا أن نستنتج. يمكننا فقط أن نخمّن.

- تسك. كم مرة يجب أن أخبرك أنّني لا أخمن أبداً؟ إنّها عادة مقرفة، ومدمّرة للقدرة المنطقية.

- ورغم ذلك، إذا كنت سأعتمد أسلوبك التعليمي نوعاً ما، فعليّ أن أقول إنه لا يوجد شيء يوفر فرصة أقلّ للعقل من البرقية؛ لأنها موجزة للغاية، وغير شخصية.

- إذاً، أخشى أنك ستكون مخطئاً.

- هيّا يا (هولمز)...

- ورغم ذلك، ضع في اعتبارك. عندما يكتب إلي رجل رسالة من دزينة من الصفحات، فقد يخفي طبيعته الحقيقية في سحابة من الكلمات. وعندما يكون ملزماً بأن يكون موجزاً، سأعرفه في الحال. ربما تكون قد لاحظت شيئاً مماثلاً عند المتحدثين العامين.

- لكن هذه امرأة.

- نعم يا (واطسون)، لا شك في أنّ هذه الحقيقة تحدث فرقاً، لكن أعطني وجهات نظرك. انظر! طبّق على دراسة لهذه البرقية ذكاءك الطبيعي.

وهكذا مع التحدّي، وإطرائي لنفسي؛ لأنني في الماضي لم أكن غير مساعد له تماماً، فعلت ما طُلب مني.

قلت:

- حسناً، السيدة (كابليجر)، بكلّ أكيد، لا تراعي الآخرين؛ لأنها تحدد موعداً من دون تأكيده، ويبدو أنها تعتقد أن وقتك ملكٌ لها.

- ممتاز يا (واطسون). أنت تتحسّن مع مرور السنين. ماذا أيضاً؟

اندفع الإلهام ليغمرني.

- (هولمز)، كلمة «السيدة»، في رسالة مركّزة جداً كهذه، غير ضرورية تماماً! أعتقد أنّني فهمت كل شيء!

قال (شيرلوك هولمز)، وهو يلقي منديله، ويصفق بيديه من دون إصدار صوت:

- هذا أفضل يا صديقي العزيز. سأكون سعيداً بسماع تحليلك.

- السيدة (غلوريا كابليجر)، يا (هولمز)، عروس شابة، كونها لا تزال في حالة فخر باسمها الجديد الذي حصلت عليه بعد الزواج، فهي مصرّة جداً عليه إلى درجة أنها تستخدمه حتى في هذه الرسالة. ما الذي يمكن أن يكون طبيعياً أكثر من هذا، وخاصة عندما نفكر في امرأة شابة سعيدة، وربما جميلة...

- نعم، نعم، لكن كن جيداً بما يكفي، يا (واطسون)، بأن تحذف الفقرات الوصفية، وتصل إلى الغاية.

قلت:

- يا إلهي، أنا متأكد من هذا! هذا يدعم استنتاجي المتواضع الأول أيضاً. الفتاة المسكينة غير مراعية، فلنقل، لمجرد أنّها مدللة من قبل زوج شاب حنون.

لكنّ صديقي هز رأسه.

- لا أعتقد ذلك يا (واطسون). لو كانت في أوّل اعتزازٍ قويٍّ بما يسمى نعيم الزواج، لكانت قد وقعت اسمها «السيدة (هنري كابليجر)»، أو «السيدة (جورج كابليجر)»، أو أياً كان الاسم الذي يصادف أن يكون

لزوجها، لكن في موضوع واحد، على الأقل، أنت على صواب. هناك شيء غريب، بل مزعج حتى، في كلمة «سيدة» تلك، إنها تصرّ عليها كثيراً.

- يا صديقي العزيز!

وقف (هولمز) فجأةً، وسار باتجاه كرسيه ذي الذراعين. تمّ إشعال غازنا، وكانت هناك نيران مبهجة تتصاعد أمام رذاذ المطر المعتم الداكن الذي كنا نسمعه وهو يتقاطر خارج النافذة.

لكنه لم يجلس. بينما كان متعمقاً في التركيز، قطّب حاجبيه، مد يده ببطء نحو الزاوية الجانبية اليمنى لغطاء المدخنة. اندفعتْ في كياني دفقةُ إثارة حقيقية من العاطفة عندما أخذ كمانه: كمان ستراديفاريوس القديم والمحبوب الذي أخبرني، بمزاجيته وروح دعابته السوداء، أنه لم يلمسه منذ أسابيع.

سار الضوء على طول الخشب المصقول اللامع وهو يضع الكمان تحت ذقنه ويحرّك القوس. ورغم ذلك، لقد تردد صديقي؛ أنزل الكمان والقوس مع شيء يشبه الزمجرة.

قال:

- لا، ليس لدي معطيات كافية بعد، والتنظير من دون معطيات خطأ جوهري.

قلت:

- إذاً، على الأقل، إنّه لمن دواعي سروري أن أعتقد أنني قد استنتجت من البرقية قدرَ ما استنتجت أنت.

- أوه، البرقية؟

قالها (هولمز)، كما لو أنه لم يسمع بها من قبل.

- أجل، هل كان هناك نقطة أغفلتها؟

- حسناً، يا (واطسون)، أخشى أنك كنت مخطئاً في كلّ شيء تقريباً. المرأة التي أرسلت تلك البرقية متزوجة منذ عدة سنوات، ولم تعد في شبابها الأول. إنّها إمّا من أصل اسكتلندي وإما من أصل أمريكي، متعلّمة جيداً وميسورة الحال. لكنها ليست سعيدة في زواجها وذات نزعة استبدادية. من جهة أخرى، من المحتمل أنها جميلة جداً. وعلى الرغم من أن هذه مجرد استنتاجات تافهة وواضحة، ربما تفي بالغرض.

قبل لحظات قليلة كنت آمل أن أرى (شيرلوك هولمز) في حالة مزاجية نشطة ويقظة مع ذلك الضوء الساحر في عينيه. ورغم ذلك، اهتزّ الخزف الصيني ذو الزخارف الزاهية على المناديل البيضاء كالثلج عندما ضربت الطاولة بقبضتي.

- (هولمز)، هذه المرة تماديت كثيراً في المزاح!

- عزيزي (واطسون)، أرجو معذرتك بحق. لم يكن لديّ أيّ فكرة حول أنك ستأخذ الأمر بهذه الجديّ...

- يا للعار! في التقدير الشعبي،على الأقل، يعيش السوقيّون فقط في (هامبستيد) و(هايغيت)، التي عادة ما تُلفظ من دون ملء النَفَس. أنت ربما تسخر من أنثى بائسة وغير متعلمة وصلت إلى حدّ الجوع!

- بصعوبة يا (واطسون). رغم أنّ امرأة غير متعلمة قد تحاول استخدام كلمات مثل «غير عقلاني» و«خداع»، من غير المرجح أن تتهجّاها بطريقة صحيحة. وبالمثل، لمّا كانت السيدة (كابليجر) تخبرنا أنّها تشكّ في عمليّة احتيال في مسألة تخص الماس، فقد نفترض أنها لا تقتات خبزها من صناديق القمامة.

- هي متزوجة منذ سنوات؟ وليست سعيدة في زواجها؟

- نحن نعيش في عصر الاستقامة يا (واطسون)، وأعترف بأنني أفضل ذلك.

- وما، بحق السماء، علاقة ذلك بهذه المسألة؟

- فقط المرأة التي تزوجت منذ سنوات، ومن ثمّ تجاوزت شبابها الأول، ستكتب بصراحة كهذه في برقية- تحت عين موظف مكتب البريد- عن اعتقادها بأن جميع الأزواج غير عقلانيين. يجب أن تدرك بعض علامات التعاسة، جنباً إلى جنب مع الطبيعة الاستبدادية؟ استنتاج ثانوي: لمّا كانت تهمة الاحتيال يبدو أنها تتعلق بزوجها، فلا بد من أن هذا الزواج أكثر تعاسة من غيره.

- لكن أصلها؟

- رجاءً، قم بإعادة قراءة الجملة الأخيرة من البرقية بتمعّن. فقط سكوتلاندي أو أمريكي سيقول «سوف أزورك»، عندما يكون هو، أو في هذه الحالة هي، تقصد ب«سوف» زمن المستقبل البسيط، الذي يمكن استخدامه، بطبيعة الحال، من قبل أي امرأة إنجليزية متعلمة أو غير متعلمة. هل تمت الإجابة عن سؤالك؟

- أنا - أنا - انتظر لحظة! لقد ذكرت، ليس خيالاً بل حقيقة، أنها لا بد من أن تكون جميلة!

- آه، أستطيع أن أقول فقط إن هذا محتمل. وهذه الفرضية لم تأتِ من البرقية.

- إذاً، من أين؟

- انظر، ألم أخبرك بأنني أعتقد أنها كانت اختصاصية تجميل؟ نادراً ما تكون هؤلاء السيدات في الواقع قبيحات المظهر، وإلا فإنهن لا يمثلن دعاية قوية لبضاعتهن، لكن هذه، إن لم أخطئ، هي عميلتنا الآن.

بينما كان يتكلّم، سمعنا رنين الجرس بصوت عالٍ وحازم قادماً من الأسفل. كان هناك بعض التأخير، الذي توقعت خلاله الزائرة، على ما يبدو، أن صاحبة المنزل سترافقها بشكل رسمي إلى غرفة جلوسنا. (شيرلوك هولمز)، وهو يعيد الكمان وقوسه إلى مكانهما، انتظر بترقب إلى أن دخلت السيدة (غلوريا كابليجر) الغرفة.

كانت من دون شك جميلة، وطويلة القامة، وجليلة، وذات مشية كالملكة تقريباً، رغم أنها ربما كانت متغطرسة للغاية، وذات شعر نحاسي أشقر غزير إلى حدٍّ ما، وعينين زرقاوين باردتين. كانت ترتدي فرو السمور فوق ثوب باهظ الثمن من المخمل الأزرق الغامق، وكانت ترتدي قبعة لونها بيج مزيّنة بطائر أبيض كبير.

ازدرت عرضي بخلع معطفها الخارجي، بينما كان (هولمز) يقوم بالتقديمات بلطف هادئ. ألقت السيدة (كابليجر) نظرة واحدة على الأنحاء بدا أنها تلخص، بشكل غير مواتٍ، غرفتنا المتواضعة، بسجادة

الموقد البالية المصنوعة من فرو الدب، وطاولة الكيمياء الملطخة بالحمض. ورغم ذلك، وافقت على الجلوس على كرسيي ذي الذراعين، وشبكت يديها المغطّاتين بالقفازات البيضاء في حجرها.

قالت بأدب، ولكن بصوت قويٍّ وحادّ:

- لحظة يا سيد (هولمز)! قبل أن أوافق على فعل أيّ شيء، يجب أن أطلب منك تحديد رسوم خدماتك المهنية.

كان هناك وقفة وجيزة قبل أن يجيب صديقي:

- أتعابي لا تتغيّر أبداً، إلا عندما أحولها بالإجمال.

- انظر يا سيد (هولمز)، أخشى أن تفكّر في استغلال امرأة مسكينة وضعيفة! لكن في هذه الحالة لن يفي هذا بالغرض.

- حقاً يا سيدتي؟

- لا يا سيدي. قبل أن أوظّف من ستسامحني لوصفي إيّاه بالجاسوس المحترف، وأواجه خطر دفع رسوم أعلى من اللازم. يجب أن أطلب منك، مرةً أخرى، تحديد قيمة أتعابك بالضبط.

نهض (شيرلوك هولمز) من كرسيه.

قال مبتسماً:

- أخشى، يا سيدة (كابليجر)، أن المواهب الصغيرة التي أمتلكها قد لا تنجح في مساعدتك في حلّ مشكلتك، ويؤسفني للغاية أنّك تكلّفت هذه الزيارة. أتمنى لك يوماً سعيداً يا سيدتي. (واطسون)، هلّا تفضلت بمرافقة ضيفتنا إلى الطابق السفلي؟

- توقّف!

صرخت به السيدة (كابليجر) وهي تعض بشدة على شفتها الجميلة.

هزّ (هولمز) كتفيه، وعاد مرةً أخرى إلى الكرسي المريح.

- أنت عازم جداً على الحصول على ما تريد يا سيد (هولمز)، لكنّ الأمر يستحق عشرة شلنات، أو حتى جنيهاً، لأعرف لماذا، بحقّ السماء، يعزّ زوجي هذه المظلة الرثّة المهلكة، ويعبدها، ويقدّسها، ولا يسمح لها أبداً بالابتعاد عنه حتى في الليل!

أياً كان الذي شعر به (هولمز)، فقد اختفى مع تشوّقه إلى مشكلة جديدة.

- آه! إذاً، زوجك يعبد المظلة بالمعنى الحرفي؟

- ألم أقل ذلك؟

- لا شك في أن للمظلة قيمة مالية أو عاطفية كبيرة؟

- قمة السُّخف! كنت معه عندما اشتراها قبل عامين ونصف؛ لقد دفع سبعة شلنات وستة بنسات[1] مقابلها في متجر يقع في طريق (توتنهام كورت رود).

- لكن ربما بعض الغرابة...؟

بدت السيدة (غلوريا كابليجر) كأنها تحسب بفطنة.

---

(1) في تلك الأيام كان الجنيه الإسترليني يساوي 20 شلناً، وكلّ شلن يساوي 12 بنساً؛ أي إن ما دفعه زوجها يزيد بقليل على ثلث جنيه.

- لا يا (سيد هولمز)؛ زوجي أناني وبلا إنسانية وبلا روح. هذا صحيح، لمّا كان جد-جدي من جهة أمي من عائلة (ماكراي)، في (أبردينشاير)، فأنا أحرص جيداً على إبقاء الرجل في مكانه، لكن السيد (كابليجر)، بغضّ النظر عن طبيعته الشريرة، لم يفعل أيّ شيء من دون أسباب وجيهة.

بدا (هولمز) متجهّماً.

- «بلا انسانية؟» «طبيعته الشريرة؟»؛ هذه مصطلحات خطيرة بالفعل. هل يعاملك بقسوة إذاً؟

رفعت زائرتنا حاجبيها بشكل أكثر غطرسة.

- لا، لكن ليس لديّ أدنى شك في أنه يرغب في فعل ذلك. (جيمس) وحش قوي بشكل غير طبيعي، على الرغم من أنه متوسط الطول فقط، وليس لديه ممّا يسمى البنية أكثر من عود. أفّ، يا لغرور الرجال! ملامحه غير قابلة للوصف أبداً، لكنه فخور، بشكل غير عادي، بشارب بني شديد اللمعان وثقيل للغاية، ينحني حول فمه مثل حدوة حصان. إنه يحمله على وجهه منذ سنوات. وبجانب تلك المظلة بالفعل...

قال (هولمز) بصوت خافت وبتذمّر:

- مظلة! مظلة! سامحيني على المقاطعة يا سيدتي، لكنني سأرغب في المزيد من التفاصيل عن طبيعة زوجك.

- إنه يجعله يبدو ضابط شرطة فحسب.

- عفواً؟

- أقصد الشارب.

- لكن هل يشرب زوجك؟ هل يهتم بنساء أخريات؟ المقامرة؟ هل يبقيك محتاجة إلى المال؟ ماذا... لا يفعل واحداً من هذه الأشياء؟

ردت السيدة (كابليجر) بتعالٍ:

- أفترض، يا سيدي، أنك ترغب في سماع الحقائق ذات الصلة فقط؟ الأمر منوط بك لتقديم تفسير. أود أن أسمع هذا التوضيح. سأخبرك ما إذا كان يرضيني. ألن يُبدي ذلك تربية أفضل من جهتك في حال سمحت لي بذكر الحقائق؟

انغلقت شفاه (هولمز) الرفيعة بإحكام.

- رجاءً، افعلي ذلك.

- زوجي هو الشريك الرئيس لشركة «كابليجر أند براون»، وسطاء الألماس المعروفين في (هاتون غاردن). طوال الخمسة عشر عاماً من زواجنا —يا للقرف— نادراً ما انفصلنا عن بعضنا أكثر من أسبوعين، باستثناء المرّة الأخيرة الأكثر شراً.

- آخر مرّة؟

- نعم يا سيدي. عاد (جيمس) بعد ظهر أمس فقط إلى المنزل من رحلة عمل مطوّلة استمرت ستة أشهر إلى (أمستردام) و(باريس)، كعابدٍ وثنيٍّ لتلك المظلة، كما كان دائماً. لم يكن أبداً أكثر وثنيّةً طوال العام الذي عبدها فيه.

(شيرلوك هولمز)، الذي كان جالساً وأطراف أصابعه مضغوطة ببعضها، ورجلاه الطويلتان ممدودتان، جفل جفلةً طفيفة.

سأل:

- سنة كاملة يا سيدتي؟ لكنّك قلت منذ لحظة إن السيد (كابليجر) قد اشترى المظلة منذ عامين ونصف العام. هل أفهم أنّ عبادته - تعود إلى عام واحد فقط؟

- يمكنك بالتأكيد أن تفهم الأمر هكذا، أجل.

- هذا موحٍ! هذا موحٍ للغاية!

بدا صديقي مستغرقاً في التفكير.

- لكنه موحٍ بماذا؟ نحن —نعم، نعم، (واطسون)؟ ما الأمر؟ تبدو كأنك قد فقدتَ صبرك.

على الرغم من أنه غالباً لم أكن لأجرؤ على إعطاء اقتراحي قبل أن يطلبه (هولمز)، لم أستطع كفّ نفسي عن ذلك هذه المرّة.

صرخت:

- (هولمز)، بالتأكيد هذه المشكلة ليست صعبة للغاية؟ إنّها مظلة لها مقبض منحنٍ، وربما يكون سميكاً. في مقبض مجوّف، أو ربما في جزء آخر من المظلة، سيكون من السهل إخفاء الماس أو أشياء قيّمة أخرى.

لم تتنازل ضيفتنا لتنظر إليّ حتى.

- هل تتخيل أنني كنت سأتنازل وآتي لزيارتك، يا سيد (هولمز)، إذا كانت الإجابة بهذه البساطة؟

سأل (هولمز) بسرعة:

- هل أنت متأكدة من أنّ هذا ليس هو التفسير الصحيح؟

قالت السيدة، التي بدا مظهرها الجميل في الحقيقة حاداً كالسكين:

- متأكدة تماماً. أنا حادة الذكاء يا سيد (هولمز). أنا ذكية للغاية. اسمح لي أن أوضح. لسنوات بعد زواجي، وافقت على الإشراف على صالون «مدام دوباري» للتجميل في شارع (بوند). لماذا تعتقد أن ابنة عائلة (ماكراي) ستتنازل، وتستخدم لقباً مثل (كابليجر)، الذي هو مفتوح أصلاً لتعليقات ذات روح دعابة بدائية؟

- أجل, يا سيدتي؟

- قد يحدق العملاء أو العملاء المحتملون في اسمٍ كهذا، لكنهم سيتذكرونه.

- نعم، نعم، أعترف بأنني رأيت هذا الاسم على واجهة المحل، لكنك تحدثتِ عن المظلة؟

- ذات ليلة قبل نحو ثمانية أشهر، بينما كان زوجي نائماً، دخلت خفية إلى غرفة نومه من غرفتي، وأزحت المظلة من جانب سريره، وأخذتها إلى الطابق السفلي إلى حِرَفيّ.

- حِرفيّ؟

- شخص فظّ، يعمل في صناعة المظلات، كنت قد استدعيته إلى «هابينيس فيلا»، «ذي أربور»، «هايفيت»، لهذا الغرض. قام هذا الشخص بتفكيك المظلة وإعادة تجميعها ببراعة شديدة إلى درجة أنّ زوجي لم يعلم أبداً أنّه قد تمّ فحصها.

لم يكن هناك أيّ شيء مخفيّ داخلها؛ لا شيء مخفياً داخلها؛ ولا شيء يمكن إخفاؤه داخلها. إنها مظلة رثة، ليس أكثر.

- رغم ذلك، يا سيدتي، هو ربما يعتقد فقط أنّ المظلة شيء في غاية الأهمية مثلما أن بعض الرجال يتعلّقون بتميمة جالبة للحظ السعيد.

- على العكس يا سيد (هولمز)، إنه يكرهها. قال لي في أكثر من مناسبة: «سيدة (كابليجر) هذه المظلة ستكون سبب موتي؛ ورغم ذلك يجب ألا أتخلى عنها!».

- همم! لم يقدم المزيد من الشرح؟

- لا. ولنفترض حتى أنّه يحتفظ بالمظلّة كتميمة جالبة للحظ، وهو ما لا يفعله! عندما يتركها وراءه في لحظة انشغالٍ لبضع ثوانٍ فقط، في المنزل أو المكتب، لماذا يطلق صرخة هلع، ويُسرِع عائداً إليها؟ إن لم تكن غبياً يا سيد (هولمز)، فلا بد من أن لديك نظرية ما، لكنني أرى أنّ الأمر يفوق قدرتك.

أصبح (هولمز) كئيباً بسبب الغضب والعار.

قال:

- إنها مشكلة صغيرة جداً. في الوقت نفسه، لا أستطيع أن أرى الإجراء الذي يمكنني اتخاذه. حتى الآن لم أسمع أيّ حقائق تشير إلى أنّ زوجك مجرم، أو على الأقل شرير.

- إذاً، لم يكن هذا جريمة، كما أجرؤ على القول، عندما سرق أمس عدداً كبيراً من الماسات من خزنة تخصّه هو وشريكه في العمل بشكل مشترك، السيد (مورتيمر براون)؟

رفع (هولمز) حاجبيه.

- حسناً. هذا يصبح أكثر إثارة للاهتمام.

قالت زائرتنا الجميلة ببرود:

- أوه، نعم. أمس، قبل عودته إلى المنزل، قام زوجي بزيارة مكتبه، ووصلتْ بعد ذلك إلى منزلنا برقيّةٌ أرسلها إليه السيد (مورتيمر براون)، ونصّها الآتي:

«هل نقلت من خزنتنا 26 ماسة تنتمي إلى مجموعة "كوويلز ديرنينفهام"؟».

- هممم، هل أراك زوجك البرقيّة، إذاً؟

- لا، أنا فقط مارست حقّي الكامل في فتحها.

- لكنّك سألته عن محتوياتها؟

- بالتأكيد لا؛ لأنني فضلت أن أنتظر بهدوء. في وقت متأخّر من الليلة الماضية، رغم أنه كان يشكّ قليلاً في أنّني تبعته، تسلّل زوجي إلى الطابق السفلي وهو يرتدي ثيابه الل... - تسلل إلى الطابق السفلي، وأجرى محادثة هامسة في الضباب مع شخص غير مرئي خارج نافذة في الطابق الأرضي مباشرة. تمكنت من سماع جملتين فقط. قال زوجي: «كن خارج البوابة قبل الثامنة والنصف من صباح الخميس. لا تخذلني!».

- وماذا ظننتِ أن ذلك يعني؟

- خارج بوابة منزلنا، بطبيعة الحال! زوجي يغادر دائماً إلى مكتبه بالضبط في الساعة الثامنة والنصف. ويوم الخميس، يا سيد (هولمز)، الذي هو صباح الغد! أياً كان المخطط الإجرامي، الذي أعده هذا البائس، سيؤتي ثماره غداً، لكن يجب أن تكون هناك لكي تتدخّل.

تسللت أصابع (هولمز) الطويلة والرفيعة نحو رفّ المدفأة كما لو أنّه كان يبحث عن غليون، لكنّه سحب يده إلى الخلف.

- في الثامنة والنصف صباح الغد يا سيدة (كابليجر)، بصعوبة ستكون هناك ومضة من نور النهار.

- بالتأكيد هذا لا يهمك! يدفعون لك للتجسس في جميع الظروف الجوية. يجب أن أصرّ على أن تكون هناك على الفور وأنت غير مخمور.

- الآن حباً في الله يا سيدتي...!

- وأخشى أنّ هذا هو كلّ الوقت الذي يمكنني تخصيصه لك الآن. في حال كانت أتعابك أكثر من رمزية، أو ما أعدّه أنا معقولاً، لن يتمّ دفعها. يوماً سعيداً يا سيدي. يوماً سعيداً!

انغلق الباب خلفها.

قال (هولمز)، مع تورّد مريرٍ على وجنتيه النحيفتين:

- أتعرف، يا (واطسون)، لو لم أكن أشتهي مشكلةً كهذه، في الواقع أشتهيها...

رغم أنّه لم يكمل الجملة، أحسستُ بالمشاعر نفسها التي لا بدّ من أنّه قد شعر بها.

- (هولمز)، تلك السيّدة ليست اسكتلندية حقيقية! وفوق ذلك، على الرغم من أنّه يحزنني أن أقول هذا، أراهن بنصف أجر عامٍ على أنه لا توجد أيّ علاقة تربطها بـ (ماكراي).

- يبدو أنّك قريب بعض الشيء، يا (واطسون)، في موضوع موطن أسلافك. ورغم ذلك، لا يمكنني أن ألومك. مثل هذا السلوك كسلوك السيدة (كابليجر) يصبح سخيفاً عندما يُقلّد، لكن كيف من الممكن فهم سرّ المظلة؟

عندما ذهبت إلى النافذة، وصلت في الوقت المناسب لأرى الطائر الأبيض على قبعة الزائر الراحل وهو يختفي داخل عربة ذات أربع عجلات. مرت حافلة عمومية بلون الشوكولاتة في خط شارع بيكر وواترلو، واهتزت وهي تعبر الغسق المتعمّق. كان الركاب الخارجون من الحافلة العمومية، الاثنا عشر كلهم، رافعين مظلاتهم تحت سقوط مطر أشد وأكثر برودة. عندما رأيت غابة من المظلات، التفتّ بعيداً عن النافذة بيأس.

- (هولمز)، ماذا ستفعل؟

- حسناً، لقد تأخر الوقت قليلاً لتعقّب خط استفسار واضح في «هاتون غاردن». السيد (جيمس كابليجر)، بشاربه اللامع ومظلته الثمينة، يجب أن ينتظر حتى الغد.

وفقاً لذلك، مع عدم وجود هاجس من الصاعقة القادمة، رافقت صديقي إلى «هابينيس فيلا»، «ذي أربور»، «هايغيت»، في الساعة الثامنة وعشرين دقيقة من صباح اليوم التالي.

كان الظلام دامساً عندما تناولنا الإفطار على ضوء الغاز، لكن المطر كان قد توقف، وصفت السماء لتتحوّل إلى برد شديد وهادئ. عندما أنزلتنا عربة ذات عجلتين أمام منزل السيد والسيدة (كابليجر)، كان هناك ما يكفي من الضوء الرمادي لنتمكّن من رؤية معالم محيطنا.

كان المنزل كبيراً، على بعد نحو ثلاثين ياردة من الطريق، خلف جدار حجري يصل ارتفاعه إلى الخصر. تمّ بناؤه من الجصّ على الطراز القوطي، وكان ذا شرفات زائفة ذات فتحات، وبرج زائف أيضاً. حتى الباب الأمامي تم وضعه داخل مدخل مغطى بالألواح خلف قوس قوطي مفتوح. على الرغم من أن المدخل رابض في الظلام، هناك نافذتان تضيئان بوهج أصفر على الأرض التي أعلاه.

(شيرلوك هولمز)، وهو يرتدي رداء انفيرنيس، وقبعة السفر ذات غطاءَي الأذنين، نظر حوله بتلهّف.

- أها!

قالها وهو يضع يده على جدار يصل ارتفاعه إلى الخصر على طول الطريق.

- نصف دائرة من طريق خاص[1]، كما أرى، يدخل الأرض من خلال بوابة في الحائط هناك...

وأومأ برأسه نحو نقطة على مسافة ما أمامنا على الرصيف...

- يمرّ الطريق الخاص من الباب الأمامي، مع وجود طريق فرعي

(1) أي طريق يربط بين الطريق العام وداخل المنزل.

ضيق باتجاه مدخل التجار، ويعود إلى الطريق عبر بوابة ثانية في الجدار – هنا بجانبنا. هلو، انظر هناك!

– هل هناك خطب ما؟

– انظر إلى الأمام يا (واطسون)! هناك، عند البوابة البعيدة في الجدار! لا يمكن أن يكون هذا المفتش (ليستريد)؟ يا إلهي! إنه (ليستريد)!

رجل نحيل يشبه كلب بولدوغ صغير؛ كان يرتدي خوذة ومعطفاً كبيراً ذا نقوش مربعة؛ كان يسارع نحونا على طول الرصيف؛ كان بإمكاني أن أرى خلفه خوذات لاثنين على الأقل من ضباط الشرطة، مثل التوءم بلباسهما الأزرق وشاربيهما الثقيلين.

صاح (هولمز):

– لا تخبرني يا (ليستريد) أنّ السيدة (كابليجر) قامت أيضاً بزيارة إلى سكوتلانديارد؟

قال (ليستريد) برضى تام:

– لو فعلت ذلك، يا سيد (هولمز)، فستكون قد ذهبت إلى المتجر الصحيح. مرحباً دكتور (واطسون)! لا بد أنه قد مرّ خمسة عشر عاماً ونيّف منذ أن التقيتك أول مرة، لكنّ السيد (هولمز) هنا لا يزال المُنَظِّر، وأنا ما زلت الرجل العملي.

قال (هولمز):

– أسرع يا (ليستريد)! لا بدّ من أن تكون السيدة قد أخبرتكم القصة نفسها التي أخبرتنا بها. متى قامت بزيارتك؟

- صباح أمس. نحن نتحرّك بسرعة في سكوتلانديارد. أمضينا بقية اليوم في التحقيق مع السيد (جيمس كابليجر).

- حقاً؟ وماذا اكتشفت؟

- حسناً، الجميع يقدرون هذا الرجل، ويبدو أنّهم يحبّونه. خارج ساعات العمل، يكون قارئاً مجتهداً، تقريباً دودة كتب، وزوجته لا تحبّ ذلك. لكنهم يقولون إنه مقلد رائع، ولديه حسّ دعابة رائع.

- أجل، تخيلت أنه يجب أن يتمتع بروح الدعابة.

- هل التقيت به يا سيد (هولمز)؟

- لا، لكنني قابلت زوجته.

- على أيّ حال، التقيتُ به الليلة الماضية. قمت بزيارة لتقييمه. أوه، فقط بذريعة! لم أفعل شيئاً يحذّره بطبيعة الحال.

أجاب (هولمز) مع تذمّر:

- لا، بطبيعة الحال، لا. أخبرني يا (ليستريد): ألم تكتشف أن هذا الرجل يتمتع بسمعة أنه صادق تماماً؟

قال (ليستريد) مع نظرة ماكرة:

- نعم، هذا ما يجعل الأمر مريباً للغاية. يا إلهي، سيد (هولمز)! لا بد لي من أن أعترف بأنني لا أحبّ زوجته كثيراً، لكنّ لديها ذهناً صافياً جداً. يا إلهي! سأضع الأصفاد في يدي ذلك الرجل قبل أن تتمكّن من قول (جاك روبنسون)!

- يا عزيزي (ليستريد)! سوف تضع الأصفاد في يديه من أجل أيّ تهمة؟

- بطبيعة الحال، لأنّ ... توقف!

صرخ (ليستريد).

- هيي! أنت، هناك! قف حيث أنت!

كنا قد تقدمنا لمقابلة (ليستريد) إلى أن أصبحنا جميعاً في منتصف الطريق بين البوابتين اللتين في الجدار المحيط المنخفض الارتفاع. الآن اندفع (ليستريد) من أمامنا باتجاه البوابة، التي كنا نقف بالقرب منها في البداية. هناك، كما لو أنه قد تم استحضاره من ظلمة الصباح الباردة، كان رجلٌ سمين أحمر الوجه، يبدو متوتراً نوعاً ما، يرتدي قبعة رمادية طويلة ومعطفاً رمادياً جميلاً.

- يجب أن أطلب منك يا سيدي...

صاح به (ليستريد) بوقارٍ أكثر عندما لاحظ ملابس الوافد الجديد الباهظة الثمن...

- أن تذكر اسمك، وأن تذكر شيئاً عن نفسك.

الوافد الجديد المهيب، الذي أصبح أكثر توتراً، تنحنح.

قال:

- هذا مؤكّد. اسمي (هارولد مورتيمر براون)، وأنا شريك السيد (كابليجر) في شركة «كابليجر أند براون». لقد صرفت عربتي لمسافة قصيرة على الطريق. أنا ... إر ... أعيش في جنوب لندن.

قال (ليستريد):

- أنت تعيش في جنوب لندن، ورغم ذلك قطعت كل هذه المسافة إلى مرتفعات شمال لندن؟ لماذا؟

تدخّل (هولمز) بدماثة، وهو ما جلب الراحة للرجل ذي الوجه المتورّد:

- عزيزي، السيد (مورتيمر براون)، يجب أن تسامح هذا الاندفاع من جانب صديقي القديم المفتش (ليستريد)، الذي هو من سكوتلانديارد. اسمي (شيرلوك هولمز)، وسأكون مديناً لك بشدّة إذا كنت طيباً بما يكفي للإجابة عن سؤال واحد فقط: هل حقاً سرق شريكك...

صرخ (ليستريد) مرةً أخرى:

- توقّف!

هذه المرة استدار سريعاً لينظر إلى البوابة البعيدة. كانت هناك عربة حليب؛ كانت علب الحليب الكبيرة، التي كانت العربة مثقلة بها، تصدر صوت نقرٍ معدني كالصليل مع حركة حوافر الحصان؛ تدخل وهي تهتز عبر تلك البوابة، وعلى منعطف الطريق المفروش بالحصى، نحو المنزل المغطى بالجص القوطي.

ارتجف (ليستريد) مثل كلب البولدوغ الصغير الذي كان يشبهه.

صرخ قائلاً:

- عربة الحليب تلك ستتطلب المراقبة. على أيّ حال، دعونا نأمل أنها لن تعيق رؤيتنا البابَ الأمامي.

لحسن الحظ، لم تعق رؤيتنا. قفز بائع الحليب، وهو يصفر بمرح، من العربة، وذهب إلى المدخل لملء إبريق الحليب الصغير، الذي وجدنا لاحقاً أنه كان ينتظره خارج الباب الأمامي، لكن لم يكد يختفي تحت قوس المدخل القوطي، حتى طُرد من ذهني كلّ التفكير بعربة الحليب.

- سيد (هولمز)!

همس (ليستريد) بصوت متوتر.

- ها هو هناك!

من الواضح أننا سمعنا صوت انغلاق الباب الأمامي بقوة. كان مظهره مميزاً بقبعته اللامعة، ومعطفه الثقيل؛ ظهر في الطريق الخاص رجل بشارب واضح استنتجت، بما يكفي من الصحّة، أنه السيد (جيمس كابليجر) وهو في طريقه إلى مكتبه.

كرر (ليستريد):

- سيد (هولمز)! إنه لا يحمل مظلته!

كان الأمر كما لو أن تفكير (ليستريد) نفسه قد طار عبر العزلة الكئيبة إلى دماغ السيد (كابليجر). فجأةً توقف سمسار الماس في الطريق كما لو أنه قد صُدم. رفع نظره إلى السماء، وهو يطلق صرخةً بلا كلمات، أعترف بأنها أصابت قلبي بالقشعريرة، اندفع عائداً إلى المنزل.

وانغلق الباب الأمامي مرة أخرى بقوّة. بائع الحليب، الذي من

الواضح أنه كان مندهشاً، استدار لينظر إلى الوراء، وقال شيئاً غير مسموع قبل أن يصعد إلى مقعد العربة.

قال (ليستريد) وهو يفرقع أصابعه:

- لقد فهمت الأمر كلّه. يعتقدون أنهم يستطيعون أن يخدعوني، لكنهم لا يستطيعون. سيد (هولمز)، يجب أن أوقف بائع الحليب ذاك!

- حباً في الله، لماذا عليك أن توقف بائع الحليب؟

- كان هو والسيد (كابليجر) قريبين أحدهما من الآخر في ذلك المدخل. لقد رأيتهما! كان بإمكان السيد (كابليجر) إعطاء الماس المسروق إلى شريكه، بائع الحليب.

- لكن يا عزيزي (ليستريد)...

لم يسمع الرجل من سكوتلانديارد. وبينما كانت عربة الحليب تندفع نحو البوابة التي وقفنا عندها، أسرع إلى الأمام، ورفع يده في طريقها حتى يصبح السائق، مع شتيمة، مضطراً إلى شد لجام حتى هذا الحصان البطيء الحركة.

قال (ليستريد) بصوته المتذمر:

- لقد رأيتك من قبل. انظر بوضوح، الآن؛ أنا ضابط شرطة. أليس اسمك (هانيبال ثروغمورتون)، واسمك المستعار (فيليكس بورتيوس)؟

فتح بائع الحليب، ذو الوجه الطويل والحليق الذقن، فمه من الدهشة.

رد بحرارة:

- أنا اسمي (آلف بيترز)، وها هي بطاقة البائع الجوال التي تخصني، وعليها صورتي، وتوقيع المدير اللامع لإثبات ذلك! من تظنني، الحاكم - (سيسيل رودس)[1]؟

- هيّا تحرّك، يا صديقي، أو ستجد نفسك واقعاً في مأزق. انزل من العربة! أجل، هذا هو؛ انزل!

هنا التفت (ليستريد) إلى الشرطيين اللذين رافقاه.

- (بيرتون)! (موردوك)! فتّشا بائع الحليب هذا!

كُتمت صرخة احتجاج (آلف بيترز) عندما أمسك به ضابطا الشرطة. رغم أنه كان نحيلاً ومتوسط الطول فقط، أبدى (بيترز) مقاومة لا بأس بها؛ حيث إن دقائق مرّت قبل أن يتمكن ضابطا الشرطة من إنهاء تفتيشهما. لم يعثرا على أي شيء.

- إذاً، يجب أن تكون الماسات في واحدة من علب الحليب ذات سعة خمسة جالونات! ليس لدينا وقت لطرق المراعاة واللياقة. اسكبا الحليب على الأرض!

لا يمكن تسمية لغة بائع الحليب الحانق، عند الانتهاء من تنفيذ ذلك، بأي شيء سوى «غير لائقة».

سأل (ليستريد):

- ماذا، لا شيء هناك أيضاً؟ حسناً، ربما ابتلع الماسات. هل نأخذه إلى أقرب مركز شرطة؟

---

(1) سيسيل رودس (Cecil Rhodes): سياسي ورجل أعمال واستعماري إنجليزي معروف، كان رئيساً لوزراء مستعمرة الكيب في جنوب أفريقيا.

صرخ (آلف بيترز):

- أوه، يا للعجب، إنه لا يليق بأن يكون رخواً؛ إنه غبي للغاية! لماذا لا يأخذ فأساً لعيناً، ويحطم هذه العربة اللعينة؟

كان صوت (هولمز) الصارم والمهيمن هو الذي أعاد النظام.

- (ليستريد)! كن لطيفاً ودع (بيترز) يرحل. أولاً، من غير المحتمل أن يكون قد ابتلع ستاً وعشرين ماسة. ثانياً، إذا رغب السيد (كابليجر) في إعطاء الماس لشريكه في الجريمة، فلماذا لم يفعل ذلك في وقت متأخر من ليلة الثلاثاء، عندما أجرى محادثة سرية مع شخص ما عند نافذة بالطابق الأرضي؟ سلوكه بالكامل، كما وصفته زوجته، يصبح غير عقلاني مثل سلوكه مع المظلة. إلا إذا...

كان (شيرلوك هولمز) يقف وهو في حالة من الشك المزاجي، ورأسه إلى الأمام وذراعاه متشابكتان داخل ردائه. الآن، نظر أولاً نحو مدخل التجار، ثم باتجاه مقدمة المنزل، ورفع رأسه. حتى طبيعته الباردة والخالية من العواطف لم تستطع كبح الصرخة التي صعدت إلى شفتيه. ظل ساكناً للحظة، وقوامه الطويل والنحيل محدّد تحت السماء المضيئة.

قال:

- يا إلهي يا (ليستريد)! لقد استغرق السيد (جيمس كابليجر) وقتاً طويلاً نوعاً ما في العودة مع مظلته.

- ماذا يعني هذا يا سيد (هولمز)؟

- قد أجرؤ على قول نبوءة تافهة؛ قد أجرؤ على قول أن السيد (كابليجر) قد رحل، وأنه قد اختفى الآن من المنزل.

صرخ (ليستريد):

- لكن لا يمكن أن يكون قد اختفى من المنزل!

- هل لي أن أسأل: لم لا؟

- لأنني قمت بوضع ضباط شرطة على طول محيط المنزل، في حال حاول الهرب منّا. كل الأبواب والنوافذ مراقبة! ولا حتى الجرذ يمكنه أن يخرج من ذلك المنزل من دون أن يُرى، ولا يمكنه أن يخرج الآن.

- ورغم ذلك، يا (ليستريد)، يجب أن أكرر نبوءتي الصغيرة. إن فتشت المنزل، أعتقد أنك ستجد أن السيد (كابليجر) قد اختفى مثل فقاعة صابون.

توقف فقط ليضع صافرة الشرطة على شفتيه. اندفع (ليستريد) نحو المنزل. استغل (آلف بيترز)، بائع الحليب، هذه الفرصة ليستحث حصانه، ويبتعد بشكل محموم، كما لو كان يهرب من مجنون خطير. حتى السيد (مورتيمر براون)، على الرغم من مهابته الموقّرة ووجهه المتورّد، ركض على الطريق وهو يمسك قبعته على برأسه، ومن دون أن يجيب على أي استفسار كان صديقي يرغب في سؤاله.

قال (هولمز) بأسلوبه المستبد:

- اصمت يا (واطسون). لا، لا، أنا لا أمزح في ما أقوله. ستجد الأمر بسيطاً للغاية عندما تدرك أهمية نقطة واحدة.

- وما تلك النقطة؟

قال (شيرلوك هولمز):

- السبب الحقيقي وراء تعلّق السيد (كابليجر) بمظلته.

ببطء أصبح نور السماء أقوى ليتحوّل إلى سطوع شتوي إلى درجة أن النافذتين المضاءتين بالغاز، اللتين قلت عنهما إنهما تتوهجان من طابق علوي، أصبحتا باهتتين بسبب نور الشمس.

استمر البحث بلا توقف، مع عدد أكبر بكثير من رجال الشرطة مما بدا ضرورياً.

بعد مرور ساعة كاملة، لم يتحرك خلالها (هولمز)، هرع (ليستريد) خارجاً من المنزل. كانت تعلو وجهه نظرة رعب أعلم أنها انعكست على وجهي.

- هذا صحيح يا سيد (هولمز)! قبعته ومعطفه ومظلته جميعها ملقاة داخل الباب الأمامي. لكن ...

- أجل؟

- مستعد لأن أقسم إن الوغد ليس مختبئاً في المنزل، ورغم ذلك كلهم يقسمون إنه لم يغادره أبداً!

- من في المنزل الآن؟

- زوجته فقط. الليلة الماضية، بعد أن تحدثت معه، يبدو أنه أعطى الخدم ليلة إجازة. تقريباً أبعدهم عن المنزل، كما تقول زوجته، من دون أيّ تحذير. لم يعجبهم ذلك كثيراً، يتساءل بعضهم إلى أين يجب أن يذهبوا، لكن لم يكن لديهم خيار آخر.

صفّر (هولمز).

قال:

- الزوجة! بالمناسبة، كيف لم نرَ أو نسمع السيدة (غلوريا كابليجر) خلال كلّ هذه الجلبة؟ هل من الممكن أن تكون قد خُدّرت الليلة الماضية؟ أنها وجدت نفسها تزداد نعاساً بشكل لا يقاوم، ولم تستيقظ إلا مؤخراً؟

تراجع (ليستريد) خطوة كما لو أنه قد رأى ساحراً.

- سيد (هولمز)، لماذا تعتقد أن الأمر كان كذلك؟

- لأنه لم يكن من الممكن أن يكون أيّ شيء آخر.

- حسناً، إنها حقيقة لا ريب فيها. السيدة معتادة على شرب كوب من مرق اللحم الساخن قبل ساعة من الذهاب إلى الفراش. كان مرق اللحم الليلة الماضية مغطساً فيه مسحوق الأفيون؛ حيث لا تزال هناك آثار في الكوب.

اسودّ وجه (ليستريد) من الغضب.

- لكن أقسم إنه كلّما قلت رؤيتي لتلك السيدة كان ذلك محبباً إلي أكثر.

- على الأقل، لقد تعافت جيداً، لأنني أراها الآن عند النافذة.

قال (ليستريد):

- لا تهتم بها. أخبرني فقط كيف اختفى سمسار الماس السارق من أمام أعيننا!

قال(هولمز):

- بالتأكيد هناك تفسير واحد فقط. غادر السيد (كابليجر) بطريقة سرية أو من خلال ممر سرّي.

صاح (ليستريد):

- لا يوجد شيء كهذا.

قال (هولمز):

- أنا أتفق تماماً مع هذا. هذا منزل حديث، يا (واطسون)، أو على الأقل منزل تم بناؤه خلال العشرين عاماً الماضية. نادراً ما يضيف البنّاؤون اليوم، على عكس أسلافهم، ممراً سرياً، لكن لا يمكنني أن أرى، يا (ليستريد)، أيّ شيء آخر يمكنني أن أفعله هنا.

- لا يمكنك المغادرة الآن!

- لا أغادر؟

- لا! قد تكون منظّراً وغير عملي، لكن لا يمكنني إنكار أنك قدمت لي القليل من المساعدة مرة أو مرتين في الماضي. إذا تمكنت من تخمين طريقة اختفاء رجل بمعجزة، فمن واجبك كمواطن أن تقول لي.

تردد (هولمز).

قال:

- حسناً. هناك أسباب تجعلني أفضل التزام الصمت في الوقت الحالي، لكن ربما أعطيك تلميحاً. هل فكرت في التنكر؟

بعضَ الوقت، أمسك (ليستريد) خوذته بكلتا يديه. استدار فجأة ونظر إلى النافذة؛ حيث كانت السيدة (كابليجر) تتأمل العدم بغطرسة متعالية، وابدت أن لا شيء يمكن أن يهزّها.

همس (ليستريد):

- يا إلهي، عندما كنت هنا الليلة الماضية، لم أر أبداً السيد والسيدة (كابليجر) معاً. قد يكون هذا هو سبب وجود الشارب المزيّف الذي وجدته مخبأً في الممر. كان هناك شخص واحد فقط في ذلك المنزل هذا الصباح، ولا يزال هناك شخص واحد. هذا يعني ...

الآن جاء دور (هولمز) ليُفاجأ.

(ليستريد)، ما الذي خطر في بالك في هذا الموعد المتأخر؟

- لا يمكنهم خداعي. إذا كان السيد (كابليجر) هو نفسه السيدة (كابليجر)، وإذا كان هو أو هي قد خرج من المنزل بملابس رجل، ثم عاد إلى الداخل مرة أخرى، فلقد فهمت كل شيء الآن!

- (ليستريد (اتوقف! انتظر!

قال (ليستريد) وهو يندفع نحو المنزل:

- لدينا باحثات إناث هذه الأيام؛ سيثبتَن قريباً ما إذا كانت سيّدةً أم سيّداً.

صرختُ:

- (هولمز)، هل يمكن أن تكون هذه النظرية الشنيعة صحيحة؟

- هذا هراء يا (واطسون).

- إذاً، يجب عليك أن تقيّد (ليستريد). يا زميلي العزيز.

قلتها مجادلاً الآن؛ حيث اختفت السيدة (كابليجر) من النافذة، وأشارت صرخة أنثى ثاقبة إلى أن (ليستريد) قد نقل المعلومة التي تخص ما اقترح القيام به.

- هذا لا يليق بك. مهما كان ما رأيناه في سلوك السيدة، وخاصة عندما تأمرك بأن تكون هنا، وأنت لست في حالة ثُمالة، عليك أن تجنّبها إهانة الزيارة القسرية إلى مركز الشرطة!

قال بتمعّن:

- رغم ذلك، ليس مؤكّداً لدي أبداً أن السيدة ستتأذّى بشدة من زيارة قسرية كهذه. في الواقع، قد تساعد على تلقينها درساً مفيداً. لا تجادل يا (واطسون)! لدي مهمة لك.

- ولكن...

- يجب أن أتابع بعض خطوط التحقيق التي قد تستغرق اليوم بطوله؛ وفي غضون ذلك، لمّا كان عنواني متاحاً بسهولة لأيّ شخص، فأنا متأكد من أنّ السيد (مورتيمر براون) سيرسل إلي برقية معينة. لذلك سأكون ممتناً، يا (واطسون)، إذا انتظرت في مسكننا، لتفتح البرقية إذا وصلت قبل عودتي.

لا بد من أن مزاج (ليستريد) معدٍ؛ وإلا فأنا لا أعرف لماذا كان يجب علي أن أعود بسرعة إلى شارع بيكر، وأنا أصرخ على سائق عربة الأجرة قائلاً إنني سأعطيه جنيهاً إذا أوصلني إلى هناك خلال ساعة.

لكن البرقية المتوقعة من السيد (مورتيمر براون) وجدتني وأنا أناقش عشاء منتصف النهار، وقد أضافت صدمة جديدة. كان نصّها:

«آسف لمغادرتي السريعة للغاية هذا الصباح. يجب أن أقول بصراحة إنني دائماً كنت شريكاً بالاسم فقط في «كابليجر أند براون»، التي تعود أصولها بالكامل إلى السيد (جيمس ب. كابليجر). سؤالي الذي أرسلته في البرقية عن الست والعشرين ماسة من عملية شراء (كوويلز-دانينغهام) كان سببه الحذر في التأكد من إحضار هذه الماسات بأمان إلى المنزل. إذا أخذ هو الماسات، فلديه الحق الكامل في أخذها. —(هارولد مورتيمر براون)».

إذاً، لم يكن (جيمس كابليجر) لصاً! لكن، إذا لم يكن يقصد الهروب من العدالة، كنت في حيرة من أمري في ما يخص سلوكه. كانت الساعة السابعة في تلك الليلة، وسمعت صوت خطى (هولمز) المألوف على السلالم، عندما جاءني الإلهام.

صرخت عندما تحرّك مقبض الباب:

- رجاءً ادخل: لأنني وجدت التفسير الوحيد المعقول أخيراً!

بعد أن فتح الباب بسرعة، نظر (هولمز) سريعاً في أنحاء الغرفة، وبدت خيبة الأمل على وجهه.

- ماذا، ليس هناك زائر؟ رغم ذلك، ربما أنا جئت مبكراً؛ أجل، جئت مبكراً. يا عزيزي (واطسون)، أعتذر. ما الذي كنت تقوله؟

قلت بينما كان هو يقرأ البرقية:

- لو أن السيد (كابليجر) قد اختفى في الواقع، لكانت هذه المعجزة التي سمّاها (ليستريد)، لكن المعجزات لا تحدث في القرن التاسع عشر. (هولمز)، وسيط الألماس هذا بدا فقط كأنه اختفى. لقد كان هناك طوال الوقت، لكننا لم ننتبه إليه.

- كيف ذلك؟

- لأنه تنكر في هيئة شرطي.

(هولمز)، الذي كان يقوم بتعليق ردائه وقبعته القماشية على الخطاف الذي خلف الباب، استدار وحاجباه الداكنان مشدودان معاً. قال:

- أكمل!

- في هذه الغرفة ذاتها، يا (هولمز)، قالت السيدة (كابليجر) إن شارب زوجها جعله يشبه الشرطي. ونحن نعرفه على أنه مُقلّد رائع، يتمتع بروح دعابة مستهجنة. سيكون من السهل شراء زي شرطي تنكري. بعد الاتجاه الخاطئ الذي سار به خارجاً من المنزل، وعائداً إلى الداخل مرة أخرى، بعدها ارتدى الزي. في الضوء الخافت، مع وجود الكثير من رجال الشرطة حوله، تحرّك من دون أن ينتبه إليه أحد إلى أن تمكن من الهرب.

- ممتاز يا (واطسون)! فقط عندما أكون مع (ليستريد) أتعلم كيف أقدرك. بالفعل جيد جداً.

- هل وجدتُ الحل؟

- أخشى أنه ليس جيداً بما يكفي. لقد قالت السيدة (كابليجر) أيضاً، إذا كنت تتذكر أن زوجها كان متوسط الطول وبنيته ليست أكبر من عود، وهو ما قصدت به أنه كان إما نحيلاً وإما هزيلاً. وكانت هذه حقيقة تثبتُ منها اليوم من خلال العديد من صوره التي في غرفة الجلوس في «هابينيس فيلا». لم يكن بإمكانه تقليد طول أو عضلات ضابط من شرطة العاصمة.

- لكن تفسيري هذا هو آخر تفسير معقول!

- لا أعتقد ذلك. هناك شخص واحد فقط يلبي متطلباتنا من حيث الطول والبنية، وهذا الشخص...

كان هناك ضجيج عالٍ وصرير معدني صادران من الجرس في الأسفل.

قال (هولمز):

- أصغ! إنه الزائر، الخطوة التي على السلالم، لمسة الدراما التي لا أستطيع مقاومتها! من سيفتح ذلك الباب يا (واطسون)؟ من سيفتح الباب؟

انفتح الباب. وقف زائرنا على العتبة وهو يرتدي ملابس السهرة، مع رداء وقبعة قابلة للطي. وجدت نفسي أنظر وأنا لا أصدق إلى وجه طويل وحليق ومألوف.

قال (هولمز):

- مساء الخير يا سيد (آلف بيترز). أم يجب أن أقول السيد (جيمس كابليجر)؟

لقد أصابني إدراك ذلك كالضربة، وأنا فوجئت تماماً.

تابع (هولمز) بصرامة:

- يجب أن أهنئك. إن انتحالك شخصيّة بائع الحليب المظلوم كان مثيراً للإعجاب. أتذكر حالة مماثلة في «ريغا» في العام 1876، وهي تذكرنا قليلاً بانتحال شخصية قام به السيد (جيمس ويندبيانك) في العام 88؛ لكن بعض الميزات هنا فريدة من نوعها. إن موضوع إزالة الشارب الثقيل لتغيير مظهر الرجل، وخاصة جعله يبدو أصغر سناً، هو موضوع قد أكرّس له دراسة. بدلاً من أن تستخدم شارباً للتنكر، قمت بإزالة شاربك.

عندما كان يرتدي ملابس السهرة، بدا وجه زائرنا متغيّراً مع مشاعره، وذكياً للغاية، بعيون بنية متحركة كان هناك تجاعيد عند زواياها، وكأنه قد يبتسم، لكنه كان بعيداً عن الابتسام؛ لقد كان قلقاً للغاية.

قال بصوت لطيف وحسن التعديل:

- شكراً لك. لقد منحتني لحظة سيّئة للغاية، يا سيد (هولمز)، عندما جلست على عربة الحليب تلك خارج منزلي، ولاحظت فجأةً أنّك قد فهمت خطتي بالكامل. لماذا امتنعت عن كشفي حينها؟

- أردت، أولاً، أن أسمع ما لديك لتقوله لكي تفسّر ما فعلت، من دون أن تشعر بالحرج من وجود (ليستريد).

عض (جيمس كابليجر) شفته.

قال (هولمز):

- بعد ذلك، لم يكن من الصعب تتبعك من خلال شركة «بيوريتي ميلك»، أو إرسال البرقية المُصاغة بحكمة، التي أتت بك إلى هنا. صورة (جيمس كابليجر) مع إزالة الشارب، التي تم عرضها على رب عملك، كشفت حقيقة أنّ الرجل كان نفسه (ألفريد بيترز)، الذي تقدم قبل ستة أشهر للحصول على وظيفة في شركة الحليب، وحصل على إجازة ليومين: الثلاثاء والأربعاء.

- أمس، في هذه الغرفة، أبلغتنا زوجتك أنك «عدت» يوم الثلاثاء من غياب غير مسبوق دام ستة أشهر في (أمستردام) و(باريس). كان ذلك موحياً. بالإضافة إلى سلوكك الفضولي في ما يتعلق بالمظلة، التي لم تكن تقدّرها عندما اشتريتها، بل قدرتها فقط عندما اتخذت قرارك بخصوص خطتك، وقولك الذي لا يُصدّق بأنّ المظلة ستكون سبب موتك، فقد أوحى ذلك بالفعل بخدعةٍ أو تقمّصٍ شخصيةٍ مصمّمٍ لخداع زوجتك.

- سيدي، دعني أقل لك...!

- لحظة. حلاقة شاربك، مدة ستة أشهر كنت تقود جولة الحليب تلك؛ ولا شك في أنك استمتعت بذلك. يوم الثلاثاء «عدت» بوصفك (جيمس كابليجر). أجد أن السادة (كلاركفاذر)، صانعوا الشعر المستعار، قد وفّروا لك نسخة عن الشعر الحقيقي لشاربك المفقود. في طقس الشتاء المظلم، أو تحت ضوء الغاز، قد يخدع هذا زوجتك، كون السيدة قليلة الاهتمام بك، ونحن نعلم أنكما تسكنان في غرفٍ منفصلة.

- لقد تصرفت بطريقة مريبة بشدة عمداً. ليلةَ الثلاثاء، قمت بتمثيل ذلك المشهد المشؤوم مع «شريك متآمر» لا وجود له خارج النافذة، على أمل دفع زوجتك إلى القيام بتلك الإجراءات القوية التي كنت تعتقد أنها من المؤكد ستتخذها.

- ليلة الأربعاء، أخبرتك زيارة المفتش (ليستريد)، الذي ربما لا يكون أكثر الرجال حدّة في الذهن، أنه سيكون لديك شهود على اختفائك المتوقع، وأنّ من الآمن المضي قدماً. بعد إبعادك الخدم وتخديرك لزوجتك، غادرت المنزل.

- هذا الصباح، بلا قبعة، ومن دون معطف ثقيل، كانت لديك الوقاحة —لا تبتسم يا سيدي!- لقيادة عربة الحليب مباشرة إلى منزلك، حيث أدّيت دور رجلين في المدخل ذي الظلام الدامس.

- بعد نزولك من العربة، اختفيت في المدخل بصفتك بائع الحليب. في الداخل، وقد كنت قد جهّزت نفسك أصلاً، لبست معطف السيد (كابليجر) الثقيل، وقبعته، وشاربه. استغرق الأمر ثماني ثوانٍ فقط للبس القبعة والمعطف، وعلى عجل لوضع شارب في تلك المرّة، التي يجب رؤيته فيها لفترة وجيزة فقط من على بعد مسافة وتحت ضوء خافت.

- خرجت من المنزل بصفتك سمسار ألماس أنيق، وبدوت كأنك تتذكر مظلتك المفقودة، وهرعت إلى الداخل مرة أخرى. لم يستغرق الأمر سوى لحظة لإلقاء الزخارف داخل الباب الأمامي، مع مظلة كانت متروكة هناك أصلاً، وغلق الباب الأمامي بقوّة من الخارج، ثم عدت

للظهور مرة أخرى بصفتك بائع الحليب، مكملاً الوهم بأن رجلين قد مرّ أحدهما بجانب الآخر.

- على الرغم من أن المفتش (ليستريد) يعتقد، بصدق، أنه قد رأى رجلين، فقد لاحظنا جميعاً أن المدخل كان مظلماً للغاية إلى درجة أن هذا كان ممكناً، لكن لا يجب أن نلوم (ليستريد) كثيراً. عندما أوقف عربة الحليب، وأقسم إنه رآك من قبل، لم يكن الأمر مجرد تنمّر؛ لقد رآك مرة واحدة بالفعل، رغم أنه لم يتذكر أين.

- لقد قلت إنه ليس لديك شريك متآمر؛ بالمعنى الدقيق للكلمة، هذا صحيح، لكن من المؤكد أنك شاركت السر مع شريكك الاسمي، السيد (مورتيمر براون)، الذي حضر هذا الصباح بغرض إبعاد الانتباه، ومنع التفحّص الدقيق للحليب. ولسوء الحظ، إن حذره وتخوّفه جعله عديم الفائدة. لقد ارتكبت خطأً فادحاً عندما أخفيت ذلك الشارب الزائف في الممر. ورغم ذلك، ربما كان من الممكن أن تجده الشرطة عندما فتشتك. كانت ما تسمى المعجزة هذه ممكنةً لأنك تعمدت تعويد زوجتك ومعارفها على عبادتك لتلك المظلة. في الواقع، لقد تعلّقت بهذه المظلة؛ لأن خططك ما كانت لتنجح من دونها.

(شيرلوك هولمز)، على الرغم من أنه كان يتحدث باقتضاب ومن دون حدّة، بدا كأنه ينهض مثل منتقم نحيل.

قال:

- والآن، يا سيد (جيمس كابليجر)! ربما يمكنني أن أفهم سبب عدم سعادتك مع زوجتك، ورغبتك في تركها، لكن لماذا لا يمكنك تركها علانية، بانفصال قانوني، وليس تصنّع الاختفاء هذا في مكان مجهول؟

تحوّل لون وجه ضيفنا ذي البشرة الفاتحة إلى اللون الأحمر.

انفجر قائلاً:

- كنت سأفعل ذلك، لو لم تكن (غلوريا) متزوجة أصلاً عندما تزوجتني.

- عفواً؟

تجهّم السيّد (كابليجر)، مع لمعة مفاجئة وقويّة لشخصيته، التي أظهرت ما كان يمكن أن ينجزه كممثل كوميدي.

- أوه، يمكنك إثبات ذلك بسهولة كبيرة! كونها تتوق للعودة إلى زوجها الحقيقي -بغض النظر عن هويته؛ إنه اسم مهيب- أخشى أن (غلوريا) تريد التخلص مني، ويُفضل أن يكون ذلك برؤيتي في السجن، لكن يمكنني كسب المال، في حين أن صاحب الشخصية المهيبة كسول جداً إلى درجة أنه لا يريد حتى أن يحاول ذلك[1].

وقد أصبح تحفّظ (غلوريا) سيّئ السمعة.

قال (هولمز) بصوت خافت:

- يا إلهي، (واطسون)! هذا ليس مفاجئاً للغاية. إنه يوفر الرابط الأخير. ألم أقل إن السيدة أصرت كثيراً على استخدام اسم عائلتها، (كابليجر)، بعد الزواج؟

- لقد سئمت من برودها؛ لقد سئمت من تعاليها؛ والآن، وأنا في

---

(1) المقصود كسب المال أيضاً.

الأربعين من عمري، أود فقط أن أجلس بسلام وأقرأ. ورغم ذلك، يا سيدي، دعني أعترف بأنها كانت خدعة طفولية[1] إذا أصررت.

قال (هولمز).

– انظر! أنا لست من الشرطة الرسمية، سيد (كابليجر)...

– اسمي ليس حتى (كابليجر). لقد فرضه علي خالي، الذي أسس الشركة. اسمي الحقيقي (فيليمور)، (جيمس فيليمور). حسناً! لقد سجّلت كل ممتلكاتي باسم (غلوريا)، باستثناء ست وعشرين ماسة مُكلفة وقابلة للتداول. كنت آمل أن أؤسس حياة جديدة بوصفي (جيمس فيليمور) خالية من هذا الاسم السخيف البغيض، لكنني هُزمت من قبل استراتيجي بارع: لذا افعل ما يحلو لك.

قال (هولمز) بفتور:

– لا، لا. لقد ارتكبت بالفعل خطأً فادحاً واحداً، رغم أنني تأخرت بشكل مؤسف في رؤيته؛ عندما قدت عربة الحليب إلى الباب الأمامي بدلاً من مدخل التجار. إن أسس عالمنا الاجتماعي تتزعزع. إذا كنت سأساعدك في تكوين هذه الحياة الجديدة...

صرخ زائرنا:

– إذا كنت ستساعدني؟

– إذاً، يجب ألا تنكشف من خلال استخدام اسم حقيقي من المؤكد أن يكون شخص ما على علم به. من الضرورة اللبقة، حتى يوم وفاتك،

(1) الكلمة لها معنيان: «طفل المدينة» و«نذل»، أو «من يتصرف مع النساء بطريقة غير شريفة»... كل المعاني السابقة تصلح للسياق.

يجب على (واطسون) أن يصف قضيّة اختفائك بأنها غير محلولة. استخدم أيّ اسم آخر تختاره، لكن السيد (جيمس فيليمور) يجب ألا يُرى في هذا العالم أبداً!

من بين هذه الحكايات غير المكتملة حكاية السيد (جيمس فيليمور)، الذي عندما عاد إلى منزله لإحضار مظلته، لم يُرَ بعدها في هذا العالم.

من «قضية جسر ثور»

5

مغامرة البارونيت[1] الأسود

- أجل يا (هولمز)، الخريف وقتٌ للحزن، لكنك بحاجة إلى هذه العطلة. في النهاية، يجب أن تكون مهتماً بمنطقة ريفية كهذه بقدر ذلك الرجل الذي نراه من النافذة.

أغلق صديقي السيد (شيرلوك هولمز) الكتاب الذي في يديه، ونظر بفتور من نافذة غرفة الجلوس الخاصة بنا في نزل بالقرب من «إيست غرينستيد».

قال:

- رجاءً كن صريحاً يا (واطسون). أتقصد الإسكافي أم المزارع؟

في الطريق الريفي بعد النزل، كان بإمكاني رؤية رجلٍ في مقعد السائق في عربة تسوقٍ من الواضح أنه مزارع، لكن، بخلاف ذلك،

(1) Baronet: البارونيت هو رتبة بين البارون والفارس.

لم يكن هناك سوى عامل مسنّ يرتدي سروالاً من قماش الكوردروي، يمشي بتثاقل نحو العربة ورأسه للأسفل.

- بالتأكيد الإسكافي.

قالها (هولمز)، مجيباً على أفكاري بدلاً من كلماتي.

- إنه أشول، كما أرى.

- (هولمز)، في عصر آخر غير عصرنا، كانوا سيتّهمونك بممارسة السحر! لا أستطيع أن أتصوّر سبب كون هذا الرجل إسكافياً، لكنّ إسكافي أشول؟ لا يمكن أن تكون قد استنتجت ذلك.

- يا صديقي العزيز، لاحظ العلامات الموجودة على البنطال الكوردروي؛ حيث يضع الإسكافي الحجر الذي يستخدمه في عمله في حضنه. ستلاحظ أن الجانب الأيسر أكثر تآكلاً من الجانب الأيمن. لقد استخدم يده اليسرى للطرق على الجلد. ليت كل مشاكلنا كانت بمثل هذه البساطة!

لقد جلب ذلك العام،1889، بعض النجاحات المهمة لـ(شيرلوك هولمز)، التي أضافت المزيد من الأمجاد إلى سمعته الهائلة أصلاً، لكن إجهاد العمل غير المنقطع تقريباً ترك أثره عليه، ولقد شعرت بالارتياح الشديد عندما وافق على اقتراحي بضرورة استبدال ضباب أكتوبر في شارع بيكر بالجمال الخريفي الغني لريف ساسكس.

كان صديقي يتمتع بمرونة ملحوظة، وكانت الأيام القليلة من الاسترخاء قد أعادت بالفعل الانطلاقة العصبية القديمة في خطواته، ولمسة من التورّد في خديه. بالفعل، لقد رحبت حتى بنوبات نفاد صبره

العرضية كإشارة إلى أن طبيعته النشيطة قد تخلصت من التعب الذي أعقب قضيته الأخيرة.

كان (هولمز) قد أشعل غليونه، والتقطت أنا كتابي، عندما كان هناك طرقة على الباب، ودخل المالك.

قال بلهجة ساسكس ناعمة:

- هناك رجل جاء لرؤيتك يا سيد (هولمز)، وهو مستعجل إلى درجة أنني أتيت من دون أن أخلع مئزري. آه! ها هو الآن.

اندفع إلى الغرفة رجل طويل، أشقر الشعر، يرتدي معطفاً طويلاً وفضفاضاً وثقيلاً، وقطعة قماش ذات نقوش اسكتلندية ملفوفة حول عنقه، وألقى حقيبته، التي من نوع «غلادستون»، في أقرب زاوية، وقام بصرف المالك باقتضاب، وأغلق الباب خلفه، ثم أومأ لكلينا.

قال (هولمز):

- آه، (غريغسون)، لا بد من أن هناك شيئاً غير عادي وشيك الحدوث جعلك تقطع كل هذه المسافة الطويلة!

صرخ المفتش (توبياس غريغسون)، وهو يجلس على الكرسي الذي دفعته نحوه:

- يا لها من قضية! يا للعجب! يا لها من قضية! بمجرد أن تسلّمنا البرقية في سكوتلانديارد، اعتقدت أنه لن يكون هناك ضرر في التحدث معك في شارع بيكر بشكل غير رسمي بطبيعة الحال، يا سيد (هولمز). بعدها، عندما أعطتني السيدة (هدسون) عنوانك، قررت القدوم إلى

هنا. تبلغ المسافة أقلّ من ثلاثين ميلاً من هنا إلى المكان الذي ارتُكبت فيه جريمة القتل في (كينت).

مسح جبهته.

- إحدى أقدم العائلات في المقاطعة كما أخبروني. يا إلهي، فقط انتظر حتى تعرف الصحف بهذا!

تدخّلت:

- يا عزيزي (هولمز)، أنت هنا في فترة راحة.

قال صديقي على عجل:

- أجل، أجل، يا (واطسون)، لكن لن يكون هناك ضررٌ في سماع التفاصيل. حسناً، (غريغسون)؟

- لا أعرف أكثر من الحقائق المجردة الواردة في هذه البرقية من شرطة المقاطعة. لقد طُعن الكولونيل (جوسلين دالي)، الذي كان ضيفاً على السير (ريجينالد لافينغتون) في «لافينغتون كورت»[1]، حتى الموت في قاعة الولائم. وجده رئيس الخدم هناك في نحو الساعة العاشرة والنصف من صباح هذا اليوم؛ كان قد مات للتو؛ والدم لا يزال يسيل.

وضع (هولمز) كتابه على الطاولة. سأل:

- انتحار؟ جريمة قتل؟ ماذا؟

- لا يمكن أن يكون ذلك انتحاراً؛ لم يُكتشف أيّ سلاح، لكنْ كانت لدي برقية ثانية، وهناك دليل جديد يبدو أنه يُورّط السير (ريجينالد

---

(1) Lavington Court: قصر في كينت تحول إلى فندق الآن.

لافينغتون) نفسه. كان الكولونيل (دالي) معروفاً في الأوساط الترفيهيّة، لكن ليس لأيّ منهما سمعة طيبة جداً. سمعة. هذه جريمة في حياة الترف يا سيد (هولمز)، ولا مجال للخطأ.

- (لافينغتون) - (لافينغتون)؟

تأمل (هولمز).

- بالتأكيد، يا (واطسون)، عندما سافرنا الأسبوع الماضي لزيارة آثار «بوديام»، ألم نمر بقرية بهذا الاسم؟ يبدو أنني أتذكر منزلاً كان يقع في تجويف.

أومأت. خطرت في بالي ذكرى بيت ريفي محاط بخندق، يكاد يكون مكتوماً وسط أشجار الطقسوس، التي بسببها بدا شعور بالقسوة كأنه يحزنني.

قال (غريفسون) متفقاً مع ذلك:

- هذا صحيح يا سيد (هولمز). منزل في تجويف. يقول كتابي الإرشادي إن الماضي في «لافينغتون» أكثر واقعية من الحاضر. هل ستأتي معي؟

قفز صديقي من كرسيه، وصرخ قائلاً:

- هذا مؤكّد. لا يا (واطسون)، لا تقل أيّ كلمة!

زودتنا المنشأة الممتازة، التي يملكها السيد (جون هوث)، مرة أخرى، بعربة ركبناها مدة ساعتين عبر طرق ساسكس الضيقة

والمخدّدة بحفر ومسارات عميقة[1]. عندما عبرنا حدود (كينت)، جعلنا البرد في الهواء سعداء بالبسط التي لدينا.

كنا قد انعطفنا من الطريق الرئيس، وكنا ننزل على ممر شديد الانحدار، عندما أشار السائق بسوطه إلى منزل مطوّق بخندق يمتدّ أسفل منّا في الغسق الرمادي.

قال:

- «لافينغتون كورت».

بعد بضع دقائق ترجلنا من عربتنا. عندما عبرنا الممر المرتفع إلى الباب الأمامي، تكوّن لدي انطباع كئيب عن أوراق الشجر الميتة على سطح المياه القاتمة والكئيبة وبرج كبير محاط بسور ذي فتحات شاخصاً من خلال الشفق. أشعل (هولمز) عود ثقاب، وانحنى فوق سطح الممر المفروش بالحصى.

- هممم. أهاا أربع مجموعات من آثار الأقدام. أهلاً، ما هذا؟ آثار حوافر حصان كان أحدهم يركبه بغضب شديد بالنظر إلى عمقها. ربما أول استدعاء للشرطة. حسناً، (غريغسون)، ليس هناك الكثير لنكسبه هنا. دعنا نأمل أن يسفر مسرح الجريمة عن نتائج أكثر إثارة للاهتمام.

عندما انتهى (هولمز) من الكلام، فُتح الباب. عليّ أن أعترف بأنني أحسست بالطمأنينة لرؤية الخادم البارد الطبع ذي الوجه الأحمر، الذي أوصلنا إلى ممر مرصوف بألواح حجرية متعددة الألوان وجميلة

---

(1) أي من كثرة مرور العربات فيها.

تحت ضوء الشمعدانات القديمة والمتعددة الأفرع. في الطرف البعيد، كان هناك درج يؤدي إلى رواق ذي ديكور من خشب البلوط في الطابق الذي فوقنا.

سارع نحونا رجلٌ نحيل ذو شعر أحمر كان يدفئ تلابيب معطفه أمام النار. سأل:

- المفتش (غريغسون)؟ شكراً للرب لأنك أتيت يا سيدي!

- أفهم أنك الرقيب (باسيت) من شرطة مقاطعة (كينت)؟

أومأ الرجل ذو الشعر الأحمر.

- هذا يكفي يا (جيلنغز). سنقرع الجرس عندما نحتاج إليك.

تابع كلامه عندما غادر رئيس الخدم قائلاً:

- هذا عمل مروّع يا سيدي، مروع! والآن أصبح أسوأ من أيّ وقت مضى. ها هو مقامر شهير طُعن عندما كان يشرب نخباً لأفضل حصان سباق لديه، ويدّعي السير (ريجينالد) أنه كان غائباً في ذلك الوقت، ورغم ذلك إن السكين...

توقّف المحقق المحلي عن الكلام، ونظر إلينا.

- من هؤلاء السادة؟

- إنهما السيد (شيرلوك هولمز) والدكتور (واطسون). يمكنك التحدّث بحريّة.

علق الرقيب (باسيت) بشكّ:

- حسناً، يا سيد (هولمز)، لقد سمعت عن سمعتك الذكية، لكن ليس هناك الكثير من الغموض في هذه القضية، وآمل أن تحصل الشرطة على الفضل.

أجاب صديقي:

- يمكن أن يخبرك (غريفسون) أنني ألعب اللعبة من أجل اللعبة. رسمياً، أنا أفضّل عدم الظهور في هذه القضية.

- هذا عادل جداً. أنا متأكد من ذلك، يا سيد (هولمز). إذاً، يا سادة، من فضلكم هلّا أتيتم من هنا.

أخذ شمعداناً ذا أربعة فروع، وكنّا نتبعه عبر الممر عندما حدثت هناك مقاطعة غير متوقعة.

لقد كانت لديّ تجربة معتبرة مع النساء في أنحاء كثيرة من العالم، لكنني لم أرَ أبداً حضوراً أكثر ملكيّة من المرأة التي كانت تنزل الآن على الدرج. عندما توقفت ويدها على الدرابزين، كان ضوء الشموع ساقطاً بحرارة على شعرها الناعم ذي اللون النحاسي، وعينيها الخضراوين الناعستين. تكوّن لدي انطباع عن جمال كان مشعاً في يوم من الأيام، لكنه الآن أصبح شاحباً تحت ضغط حدث مروّع لم تستطع هي فهمه.

صرخت قائلة:

- لقد سمعت اسمك في الممر يا سيد (هولمز). أنا أعرف القليل جداً، لكنني متأكدة من شيء واحد: زوجي بريء! أتوسل إليكم أن تفكّروا في ذلك أولاً.

نظر إليها (هولمز) باهتمام للحظة، كما لو أنّ ذلك الصوت الشجيّ قد ضرب على وترٍ في ذاكرته.

- سأبقي اقتراحك في ذهني، أيتها الليدي (لافينغتون)، لكن من المؤكد أنّ زواجك قد حرم المسرح من...

- إذاً، فقد تعرّفت على (مارغاريت مونبينسييه)؟

لأول مرة ظهرت لمسة من التورّد على وجهها.

- نعم، كان ذلك عندما قابلت العقيد (دالي) للمرة الأولى، لكن زوجي لم يكن لديه سبب للغيرة...!

توقفت بفزع.

صاح (غريفسون):

- كيف هذا يا سيدتي؟ الغيرة؟

تبادل المحققان النظرات.

قال (باسيت) بصوت خافت:

- لم يكن لدينا دافع من قبل.

قالت السيدة (لافينغتون)، الممثلة العظيمة سابقاً (مارغاريت مونبينسييه)، ما لم تكن تنوي قوله قط. انحنى (هولمز) بقوّة، ونحن تبعنا الرقيب نحو الباب المقوّس في أعلاه.

على الرغم من أنّ الغرفة التي دخلناها كانت مظلمة تماماً، كان لديّ إحساس بالطول والحجم.

صدر صوت (باسيت):

- لا توجد أضواء هنا إلا من هذه الشموع، يا سادة. قفوا عند الباب لحظةً من فضلكم.

وبينما كان يتقدّم إلى الأمام، تبعه انعكاس لهب أربعة شموع على طول سطح طاولة طعام كبيرة كان جانبها الضيق مواجهاً للباب. في الطرف البعيد انعكس الضوء من قدح فضي طويل، مع يدٍ بشرية ملقاة بلا حراك على كلا الجانبين. دفع (باسيت) الشمعدان إلى الأمام.

صرخ قائلاً:

- انظر إلى هذا أيها المفتش (غريفسون)!

جالساً عند رأس الطاولة، وخدّه مسندٌ إلى السطح، تمدّد رجل إلى الأمام وذراعاه مفرودتان على جانبي الكوب. أشرق شعره الأشقر تحت لهب الشموع، متوسطاً حلقة فوضى من الدم والنبيذ.

قال (باسيت):

- لقد جُزّ حلقه.

صرخ وهو يندفع إلى الحائط:

- وهنا كان الخنجر الذي فعل ذلك!

سارعنا إلى الأمام؛ إلى حيث كان يرفع ضوءه أمام الألواح الخشبية التي تغطي الجدران. وسط مجموعة من الأسلحة المعروضة، أظهر خطافان معدنيان صغيران مكان تعليق سلاح ما.

سأل (غريفسون):

- كيف تعرف أنه كان خنجراً؟

أشار (باسيت) إلى خدش طفيف في اللوح الخشبي على بعد ستّ بوصات إلى الأسفل. أومأ (هولمز) موافقاً.

قال:

- هذا جيد أيها الرقيب! لكن هل لديك دليل آخر إلى جانب الخدش، الذي على الألواح؟

- نعم! اسأل رئيس الخدم ذلك، (جيلنغز)! إنه خنجر صيد قديم كان معلقاً هنا لسنوات. والآن انظر إلى الجرح الذي في حلق العقيد (دالي).

رغم أنّني كنت معتاداً على مشاهد العنف، تراجعت. رفع (باسيت) رأس الرجل الميت، وهو يمسك ذلك الشعر الأشقر المخلوط قليلاً بالشيب عند الصدغين. حتى وهو ميّت كان وجهه مثل وجه نسر، له أنف مقوّس كبير فوق فمٍ وحشي.

قال (هولمز):

- الخنجر، أجل. لكن هذا، بالتأكيد، اتجاه غريب للضربة؟ تبدو كأنها تضرب صعوداً من الأسفل.

ابتسم المحقق المحلي بتجهّم.

- ليس غريباً إلى هذه الدرجة، يا سيد (هولمز)، إذا ضرب القاتل عندما رفع ضحيّته ذلك الكوب الثقيل ليشرب. كان سيضطرّ العقيد (دالي) إلى استخدام كلتا يديه. نحن نعلم أصلاً أنّه والسير (ريجنالد)

كانا يشربان هنا من أجل نجاح حصان العقيد في «ليوباردستاون» الأسبوع المقبل.

نظرنا جميعاً إلى إناء النبيذ الكبير، الذي يبلغ ارتفاعه الكلي اثنتي عشرة بوصة؛ كان من الفضّة القديمة جداً، منقوشاً ومنحوتاً بغنى، وأسفل حافته مطوّق بدائرة من العقيق.

عندما وقفت هناك وسط البقع القرمزية وخدوش أظفار الأصابع على سطح الطاولة المخيف، لاحظت التمثالين الفضيين التوءمين المنحوتين على شكل بومتين، واللذين كانا يزينان قمم المقبضين على كلا الجانبين.

قال (باسيت) مع ضحكة قصيرة:

- «حظ (لافينغتون)»؛ يمكنك أن ترى هاتان البومتان في شعار العائلة. حسناً، لم يجلب هذا الحظ للعقيد (دالي). طعنه أحدٌ ما عندما رفعه ليشرب.

قال صوت في الخلفية:

- أحدٌ ما؟

كان (هولمز) قد رفع الكوب، وبعد أن فحصه عن كثب، كان ينظر إلى الخدوش وبقع النبيذ التي سالت تحته، عندما جعلتنا صدمة هذا الانقطاع نلتفت جميعاً نحو الطرف البعيد لقاعة الولائم.

كان هناك رجل يقف بالقرب من الباب. كان ضوء الشمعة الرفيعة، التي رفعها فوق رأسه، يضيء زوجاً من العيون الداكنة والجديّة، التي كانت تحدق بنا بغضب من وجه عابس وداكن البشرة مثل وجه غجري

أندلسي. كان عرض كتفيه يعطي انطباعاً بقوة هائلة، وكذلك رقبته التي تشبه رقبة ثور، والتي تعلو لفاعاً قديم الطراز من الساتان الأسود.

- كيف هذا؟

قالها متحدّياً بصوت خافت. تقدم نحونا بخطوات صامتة.

- من أنتم؟ يا له من موقفٍ سارّ بشكل مزعج يا (باسيت)، عندما تقوم بجرّ مجموعة من الغرباء إلى منزل مالك مسكنك!

ردّ المحقق المحلي بصرامة:

- أودّ أن أذكّرك، أيها السير (ريجنالد)، أنّ جريمة خطيرة قد تمّ ارتكابها. هذا هو المفتش (غريغسون) من لندن، وهؤلاء السادة هم السيد (شيرلوك هولمز) والدكتور (واطسون).

بدا أنّ هناك مسحة من الاضطراب عبرت بسرعة وجه البارونيت الداكن عندما نظر إلى (هولمز).

زمجر قائلاً:

- لقد سمعت عنك.

انتقل نظره إلى الرجل الميت.

- نعم، لقد مات (باك دالي)، وربّما لُعن. أعرف سمعته الآن. النبيذ، الخيول، النساء... حسناً، كان هناك من أبناء عائلة (لافينغتون) من هم كذلك. ربما، يا سيد (هولمز)، لديك الذكاء لكي تدرك الحادث المؤسف عندما يتحدّث الآخرون عن جريمة قتل.

اندهشت عندما بدا (هولمز) جاداً في التفكير في هذا الكلام الوحشي. قال بعد وقفة طويلة:

- لولا ظرف واحد، أيها السير (ريجنالد)، لربما اتفقت معك.

ابتسم (غريفسون) بطريقة غير ودية.

- نحن جميعاً على دراية بهذا الظرف. السكين المفقودة...

- أنا لم أقل إنها كانت السكين.

- لم تكن هناك حاجة إلى قول ذلك يا سيد (هولمز). هل يمكن لرجل أن يجزّ حلقه خطأً، وبعد ذلك يخفي السلاح؟

أخذ (غريفسون) الشمعدان من الرقيب، ورفعه إلى مجموعة الأسلحة المعروضة التي كان تتلألأ على الألواح الداكنة. التقت عيناه الصارمتان مع عيني البارونيت.

سأل:

- أين الخنجر الذي كان معلقاً هنا؟

قال السير (ريجنالد):

- أنا أخذته.

- أوه، فعلت ذلك، حقاً؟ لماذا؟

- لقد أخبرت الرقيب (باسيت) هناك. كنت أصطاد هذا الصباح. لقد استخدمت ذلك النصل القديم لأخرج أمعاء السمك؛ أجل، كما كان يفعل آبائي قبلي.

- إذاً، هو بحوزتك؟

- لا، هل يجب أن أخبر الشرطة عشرات المرات؟ لقد فقدته من سلّة السمك. ربما عند النهر، أو في طريقي إلى المنزل.

أخذ (غريغسون) الرقيب جانباً.

سمعته يهمس:

- أعتقد أننا نحتاج إلى القليل الآن. لقد أعطتنا زوجته الدافع، ولدينا قوله أنه هو من أخذ السلاح. السير (ريجينالد لافينغتون)...

قالها آمراً، وهو يتقدم نحو البارون...

- عليّ أن أطلب منك أن ترافقني إلى مركز شرطة «ميدستون». هناك سيتم اتهامك رسمياً بـ...

اندفع (هولمز) إلى الأمام، وصرخ قائلاً:

- لحظة واحدة يا (غريغسون)! يجب أن تمنحنا حقاً أربعاً وعشرين ساعة لنفكر في هذا الأمر. من أجل مصلحتك، أقول لك إنّ أيّ مشورة قانونية جيّدة ستمزّق قضيّتك إلى أشلاء.

- لا أعتقد هذا، يا سيد (هولمز)؛ وخاصة مع وجود سيادتها[1] على منصة الشهود.

جفل السير (ريجينالد) بعنف، في حين أنّ شحوباً مسودّاً لطّخ سُمرة ملامحه.

---

(1) يقصد الليدي.

- أحذّرك من جرّ زوجتي إلى هذا! مهما قالَت، لا يمكنها أن تشهد ضدّ زوجها!

- لن نطلب منها أن تفعل ذلك. يكفي أن تكرّر ما ذكرته أصلاً في حضور شهود من الشرطة.

وأضاف (غريغسون):

- ورغم ذلك، يا سيد (هولمز)، في مقابل معروف صغير أو اثنين قدّمتهما لنا في الماضي، لا أرى أيّ ضرر في - حسناً! في تأخير الأمور بضع ساعات أخرى. أما بالنسبة إليك، أيها السير (ريجينالد)، في حال حاولت مغادرة هذا المنزل، فسيتم القبض عليك على الفور. حسناً، يا سيد (هولمز)، ماذا الآن؟

كان صديقي قد هبط جاثياً على ركبتيه، وعلى ضوء الشمعة كان يحدّق عن كثب في بقع الدم والنبيذ المروّعة، التي كانت تبلل الأرضية المصنوعة من خشب البلوط.

قال وهو ينهض واقفاً:

- هلّا كنت طيباً يا (واطسون)، وشددت حبل الجرس هذا. محادثة مع رئيس الخدم، الذي اكتشف الجثة، لن تكون خطأً قبل أن نبحث عن سكن في نزل القرية. فلننتقل إلى الممر.

أعتقد أنّ كلّ واحد منا كان سعيداً بمغادرة تلك الغرفة السوداء، التي تشبه القبو، مع ساكنها الفظيع، ووجدنا أنفسنا مرة أخرى أمام اشتعال نار الحطب في المدفأة. السيدة (لافينغتون) كانت شاحبة

لكن جميلة في ثوب من المخمل البرونزي ذي ياقة من دانتيل بروكسل. نهضت من أحد الكراسي.

بدت عيناها للحظة كأنها تبحث في كلّ واحد منّا باستجواب مكثّف صامت، وبعدها ذهبت إلى جانب زوجها.

- حباً في الله يا (مارغاريت)، ما الذي كنت تقولينه؟

سألها، وقد كانت الأوردة منتفخة في رقبته الغليظة.

- وكنت ستتسببين في شنقي فوق ذلك!

- أياً كانت التضحية، أقسم إنك لن تعاني! بالتأكيد من الأفضل أن...

همست في أذنه بضع كلمات بانفعال...

ردّ زوجها بشراسة:

- أبداً، أبداً! ماذا؟ أنت هنا، (جيلنغز)؟ هل أنت أيضاً تدين سيدك؟

لم يسمع أحدٌ منّا رئيس الخدم وهو يقترب، لكنّه دخل الآن في دائرة ضوء النار، بتعابير تنمّ عن الانزعاج على وجهه الصريح.

أجاب (جيلينغز) بحرارة:

- لا سمح الله، أيها السير (ريجنالد)! أخبرت الرقيب (باسيت) فقط بما رأيته وسمعته. طلب العقيد (دالي) زجاجة من مشروب بورت. كان في قاعة الولائم. هو - هو قال إنّه يرغب في أن يشرب نخباً معك

من «حظ (لافينغتون)»، لنصر حصانه في سباقات «ليوبارد ستاون»[1] الأسبوع المقبل؛ لأنه كان هناك بورت في الإناء الذي على البوفيه سكبته في الكوب الكبير. أتذكر كيف ضحك العقيد عندما صرفني.

قال (شيرلوك هولمز) بسرعة:

- تقول إنه ضحك؟ متى رأيت السير (ريجنالد) مع العقيد؟

- لم أرَه في الواقع يا سيدي. لكنّ العقيد قال...

قاطعه (هولمز):

- وضحك عندما قال ذلك، ربما يمكن أن تخبرنا الليدي (لافينغتون) ما إذا كان العقيد (دالي) ضيفاً متكرراً تحت هذا السقف؟

بدا لي أنّ بعض المشاعر السريعة قد توهّجت للحظة في تلك العيون الخضراء الرائعة.

قالت:

- لعدة سنوات مضت، كان ضيفاً بشكل متكرّر، لكنّ زوجي لم يكن حتى في المنزل هذا الصباح! ألم يخبرك بذلك بالفعل؟

قاطع الرقيب (باسيت) الحديث بإصرار:

- معذرة يا سيدتي. السير (ريجنالد) يقول إنه كان عند النهر، لكنّه يعترف بأنّه لا يستطيع إثبات ذلك.

قال (هولمز):

---

(1) ليوباردس تاون: سباق يقام في إيرلندا.

- هذا صحيح تماماً. حسناً يا (واطسون)، لا يوجد شيء آخر يمكن فعله هنا الليلة.

وجدنا مكاناً مريحاً للإقامة في «ثري آولز»[1] في قرية (لافينغتون). كان (هولمز) متقلب المزاج ومنشغلاً. عندما حاولت استجوابه، قاطعني بالقول إنّه ليس لديه أيّ شيء آخر يضيفه إلى أن يزور «ميدستون» في الغد. يجب أن أعترف بأنّني لم أستطع فهم سلوك صديقي. كان من الواضح أنّ السير (ريجينالد لافينغتون) كان رجلاً خطيراً، وأنّ زيارتنا بدت كأنها جعلته أكثر خطورة، لكن عندما أشرت إلى (هولمز) بأنّ واجبه يقع في «لافينغتون كورت»، وليس في بلدة ميدستون، أجاب فقط بالملاحظة التي لا صلة لها: بأنّ عائلة (لافينغتون) كانت عائلة تاريخية.

مررت بصباح مضطرب. أبقاني الطقس القاسي في الداخل، وأنا أقرأ صحيفة يزيد عمرها على أسبوع، ولم يقتحم (هولمز) غرفة الجلوس الخاصة بنا إلا في الساعة الرابعة بعد الظهر. كان رداؤه يتقاطر منه الماء مبللاً بالمطر، لكنّ عينيه كانتا تلمعان، وخدّيه متورّدين بشيء من الإثارة الداخلية القويّة.

قلت:

- يا إلهي! يبدو أنك قد وجدت الحل لقضيّتنا.

قبل أن يتمكّن صديقي من الردّ، صدر صوت طرقة، وانفتح باب غرفة جلوسنا. نهض (هولمز) من الكرسي الذي كان قد هبط عليه للتو.

---

(1) الاسم يعني «البومات الثلاث».

قال:

- آه، ليدي (لافينغتون)، تشرفنا بزيارتك.

على الرغم من أنّ ملامحها كانت مغطّاة بكثافة، لم يكن هناك مجال للخطأ في التعرّف على صاحبة ذلك القوام الطويل والرشيق، المتردّدة الآن على عتبة منزلنا.

ردّت بصوت منخفض:

- لقد تلقّيت رسالتك يا سيد (هولمز)، ولقد أتيت على الفور.

جلست على الكرسي، الذي دفعته إلى الأمام، ورفعت خمارها، وتركت رأسها ليرتاح بين الوسائد. كرّرت بضجر:

- لقد أتيت على الفور.

تسبب ضوء النار في ارتياح شديد في وجهها، وبينما كنت أدرس ملامحها، التي كانت لا تزال جميلة، على الرغم من شحوبها شبه الشمعي، وتألق عينيها المضطرب، تبيّنت فيها صدمة الحدث الذي حطّم السلام الذي في حياتها، وخصوصية منزلها. دفعني شعور بالشفقة إلى الكلام.

قلت بلطف:

- يمكنك أن تثقي تماماً بصديقي (شيرلوك هولمز). هذه بالفعل فترة مؤلمة بالنسبة إليك أيتها الليدي (لافينغتون)، لكن كوني مطمئنة إلى أنّ كلّ شيء سيفضي إلى الأفضل.

شكرتني مع إعطائي نظرة، لكن عندما نهضتُ لأتركهما معاً، رفعت يدها.

قالت متوسّلة:

- أفضّل أن تبقى يا دكتور (واطسون)؛ حضورك يمنحني الثقة. لماذا أرسلت في طلبي يا سيد (هولمز)؟

قال صديقي بصوت منخفض، وهو جالس ومغمضٌ عينيه:

- هل يمكن أن نقول إنك هنا من أجل مصلحة زوجك؟ لن تعترضي إذا طلبتُ منك توضيح بعض النقاط الصغيرة التي لا تزال غامضة بالنسبة إليّ؟

نهضت الليدي (لافينغتون).

قالت ببرود:

- سيد (هولمز)، هذا غير لائق. أنت تحاول الاحتيال عليّ لكي أدين زوجي! أقول لك: إنه بريء!

- هذا ما أعتقده. ورغم ذلك، أرجو أن تهدّئي نفسك، وأن تجيبي عن أسئلتي. أفهم أن (باك دالي) كان صديقاً حميماً للسير (ريجنالد) لسنوات عدة.

حدّقت فيه الليدي (لافينغتون)، ثمّ بدأت الضحك. ضحكت بقوّة وبصوتٍ عالٍ، لكن مع ملاحظة في فرحها أقلقتني بوصفي طبيباً.

صرخت أخيراً:

- صديق؟ إنّه غير جديرٍ بصبغ حذاء زوجي الأسود!

- أشعر بالارتياح لسماعك تقولين ذلك. ورغم ذلك، من الإنصاف أن نفترض أنّ كلا الرجلين قد تحرّكا في الدوائر نفسها خلال مواسم لندن، وربما يكون الأمر غير معروف لك، ربما يكون لهما اهتمامات مشتركة —ربما ذات طبيعة ترفيهية؟ متى قدّم إليك زوجك (العقيد دالي) لأول مرة؟

- أنت مخطئ بشكل مثير للشفقة في كلّ افتراضاتك! لقد عرفت العقيد (دالي) لسنوات قبل زواجي. كنت أنا من عرّفته على زوجي. كان (باك دالي) كائناً من المجتمع الراقي: طموحاً، ومحنّكاً، وعديم الرحمة، ورغم ذلك يتمتّع بكلّ سحر أمثاله. ما المصلحة التي يمكن أن يشترك فيها رجل مثله مع رجل فظّ، لكنه شريف، يبدأ عالمه بحدود أراضي أجداده وينتهي فيها؟

قال (هولمز) بهدوء:

- حب امرأة.

اتّسعت عينا الليدي (لافينغتون). بعدها، أنزلت الخمار على وجهها، واندفعت خارجةً من الغرفة.

ظل (هولمز) يدخّن في صمت لفترة طويلة، وحاجباه مشدودان إلى الأسفل، ونظرته مثبّتة بتمعّن على النار. علمت من التعبير الذي على وجهه أنّه قد توصّل إلى قرار نهائي. بعدها أخرج من جيبه ورقة مجعّدة.

- قبل فترة، يا (واطسون)، سألتَ عمّا إذا كنتُ قد وجدت الحلّ لقضيّتنا. إلى حدّ ما، يا صديقي العزيز، لقد فعلت. استمع جيداً إلى

الدليل الحيوي الذي سأقرأه لك؛ إنّه من السجلات التي في سجلّ المقاطعة في (ميدستون).

- أنا كلّي آذان صاغية.

- هذه قطعة إملاء صغيرة حوّلتها إلى اللغة الإنجليزية المفهومة، تمّت كتابتها في الأصل في العام 1485، عندما انتصرت أسرة (لانكستر) أخيراً على أسرة (يورك).

«وقد حدث أنّه في ميدان بوسوورث أخذ السير (جون لافينغتون) فارسين وإقطاعي أسرى، وحملهما معه إلى لافينغتون كورت؛ لأنه لن يأخذ أيّ فدية من أيّ إنسان كان قد رفع راية أسرة (يورك).

«في تلك الليلة، بعد أن تناول السير (جون) العشاء، تمّ إحضار كلّ واحد منهم إلى المائدة وعرض عليه 'الاختيار'. أحد الفرسان، وهو من أقرباء السير (جون)، شرب من 'الحياة' وغادر دون فدية. وشرب أحد الفرسان والإقطاعي من 'الموت[1]'. لقد كان عملاً مخالفاً تماماً للدين المسيحي؛ لأنهم لم يعترفوا بذنوبهم، وبعدئذٍ تحدث الرجال على نطاق واسع عن حظ (لافينغتون)».

جلسنا في صمت فترةً من الزمن بعد قراءة هذه الوثيقة الاستثنائية، بينما كانت الرياح تقذف المطر على النوافذ، وتهدر في المدخنة العتيقة. أخيراً قلت:

---

(1) يبدو أن المقصود بـ«الحياة» و«الموت» مشروبين أحدهما مميت؛ أي أحدهما غير مؤذٍ والآخر يسبب الموت.

- (هولمز)، يبدو أنّني أحسّ بشيء شنيع هنا. ورغم ذلك، ما الصلة التي يمكن أن تكون بين مقتل مقامر فاسق، والعنف الذي أعقب معركة وقعت قبل أربعمئة عام؟ فقط الغرفة بقيت كما هي.

- هذا، يا (واطسون)، هو ثاني أهم شيء اكتشفته.

- والأول؟

- سنجده في (لافينغتون كورت). بارونيت أسود، يا (واطسون)! ألا يمكن أن يوحي هذا أيضاً بالابتزاز؟

- هل تقصد أن السير (ريجنالد) يتعرّض للابتزاز؟

تجاهل صديقي السؤال.

- لقد وعدت بلقاء (غريفسون) في المنزل. هل تودّ مرافقتي؟

- ما الذي يدور في ذهنك؟ نادراً ما رأيتك بهذه الجديّة.

قال (شيرلوك هولمز):

- الظلام يحلّ تدريجياً. يجب ألا يتسبّب الخنجر، الذي قتل العقيد (دالي)، في المزيد من الأذى.

كان مساءً ماطراً وذا ريح عاصفة وصاخبة. وبينما كنا نسير خلال الغسق إلى القصر القديم، امتلأ الهواء بصرير أغصان الأشجار، وشعرت باللمسة الباردة لورقة شجر قذفتها الريح على خدي. كان (لافينغتون كورت) مظلماً مثل التجويف الذي كان رابضاً فيه. لكن عندما فتح (جيلفز) الباب لنا، ظهر وميض من الضوء في اتجاه قاعة الولائم.

- المفتش (غريفسون) كان يسأل عنك يا سيدي.

قالها رئيس الخدم، وهو يساعدنا في خلع معاطفنا.

سارعنا نحو الضوء. كان (غريفسون)، مع نظرة من الهيجان الشديد، يسير جيئة وذهاباً بجانب الطاولة. نظر إلى الكرسي الذي أصبح فارغاً الآن خلف الكوب الكبير.

انفجر قائلاً:

- الحمد لله أنك أتيت يا سيد (هولمز)! كان السير (ريجينالد) صادقاً. لم أصدّق هذا، لكنّه بريء! لقد بحث (باسيت)، ووجد مزارعين التقاهما وهو يسير قادماً من النهر في الساعة العاشرة والنصف من صباح أمس. لماذا لم يقل إنه قابلهما؟

كان هناك نور استثنائي في عيني (هولمز)، وهو ينظر إلى (غريفسون).

قال:

- يوجد رجال من هذا النوع.

- هل كنت تعلم هذا طوال الوقت؟

- لم أكن أعرف بأمر الشهود، لا، لكنّني كنت أتمنّى أن تعثروا على شاهد؛ لأنني لأسباب أخرى كنت مقتنعاً ببراءته.

- إذاً، لقد عدنا إلى حيث بدأنا!

- نكاد نكون كذلك. هل فكّرت، يا (غريفسون)، في إعادة بناء هذه الجريمة على الطريقة الفرنسية؟

- كيف ذلك؟

انتقل (هولمز) إلى طرف الطاولة، الذي لا يزال يحمل آثار المأساة الأخيرة.

- لنفترض أنني أنا العقيد (دالي) —رجل طويل، أقف هنا على رأس الطاولة. أنا على وشك الشرب مع أحدهم، الذي يقصد طعني. رفعت الكوب هكذا، وبكلتا يدي رفعته إلى فمي، إذاً (غريفسون)، سنفترض أنك أنت القاتل. اطعنّي في حلقي!

- ما الذي تعنيه بحقّ الشيطان؟

- امسك خنجراً وهمياً في يدك اليمنى. هذا هو! لا تتردد، يا رجل، اطعني في حلقي!

(غريفسون)، كما لو أنّه كان نصف منوّم مغناطيسياً، تقدّم خطوةً إلى الأمام وهو يرفع يده، وتوقف.

- ولكن لا يمكن القيام بذلك يا سيد (هولمز)! ليس هكذا، على أيّ حال!

- لِمَ لا؟

- كان اتجاه جرح العقيد مباشرة إلى الأعلى عبر الحلق. لا يمكن لأحد أن يضرب إلى الأعلى من الأسفل، عبر عرض الطاولة. هذا مستحيل!

صديقي، الذي كان واقفاً ورأسه إلى الوراء، والكوب الثقيل مرفوع إلى شفتيه بكلا المقبضين، استقام الآن، وقدّمه لرجل سكوتلانديارد،

وقال:

- جيد! الآن، يا (غريفسون)، تخيّل أنك العقيد (دالي). أنا القاتل. خذ مكاني، وارفع «حظ لافينغتون».

- حسناً. وماذا بعد ذلك؟

- افعل ما فعلته بالضبط، لكن لا تضع الكوب على شفتيك. هذا هو يا (غريفسون)؛ هذا هو! انتبه جيداً إلى ما أقوله: لا تضعه على شفتيك!

عاد الضوء ليلمع من إناء الشرب الكبير عند إمالته.

صرخ هولمز فجأة:

- لا، يا رجل، لا! لا ترفعه بوصة أخرى، إذا كنت تقدّر حياتك!

حتى أثناء كلامه، صدر صوت نقرة وانزلاق معدني. شفرة حادة رفيعة انطلقت من الحافة السفلية للكوب بسرعة ثعبان يهجم. قفز (غريفسون) إلى الخلف، وهو يقول كلمة نابية، بينما سقط الإناء من يديه، واصطدم بالأرض، وأصدر صوت صلصلة.

صرخت أنا:

- يا إلهي!

- يا إلهي!

رددها صوتٌ ما، وقد اختلط بصوتي. السير (ريجينالد لافينغتون)، وقد أصبحت ملامحه الداكنة الآن شاحبةً، كان يقف خلفنا، وإحدى يديه مرفوعة جزئياً كما لو كان يريد صدّ ضربة ما. بعدها، مع صوت تأوّه، دفن وجهه في يديه. حدّقنا بعضنا في بعض بصمتٍ من الرعب.

قال (غريغسون) بصوت مرتعش:

- لو لم تحذّرني، لكانت الشفرة قد عبرت حلقي.

قال (هولمز)، وهو يرفع الكأس الثقيل، ويفحصه عن كثبٍ مرّة أخرى:

- كان لدى أسلافنا طريقة متقنة للتخلّص من أعدائهم، بوجود لعبة كهذه في المنزل، من الخطر على الضيف أن يشرب في غياب مضيفه.

صرخت قائلاً:

- إذاً، كان هذا مجرد حادث مروع! (دالي) كان ضحيّة بريئة لفخّ صُنِعَ قبل أربعة قرون!

- انتبهوا إلى مكر هذا النظام الميكانيكي، تماماً كما توقّعت بعد ظهر يوم أمس...

انفجر البارون قائلاً:

- سيد (هولمز)، أنا لم أطلب أبداً معروفاً من أيّ رجل في حياتي...

قاطعه (هولمز) بهدوء، وأصابعه الطويلة الرفيعة تتحرّك فوق سطح الكوب المنقوش:

- ربما ستكون النتيجة ذاتها، أيها السير (ريجنالد)، إذا تركت التفسير لي. لا يمكن للشفرة أن تضرب ما لم يتم رفع الكوب بالكامل إلى الشفاه، عندما تضغط كلتا اليدين بشكل كامل على المقبضين. بعدها يعمل المقبضان نفساهما كمحفزين لآلة الزنبرك الميكانيكية، التي تتصل بها الشفرة ذاتها. ستلاحظ الفتحة الدقيقة الموجودة

أسفل حلقة الجواهر، والمتنكرة بذكاء من خلال النحت.

كان هناك رهبة في وجه (غريفسون)، وهو يحدق في الإناء العتيق.

قال بكآبة:

- إذاً، أنت تقصد أنّ الشخص الذي يشرب من «حظ لافينفتون» هو رجل ميت؟

- بالتأكيد، لا. أود أن ألفت انتباهك إلى تمثالي البوم الفضيين الصغيرين على قمة المقبضين. إذا نظرت عن كثب، فسترى أنّ المقبض الأيمن يدور على محور. أعتقد أنّ هذا يعمل بالطريقة نفسها التي يعمل بها زر الأمان بالبندقية. لسوء الحظ، هذه الآليات القديمة عرضة لأن تصبح غير موثوقة مع مرور القرون.

صفّر (غريفسون).

قال:

- لقد كان ذلك حادثاً، بالتأكيد! لقد ثبت أنّ إشارتك إلى حادث مؤسف، أيها السير (ريجينالد)، هي ضربة حظّ في الظلام. كنت أشك في هذا طوال الوقت، لكن لحظة واحدة! لماذا لم نرَ الشفرة عندما رأينا الكوب لأول مرة؟

أجاب (هولمز):

- لنفترض، يا (غريفسون)، أنّ هناك نوعاً من الزنبرك المرتد.

صرخت قائلاً:

- لكن بالتأكيد، يا (هولمز)، لا يمكن أن يكون هناك مثل ...

- كما كنت على وشك أن تقول، يا (واطسون)، لم يكن هناك وصف للكوب بالشكل الذي كنتُ أتمنى أن أجده في سجل مقاطعة (ميدستون)، لكنني وجدت الوثيقة المثيرة للاهتمام التي قرأتها لك.

قال (غريغسون)، وهو يلتفت إلى البارونيت:

- حسناً، يا سيد (هولمز)، يمكنك أن تعطيني التفاصيل التاريخية لاحقاً. أما في ما يتعلق بهذه القضية، أيها السير (ريجينالد)، فيمكنك أن تعدَّ نفسك محظوظاً لوجود بعض الرجال الأذكياء هنا. قد تكون حيازتك لهذه الآثار الخطيرة قد تسبّبت في إجهاض خطير للعدالة؛ فإما أن تعمل على إزالة هذا النظام الميكانيكي، وإما أن تسلّمها إلى عهدة سكوتلانديارد.

السير (ريجينالد لافينغتون)، الذي كان يعضّ شفته، وكأنه يريد كبت بعض المشاعر المسيطرة، نقل نظره وهو منبهر من (هولمز) إلى (غريغسون).

قال بعد صمت طويل:

- عن طيب خاطر، لكن «حظ لافينغتون» موجود في عائلتنا منذ أكثر من أربعمئة عام. في حال تجاوز هذا الباب، عندئذٍ أشعر بأنه يجب أن يذهب إلى السيد (شيرلوك هولمز).

التقت عينا (هولمز) بعيني البارونيت.

أجاب صديقي بجدية:

- سأقبله كتذكار لرجل شجاع للغاية.

بينما كنا أنا و(هولمز) نصعد على الممر الشديد الانحدار وسط الظلام الذي تعصف فيه الرياح، استدرنا عند قمة التل، ونظرنا إلى الأسفل نحو القصر الريفي القديم حيث انعكست أضواؤه بشكل خافت على الخندق.

قلت وأنا مغتاظٌ بعض الشيء:

- أشعر، يا (هولمز)، بأنك مدين لي بتفسير. عندما حاولت أن أشير لك إلى خطأ في قضيّتك، أشرت بوضوح إلى أنك لا تريدني أن أقول المزيد.

- أيّ خطأ يا (واطسون)؟

- شرحك لكيفية عمل الكوب. من خلال إطلاق زنبرك قويّ من زناد يتحكم فيه المقبضان، كان من السهل جداً جعل الشفرة تضرب، لكن دفعها مرة أخرى إلى مكانها، ما لم يكن ذلك يُفعل يدوياً؛ حيث إن الشفرة يمكن أن تعلق مرة أخرى في النظام الميكانيكي —وهذا، يا صديقي العزيز، شيء مختلف تماماً.

للحظة، لم يجب (هولمز). وقف وهو مرهق ووحيد، وبصره مثبّت على برج لافينغتون العتيق.

قال:

- بالتأكيد، كان هذا واضحاً من البداية: أنه لا يوجد قاتل على قيد الحياة يمكن أن يطعن (دالي)، وأن شيئاً ما كان خاطئاً في شكل الجريمة كما رأيناها؟

- هل استنتجت هذا من اتجاه الجرح؟

- أجل. لكن كانت هناك حقائق أخرى ذات دلالة وبالقدر نفسه.

- كان سلوكك يوحي بذلك حينها! ورغم ذلك لا أستطيع أن أفهم بأيّ حقائق كان يوحي.

- الخدوش التي على المنضدة، يا (واطسون)! وانسكاب النبيذ على الطاولة والأرضية.

- رجاءً، كن طيباً بما يكفي لشرح ذلك.

أجاب (هولمز):

- أظفار العقيد (دالي) خدشت سطح الطاولة وهو ينازع، وانسكب كلّ النبيذ. هل لاحظت ذلك؟ جيدا مع الأخذ بالفرضية العملية القائلة إنّه قُتل بشفرة في الكوب، ما الذي يجب أن يتبع ذلك؟ ستضرب الشفرة. بعدها...؟

- بعدها سيسقط الكوب، ويسكب الخمر. أنا أسلّم بذلك.

- ولكن هل من المعقول أنّ الكوب، في حالة سقوطه، سيستقرّ بشكل عمودي على الطاولة -كما وجدناه؟ كان هذا غير محتمل إلى حدٍّ كبير. هناك أدلة أخرى جعلت الأمر مستحيلاً. لقد رفعت الكوب، إذا كنت تذكر، عندما قمت بفحصه لأول مرة. تحته، كان مغطىً به، رأيت...؟

قاطعته:

- خدوشاً! خدوشاً ونبيذاً مسكوباً!

- بالضبط. (دالي) كان سيموت قريباً، ولكن ليس فوراً. إذا سقط الكوب من يديه، فهل نفترض أنه بقي معلقاً في الهواء، ثم نزل بعد

ذلك فوق الخدوش والنبيذ؟ لا يا (واطسون). لم يكن هناك، مثل ما أشرت أنت، آليّة ارتداد. مع موت (دالي)، رفعت يدّ حيّة الكوبَ من على الأرضيّة. ودفعت يدّ حيّة الشفرة لتعيدها إلى الكوب، ووضعته في وضع عمودي مستقيم على الطاولة.

اندفعت هبّة من المطر قادمة من السماء الكئيبة، لكنّ رفيقي ظلّ بلا حراك.

قلت:

- (هولمز)، وفقاً لما قاله رئيس الخدم...

- وفقاً لما قاله رئيس الخدم؟ أجل؟

- كان السير (ريجينالد لافينغتون) يشرب مع العقيد. على الأقل، قيل إن (دالي) قد قال ذلك.

علق (هولمز):

- و، عندما قال ذلك، ضحك ضحكةً فضوليّة جداً إلى درجة أن (جيلنغز) لم يستطع نسيانها. هل كان للضحك معنى خفي يا (واطسون)؟ لكن كان من الأفضل أن لا أقول المزيد، لئلا أجعلك شريكا[1] مثلي...

- أنت غير عادلٍ معي يا (هولمز)، هل يجب أن أصبح شريكاً في قضيّة عادلة!

(1) المقصود «شريكاً مثلي في الجريمة».

قال (شيرلوك هولمز):

- في تقديري، إنّها واحدة من أفضل القضايا.

- إذاً، يمكنك الاعتماد على صمتي.

- فليكن يا (واطسون)! فكّر الآن في سلوك السير (ريجينالد لافينغتون): بالنسبة إلى رجل بريء، تصرّف بشكل غريب للغاية.

- أنت تقصد أنّ السير (ريجينالد)...

- رجاءً لا تقاطعني. رغم أنّه كان لديه شهود بأنّه لم يكن يشرب مع (دالي)، لم يقدّمهم؛ لقد فضّل أن يتمّ القبض عليه. لماذا يقوم (دالي)، وهو رجلٌ ذو شخصيّة مختلفة عن مضيفه، بزياراتٍ متكرّرة إلى هذا البيت؟ ما الذي كان يفعله (دالي) هناك؟ فسّر معنى عبارة (لافينغتون): 'أنا أعرف شخصيته الآن!'. لقد رأينا الإجابات عن هذه الأسئلة يتمّ تمثيلها بالتمثيل الإيمائي الصامت المميت. بالنسبة إليّ أشار هذا إلى أكثر الجرائم سوداويّةً؛ الابتزاز.

صرخت:

- السير (ريجينالد) كان مذنباً في النهاية! لقد كان رجلاً خطيراً، كما أشرت أنا...

اتّفق (هولمز) مع ذلك قائلاً:

- نعم، رجل خطير، لكنّك رأيت شخصيته. قد يقتل، لكنّه لن يقتل ويخفي.

- يخفي ماذا؟!

- فكّر مرة أخرى يا (واطسون). رغم أنّنا نعلم أنّه لم يكن يشرب مع (دالي) في قاعة الولائم، قد يكون عاد من النهر في الوقت المناسب ليجد (دالي) ميتاً. كان ذلك عندما دفع الشفرة، وأعادها إلى الكوب، ووضعه بشكل عمودي مستقيم. لكن الذنب؟ لا. لا يمكن فهم سلوكه واستعداده لأن يتمّ اعتقاله إلا إذا كان يحمي شخصاً آخر.

تبعت نظرة صديقي، التي لم تتحرّك أبداً من على (لافينغتون كورت).

صرخت:

- (هولمز). إذاً من الذي جهّز الآلة الميكانيكية الشيطانية؟

- فكّر يا (واطسون)! من كان الشخص الوحيد الذي نطق بتلك الكلمة 'الغيرة'؟ لنفترض أنّ امرأة قد أخطأت قبل الزواج، لكنّها لم تخطئ بعده أبداً. دعنا نفترض، علاوةً على ذلك، أنّها تعتقد أنّ زوجها، الذي هو رجل قديم الطراز، لن يفهم. إنّها تحت رحمة أكثر الطفيليات شراً، مبتزٌّ من المجتمع الراقي. كانت حاضرة عندما كان المبتزّ يشرب نخباً، بملء إرادته، من «حظ لافينغتون»، لكنها لمّا اضطرت إلى الهروب عند دخول رئيس الخدم، ضحك المبتزّ ومات. لا تقل المزيد يا (واطسون). دع الماضي يرقد.

- كما تشاء، أنا صامت.

- إنه خطأ جوهري، يا صديقي العزيز، أن تنظّر من دون حقائق. ورغم ذلك، عند بداية دخولنا إلى (لافينغتون كورت)، مساء أمس، كان لديّ لمحة عن الحقيقة.

- ولكن ما الذي رأيته؟

بينما كنا نستدير ونتجه نحو نزلنا ونور النار المريح، أومأ (شيرلوك هولمز) خلفه.

- رأيت امرأة جميلة وشاحبة تنزل على سلالم، كما رأيتها ذات مرة على المسرح. هل نسيت قصراً عتيقاً آخر، ومضيفة تدعى الليدي (ماكبث)؟

منذ زيارتنا إلى (ديفونشير)، كان منخرطاً في قضيتين ذاتي أهمية قصوى... فضيحة ورق اللعب الشهيرة لنادي «نونباريل»... ومدام (مونبنسير) التعيسة.

من «كلب آل باسكرفيل»

6

مغامرة الغرفة المحكمة الإغلاق

أصيبت زوجتي بنزلة بردٍ خفيفة، كما هو مسجّل في دفتر ملاحظاتي، عندما تعرّفنا، صباح ذلك اليوم، 12 أبريل 1888، بطريقة دراماتيكية، على واحدة من أكثر القضايا تفرداً في سجلات صديقي السيد (شيرلوك هولمز).

في هذا الوقت، كما سجّلت في مكان آخر، كانت عيادتي في منطقة بادينغتون. ولكوني شاباً ونشطاً، كنت معتاداً على الحضور باكراً؛ وفي الساعة الثامنة كنت أجد نفسي في الطابق السفلي، لأزعج الخادم بإشعال النار في الممر، عندما أجفلني صوت رنين عند الباب المؤدي إلى الشارع.

لا يمكن لمريضٍ، يأتي في مثل هذه الساعة، أن يكون قادماً لأداء مهمة بسيطة. وعندما فتحت الباب لضوء الشمس الصافي لشهر أبريل، بهرني شحوبٌ وانفعال السيدة الشابة، التي وقفت وهي تتمايل على عتبة بابي المتواضعة، بقدر ما بهرني شبابها وجمالها.

سألتني وهي ترفع غطاء وجهها:

- الدكتور (واطسون)؟

- هذا أنا يا سيدتي.

- رجاءً سامحني على هذا التطفّل المبكر. لقد جئت لكي ... لقد جئت لكي ...

قلت:

- هلّا تفضلتِ بالدخول إلى غرفة الفحص.

قلتها، وأنا أسير أمامها بخطوة قوية، وفي الوقت نفسه كنت أتأمل الشابة عن كثب. من الأفضل للطبيب أن يثير إعجاب مرضاه من خلال استنتاج أعراضهم، ومن ثَمَّ أمراضهم، قبل أن ينطقوا بأيّ كلمة.

تابعت كلامي عندما وصلنا إلى غرفة الفحص:

- الجو دافئ هذا الموسم من العام، ورغم ذلك هناك دائماً احتمال للبرودة، ما لم تكن الغرفة محكمة الإغلاق ضد التيارات الهوائية.

كان تأثير هذه الملاحظة استثنائياً. حدّقت الزائرة في وجهي لحظةً، واتسعت عيناها الرماديتان في وجهها الجميل.

صرخت:

- غرفة محكمة الإغلاق! يا إلهي، غرفة محكمة الإغلاق!

أصبحت صرختها صيحةً تدوّي في أنحاء المنزل، وبعدها انهارت على بساط الموقد في حالة إغماء كلّي.

وأنا مذعور، صببتُ بعض الماء من إبريق، وقذفتُ مشروب البراندي في الماء، وبعد رفع مريضتي برفق إلى كرسي، أقنعتها بشربه. بصعوبة فعلت هذا عندما دفعت الضوضاء، التي أحدثتها تلك الصرخة، زوجتي للنزول إلى الطابق السفلي ودخول غرفة الفحص.

يا إلهي، (جون)، ما هذا بحق السماء...؟

هنا توقفت عن الكلام.

- إنها (كورا موراي)!

- أنت تعرفين هذه الشابة إذاً؟

- أعرفها! من المؤكد أنني أعرفها! كنت أعرف (كورا موراي) في الهند. كان والدها ووالدي صديقين لسنوات؛ ولقد أرسلت إليها رسالة عندما تزوّجنا أنا وأنت.

- أرسلت رسالة إلى الهند؟

- لا، لا، إنّها تعيش في إنجلترا الآن. (كورا) هي أقرب صديقات (إليانور غراند)، التي تزوّجت العقيد (واربورتون) الحادّ المزاج نوعاً ما. تعيش (كورا) مع العقيد والسيدة (واربورتون) في مكان ما في «كامبريدج تيراس».

عندما انتهت زوجتي من الكلام، فتحت زائرتنا عينيها. ربتت زوجتي على يدها.

قالت:

- بهدوء يا (كورا). كنت أخبر زوجي فقط أنّك تعيشين في «كامبريدج تيراس» مع العقيد والسيدة (واربورتون).

صرخت الآنسة (موراي) بجنون:

- لم أعد! لقد مات العقيد (واربورتون)، وأصيبت زوجته بجروح بشكل مروّع إلى درجة أنّها ربما تكون تحتضر في هذه اللحظة! عندما رأيتهما يرقدان هناك تحت قناع الموت المرعب ذاك، شعرت بأنّ هذا الشيء الشرير نفسه قد دفع العقيد (واربورتون) إلى الجنون. لا بد من أنّه كان مجنوناً! وإلا فلماذا قام بإطلاق النار على زوجته، ثمّ أطلق النار على نفسه في غرفة مقفلة؟ ورغم ذلك، لا أستطيع أن أصدق أنه كان سيفعل هذا الفعل المروّع.

نظرت إليّ بمناشدة مثيرة للشفقة، وهي تمسك بيد زوجتي بكلتا يديها.

- أوه يا دكتور (واطسون)، أتمنى أن تساعدني! أليس هناك أيّ شيء يمكن أن يفعله صديقك السيد (شيرلوك هولمز)!

لكم أن تصدّقوا أنني وزوجتي قد استمعنا بذهول إلى قصّة هذه المأساة العائليّة.

اعترضت برفق:

- لكنّك تقولين لي إنّ العقيد (واربورتون) قد مات.

- رغم ذلك، تبقى الظلال مخيّمةً على اسمه. أوه، هل مهمّتي ميؤوسٌ منها إلى هذا الحد؟

قالت زوجتي:

- لا يوجد شيء ميؤوس منه يا (كورا). (جون)، ما الذي ستفعله؟

صرخت وأنا أنظر سريعاً إلى ساعتي:

- أفعل؟ بالتأكيد، سأركب عربة أجرة ذات عجلتين إلى شارع بيكر فوراً! سنلحق بـ(هولمز) قبل وقت الإفطار!

كما توقعت، كان (شيرلوك هولمز) ينتظر إفطاره بشكل مزاجي. كانت الغرفة تفوح منها رائحة غليونه اليومي الأول، الذي كان يتألف من بقايا التبغ المتبقية من اليوم السابق. لم ترَ نزعته البوهيمية[1] شيئاً غريباً في الآنسة (موراي)، وفي وصولي في هذه الساعة المبكرة، على الرغم من أنه كان يميل إلى كثرة الشكوى.

قلت:

- الحقيقة، يا (هولمز)، لقد تمّت مقاطعتي هذا الصباح...

قال:

- بالفعل، يا صديقي العزيز؛ لأنك كنت منخرطاً في ممارستك المعتادة بإشعال النار. إبهامك الأيسر يظهر هذا القدر من المعلومات.

بعدها وقع نظره على محيّا الآنسة (موراي) المنكوب بالحزن، ولان وجهه القاسي.

(1) الكلمة نفسها يقصد بها «غير التقليدي»، لكنّ الكاتب استخدم B Capital في بداية الكلمة، ما يرجّح الإشارة إلى اسم المنطقة «بوهيميا».

وأضاف:

- لكنني أعتقد أنه يمكنكما تناول وجبة إفطار صغيرة قبل أن نناقش الصدمة التي من الواضح أنّ هذه الشابة قد تعرّضت لها.

ولم يسمح لنا بقول كلمة واحدة إلى أن تناولت بعض الطعام، رغم أن الآنسة (موراي) لم تستطع سوى شرب فنجان من القهوة.

- همم!

قالها (هولمز)، مع لمحة من خيبة الأمل على وجهه، بعد أن روت موكلتنا الجميلة بتردّد القدر نفسه من قصّتها الذي روته لنا.

- هذه بالفعل مأساة مؤلمة يا سيدتي، لكن لا يمكنني رؤية الخدمة التي يمكنني تقديمها لك. لقد أصيب العقيد (واربورتون) بالجنون؛ أطلق النار على زوجته أولاً، ثم أطلق النار على نفسه. أفترض أنه لا يوجد شكّ في هذه الحقائق؟

تأوهت الآنسة (موراي).

أجابت:

- للأسف، ولا أيّ خدمة، رغم أننا كنا نأمل في البداية أن يكون هذا من فعل لص.

- كنت تأملين أن يكون هذا من فعل لص؟

لقد انزعجت كثيراً من جلافة نبرة (هولمز)، على الرغم من أنني لم أستطع منع نفسي من تكهّن سببها. منذ ذلك الحين، في الشهر السابق، السيدة (غودفري نورتون)، واسمها الأصلي (آيرين أدلر)،

عندما فاقته دهاءً وغلبته أصبح موقفه تجاه الجنس الأنثوي بأكمله أكثر مرارةً من أيّ وقتٍ مضى.

احتججتُ بشيءٍ من الحدّة:

- حقاً، يا (هولمز)، الآنسة (موراي) كانت تعني فقط أنّ فعل قاتل-سارق كان سينقذ اسم العقيد (واربورتون) من وصمة الانتحار. آمل ألا تحملها مسؤولية اختيار مؤسف للكلمات.

- الاختيار المؤسف للكلمات، يا (واطسون)، قد شنق قاتلاً قبل هذا. حسناً، حسناً، لن نضايق الشابة! لكن هل من الممكن، يا سيدتي، أن تكوني صريحة؟

بشكل أدهشني، أضاءت ابتسامةً أسى وقوة وجه زائرتنا الشاحب.

- والدي، يا سيد (هولمز)، كان النقيب (موراي) في ثورة السيبوي[1]، سترى ما إذا كان بإمكاني أن أكون صريحةً.

- حسناً، هذا أفضل بشكل واضح! - وإذاً؟

قالت:

- العقيد (واربورتون) وزوجته عاشا في المنزل رقم تسعة في «كامبريدج تيراس». ربما رأيت العديد من هذه المنازل المزدهرة والمتينة في منطقة (هايد بارك). على جانبي الباب الأمامي، خلف شريط صغير من حديقة صخرية، هناك غرفة فيها نافذتان فرنسيتان[2].

---

(1) ثورة الهند أو السيبوي: ثورة كبرى في الهند ضدّ حكم شركة الهند الشرقية البريطانية عام 1857م.

(2) المقصود نافذتان طويلتان كالباب، مثل باب الشرفة مثلاً.

كان العقيد (واربورتون) وعزيزتي (إليانور) وحدهما في الغرفة الواقعة على يسار الباب الأمامي، التي تسمّى غرفة التحف. كان الوقت بعد العشاء مباشرة في الليلة الماضية. كان باب تلك الغرفة مقفلاً من الداخل. كانت النافذتان الفرنسيتان كلتاهما مقفلتين بقفلين من الداخل، رغم أن الستائر بقيت غير مسحوبة. لم يكن هناك أي شخص آخر في الغرفة، أو أي شخص مختبئ فيها؛ ولم يكن هناك أيّ مدخل آخر إلى الغرفة. كان هناك مسدس بالقرب من يدِ العقيد اليمنى. لم يكن هناك أيّ عبثٍ بأيّ قفل أو مزلاج؛ كانت الغرفة مقفلة مثل القلعة. هذه الأشياء، يا سيد (هولمز)، يمكنك أن تسلّم بها على أنّها حقائق.

ولمّا كنت قادراً الآن على الشهادة، فقد قالت الآنسة (موراي) الحقيقة بالحرف الواحد.

قال (هولمز) وهو يفرك أصابعه الطويلة الرفيعة معاً:

– نعم، لا شك في أن هذا مُرضٍ أكثر! هل كان من عادة العقيد (واربورتون) أن يغلق الباب بالقفل على نفسه وعلى زوجته —في غرفة التحف، كما قلت؟ —كل مساء بعد العشاء؟

ظهر ارتباك مفاجئ في وجه زائرتنا، وأجابت:

– يا إلهي، لا! لم افكر في هذا أبداً.

– رغم ذلك، أخشى أن هذا لا يمكنه أن يؤثر في المسألة، بل، على العكس، إنه يقوي أعراض الجنون.

أصبحت عينا (كورا موراي) الرماديّتان ثابتتين الآن.

– لا أحد، يا سيد (هولمز)، يدرك هذا أفضل مني. لو كانت رغبة

العقيد (واربورتون) هي تدمير (إليانور) وتدمير نفسه —حسناً، هل يمكنني أن أنكر أنه كان سيغلق الباب بالأقفال؟

قال (شيرلوك هولمز):

- إذا كان بإمكاني قول هذا يا سيدتي، فأنت سيدة شابة تتمتع بحسٍّ جيد وغير مألوف. بعيداً عن تحفه الهندية، هل يمكنك القول إنّ العقيد كان رجلاً ذا عادات مألوفة؟

- إلى حدٍّ كبير. ورغم ذلك...

- هل تتحدثين بناءً على الحدس الأنثوي؟

- سيدي، ما هي أحكامك المتباهية إن لم تكن حدساً ذكورياً؟

- إنها المنطق يا سيدتي! ورغم ذلك، رجاءً سامحيني على مزاجي سريع الغضب هذا الصباح.

طأطأت الآنسة (موراي) رأسها بلطف.

وتابعت بعد لحظة:

- أيقظ صوت الرصاصتين مَن كان في المنزل. عندما نظرنا عبر النافذة، ورأينا هاتين الجثّتين المنهارتين ممددتين على الأرض، وضوء المصابيح المظللة يسقط بريقاً أزرق بارداً من عيون قناع الموت الرهيب ذاك التي تشبه اللازورد، تملّكتني رهبة خرافية.

كان (هولمز) مسترخياً في كرسيه ذي الذراعين، ورداؤه القديم الذي بلون الفئران مفرود حول كتفيه بشكلٍ ينمّ عن الملل وعدم الرضا.

قال:

- عزيزي (واطسون)، ستجد السيجار في دلو الفحم. كن لطيفاً بما يكفي لمناولتي الصندوق؛ هذا إن لم يكن لدى الآنسة (موراي) أيّ اعتراض على دخان السيجار؟

قال زائرتنا الجميلة:

- ابنة أنجلو-هندي، يا سيد (هولمز)، من النادر أن تعترض على ذلك.

ترددت وهي تعضّ شفتها.

- في الواقع، عندما اقتحمنا أنا والرائد (إيرنشو) والنقيب (لاشر) تلك الغرفة المقفلة، كانت أبرز ذكرياتي هي رائحة سيجار العقيد (واربورتون).

أعقبت هذه الملاحظة العارضة لحظة صمت شديد. كان (شيرلوك هولمز) قد نهض واقفاً، وصندوق السيجار في يده، وكان يحدق في الآنسة (موراي).

- لن أزعجك يا سيدتي، لكن هل أنت متأكدة تماماً مما تقولين؟

ردت السيدة:

- سيد (شيرلوك هولمز)، أنا لست معتادةً على الكلام الذي بلا معنى. أتذكر حتى الفكرة التي لا علاقة لها بالموضوع، والتي خطرت في ذهني، بأنّ البخور كان من الممكن أن يكون أكثر ملاءمة من دخان السيجار في غرفةٍ تلمع بمشغولات من النحاس وأصنام خشبية ومصابيح وردية اللون.

للحظة، وقف (هولمز) بلا حراك أمام النار. قال بتمعن:

- من الممكن أن يكون هناك مئة وواحد وأربعون نوعاً، في الوقت نفسه، يا آنسة (موراي). أود أن أسمع المزيد عن ما حدث. على سبيل المثال، ذكرت الرائد (إيرنشو) والنقيب (لاشر). هل كان هذان السيدان ضيفين أيضاً في المنزل؟

- الرائد (إيرنشو) كان ضيفاً لفترة من الزمن، نعم، لكن النقيب (لاشر)...

أكنت أتخيّل هذا أم كان وجه (كورا موراي) قد احمرّ قليلاً عند ذكر اسم النقيب؟...

- النقيب (لاشر) قام بزيارة قصيرة فحسب؛ إنه ابن أخت العقيد (واربورتون)، وقريبه الوحيد، في الواقع هو —هو أصغر بكثير من الرائد (إيرنشو).

- لكنّ روايتك لما حدث في الليلة الماضية يا سيدتي؟

توقفت (كورا موراي) برهةً، وكأنها تحشد أفكارها، ثمّ بدأت التحدث بصوت منخفض، لكنه حاد.

- كانت (إليانور واربورتون) أعز صديقة لي في الهند؛ إنها امرأة جميلة بشكل استثنائي، وأنا لا أتصرف بفظاظة عندما أقول إننا فوجئنا جميعاً عندما وافقت على أن تصبح زوجة العقيد (واربورتون). كان جندياً ذا سمعة متميزة، وذا شخصية قوية، لكنه لم يكن، في رأيي، رجلاً تسهل مشاركة الحياة الأسريّة معه. كان يميل إلى أن يكون صعب

الإرضاء وسريع الغضب، وخاصة في ما يتعلق بمجموعته الكبيرة من التحف الهندية.

- أرجو أن تفهم أنّني أحببت (جورج) بما فيه الكفاية، وإلا فلن أكون هنا الآن. رغم أن حياتهما لم تكن خالية من المشاجرات —في الواقع، كان هناك شجار الليلة الماضية— لم يكن هناك أيّ شيء - أقسم- لتفسير هذا الرعب الموجود!

- عندما غادرا الهند، رافقتهما إلى المنزل في «كامبريدج تيراس». هناك عشنا تقريباً كما لو كنا في مصيف في الهند[1]، حتى بالنسبة إلى هيئة (تشوندرا لال) المغطاة باللون الأبيض، وهو رئيس الخدم الخاص بـ(جورج)، وهو من السكان الأصليين، في منزل مليء بالآلهة الغريبة، وربما بتأثيرات غريبة أيضاً.

- الليلة الماضية، بعد العشاء، طلبت (إليانور) التحدث مع زوجها. ذهبا إلى غرفة التحف، بينما كنت أنا والرائد (إيرنشو) جالسين في غرفة مكتب صغيرة تسمى العرين.

قاطعها (شيرلوك هولمز)، الذي كان قد دوّن ملاحظة على طرف كمّ قميصه:

- لحظة، منذ برهة، ذكرت أنّ المنزل كانت فيه غرفتان تواجهان الحديقة الأمامية، إحداهما غرفة التحف الخاصة بالعقيد (واربورتون). هل كانت الغرفة الأمامية الأخرى هي هذا العرين؟

(1) المقصود البلدات التي أسّسها المستعمرون في الهند بغرض الهرب من حرّ الصيف.

- لا، الغرفة الأمامية الأخرى هي غرفة الطعام. العرين يقع خلفها، والغرفتان غير متصلتين. كان الرائد (إيرنشو) يتكلّم مطوّلاً بشكل مضجر عندما دخل (جاك) مسرعاً. (جاك)...

قاطعها (هولمز):

- قدومه كان مرحباً به؟ أعتبر أنّك تقصدين النقيب (لاشر)؟

رفعت الزائرة عينيها الصريحتين والواضحتين.

ابتسمت، ثمّ بدا الانزعاج على وجهها.

- قدومه مرحّب به للغاية. أخبرنا أنّه عندما كان في طريقه عبر الممر، سمع أصوات شجار بين خاله و(إليانور). المسكين (جاك)، كم كان منزعجاً. صرخ قائلاً: «لقد قطعت كلّ هذه المسافة من (كينسينغتون) لرؤية الرجل العجوز، والآن أنا لا أجرؤ على مقاطعتهما. ما الذي يجعلهما يتشاجران طوال الوقت؟».

- اعترضتُ قائلة إنّه كان يظلمهما.

أجاب: «حسناً، أنا أكره الشجارات، وأشعر، لو كان ذلك من أجل خالي فقط، بأنه يجب أن تبذل (إليانور) المزيد من الجهد للانسجام مع العائلة».

قلت: «إنّها مخلصة لخالك، أما بالنسبة إليك، فهي تشعر فقط، كما نشعر نحن جميعاً، بأنك تعيش حياتك بتهوّر».

- عندما اقترح الرائد (إيرنشو) أن نلعب الورق، مع احتساب بنسين للنقطة، أخشى أنّ (جاك) لم يكن مهذباً للغاية. إذا كان يجب أن يكون

متهوراً، كما قال، فقد فضّل شرب كأس من شراب بورت في غرفة الطعام، لذا استقررنا أنا والرائد (إيرنشو) على لعبة ورق ثنائية[1].

- هل غادر أيٌّ منكما، سواء أنت أم الرائد (إيرنشو)، الغرفة بعد ذلك؟

- أجل! في الواقع، الرائد قال شيئاً عن إحضار صندوق السعوط من الطابق العلوي.

في ظلّ ظروف أخرى شعرت بأنّ (كورا موراي) ربما كانت قد ضحكت.

- هرع خارجاً، وهو يتلمّس في كلّ جيوبه، ويقسم إنّه لا يستطيع أن يكون مرتاحاً في لعب الورق من دون سعوطه.

- جلست هناك، يا سيد (هولمز)، وأوراق اللعب في يدي، وبينما كنت أنتظر في تلك الغرفة الصامتة، بدا الأمر كما لو أنّ كلّ مخاوف الليل المجهولة تتجمّع حولي ببطء. تذكّرت البريق في عيني (إليانور) على العشاء؛ تذكّرت وجه (تشوندرا لال) الأسمر، رئيس الخدم من السكّان الأصليين، الذي بدا كأنه مبتهج منذ أن تمّ إحضار قناع الموت إلى المنزل. في تلك اللحظة بالتحديد، يا سيد (هولمز)، سمعت صوت طلقتي المسدس.

مع انفعالها، نهضت (كورا موراي) واقفة.

- أوه، من فضلك لا تظنّ أنني كنت مخطئةً! لا تظنّ أنّني تعرضت

---

(1) في النص الأصلي لعبة «بيزيك» (Bezique) لعبة ورق يلعبها لاعبان.

للتضليل من قبل بعض الضوضاء الأخرى، أو أنّ هذه ليست الطلقات التي قتلت (جورج) و...

جلست مرة أخرى، وهي تأخذ نفساً عميقاً.

- للحظة، كنت مرتعبةً تماماً. بعدها ركضت إلى الممر، وكدت أصطدم بالرائد (إيرنشو). كان يتمتم بإجابات غير مترابطة عن أسئلتي عندما خرج (جاك لاشر) من غرفة الطعام وفي يده إناء البورت. قال لي (جاك): «من الأفضل لك البقاء هنا، يا (كورا)، قد يكون هناك لصّ في المنزل».

ركض الرجلان نحو باب غرفة التحف. أتذكر الرائد (إيرنشو) يصرخ قائلاً: «إنه مقفل، اللعنة، ساعدني يا صديقي، سنحطّم هذا الباب».

قال (جاك): «انظر هنا يا سيدي، ستحتاج إلى مدفعيّة من النوع الذي يُستخدم في الحصار من أجل بابٍ كهذا. تمسّك بقوّة بينما أندفع أنا حول الغرفة، وأجرّب النوافذ الفرنسية». ونتيجة لذلك، ركضنا جميعاً إلى الخارج...

- كلكم؟

- الرائد (إيرنشو)، و(جاك لاشر)، و(شوندرا لال)، وأنا. لمحة واحدة عبر أقرب نافذة أظهرت لنا (جورج وإليانور واربورتون) مستلقيين على سجادة بروكسل الحمراء[1]. كان الدم لا يزال يتدفق من جرح في صدر (إليانور).

(1) سجادة ذات وبر ثقيل من الصوف وخلفيتها من الكتان السميك.

- وبعدها؟

- لعلكما تتذكران ما قلته من أنّ الحديقة الأمامية حديقة صخرية؟

- لقد سجلت هذه الملاحظة في ذهني.

- حديقة صخرية ذات تربة حصباء. وهو يدعو الآخرين لحراسة الأبواب، والتأكد من عدم هروب أيّ لص. التقط (جاك) حجراً ضخماً، وحطم إحدى النوافذ، لكن لم يكن هناك لصّ يا سيد (هولمز). أظهرت لي نظرة واحدة أنّ النافذتين الفرنسيتين كلتيهما ما زالتا مقفلتين بقفلين من الداخل. بعد ذلك مباشرة، قبل أن يقترب أيّ أحد من الباب، ذهبت إليه، ووجدت الباب مقفلاً من الداخل. كما ترى، أعتقد أنّني كنت أعرف أنّه لا يمكن أن يكون هناك لص.

- كنت تعرفين هذا؟

أجابت الآنسة (موراي) ببساطة:

- لقد كان خوف (جورج) على مجموعته. حتى المدفأة في تلك الغرفة مسدودة بالطوب. نظر (تشوندرا لال)، بشكلٍ غامض، إلى العينين الزرقاوين القاسيتين لقناع الموت الذي على الحائط، وركلت قدمُ الرائد (إيرنشو) المسدسَ الذي كان ملقَى بالقرب من يد (جورج). قال الرائد (إيرنشو): إنّ هذا لشيء سيّئ. من الأفضل أن نرسل في طلب طبيب». هذه، على ما أعتقد، هي كلّ قصتي.

لفترة من الوقت، بعد أن أنهت حديثها، ظل (هولمز) يقف بلا حراك أمام النار، ويده تلعب بالسكين التي ثبّت نصلها مراسلاته التي لم يَرُدّ عليها في منتصف الرفّ الخشبي.

قال:

- هممم! وما هو الوضع الآن؟

- ترقد المسكينة (إليانور)، وهي مصابة بجروح بالغة، في مستشفى في بايزووتر، وقد لا تتعافى حتى. وقد تمّ نقل جثة (جورج) إلى المشرحة. حتى عندما غادرت «كامبريدج تيراس» هذا الصباح، مع بعض الأمل الجنوني في طلب مساعدتك من خلال الدكتور (واطسون)، وصلت الشرطة في شخص المفتش (ماكدونالد)، لكن ماذا بوسعه أن يفعل؟

- ماذا، حقاً؟

قالها (هولمز)، لكنّ عينيه العميقتين تلمعان، ورفع السكين وأنزلها كسلاح على الأظرف.

- رغم ذلك —المفتش (ماك)! هذا أفضل بكثير. لم يكن بإمكاني أن أتحمّل (ليستريد) أو (غريغسون) هذا الصباح. إذا كانت الشابة ستسمح لي ريثما أرتدي معطفاً وقبعة، فسنذهب إلى «كامبريدج تيراس».

صرختُ محتجاً:

- (هولمز)، سيكون من الوحشيّة إعطاء الآنسة (موراي) آمالاً زائفة!

نظر إليّ صديقي بأسلوبه المستبدّ ببرود.

- يا عزيزي (واطسون)، أنا لا أشجع على الأمل، ولا أثني عليه. أنا أفحص الأدلة. هذا كلّ شيء.

لكنني لاحظت أنه قد وضع عدسته في جيبه؛ وكان مستغرقاً في التفكير بشكل مزاجي، ويعضّ على شفته، في الوقت الذي كانت تقلّنا فيه عربة ذات أربع عجلات عبر الشوارع.

امتدّت «كامبريدج تيراس»، في صباح ذلك اليوم المشمس من شهر أبريل، وهي ساكنةٌ ومهجورة. خلف الجدار الحجري، وشريط الحديقة الصخرية الضيق، يقع المنزل المبني من الحجارة بواجهاته ذات النوافذ البيضاء والباب الأمامي المطلي باللون الأخضر. أصبت بشيء من الصدمة عندما رأيت، بالقرب من النوافذ باتجاه الجهة اليسرى من المدخل، هيئة رئيس الخدم، من السكان الأصليين، وهو يرتدي ملابس بيضاء وعمامة. وقف (تشوندرا لال) هناك بلا حراك مثل أحد الأصنام التي يعبدها، وهو ينظر إلينا؛ ثمّ اختفى داخل المنزل عبر إحدى النوافذ الفرنسية.

كان من الواضح أن (شيرلوك هولمز) قد تأثر بالطريقة نفسها. رأيتُ كتفيه يتصلّبان تحت المعطف وهو يشاهد هيئة الخادم الهندي المنسحب. رغم أنّ النافذة التي على يسار الباب الأمامي مباشرةً كانت سليمةً، أظهرت فجوةً في الحديقة الصخرية مكانَ اقتلاع حجر كبير؛ والنافذة الأخرى، الواقعة على مسافة أبعد يساراً، قد حُطّمت إلى قطع صغيرة. من خلال هذه الفتحة، انتقل رئيس الخدم الذي من السكان الأصليين، من دون إصدار صوت، إلى الداخل.

صفّر (هولمز)، لكنّه لم يتكلّم إلا عندما تركتنا (كورا موراي).

قال:

- أخبرني يا (واطسون): ألم ترَ شيئاً غريباً أو غير منسجم في رواية الآنسة (موراي)؟

اعترفت قائلاً:

- غريب، فظيع، نعم! لكن غير منسجم، بالتأكيد لا، لم أرَ!

- رغم ذلك، كنت أنت أوّل من احتجّ على ذلك.

- يا صديقي العزيز، لم أنطق بكلمة احتجاج واحدة هذا الصباح!

قال (شيرلوك هولمز):

- ربما ليس هذا الصباح. آه، المفتش (ماك)! لقد التقينا في قضيّة أخرى.

في النافذة المحطمة، وهو يتقدّم بحذرٍ على شظايا الزجاج الساقطة، ظهر شاب ذو وجه منمّش، وذو شعر رملي اللون[1] يحمل شارة ضابط شرطة.

صاح المفتش (ماكدونالد) متعجباً، وهو يرفع حاجبيه:

- يا للعجب، يا سيد (هولمز)، أنت لا تسمّي هذه قضية؟ إلا إذا كان السؤال هو لماذا أصيب العقيد (واربورتون) بالجنون؟

قال (هولمز) بلطف:

- حسناً، حسناً! أفترض أنّك ستسمح لنا بالدخول؟

رد الاسكتلندي الشاب:

---

(1) لون برتقالي يميل إلى البني.

- نعم، مرحباً بكما!

وجدنا أنفسنا في غرفة ضيقة ومرتفعة، رغم أنّها كانت مفروشة بكراسي مريحة، إلا أنّها تعطي انطباعاً بأنها متحف بربري. وُضعت قطعة غير عادية مثبتة على خزانة من خشب الأبنوس تواجه النوافذ: تمثالٌ لوجه بشري، بنيّ ومذهب، ذو عينين كبيرتين من نوع من الأحجار الزرقاء المتلألئة.

تذمّر (ماكدونالد) الشاب:

- يا له من شيء صغير وجميل، أليس كذلك؟ هذا هو قناع الموت الذي يبدو أنّه يؤثر فيهم مثل تعويذة سحرية من المرتفعات الاسكتلندية. الرائد (إيرنشو) والنقيب (لاشر) في غرفة العرين الآن، يُضجر الواحد منهما الآخر بالكلام المطوّل.

ما أدهشني هو أنّ (هولمز) كاد ينظر إلى ذلك الشيء البشع.

قال وهو يتجوّل في الغرفة، وينظر بإمعانٍ في الصناديق الزجاجية وخزائن العرض:

- أفهم، أيّها المفتش (ماك)، أنك قد استجوبت جميع من كانوا في هذا المنزل؟

تذمّر المفتش (ماكدونالد) قائلاً:

- يا رجل، لم أفعل أيّ شيء آخر! لكن ماذا يمكنهم أن يخبروني؟ هذه الغرفة كانت مقفلة. الرجل الوحيد الذي ارتكب جريمة، بإطلاق النار على نفسه وعلى زوجته، قد مات. أمّا بالنسبة إلى الشرطة، فقد تمّ إغلاق القضية. ماذا الآن يا سيد (هولمز)؟

كان صديقي قد انحنى فجأة.

- أهلاً، ما هذا؟

صرخ بها، وهو يفحص شيئاً صغيراً كان قد التقطه من الأرض.

أجاب (ماكدونالد):

- مجرّد كعب سيجار العقيد (واربورتون) الذي، كما ترى، أحرق حفرةً في السجادة.

- آه. هذا صحيح تماماً.

حتى وهو يتكلّم، انفتح الباب، ودخل رجل مسنّ وممتلئ الجسم افترضت أنه الرائد (إيرنشو). وخلفه، برفقة (كورا موراي)، ويدها على ذراعه، جاء شاب طويل ذو وجه برونزي، وأنف مرتفع وشارب حارس.

بدأ الرائد (إيرنشو) الكلام بطريقة غير ودية:

- أفهم، يا سيدي، أنّك السيد (شيرلوك هولمز). عليّ أن أقول على الفور إنّني لا أستطيع أن أفهم سبب دعوة الآنسة (موراي) لك إلى هذه المأساة الشخصيّة.

أجاب (هولمز) بهدوء:

- قد يفهم الآخرون السبب. هل كان خالك يدخّن دائماً ماركة السيجار نفسها أيها النقيب (لاشر)؟

أجاب الشاب وهو ينظر إلى (هولمز) نظرة فيها حيرة:

- نعم، يا سيدي، الصندوق هناك على الطاولة الجانبية.

شاهدنا جميعاً (شيرلوك هولمز) في صمت بينما كان يمشي عبر الغرفة، ويأخذ صندوق السيجار. للحظة، تأمّل محتوياته، بعدها، وهو يرفع الصندوق إلى أنفه، أخذ يشمّ بعمق.

قال:

- هولندي. آنسة (موراي)، أنت محقّة تماماً في شهادتك! لم يكن العقيد (واربورتون) مجنوناً.

أطلق الرائد (إيرنشو) صوت شخير عالٍ[1]، بينما حاول الرجل الأصغر سناً، الذي كان ذا أخلاقٍ أفضل من الضابط الأعلى منه رتبةً، أن يخفي ضحكته عن طريق تسوية شاربه.

قال:

- يعلم الشيطان أنّ تأكيدك قد أراحنا جميعاً يا سيد (هولمز). لا شك في أنّك تستنتج ذلك من ذوق العقيد في السيجار.

أجاب صديقي بجديّة:

- جزئياً. يمكن للدكتور (واطسون) أن يخبرك أنني أعطيتُ بعض الاهتمام لدراسة التبغ، وأنّني قد تجرّأت حتى على تجسيد اكتشافاتي في دراسة صغيرة تضمّ 140 صنفاً منفصلاً من رماد التبغ. ويؤكّد ذوق العقيد (واربورتون) في السيجار الدليلَ الآخر فقط. حسناً، (ماكدونالد)؟

---

(1) تعبيراً عن التذمّر.

استقرّ عبوسٌ على وجه رجل سكوتلانديارد، وعيناه الصغيرتان الزرقاوان الفاتحتان نظرتا إلى (هولمز) بارتيابٍ من تحت حاجبيه اللذين بلون الرمال.

صرخ فجأة:

- الدليل؟ ما الذي تحاول الوصول إليه يا رجل! إنّ الأمر واضح وضوح الشمس. العقيد وزوجته قد أطلق عليهما الرصاص في غرفة مقفلة ومغلقة، ومحميّة بالقضبان من الداخل. هل تنكر هذا؟

- لا.

- إذاً، دعنا نلتزم بالحقائق يا سيد (هولمز).

كان صديقي يتجوّل عبر الخزانة المصنوعة من خشب الأبنوس، ويداه خلف ظهره. كان الآن مشغولاً في تأمّل الوجه الملوّن البشع الذي كان يحدّق فوق رأسه.

أجاب:

- بكلّ تأكيد. ما نظريّتك لتفسير الباب المقفل، أيّها المفتش (ماك)؟

- أنّ العقيد نفسه أغلقه من أجل الخصوصية.

- هذا صحيح بالفعل. ظرف موحٍ للغاية.

أجاب (ماكدونالد):

- إنّه يوحي فقط بالجنون الذي دفع العقيد (واربورتون) إلى فعلته المروعة.

قاطعهما الشاب (لاشر):

- انظر، يا سيد (هولمز)، نحن نعرف جميعاً سمعتك في خدمة العدالة من خلال أساليبك الخاصة الذكية، وبطبيعة الحال نحن حريصون للغاية على تبرئة اسم خالي المسكين. لكن، تباً لهذا، لا توجد طريقة لتجاهل الأدلة، وسواء أعجبنا ذلك أم لا، نحن مجبرون على الاتفاق مع المفتش هنا على أنّ العقيد (واربورتون) كان ضحية جنونه.

رفع (هولمز) يده الطويلة والرفيعة.

قال بهدوء:

- كان العقيد (واربورتون) ضحيّة جريمة قتلٍ غير عادية بدمٍ بارد.

أعقب كلماته صمتٌ حادٌّ، ونحن جميعاً نحدّق بعضنا في بعض.

زمجر الرائد (إيرنشو):

- حباً في الله يا سيدي، من تتهم؟ يجب أن تعلم أنّ هناك قوانين للافتراء في هذا البلد.

قال (هولمز) ببهجة:

- حسناً، حسناً، سأطلعك على سرّي أيها الرائد، بإخبارك أنّ قضيّتي تعتمد، إلى حدٍّ كبير، على كلّ تلك الأجزاء المكسورة من الزجاج من النافذة الفرنسية، التي، كما تلاحظ، قمتُ بتجميعها في المدفأة. عندما أعود صباح الغد لألصقها معاً، أثقُ بأنّني سأتمكّن بعد ذلك من إثبات قضيّتي بالشكل الذي يرضيك. بالمناسبة، أيّها المفتش (ماك)، أعتقد أنّك تأكل المحار؟

احمرّ وجه (ماكدونالد).

قال بحدّة:

- سيد (هولمز)، لقد كان لديّ إعجاب واحترام لك، لكن هناك أوقات عندما لا يكون من الوقار، ولا من اللائق للرجل... ما علاقة هذا بالمحار بحقّ الله؟

- لمجرّد أنّك حتى تأكلها، من المفترض أن تأخذ شوكة المحار الأقرب إلى يدك. بالنسبة إلى المراقب المدرّب، سيكون هناك بالتأكيد شيءٌ مهمٌّ إذا مددتَ يدك بدلاً من ذلك إلى الشوكة التي بجوار طبق جارك. أعطيك هذه الفكرة للعلم فقط.

لبرهة طويلة، حدّق (ماكدونالد) في صديقي باهتمام.

قال بعد وقفة طويلة:

- أجل يا سيد (هولمز). هذا مثير جداً للاهتمام. سأكون سعيداً بمقترحاتك.

أجاب (هولمز):

- أنصحك بإغلاق النافذة المكسورة بلوح خشبي. عدا ذلك، لا تدع أيّ شيء يُمَسّ حتى نلتقي جميعاً مرةً أخرى صباح الغد. تعال يا (واطسون)، أرى أنّ الساعة قد تجاوزت الواحدة. طبق من الكالاماري على الطريقة الصقلية في مطعم «بيليغريني» سيكون مناسباً تماماً.

خلال فترة ما بعد الظهر، كنت مشغولاً في جولتي الطبية المتأخرة، ولم أجد نفسي مرة أخرى في شارع بيكر إلا في وقت مبكّر من المساء.

فتحت لي السيدة (هدسون) الباب، وتوقفتُ على السلالم للإجابة على استفسارها عمّا إذا كنت سأبقى لتناول العشاء عندما دوّى صوتٌ عالٍ في المنزل. تمسّكت السيدة (هدسون) بالدرابزين.

صرخت قائلة:

- ها هو يا سيدي، ها هو يفعلها مرة أخرى. تلك المسدسات اللعينة. لم تمر ستة أشهر منذ أن فجّر النتوءات من على رفّ المدفأة! من أجل العدالة، كما قال السيد (هولمز). أوه، يا دكتور (واطسون)، يا سيدي، إذا لم تصعد إلى هناك سريعاً، فمن المحتمل أنّ الغازوجين، الباهظ الثمن، هو الذي سيضيع هذه المرة.

قلت للمرأة الفاضلة كلمةً لتهدئتها، وصعدت السلالم بسرعة، وفتحت باب غرفة جلوسنا القديمة فور صدور صوت مدوٍّ ثانٍ. من خلال سحابة من الدخان الأسود الحادّ الرائحة، لمحت (شيرلوك هولمز). كان مسترخياً في كرسيّه ذي الذراعين وهو يرتدي روباً، وبين شفتيه سيجار، وفي يده اليمنى مسدّس يخرج من فوهته الدخان.

قال بفتور:

- آه، (واطسون).

صرختُ:

- يا إلهي يا (هولمز)، هذا حقاً لا يُطاق. رائحة المكان تشبه رائحة ساحة للرماية. إذا لم تكن مهتماً أبداً بالأضرار، فأرجوك أن تفكر في أثر هذا على أعصاب السيدة (هدسون) وأعصاب عملائك.

فتحتُ النوافذ على مصراعيها، وشعرتُ بالارتياح عندما لاحظتُ

أنّ التدفّق الصاخب للعربات ذات العجلتين والعربات الأخرى المارّة قد أخفى، على ما يبدو، صوت الطلقات. أضفت بصرامة:

- الجوّ غير صحيّ للغاية.

مدّ (هولمز) ذراعه، ووضع المسدس على رفّ المدفأة.

قال:

- حقاً يا (واطسون)، لا أعرف ما الذي كنت سأفعله من دونك. كما أتيحت لي الفرصة للملاحظة من قبل، لديك موهبة معيّنة في تزويدك الأعمال العليا للعقل المدرّب بالعنصر الأساسي.

أجبته بمرارة قاسية:

- إنّه العنصر الأساسي الذي، على حدّ علمي، قد خالف القانون ثلاث مرات من أجل مساعدتك.

قال:

- يا صديقي العزيز.

كان هناك ذلك الشيء في صوته، الذي أبعد كلّ الاستياء، وهدّأ مشاعري المتكدّرة.

قلت وأنا ألقي بنفسي على مقعدي القديم:

- لم أرك تدخن سيجاراً منذ زمن.

- إنّها مسألة مزاج، يا (واطسون). في هذه الحالة، سمحتُ لنفسي بسرقة واحد منها من مخزون العقيد الراحل (واربورتون).

صمت ليلقي نظرةً على الساعة، التي على رفّ المدفأة، واختتم حديثه قائلاً:

- هممم، لدينا ساعة إضافية. لذا دعنا نستبدل مشاكل شرّ الإنسان المتنوّع بالتعبير عن تلك القوّة الأعلى الموجودة حتى في أسوأ واحد منا. (واطسون)، الـ«ستراديفاريوس»[1] إنّه في الزاوية التي خلفك.

كانت الساعة تقترب من الثامنة، وكنت قد أشعلت الغاز للتوّ عندما صدر صوت طرقة على الباب، ودخل المفتش (ماكدونالد) على عجل إلى الغرفة، بقامته الطويلة الشديدة النحول، والمغطاة بمعطف ذي نقوش مربعة.

صرخ قائلاً:

- لقد تلقّيت رسالتك يا سيد (هولمز)، وتمّ تنفيذ كلّ شيء وفقاً لاقتراحاتك. سيكون هناك شرطي في الحديقة الأمامية عند منتصف الليل. لا تقلق بشأن النافذة الفرنسية؛ يمكننا الدخول من دون إيقاظ من في المنزل.

فرك (هولمز) أصابعه الرفيعة معاً.

قال بحرارة:

- ممتاز، ممتاز! لديك موهبة في التنفيذ الفوري - إيه - الاقتراحات التي ستجعلك تنجز الكثير. ستقدم لنا السيدة (هدسون) العشاء هنا، وبعد ذلك قد يساعد تدخين غليون أو اثنين في ملء الوقت. أنا أعتبر

---

(1) يقصد كمانه.

أنه قد يكون ذلك قاتلاً لخططي إذا اتخذنا مواقعنا قبل منتصف الليل. الآن، يا سيد (ماك)، اسحب مقعدك، وجرب هذا التبغ. يمكن أن يخبرك (واطسون) أنه يتميز بخصائص مميّزة.

مرت الأمسية بسرور تام. (شيرلوك هولمز)، الذي كان في مزاجه الأكثر أنساً، أنصت بانتباه إلى رواية رجل شرطة سكوتلانديارد عن عصابة من صانعي العملات الفرنسية، الذين كانت عملياتهم فعلياً تهدد استقرار العملة الفرنسية «لويس دور»، وبعد ذلك شرع في إذهال الاسكتلندي بنظرية مبتكرة للغاية في ما يتعلق بآثار تقاليد الرونية[1] في تطور عشائر المرتفعات الاسكتلندية. كان صوت دقات الساعة عند منتصف الليل هو الذي أعادنا أخيراً إلى وقائع الليل الكدرة.

ذهب (هولمز) إلى مكتبه، وفي مساحة الضوء الساقط من مصباح القراءة المظلل باللون الأخضر، لمحت التعبير الخطير على وجهه، وهو يفتح درجاً، ويخرج سترة نجاة.

قال:

- ضع هذه في جيبك يا (واطسون). أتخيّل أنّ رجلنا قد يميل إلى العنف. الآن، سيد (ماك)، ربّما كانت السيدة (هدسون) قد ذهبت إلى الفراش منذ ساعة. إذا كنت مستعداً، فسننزل إلى الطابق السفلي، ونوقف أول عربة أجرة.

كانت ليلة صافية ومليئة بالنجوم. سرنا مسافة قصيرة بالعربة عبر شبكة من الشوارع الصغيرة عبر طريق «إدجوير». مع كلمة من

(1) الرونية (rún): ثقافة سلافية قديمة تركت بعض المنجزات من ضمنها حروف هجائية ونظام للكتابة.

(هولمز)، توقف سائق عربة الأجرة عند زاوية، وبينما كنا ننزل، رأيت الامتداد الطويل لـ«كامبردج تيراس» الممتدّ أمامنا في قفرٍ فارغ من أضواء المصابيح والظلال. أسرعنا عبر الشارع، واستدرنا عبر البوابة المؤدّية إلى وجهتنا.

أومأ (ماكدونالد) برأسه نحو الألواح الخشبية، التي كانت الآن تسدّ مكان النافذة المحطمة.

همس قائلاً:

- إنّها مرتخية في إحدى جوانبها، لكن تحركا بحذر.

كان هناك صرير طفيف، وبعد لحظة، قمنا بإقحام أنفسنا عبر الألواح، لنجد أننا في الظلام الدامس لغرفة التحف الخاصة بالعقيد (واربورتون).

كان (هولمز) قد أخرج من جيب رداء إينفيرنيس، الذي يرتديه، فانوساً من النوع الذي يمكن تغطية ضوئه، وتحسسنا طريقنا على طول الجدار، ونحن نتبع شعاع ضوئه الخافت، إلى أن وصلنا إلى الكوة التي تحتوي على أريكة.

همس صديقي:

- هذا سيفي بالغرض. كان من الممكن أن نجد مجثماً أسوأ، وهو قريب بما يكفي من المدفأة من أجل أغراضنا.

كانت الليلة هادئة بشكل استثنائي، وكما اتضح لاحقاً، كانت سهرتنا مملة. في إحدى المرّات، مرّ بعض المحتفلين المتأخرين في عربة ذات عجلتين، وتلاشى صوت غنائهم وصوت وقع حوافر الحصان تدريجياً

باتجاه (هايد بارك)، وبعد ساعة أو نحو ذلك، سمعنا صوت هدير عميق لعربة إطفاء تشقّ طريقها بعنف على طول طريق (إيدجوير) مع ضجيج الأجراس، وصوت وقع سوط السائق الحاد الذي يشبه صوت طلقات المسدس. بخلاف ذلك، لم ينقطع الصمت باستثناء صوت دقات الساعة ذات الصندوق الطويل التي في الطرف الآخر من الغرفة.

بدأ الجو، الذي كان مثقلاً بالنتانة العطرية لمتحف شرقي، يثقل كاهلي بخمول متزايد، حتى اضطررت إلى تركيز كلّ مداركي لمنع نفسي من النوم.

لقد أشرت إلى الظلام الدامس، لكن مع اعتياد عيني على هذه الظروف، رأيت انعكاس ضوء باهت من بعض مصابيح الشوارع البعيدة، الذي كان يتسلّل عبر النافذة الفرنسية غير المغلقة بالألواح الخشبية، وكنت أتتبع مساره عندما وقع نظري عليه. شيء جلب القشعريرة إلى حواسي. كان وجهاً باهتاً غير واضح مخيفاً، كأنّه من نسج كابوس، كان يحدّق بغضب في وجهي من الطرف البعيد لذلك الشعاع الخافت. لا بد أنّني جفلت بشكل لا إرادي؛ لأنّني شعرت بأنّ (هولمز) يميل نحوي.

همس قائلاً:

- القناع. غنيمتنا، من المرجح أن يكون أقلّ إثارة للإعجاب، لكنّه أكثر خطورة.

حاولت الاسترخاء وأنا أرجع إلى الخلف، وأنا جالس في مقعدي، لكنّ رؤية ذلك الأثر القديم المرعب حولت أفكاري إلى مجال جديد من التخمين. ظهرت في ذهني هيئة (تشوندرا لال) المشؤومة ذات

الملابس البيضاء، خادم العقيد (واربورتون) الهندي، وحاولت أن أتذكر الكلمات نفسها التي استخدمتها الآنسة موراي بالتحديد في وصف تأثير قناع الموت على الرجل. ربما حتى أكثر من (هولمز)، كنت أعرف ما يكفي عن الهند لأدرك أنّ التعصب الديني والشعور بتدنيس المقدسات لن يبررا أيّ جريمة فحسب، بل سيلهما المتعصبين براعةً في التنفيذ، قد تحيّر الأفكار المسبقة في عقولنا الغربية، مهما كانت درجة خبرتها في أنماط إخواننا من البشر.

كنت أفكر في ما إذا كان ينبغي أن أفتح الموضوع لرفاقي عندما أسر انتباهي الصرير الخافت لمفصلة الباب. لم تكن هناك لحظة لنضيعها في تحذير (هولمز) من أنّ شخصاً ما كان يدخل الغرفة. لكن عندما مددتُ يدي وجدت أنّ صديقي لم يعد بجانبي.

أعقبت ذلك فترة من السكون التام، بعدها هيئة منحنية، خطواتها كانت تكتمها السجادة، تحرّكت بخفّة عبر شعاع الضوء الخافت الساقط من النافذة الفرنسية، واختفت في الظلال أمامي مباشرة. كان لدي انطباع عابر عن رداءٍ ذي ياقة عالية ولمعان باهت لبعض الأشياء الطويلة والرفيعة، التي كانت تمسكها يدٌ نصف مرفوعة. بعد لحظة، ظهر بريق ضوء في المدفأة، كما لو أنّ مصراع الفانوس المظلم قد انزلق إلى الخلف، وبعدها نقر برفق ورنين.

كنت أنهض واقفاً عندما رنّ صوت صراخ مخنوق في الغرفة، تلاه على الفور أصوات صراع عنيف.

- (واطسون)! (واطسون)!

بإثارة من الرعب، تعرّفت على صوت (هولمز) في تلك الصرخة شبه المخنوقة، واندفعت بسرعة إلى الأمام في الظلام، ألقيتُ بنفسي على كتلة تتلوّى ظهرت أمامي فجأة.

ألتفّت قبضةٌ كالفولاذ حول حلقي، وعندما رفعت ذراعي لأدفع رأس المهاجم الذي رأيته بشكلٍ خافت إلى الخلف بقوّة، قام بغرز أسنانه في ساعدي مثل كلب متوحش. امتلك الرجل قوّة رجل مجنون، ولم ننجح في السيطرة عليه إلا بعد أن أشعل (ماكدونالد) لهباً غازياً، واندفع لمساعدتنا. انحنى (هولمز)، الذي كان وجهه مرهقاً وشاحباً، إلى الخلف متكئاً على الحائط، وهو يشدّ بيده على كتفه، حيث تعرض للضرب بقضيب تحريك نار نحاسي ثقيل كان مرمياً الآن في المدفأة وسط قطع زجاج النافذة المتشظية التي وضعها هناك في زيارتنا السابقة.

قال وهو يلهث:

- هذا هو رجلك المنشود يا (ماكدونالد)! يمكنك اعتقاله بتهمة قتل العقيد (واربورتون)، ومحاولة قتل زوجته.

قذف (ماكدونالد) رداء المهاجم إلى الخلف، وحدّقتُ للحظة في صمتٍ قبل أن ينفجر تعجّبٌ من الدهشة من شفتي. لأنني، خلال تلك النظرة الأولى، كنت قد فشلت في التعرّف على تلك الملامح المرعبة، والعينين الشريرتين الخبيثتين، على وجه النقيب (جاك لاشر) البرونزيّ الوسيم.

كان أوّل شعاع للفجر يلوح عبر النافذة، عندما وجدنا أنا وصديقي أنفسنا في شارع بيكر.

سكبت كأسين من البراندي والصودا القويّة، وأعطيت واحدة لـ(هولمز). وبينما كان يميل إلى الخلف في كرسيه، أضفى ضوء الغاز الموجود بجانب رفّ الموقد على ملامحه المعقوفة الحادّة[1] ارتياحاً واضحاً، وكنت سعيداً بملاحظة أنّ شيئاً من التورّد كان يتسلّل إلى وجهه.

قال:

- حقاً يا (واطسون)، أنا مدين لك باعتذار. النقيب (جاك) كان رجلاً خطيراً. كيف حال ذراعك حيث قام بمهاجمتك بعنف؟

اعترفت قائلاً:

- إنها تؤلمني قليلاً، لكن لا يوجد شيء لا يمكن لليود والضمادة إصلاحه. أنا قلق أكثر بشأن كتفك، يا صديقي العزيز؛ لأنه وجّه إليك ضربة فظيعة بذلك المحراك. يجب أن تسمح لي بأن ألقي عليها نظرة.

أجاب بشيء من قلّة الصبر:

- لاحقاً يا (واطسون). أؤكد لك أنّها ليست أسوأ من كدمة. حسناً، يمكنني أن أعترف الآن بأنّه كانت هناك لحظات في هذه الليلة كان لديّ فيها شكوك جديّة في أنّ رجلنا سوف يسير إلى الفخ.

- فخ؟

- فخّ فيه طعم يا (واطسون)، ولو أنّه لم يبتلع اللقمة اللذيذة التي وضعتها، لكان من الصعب علينا إحضار النقيب (لاشر) للحجز.

---

(1) الشبيهة بملامح النسر.

راهنت على حقيقة أنّ مخاوف القاتل ستتغلّب أحياناً على ذكائه، واتضح أن الأمر هكذا.

- بصراحة، أنا لا أفهم حتى الآن كيف حللت هذه القضية.

مال (هولمز) إلى الخلف في كرسيه، ووضع أطراف أصابعه معاً.

- يا صديقي العزيز، لم تكن هناك صعوبة كبيرة في هذه القضية. كانت الحقائق واضحة بما فيه الكفاية، لكن دقّة هذه المسألة تكمن في الحاجة إلى أنّ القاتل نفسه يجب أن يؤكّدها من خلال فعل صريح. الأدلّة الظرفيّة مصدر أذى لعقل المفكّر المدرب.

- أنا لم ألاحظ شيئاً.

- لقد لاحظت كلّ شيء، لكنّك فشلت في التفكير. في سياق رواية الآنسة (موراي)، ذكرتْ أنّ باب غرفة التحف كان مقفلاً، ورغم ذلك لم تكن ستائر النوافذ مسحوبة، كانت مفتوحة، مع تأكيد، يا (واطسون)، أنّ هذا في غرفةٍ في الطابق الأرضي مطلّةٍ على الشارع العام تصرّفٌ غير عاديّ أبداً. قد تذكر أنّني قاطعت الآنسة (موراي) للاستفسار عن عادات العقيد (واربورتون) المألوفة.

- أوحت الظروف في ذهني احتماليّةَ أن يكون العقيد (واربورتون) ربّما كان يتوقع زائراً، وأنّ طبيعة تلك الزيارة كانت تجعله أو تجعل الزائر يفضّل أن تتم بخصوصية عند النوافذ الفرنسية بدلاً من الباب الأمامي. كان هذا الجندي المسنّ قد تزوّج حديثاً من زوجةٍ شابة وجميلة، ومن ثَمَّ تجاهلت فكرة اللقاء السرّي المبتذل. إذا كنتُ محقاً في نظريتي، فلا بدّ من أنّ الزائر هو رجل قد تثير مقابلته الخاصة مع

العقيد (واربورتون) استياءَ بعض أفراد الأسرة الآخرين، ومن ثَمَّ كانت الخطوة الواضحة هي الانضمام إلى العقيد عبر النوافذ الفرنسية.

اعترضت قائلاً:

- لكنها كانت مقفلة.

- بطبيعة الحال. ذكرت الآنسة (موراي) أنّ السيدة (واربورتون) رافقت زوجها إلى غرفة التحف بعد العشاء مباشرة، ويبدو أنّ شجاراً نشأ بينهما. وخطر لي أنّه إذا كان العقيد يتوقّع زائراً، فماذا سيكون طبيعياً أكثر من تركه الستائر مفتوحة؛ حيث يجب على الزائر أن يلاحظ أنّه لم يكن وحده. في البداية، بطبيعة الحال، كانت هذه كلّها مجرد تخمينات كان من الممكن أن تتناسب مع الحقائق.

- وما هوية هذا الزائر الغامض؟

- مرة أخرى، هذا تخمين يا (واطسون). كنّا نعلم أنّ السيدة (واربورتون) كانت لا تحبّ النقيب (لاشر)، ابن شقيقة زوجها. أعطيك هذه التغييرات لأنها حدثت لي لأول مرة خلال الجزء السابق من رواية الآنسة (موراي). لم يكن بإمكاني أن أتحرك في هذه المسألة، لولا احتواء الجزء اللاحق من قصتها على حقيقة واحدة استثنائية غيّرت أدنى الشكوك إلى اليقين المطلق بأننا كنّا في حضرة جريمة قتلٍ بدم بارد ومحسوبة.

- عليّ أن أقول إنّني لا أستطيع أن أتذكر...

- رغم ذلك، لقد شدّدت على هذا بنفسك يا (واطسون)، عندما استخدمت مصطلح «لا يُطاق».

انفجرت قائلاً:

- يا إلهي يا (هولمز)، إذاً، كانت ملاحظة الآنسة (موراي) عن رائحة سيجار العقيد...

- في غرفة أُطلقت فيها طلقتان للتو! كان من المفترض أن تفوح منها رائحة البارود الأسود. علمت حينها أنّه لم تُطلَق أيّ طلقات داخل غرفة التحف.

- لكنّ صوتها سُمع من قبل أهل المنزل.

- تمّ إطلاق الطلقات من الخارج عبر النوافذ المغلقة. كان القاتل رامياً ممتازاً، ومن ثَمّ من المعقول أن يكون رجلاً عسكرياً. هنا، وأخيراً، كان هناك شيء يمكن العمل عليه، وفي وقت لاحق، تلقّيت تأكيداً من فمك يا (واطسون)، عندما أشعلت سيجاراً من سيجار العقيد، انتظرت إلى أن سمعتك في الأسفل، ثمّ أطلقت رصاصتين من المسدس نفسه الذي قتل (واربورتون).

قلت بتفكّر:

- على أيّ حال، كان ينبغي أن يكون هناك حروق على الجلد من أثر إطلاق النار.

- ليس بالضرورة. البارود الذي في الخرطوشة عامل معقّد، وعدم وجود الحروق لم يثبت شيئاً. كانت رائحة السيجار ذات أهميّة أكبر بكثير. ورغم ذلك، يجب أن أضيف أنّه على الرغم من أنّ تأكيدك كان مفيداً، أوضحت زيارتي إلى المنزل بالفعل القضية برمتها في ذهني.

- لقد جفلت عند ظهور الخادم الهندي.

رددتُ بتلك العبارة على قوله، وأنا منزعج نوعاً ما من مسحة الرضا عن النفس التي تبيّنتها في سلوكه.

- لا يا (واطسون)، لقد أجفلتني النافذة المكسورة التي انسحب من خلالها.

- لكن الآنسة (موراي) أخبرتنا أن النقيب (لاشر) كسر النافذة لدخول الغرفة.

- إنها حقيقة مؤسفة، يا (واطسون)، أنّ المرأة ستحذف دائماً من روايتها تلك الدقة المضبوطة في التفاصيل، التي تُعدّ ضرورية للمراقب المدرّب مثل الطوب والملاط بالنسبة إلى البنّاء. إذا كنت تذكر، فقد ذكرت أنّ النقيب (لاشر) هرب من المنزل، ونظر من خلال النافذة الفرنسية، وبعدها التقط حجراً من الحديقة الصخريّة، وحطم الزجاج ودخل.

- هكذا تماماً.

- سبب أنني جفلت عندما رأيت الهندي أنَّ الرجل كان ينسحب عبر حطام النافذة الفرنسية البعيدة، بينما تلك القريبة من الباب الأمامي كانت غير مكسورة. عندما كنّا نسرع إلى الأمام نحو المنزل، لاحظت وجود فجوة في الحديقة الصخرية مباشرة أسفل النافذة الأولى؛ حيث التقط (لاشر) الحجر. لماذا إذاً كان عليه أن يركض إلى النافذة الثانية ويحطمها، إلا إذا كان الزجاج يحمل قصّة ما؟ ومن هنا جاء تلميحي البيّن لـ(ماكدونالد) عن المحار وأقرب شوكة. اكتمل العمل الأساسي لقضيتي عندما شممتُ محتويات علبة سيجار العقيد (واربورتون). كان

سيجاراً هولندياً، من بين أضعف أنواع السيجار رائحةً.

قلت:

- كلّ هذا أصبح واضحاً تماماً الآن بالنسبة إلي، لكن عندما تخبر الأسرة بأكملها عن خططك لتجميع زجاج النافذة المكسورة، يبدو لي أنّك كنت تخاطر بالأدلة التي كانت تستند إليها قضيتك.

مدّ (هولمز) يده إلى النعال الفارسي، وبدأ ملء غليونه بالتبغ الأسود.

- يا عزيزي (واطسون)، كان سيكون من المستحيل تقريباً بالنسبة إلي إعادة بناء تلك الألواح الزجاجية المحطمة، إلى الدرجة التي من شأنها إثبات وجود فتحتين صغيرتين من الرصاصات. لا، لقد كانت هذه مسألة خداع، يا صديقي العزيز، رمية مقامر. إذا حاول أحدهم تحطيم تلك الشظايا التي من النافذة أكثر، فهذا الشخص هو قاتل العقيد (واربورتون). لقد أظهرت أوراقي عمداً. الباقي معروف لك. جاء رجلنا، مسلحاً بالمحراك، بعد أن سمح لنفسه بالدخول مع نسخة من مفتاح الباب الخارجي الذي اكتشفناه في جيب ردائه. أعتقد أنه لا يوجد شيء لأضيفه.

صرختُ:

- لكن السبب يا (هولمز).

- ليس علينا أن نبحث بعيداً يا (واطسون). قيل لنا إنه حتى زواج العقيد (واربورتون)، كان (لاشر) هو قريبه الوحيد، ومن ثَمَّ، كما يمكننا أن نفترض، وريثه الوحيد أيضاً. السيدة (واربورتون)، وفقاً

لقول الآنسة (موراي)، لم يعجبها الرجل الأصغر سناً بحكم أسلوب معيشته المسرف، يتّضح من هذا أنّ نفوذ الزوجة لا بدّ من أنه كان يمثّل خطراً حقيقياً على مصالح النقيب (جاك).

- في الليلة المعنيّة، جاء رجلنا علانيةً إلى المنزل، وبعد أن تحدّث مع الآنسة (موراي) والرائد (إيرنشو)، غادر ظاهرياً ليشرب كأساً من البورت في غرفة الطعام. لكن، في الواقع، هو مرّ فقط عبر نافذة غرفة الطعام، التي تفتح على الحديقة الأمامية، وسار إلى نوافذ غرفة التحف الفرنسية، وهناك أطلق النار على العقيد (واربورتون) وزوجته من خلال الزجاج.

- لن يستغرق منه الأمر أكثر من بضع ثوان لكي يندفع عائداً من الطريق نفسه الذي جاء منه، ويأخذ إناء المشروب من الخزانة الجانبية، ويسرع إلى الممر، لكنه فعل ذلك في وقت قصير جداً؛ لأنك تذكر أنّه ظهر بعد الآخرين بلحظة أو لحظتين. ولاستكمال وهم جنون العقيد (واربورتون)، لم يتبقَّ له سوى القضاء على الثقوب التي أحدثتها الرصاصات من خلال تحطيم النافذة والقاء المسدس قريباً من يد ضحيته عند دخوله.

سألت:

- وإذا لم تكن السيدة (واربورتون) هناك، وتمكّن من الحفاظ على موعد لقائه مع خاله، فماذا عندها؟

- آه يا (واطسون)، هنا لا يسعنا إلا أن نخمّن، لكن حقيقة أنّه جاء مسلحاً تفترض الأسوأ مسبقاً. ليس لديّ أدنى شكّ في أنّه عندما يحضر للمحاكمة سيُكتشف أن (لاشر) قد تعرّض لضغوط من أجل المال

وأيضاً، كما أنّ لدينا سبباً كافياً لنعرف أنه شاب لن يتوانى عن اتخاذ إجراءاته الخاصة لإزالة أيّ عقبات تقف في طريق احتياجاته. حسناً، يا صديقي العزيز، لقد حان الوقت لأن تكون في طريقك إلى المنزل الآن. رجاءً، انقل اعتذاري إلى زوجتك عن أيّ مقاطعة صغيرة ربّما أكون قد سببتها لهدوء منزلكم.

قلت محتجاً:

- لكن كتفك يا (هولمز)، يجب أن أضع عليها شيئاً من المرهم قبل أن تذهب للنوم، من أجل أن تحظى ببضع ساعات من الراحة.

أجاب صديقي:

- تسك، (واطسون). يجب أن تكون قد عرفت الآن أنّ العقل هو سيّد الجسد. لديّ مشكلة صغيرة حالياً تتعلّق بمحلول البوتاس، ومن ثمَّ هلّا أعطيتني لطفاً تلك الماصة...

كانت هناك [قضيتان] فقط كنتُ أنا الوسيلة لتقديمهما إليه، قضية إبهام السيد (هاثرلي) وقضية جنون الكولونيل (واربورتون).

من «إبهام المهندس»

7
مغامرة فولكس راث

- هذه قضيّة غريبة للغاية.

قلتها وأنا أرمي صحيفة التايمز على الأرض.

- بالفعل، أنا مندهش من أنّ الأسرة لم تقم باستشارتك حتى الآن.

أشاح صديقي (شيرلوك هولمز) بوجهه بعيداً عن النافذة، وألقى نفسه على كرسيه ذي الذراعين.

قال بفتور:

- أفهم أنّك تشير إلى جريمة قتل فولكس راث. إذا كان الأمر كذلك، فقد يثير هذا اهتمامك يا (واطسون). لقد وصل قبل الإفطار.

كان قد أخرج شيئاً ذا لونٍ أصفر ضارب إلى البني[1] من جيب روبه، ومرّره إلي في تلك اللحظة. كان نصّ البرقية، التي كانت تحمل ختم بريد فورست رو، ساسكس، كالآتي:

---

(1) أي شبيهاً بلون الفخار.

«في ما يخصّ شؤون (أديلتون)، أقترح زيارتك في الساعة 10:15 بالضبط. (فنسنت)».

التقطت صحيفة التايمز مرةً أخرى، مرّرت عيني بسرعة على العمود، وقلت:

- لا يوجد ذكر لأيّ أحد اسمه (فنسنت).

أجاب (هولمز) بقلّة صبر:

- حقيقة لا أهمية لها على الإطلاق. دعنا نفترض، من الأسلوب الذي صِيغت به البرقية، أنّه محام قديم الطراز تمّ توظيفه من قبل عائلة (أدلتون). كما أرى، يا (واطسون)، لدينا بضع دقائق فقط. رجاءً قم بإنعاش ذاكرتي من خلال مراجعة النقاط البارزة في الرواية المذكورة في صحيفة هذا الصباح، مع حذف جميع الملاحظات التي لا صلة لها، والتي ذكرها مراسلهم.

بعد أن ملأ (هولمز) غليونه الفخاري بالتبغ من النعال الفارسي، أسند ظهره في كرسيه، وأخذ يتأمّل السقف عبر سحابة من الدخان الأزرق الحاد الرائحة.

بدأت الكلام:

- لقد حدثت المأساة في (فولكس راث)؛ منزل مزرعة قديم في (ساسكس) بالقرب من (فوريست رو) في غابة (آشداون). الاسم الغريب للمنزل مشتقّ من حقيقة وجود مقبرة قديمة...

- التزم بالحقائق يا (واطسون).

تابعت بشيء من الجديّة:

- كان هذا العقار مملوكاً للعقيد (ماثياس أدلتون)، المالك (أدلتون)، كما كان معروفاً عنه كان قاضي الصلح المحلي، وأغنى مالك للأراضي في تلك المنطقة. كانت الأسرة في (فولكس راث) تتألّف من مالك العقار، وابن أخته (بيرسي لونغتون)، ورئيس الخدم (مورستيد)، وأربعة خدم داخل المنزل. بالإضافة إلى ذلك، هناك فريق عمل خارج المنزل يتكون من الحارس، والسائس، وعدد من حراس الصيد، الذين يشغلون أكواخاً على حدود الملكية. في الليلة الماضية، تناول المالك (أدلتون) وابن أخته العشاء في الساعة المعتادة، وهي الساعة الثامنة، وبعد العشاء أرسل المالك في طلب حصانه، وغاب مدة ساعة تقريباً. عند عودته، قبل العاشرة بقليل، شرب كأساً من البورت مع ابن أخته في الصالة. يبدو أن الرجلين كانا يتشاجران؛ لأن رئيس الخدم ذكر أنّه عند دخوله ومعه شراب البورت، لاحظ أنّ المالك كان متورّد الوجه وفظاً في طريقة تعامله.

قاطعني (هولمز):

- وابن أخته، أعتقد أنّك قلت إن اسمه (لونغتون)؟

- بحسب ما قاله رئيس الخدم، هو لم يرَ وجه (لونغتون)؛ حيث إنّ هذا الشاب كان يسير إلى النافذة، ويقف هناك، وهو ينظر إلى الليل في الخارج، بينما كان رئيس الخدم في الغرفة. لكن، عند ذهابه للنوم، سمع الخادم صوتهما وهما في شجار حاد. بعد منتصف الليل بقليل، أيقظت سكان المنزل صرخة مدوية كانت على ما يبدو قادمة من الصالة، وعندما اندفعوا إلى الأسفل وهم في ملابسهم الليلية، أصيبوا

بالرعب لاكتشافهم المالك (أدلتون) وهو مستلقٍ فاقد الوعي في بركة من الدم ورأسه مفتوح. كان السيد (بيرسي لونغتون) يقف بجانب جثة الرجل المحتضر، مرتدياً روباً يمسك بيده بفأس ملطخ بالدماء؛ فأس جلاد من العصور الوسطى، يا (هولمز)، تمّ انتزاعه من مجموعة من الأسلحة فوق المدفأة. كان (لونغتون) في حالة ذهول من الرعب، إلى درجة أنه بصعوبة استطاع المساعدة في رفع رأس الرجل المصاب، ووقف نزف الدم. لكن، حتى عندما انحنى (مورستيد) فوقه، كان المالك، الذي كان يحاول أن يعتمد على مرفقيه، يلهث مردداً في صوت هامس مخيف:

«لقد كان – 'لونغ' – توم! كان 'لونغ'-!».

ثم عاد وسقط ميتاً بين ذراعي رئيس الخدم.

تمّ استدعاء الشرطة المحلية، وبناءً على أدلة الشجار بين الرجلين، واكتشاف ابن الأخت وهو يقف بالقرب من الجثة، وأخيراً الكلمات الاتهامية التي قالها الرجل المحتضر نفسه، تمّ إلقاء القبض على السيد (بيرسي لونغتون) بتهمة قتل المالك (أدلتون). أرى أن هناك ملاحظة في عمود الأخبار المتأخرة مفادها أن الرجل المتهم، الذي لم يتوقف أبداً عن قول إنه بريء، قد تمّ نقله إلى لويس. يبدو أن هذه هي الحقائق الرئيسة، يا (هولمز).

لفترة من الزمن، كان صديقي يدخّن في صمت.

سأل بعد صمت طويل:

- ما التفسير الذي قدمه (لونغتون) للشجار؟

- مذكور هنا أنه قد أبلغ الشرطة طواعيةً أنه وخاله قد وصلا إلى حدّ تبادل كلمات غاضبة بشأن موضوع بيع الأخير مزرعة تشودفورد، الأمر الذي عدَّه (لونغتون) إنقاصاً إضافياً وغير ضروري للممتلكات.

- وعدا ذلك؟

أجبته، وأنا ألقي الصحيفة على الأريكة:

- يبدو أن المالك (أدلتون) قد باع ممتلكات أخرى خلال العامين الماضيين. عليّ أن أقول، يا (هولمز)، إنني نادراً ما قرأت عن قضية يكون فيها الجاني معروفاً بشكل أوضح من هذا.

اتفق معي صديقي:

- هذا شيء قبيح يا (واطسون)، قبيح جداً. بالفعل، على فرض أنّ الحقائق كانت كما ذُكرت، لا أستطيع أن أتخيل سبب اقتراح السيد (فنسنت) إضاعة وقتي. ولكن ها هو، إن لم أكن مخطئاً، رجلنا يصعد السلالم.

طُرق الباب، وأدخلت السيدة (هدسون) زائرنا.

كان السيد (فنسنت) رجلاً صغير الحجم وكبير السن، ذا وجه طويل وشاحب وحزين محاط بسالفين. للحظة، وقف متردداً بينما كان يحدّق بنا بقصر نظر من خلال نظارته الأنفية، التي كانت مربوطة بشريط أسود على طيّة الصدر على معطفه الداكن نوعاً ما.

صرخ بصوتٍ عالٍ:

- هذا سيّئ للغاية يا سيد (هولمز)! لقد افترضتُ أن البرقية التي أرسلتها ستضمن الخصوصية يا سيدي؛ الخصوصيّة المطلقة. إنّ شؤون موكّلي...

قاطعه (شيرلوك هولمز)، وهو يشير لزائرنا إلى الكرسي الذي سحبته أنا إلى الأمام:

- هذا زميلي الدكتور (واطسون). أؤكد لك أنّ وجوده ربما لا يُقدَّر بثمن.

أمال السيد (فنسنت) رأسه نحوي، وألقى قبعته وعصاه على الأرض، وجلس على الوسائد.

صرخ قائلاً:

- رجاءً، صدّق أنني لم أقصد توجيه أيّ إهانة إليك يا دكتور (واطسون)، لكن هذا صباح فظيع، صباح فظيع أقول لك، لأولئك الذين يكنّون النوايا الحسنة تجاه عائلة (أدلتون) من (فولكس راث).

قال (هولمز):

- هو كذلك بالفعل، لكنني على ثقة بأن سيرك في الصباح الباكر إلى المحطة قد كان له دور في تهدئة أعصابك. أجد أن هذا التمرين في حدّ ذاته مهدّئ.

جفل زائرنا وهو جالس في مقعده. صرخ قائلاً:

- حقاً يا سيدي، لا أستطيع رؤية كيف أنت...

قاطعه (هولمز) بقلّة صبر:

- تسك، تسك؛ الرجل الذي قاد سيارته إلى المحطة لا يأتي وعليه رشّة حديثة من الطين على جرموقه الأيسر[1]، ولطخة مماثلة عبر طوق عصاه. لقد مشيت في ممر ريفي وعر، وحيث إن الطقس جاف، فيجب أن أستنتج أن طريقك قسمٌ ضحلٌ في نهر، أو معبر مائي.

أجاب السيد (فنسنت)، مع نظرة مرتابة للغاية إلى (هولمز)، من فوق نظارته الأنفية:

- تفكيرك صحيح تماماً، يا سيدي، حصاني يرعى، ولم يكن هناك حتى حصان أجرة متاح في تلك الساعة في القرية. مشيت كما كنت تقول، ولحقت بقطار الحليب المتّجه إلى لندن، وها أنا هنا لتأمين، لا يا سيد (هولمز)، بل لطلب خدماتك من أجل موكلي الشاب التعيس، السيد (بيرسي لونغتون).

أرجع (هولمز) ظهره وعيناه مغلقتان وذقنه مستندة على أطراف أصابعه، وقال:

- أخشى أنه لا يوجد شيء يمكنني القيام به في هذا الشأن. لقد وضع الدكتور (واطسون) الحقائق الأساسية أمامي، وهي تبدو مُدينة تماماً. من المسؤول عن القضية؟

- ما فهمته أن الشرطة المحلية، نظراً إلى خطورة الجريمة، قد قدّمت التماساً إلى شرطة سكوتلانديارد، التي أرسلت المفتش (ليستريد) -يا إلهي، سيد (هولمز)، أخشى أن لديك وخزاً مؤلماً من الروماتيزم- المفتش (ليستريد) لتولّي المسؤولية.

---

(1) الجرموق (overshoe): حذاء إضافي يُستخدم لحماية الحذاء الأساسي من الوحل وخلافه، ويصنع من عدة مواد من بينها المطاط.

تابع زائرنا كلامه:

- ربما يجب أن أشرح لك، أنا الشريك الرئيس لـ(فتسنت)، 'ييبودي وفتسنت'، الممارسين القانونيين في (فورست رو)، الذين عهدت إليهم عائلة (أدلتون) بمصالحهم على مدار المئة عام الماضية وما يزيد.

وهو يميل إلى الأمام، التقط (هولمز) الصحيفة، ونقر بإصبعه على مكان الخبر فيها بحدّة، وقدمها، من دون أن ينبس ببنت شفة، إلى المحامي.

قال الرجل صغير الحجم بحزن، بعد أن مرّر عينيه على العمود:

- الشهادة دقيقة بما فيه الكفاية، رغم أنه لم يذكر أنّ الباب الأمامي كان غير مقفل، على الرغم من حقيقة أنّ المالك أخبر رئيس الخدم (مورستيد) أنّه سيقفله بنفسه.

رفع (هولمز) حاجبيه.

- أنت تقول غير مقفل؟ حسناً، التفسير المحتمل هو أنّ المالك (أدلتون) قد نسي الأمر في شجاره مع ابن أخته. ورغم ذلك، هناك نقطة أو نقطتان لم تتضحا لي بعد.

- حسناً يا سيدي؟

- أفهم أنّ القتيل كان يرتدي ملابس النوم؟

- لا، كان يرتدي ملابسه بشكل كامل. كان السيد (لونغتون) يرتدي ملابس النوم.

- ما فهمته أنه بعد العشاء غادر المالك المنزل مدة ساعة أو نحو ذلك. هل كان من عادته أن يخرج في جولات ليلية؟

توقف السيد (فنسنت) عن تلمّس سوالفه، ونظر إلى (هولمز) نظرة حادة. صرخ قائلاً:

- الآن، بعد أن ذكرت هذا، لم يكن هذا من عادته، لكنّه عاد بأمان، ولا أستطيع أن أرى...

قاطعه (هولمز):

- هذا صحيح بالفعل. هل يمكن القول إن المالك كان رجلاً ثرياً؟ رجاءً كن دقيقاً في ردّك.

- كان (ماثياس أدلتون) رجلاً ثرياً جداً. كان بطبيعة الحال الابن الأصغر سناً، وهاجر إلى أستراليا قبل نحو أربعين عاماً؛ أي في العام 1854. عاد في السبعينيات بعد أن جمع ثروة كبيرة من مناجم الذهب الأسترالية. ولمّا كان شقيقه الأكبر متوفياً، فقد ورث ممتلكات العائلة في (فولكس راث). للأسف، لا يمكنني التظاهر بأنه كان محبوباً في المنطقة؛ لأنه كان رجلاً نكد المزاج وغير محبوب بين جيرانه. كما كان يخافه الفاشلون المحليون كونه قاضي الصلح. رجل قاسٍ وبغيض ومتقلب المزاج.

- هل كان السيد (بيرسي لونغتون) على علاقة جيدة بخاله؟

تردّد المحامي، وقال بعد صمت طويل:

- أخشى أنه لم يكن. السيد (بيرسي)، الذي كان ابن أخته الراحلة، يعيش في (فولكس راث) منذ طفولته، وعند انتقال الممتلكات إلى

خاله، بقي وأصبح يدير الملكية. هو، بطبيعة الحال، الوريث بموجب ميراث يغطي المنزل وجزءاً من الأرض، وفي أكثر من مناسبة، أعرب عن استيائه العميق من بيع عمه بعض المزارع والممتلكات، ما أدى، كما أخشى، إلى ضغينة بينهما. ومن المؤسف للغاية أن زوجته كانت غائبة الليلة الماضية، من بين جميع الليالي.

- زوجته؟

- أجل، توجد هناك السيدة (لونغتون)، وهي شابة فاتنة وكريمة. كانت تبيت مع صديقات لها طوال الليل في (إيست غرينستيد)، ومن المقرر أن تعود هذا الصباح.

توقف السيد (فنسنت)، وختم كلامه بهدوء:

- المسكينة (ماري) الصغيرة، يا لها من عودة إلى المنزل! المالك مات وزوجها متّهم بالقتل.

قال (هولمز):

- سؤال أخير: ما التفسير الذي قدمه عميلك لتوضيح أحداث الليلة الماضية؟

- قصته بسيطة يا سيد (هولمز): إنه يقول إنّ المالك أبلغه على العشاء عزمَه على بيع مزرعة (تشودفورد)، وعندما اعترض بشدّة لعدم ضرورة هذا البيع، والضرر الذي قد يلحق بالأملاك، هاجمه خاله بحدّة، ونتج عن ذلك كلمات غاضبة. لاحقاً، أرسل خاله في طلب حصانه وركبه وغادر المنزل من دون أيّ تفسير. عند عودته، طلب المالك زجاجة بورت، وعندما أصبح حال الشجار يهدّد بأن يتطور من

سيئ إلى أسوأ. تمنّى السيد (بيرسي) لخاله ليلة سعيدة، وانسحب إلى غرفته. لكنّ عقله كان مضطرباً للغاية إلى درجة أنه لم يستطع النوم، وأنه مرّتين، وفقًا لشهادته، قد جلس في السرير ولديه انطباع بأنه قد سمع صوت خاله قادماً من بعيد من الصالة الكبرى.

قاطعه (هولمز) بحدة:

- لماذا إذاً لم يذهب للتحقّق؟

- لقد طرحت عليه هذا السؤال بالذات، فأجاب بأن خاله كان يشرب الخمر بكثرة، ولذلك افترض أنه كان يهذي مع نفسه في الصالة. وأكد رئيس الخدم (مورستيد) أن هذا كان يحدث بشكل متكرر في الماضي.

- رجاءً أكمل.

- كانت الساعة فوق الإسطبلات قد دقّت لتوها عند منتصف الليل، وكان ينتقل أخيراً إلى الغفو عندما أُعيد في لحظة إلى وعيه الكامل بصرخةٍ مروّعة رنّت في أرجاء المنزل الكبير الساكن. قفز من سريره، وارتدى روبه، وأخذ شمعة، ثمّ ركض إلى الطابق السفلي إلى القاعة، ليجفل فجأةً أمام ذلك المشهد الرهيب الذي قابل عينيه.

- الموقد والمدفأة كانا مرشوشين بالدم. استلقى المالك (أدلتون) هناك وهو ممدّد في بركة قرمزية كبيرة، وذراعاه مرفوعتان فوق رأسه، وأسنانه تبتسم من خلال لحيته. اندفع السيد (بيرسي) إلى الأمام، وكان ينحني مقترباً من خاله. عندما وقعت عيناه على شيء جعله يُصاب بالغثيان والإغماء. بجانب جسد المالك كان فأس الجلاد المنقط بدماء ضحيته! لقد عرفه، بشكل مبهم، على أنّه جزء من مجموعة للأسلحة

التي كانت معلّقة فوق رفّ المدفأة، ومن دون أن يفكر في ما كان يفعله، انحنى والتقط ذلك الشيء عندما اقتحم (مورستيد)، برفقة الخادمات المرعوبات، الغرفة. هذا هو تفسير موكلي التعيس.

قال (هولمز):

- يا إلهي.

لبرهة طويلة، جلست أنا والمحامي في صمت، وأعيننا مثبّتة على صديقي. كان رأسه قد هبط إلى الخلف على رأس الكرسي، وعيناه كانتا مغلقتين، ولم يُلمَح سوى دوامة رفيعة وسريعة من الدخان المتصاعد من غليونه الفخاري عن نشاط العقل الذي وراء ذلك القناع الرائق الشبيه بالنسر. بعد لحظة، نهض سريعاً ووقف.

قال بخفة:

- نسمة من هواء (آشداون) لن تؤذيك بالتأكيد يا (واطسون). سيد (فنسنت)، أنا وصديقي تحت تصرّفك بشكل كامل.

كان ذلك في منتصف فترة ما بعد الظهر، عندما نزلنا من القطار في المحطة التي على جانب الطريق في (فوريست رو). كان السيد (فنسنت) قد أرسل برقية بحجوزاتنا في (غرين مان)، وهو نزل قديم مبني من الحجر في غابة، ويبدو أنه المبنى الوحيد الذي له أهمية في هذه القرية الصغيرة. كانت تنتشر في الهواء رائحة غطاء الغابات وتلال ساسكس المنخفضة والمستديرة، التي كانت تطوّقنا من كل جانب، وبينما كنت أتأمّل هذا المنظر الأخضر المبتسم بدا لي أن مأساة (فولكس راث) قد اتخذت ظلاً أكثر قتامة وأكثر كآبة من خلال

سكون هذا المحيط الريفي الذي تم ارتكابها وسطه. رغم أنه كان من الواضح أنّ المحامي الفاضل كان يشاركني مشاعري، كان (شيرلوك هولمز) منغمساً تماماً في أفكاره الخاصة به، ولم يشارك في محادثتنا باستثناء ملاحظة مفادها أنّ مدير محطة القطار لم يكن سعيداً في زواجه، وأنه قد غيّر موقع مرآة الحلاقة مؤخراً.

استأجرنا عربة عند النزل، وانطلقنا في رحلة طولها ثلاثة أميال بين القرية ومنزل المزرعة. وبينما كان طريقنا يلتفّ على المنحدرات المشجرة في (بيبين فورد هيل)، لمحنا من حين إلى آخر مشاهد خاطفة لسلسلة من التلال الكئيبة المغطاة بالخلنج؛ حيث كانت تلوح في الأفق حافة مستنقعات (آشداون) الكبيرة تحت خط الأفق.

كنا قد صعدنا التل، وأنا كنت منغمساً في المنظر الرائع للأرض المستنقعية، التي تتموّج بعيداً وبعيداً إلى الأبعاد الزرقاء الباهتة لساسكس داونز، عندما لمس السيد (فنسنت) ذراعي، وأشار إلى الأمام.

قال:

- (فولكس راث).

على قمة أرض المستنقع، كان هناك منزل كئيب، كان يغطي مساحة واسعة، وكان متعدد الأقسام، من الحجر الرمادي يحيط به صف من الاسطبلات. اندمجت سلسلة من الحقول الممتدة من جدران هذا القصر العتيق مع بريّة نبات الجولق[1] الأصفر والخلنج منتهية في وادٍ

---

(1) الجولق (Ulex): نبات من فصيلة البقوليات يتركز في غرب أوربا وشمال غرب أفريقيا.

عميق مليء بالأشجار، حيث نشأ عمود رفيع من الدخان وصوت منشار بخاري عالٍ وقادم من بعيد.

تطوع السيد (فنسنت) بالشرح:

- مناشر خشب (آشداون). تلك الغابة تقع خارج حدود الملكية، ولا يوجد جار آخر ضمن مسافة ثلاثة أميال، لكن ها نحن هنا يا سيد (هولمز)، وأهلاً بكم، مع الأسف، في منزل مزرعة (فولكس راث).

مع صوت عجلات عربتنا على الطريق الخاص، ظهر خادم مسن عند المدخل الكئيب ذي الطراز التيودوري[1]، والآن، عندما شاهد مرافقنا، أسرع إلى الأمام مع صرخة ارتياح.

صرخ قائلاً:

- الحمد لله أنك قد أتيت يا سيدي. السيدة (لونفتون)...

قاطعه السيد (فنسنت):

- هل عادت؟ مسكينة، سأذهب إليها على الفور.

- الرقيب (كلير) هنا يا سيدي، و... أي... شخص من شرطة لندن.

- حسن جداً يا (مورستيد).

قال (هولمز):

- لحظة واحدة. هل تمّ تحريك جثة سيدك؟

---

(1) الطراز التيودوري (tudor architecture): طراز معماري قروسطي يُنسب إلى فترة حكم أسرة تيودور، وتشمل العصر الإليزابيثي (نسبة إلى إليزابيث الأولى).

– لقد تمّ وضعه في غرفة الأسلحة يا سيدي.

سأل (هولمز) بحدّة:

– هل أكون على ثقة بأنّه لم يتم تغيير أيّ شيء آخر؟

انتقلت عينا الرجل ببطء نحو قوس المدخل الداكن. قال بصوت خافت:

– لا يا سيدي. كلّ شيء كما كان!

قادتنا ردهة صغيرة، تولى فيها (مورستيد) أمر قبعاتنا وعصينا، إلى الصالة الداخلية. كانت غرفة كبيرة مبنية من الحجارة، وذات سقف متقاطع العقادات، وخط من النوافذ الضيقة المدببة في أعلاها والمزخرفة بدروع من الزجاج الملون، والتي كان من خلالها ضوء الشمس، الذي أصبح يتضاءل الآن مع حلول المساء، يكسو الأرضية المصنوعة من خشب البلوط ببقع زاهية من الألوان الأخضر، والأحمر، والأزرق السماوي. رفع رجل قصير ونحيف، كان مشغولاً بالكتابة على مكتب، نظره عند دخولنا، وقفز واقفاً مع تورّد من السخط على وجهه ذي الملامح الحادة.

صرخ قائلاً:

– كيف هذا يا سيد (هولمز). ليس هناك مجال هنا لممارسة مواهبك.

أجاب صديقي بلا مبالاة:

– ليس لديّ شك في أنك على حق يا (ليستريد). ورغم ذلك، كانت هناك أوقات...

- فضّل فيها الحظُّ المنظّرَ، أليس كذلك يا سيد (هولمز)؟ آه، دكتور (واطسون). وهل يمكنني أن أسأل مَن هذا، إذا كان من الممكن تفهّم السؤال كونه ضمن صلاحيات ضابط شرطة؟

أجبت:

- هذا هو السيد (فنسنت)، المستشار القانوني لعائلة (أدلتون)؛ إنه هو من طلب خدمات السيد (شيرلوك هولمز).

رد المفتش (ليسترِيد) بغضبٍ مع نظرة حاقدة إلى المحامي صغير الحجم:

- أوه، قد فعل هذا، أليس كذلك! حسناً، لقد فات الأوان الآن على أيٍّ من نظريات السيد (هولمز) الرائعة. لدينا رجلنا المنشود. يوم سعيد أيها السادة.

قال (هولمز) بصرامة:

- لحظة واحدة يا (ليستريد). لقد ارتكبت أخطاء في الماضي، وليس من المستحيل أنك يمكن أن ترتكبها في المستقبل. في هذه الحالة، إذا كان لديك الرجل الصحيح، ويجب أن أعترف بأنّه حتى الآن أنا أعتقد أنّه لديك، فإذاً ليس لديك ما تخسره من إثباتي ذلك. من جهة أخرى...

- آه، إنها دائماً عبارة 'من جهة أخرى'. ورغم ذلك...

أضاف (ليستريد) على مضض:

- لا أرى أنه يمكنك إلحاق أيّ ضرر. إذا كنت تريد أن تضيع وقتك

يا سيد (هولمز)، فهذا شأنك. نعم، يا دكتور (واطسون)، إنه مشهد بغيض، أليس كذلك؟

كنت قد تبعت (شيرلوك هولمز) إلى المدفأة، التي في الطرف البعيد من الغرفة، لأرتد وحسب أمام ذلك المشهد الذي وقع عليه نظري. على الأرضية المصنوعة من خشب البلوط امتدت بقعة سوداء كبيرة من الدم المتخثّر جزئياً، بينما كان الموقد والمدفأة، وحتى الألواح الخشبية القريبة، التي تغطي الجدران، مبقّعة بشكل مخيف بلطخات من الدم، وبقع من اللون القرمزي.

السيد (فنسنت)، الذي ابيضّت شفتاه من الرعب، استدار وانهار على كرسي.

قال (هولمز) آمراً فجأة:

- توقف يا (واطسون). أفهم يا (ليستريد) أنه لم تكن هناك آثار أقدام على...

وأشار إلى تلك الأرضية المروعة.

أجاب (ليستريد) بابتسامة ساخرة:

- واحدة فقط يا سيد (هولمز)، وقد كانت مطابقةً لخف غرفة نوم السيد (بيرسي لونفتون).

- آه، يبدو أنك تتعلم. بالمناسبة، ماذا عن روب الرجل المتهم؟

- حسناً، ماذا عنه؟

- الجدران يا (ليستريد)، الجدران! من المؤكد أن الجزء الأمامي

الملطخ بالدماء لروب (لونغتون) سيساهم كثيراً في استكمال قضيّتك.

- الآن بعد أن ذكرت ذلك، كانت الأكمام مشبعة بالدم.

- تسك، هذا طبيعي جداً، عند الأخذ بعين الاعتبار أنّه ساعد في رفع رأس الرجل المحتضر. هناك القليل الذي يمكن كسبه من الأكمام. هل لديك ذلك الروب؟

فتش رجل سكوتلانديارد في حقيبة من نوع غلادستون، وأخرج روباً من الصوف رمادي اللون.

- هذا هو.

- حسناً، بقع على الأكمام وعلى طرفه. ليست حتى نقطة واحدة على المقدمة. غريب، لكنه، للأسف، غير حاسم. وهذا هو السلاح؟

كان (ليستريد) قد أخرج من حقيبته شيئاً مخيفاً. كان ذلك الشيء فأساً قصير المقبض مصنوعاً بالكامل من الفولاذ وذا شفرة عريضة ذات حافة هلالية وعنق ضيق.

قال (هولمز)، وهو يفحص النصل من خلال عدسته:

- هذه بالتأكيد عينة قديمة جداً. بالمناسبة أين كان الجرح؟

أجاب (ليستريد):

- كان الجزء العلوي من جمجمة المالك (أدلتون) مشقوقاً مثل تفاحة فاسدة.

وأضاف:

- بالفعل، كانت معجزة أنه استعاد وعيه ولو للحظة. إنها معجزة مؤسفة بالنسبة إلى السيد (لونغتون).

- لقد ذكر اسمه، كما فهمت.

- حسناً، لقد شهق بشيء ما عن 'لونغتوم'، الذي كان صحيحاً بما يكفي بالنسبة إلى رجل يحتضر.

- هذا صحيح. لكن من لدينا هنا؟ لا يا سيدتي، لا تقتربي ولو خطوة واحدة، أتوسل إليكِ! هذا الموقد ليس مشهداً مناسباً لعيني امرأة.

هرعت فتاة نحيفة ورشيقة، ترتدي ملابس حداد سوداء تماماً، إلى الغرفة. أشرقت عيناها الداكنتان بتألق شبه محموم في بياض وجهها، وكانت يداها مشبوكتين أمامها، وهي في ألم شديد من الحزن.

صرخت بجنون:

- أنقذه! إنه بريء، أقسم بذلك! أوه، سيد (شيرلوك هولمز)، أنقذ زوجي!

لا أعتقد أن أياً منا، حتى (ليستريد)، لم يتأثّر.

قال (هولمز) بلطف:

- سأفعل كلّ ما في وسعي يا سيدتي. الآن أخبريني عن زوجك.

- إنه ألطف الرجال.

- هو كذلك بالفعل، لكنني أعني جسدياً. على سبيل المثال، هل يمكنك القول إنه كان أطول قامةً من المالك (أدلتون)؟

نظرت السيدة (لونغتون) إلى (هولمز) بدهشة، وصرخت قائلة:

- يا إلهي، إن طول المالك كان أكثر من ستة أقدام.

- آه، الآن، سيد (فنسنت)، ربما يمكنك أن تخبرني متى بدأ المالك (أدلتون) بيعَ حصص من الأملاك لأول مرة؟

أجاب المحامي على عجل:

- تم البيع الأول قبل عامين، والثاني قبل نحو ستة أشهر. والآن يا سيد (هولمز)، ما لم تكن تحتاج إلى حضوري، أقترح إعادة السيدة (لونغتون) إلى غرفة الجلوس.

انحنى صديقي، وقال:

- لا داعي للقلق بعد الآن يا سيدة (لونغتون)، لكنني سأكون سعيداً لو تحدثت مع رئيس الخدم.

بينما كنا ننتظر، كان (هولمز) يمشي إلى النافذة، وبينما كانت يداه خلف ظهره وذقنه غارقة في صدره، أخذ يحدق في الأرض الخالية. كان (ليستريد)، الذي عاد إلى مكتبه، يمضغ طرف قلمه، ويراقبه بفضول.

قال (هولمز)، عند دخول رئيس الخدم:

- آه، (مورستيد). لا شك في أنك متلهّف لفعل كلّ ما هو ممكن لمساعدة السيد (لونغتون)، وأتمنى عليك أن تفهم أننا هنا للغرض نفسه.

نقل الرجل نظره بعصبية من (ليستريد) إلى (هولمز).

تابع صديقي كلامه:

- انظر الآن. أنا متأكد من أنه يمكنك مساعدتنا. مثلاً، ربما يمكنك أن تتذكر ما إذا كان المالك قد تلقى أيّ رسائل في بريد الأمس.

- كانت هناك رسالة يا سيدي، نعم.

- آه! هل يمكنك إخباري بالمزيد؟

- أخشى أنه لا يا سيدي. لقد حملت ختم البريد المحلي، وبدا أنه مظروف رخيص وعادي جداً من النوع الذي يستخدمونه هنا في هذه المنطقة. لكنني فوجئت...

تردّد الرجل لحظةً.

سأل (هولمز) بهدوء:

- نعم، لقد فاجأك شيء ما. ربما شيء ما في سلوك المالك؟

- أجل يا سيدي، هذا هو. بمجرد أن أعطيته إياه، فتحه وبينما كان يقرأه ظهرت نظرة على وجهه جعلتني أكون سعيداً بالخروج من الغرفة. وعندما عدت لاحقاً، كان المالك قد خرج، وكانت هناك أجزاء من الورق المحترق يتصاعد منها الدخان في الموقد.

فرك (هولمز) يديه معاً، وقال:

- مساعدتك لا تقدَّر بثمن يا (مورستيد). الآن، فكّر جيداً. قبل ستة أشهر، كما تعلم على الأرجح، باع سيدك بعض الأراضي. لا يمكنك، بطبيعة الحال، تذكر رسالة مماثلة في ذلك الوقت تقريباً؟

- لا يا سيدي.

- بالتأكيد لا. شكراً لك يا (مورستيد)، أعتقد أنّ هذا كلّ شيء.

جعلني شيء ما في صوته أنظر إلى (هولمز)، وأنا مندهش من التغيير الذي طرأ عليه. لمعت عيناه من الإثارة، وظهرت لمسة من التورّد على خدّيه.

صرخ قائلاً:

- اجلس يا (واطسون). هناك على الحامل.

بعدها، وهو يخرج عدسته من جيبه بسرعة، بدأ بفحصه.

شاهدته وأنا مشدود الانتباه. بقع الدم، المدفأة، رف الموقد، الأرضية ذاتها خضعت لفحص دقيق ومنهجي، بينما كان (هولمز) يزحف على يديه وركبتيه، وأنفه الطويل الرفيع على بعد بضع بوصات من الباركيه، والعدسة التي في يديه تلتقط بريقاً عرضياً من ضوء الشمس المختفية تدريجياً.

كان هناك بساط فارسي في وسط الغرفة، وعندما وصل إلى طرف هذا البساط، رأيته يتصلّب فجأة.

قال بهدوء:

- كان يجب عليك أن تلاحظ هذا يا (ليستريد). هناك آثار باهتة لأثر قدم هنا.

- وماذا عنها يا سيد (هولمز)؟

ابتسم (ليستريد) ابتسامة عريضة، وغمز لي.

- لقد مرّ الكثير من الناس على ذلك البساط.

- لكنها لم تمطر منذ أيام. كان الحذاء الذي ترك هذا الأثر رطباً

قليلاً، ولست بحاجة إلى إخبارك بأن هناك شيئاً في هذه الغرفة يمكن أن يفسر ذلك بسهولة. أهلاً، ماذا لدينا هنا؟

كان (هولمز) قد كشط شيئاً من البساط، وكان يفحصه عن كثب من خلال عدسته. انضممت إليه أنا و(ليستريد).

- حسناً، ما هذا؟

من دون أن ينبس ببنت شفة، مرر (هولمز) العدسة إليه، ومد يده.

قال (ليستريد) وهو يحدّق من خلال العدسة:

- غبار.

أجاب (هولمز) بهدوء:

- غبار خشب الصنوبر. الحبيبة الدقيقة لا لبس فيها. لاحظ أنني كشطتها من آثار الحذاء.

صرختُ قائلاً:

- حقاً يا (هولمز). لا أستطيع أن أرى...

نظر إليّ صديقي بعين تلمع. قال:

- تعال يا (واطسون)، سنذهب في نزهة على الأقدام إلى الإسطبلات.

في الباحة المفروشة بالحصى، مررنا بسائس كان يأخذ الماء من مضخّة. كنت قد أشرت من قبل إلى أن (هولمز) يمتلك موهبة جعل أبناء الطبقات العاملة يتصرّفون على راحتهم، وبعد تبادل بضع كلمات،

فقد الرجل الكثير من تحفّظ أهل ساسكس الذي لديه إلى درجة أنه عندما طرح صديقي اقتراحاً بأنه قد يكون من الصعب تحديد أيٍّ من الخيول قد تمّ استخدامه من قبل سيده في الليلة السابقة، كانت المعلومة جاهزة على الفور.

تطوع السائس قائلاً:

- كانت (رينجر) يا سيدي. هنا في هذا المربط. هل ترغب في رؤية حوافرها؟ حسناً، لم لا. ها أنت ذا، ويمكنك أن تكشط بسكينك بقدر ما يرضي قلبك ولن تجد حجراً واحداً.

بعد أن فحص (هولمز) عن كثب قطعة من التراب أخذها من حافر الفرس، قام بوضعها بعناية في مظروف، وبعد أن ضغط بنصف سوفرين[1] في يد السائس، سار خارجاً من الفناء.

قال بخفة:

- حسناً يا (واطسون)، لم يتبقّ لنا سوى إحضار قبعاتنا وعصيّنا قبل العودة إلى نزلنا.

ثم تابع قائلاً:

- آه، (ليستريد).

عندما ظهر رجل سكوتلانديارد في الباب الأمامي.

- أود أن ألفت انتباهك إلى كرسي المدفأة.

- لكن ليس هناك كرسي مدفأة.

(1) سوفرين (Sovereign): عملة ذهبية بريطانية سيادية بدأ استعمالها منذ عام 1817م.

- لهذا السبب ألفت انتباهك إليه. تعال يا (واطسون)، لا يوجد شيء آخر لنعرفه هنا الليلة.

مرت علينا أمسية لطيفة، رغم أنني كنت منزعجاً نوعاً ما من (هولمز) الذي، في الوقت الذي رفض فيه الإجابة عن أيّ من أسئلتي على أساس أنه يمكن الإجابة عليها بشكل أفضل في الغد، قام بتشجيع صاحب المنزل على التحدث عن الموضوعات المحلية، التي لا يمكن أن تكون ذات أهمية بالنسبة إلى غرباء مثلنا.

عندما استيقظت، صباح اليوم التالي، فوجئت عندما علمت أن صديقي قد تناول الإفطار، وخرج قبل نحو ساعتين. كنت أنهي إفطاري عندما دخل، وهو يبدو منتعشاً بسبب تريّضه في الهواء الطلق.

سألت:

- أين كنت؟

ضحك قائلاً:

- كنت أقتدي بالطائر المبكر يا (واطسون). إذا كنت قد انتهيت، فدعنا نركب العربة إلى (فولكس راث)، ونقلّ (ليستريد). هناك أوقات يكون له فيها استخداماته المحددة.

بعد نصف ساعة، وجدنا نفسنا مرة أخرى في القصر القديم. (ليستريد)، الذي استقبلنا بفظاظة، حدّق في رفيقي بدهشة.

قال فجأة بعنف:

- لكن لماذا نذهب في نزهة سيراً على أرض المستنقعات يا سيد

(هولمز)؟ ما الشيء الذي أصبحت مهووساً به هذه المرة؟

كان وجه (هولمز) صارماً جداً، وهو يشيح بوجهه. قال:

- حسن جداً. كنت آمل أن أعطيك الفضل الكامل في القبض على قاتل المالك (أدلتون).

أمسك (ليستريد) ذراع رفيقي، وسأله:

- يا رجل، هل أنت جاد؟ لكن الأدلة! كلّ حقيقة بلا استثناء تشير بوضوح إلى...

رفع (شيرلوك هولمز) عصاه، وأشار بصمت أسفل المنحدر الطويل من الحقول والخلنج إلى الوادي المشجر البعيد.

قال بهدوء:

- هناك.

لقد كانت نزهة على الأقدام سأتذكرها طويلاً. أنا متأكد من أن (ليستريد) لم يكن يعرف أكثر مني عمّا كان ينتظرنا بينما كنا نتبع قوام (هولمز) الطويل والنحيل والرشيق عبر المروج وأسفل مسار الأغنام الوعر، الذي قاد إلى فراغ المستنقع. قطعنا ميلاً أو أكثر قبل أن نصل إلى بداية الوادي، ونزلنا في الظل الترحيبي لغابات أشجار الصنوبر، التي من خلالها اهتزّ أزيز المنشار البخاري مثل أزيز حشرة متوحّشة من نوع ما. أصبح الهواء عابقاً برائحة الخشب المحترق النافذة، وبعد بضع دقائق وجدنا أنفسنا بين مباني وأكوام أخشاب مناشر خشب (آشداون).

سار (هولمز) في الأمام من دون تردّد إلى كوخ كتب عليه 'المدير، وطرقَ بحدّة. كانت هناك لحظة من الانتظار، وبعدها انفتح الباب.

نادراً ما رأيت شخصية أكثر رهبةً من الرجل الذي كان واقفاً على العتبة. كان عملاقاً في قامته، مع اتساع في كتفيه كان يسدّ المدخل، ولحية حمراء ذات شعر متلبّد ومتشابك كانت تتدلّى على صدره مثل لبدة الأسد. قال متذمراً:

- ما الذي تريده هنا؟

سأل (هولمز) بأدب:

- أفترض أنني أتشرّف بمخاطبة السيد (توماس غريرلي)؟

ظل الرجل صامتاً، بينما كان يقضم قطعة من التبغ المخصّص للمضغ، وعيناه تنتقلان بيننا بنظرة باردة وبطيئة.

قال بعد طول صمت:

- ماذا لو كنت هو؟

قال (هولمز) بهدوء:

- أنت (لونغ توم) بالنسبة إلى أصدقائك على ما أعتقد. حسناً يا سيد (توماس غريرلي)؛ إنّه ليس معروفاً منك أنّ رجلاً بريئاً أُعفي من تحمّل العقوبة على جرائمك.

وقف ذلك العملاق لحظةً كما لو أنّه تحول إلى حجر، وبعدها، مع زئير حيوان بريّ، ألقى نفسه على (هولمز). تمكّنت من الإمساك به حول خصره، ودُفنت يدا (هولمز) بعمقٍ في شعر تلك اللحية المتشابك

المنفوش، لكنّ الأمر كان سيصعب علينا لو لم يضع (ليستريد) مسدساً على رأس الرجل. عند لمسة الفولاذ البارد على صدغيه، توقف عن المقاومة، وبعد لحظة قام (هولمز) بقفل زوج من الأصفاد على معصميه الضخمين المعقدين.

من النظرة الساخطة، التي في عينيه، اعتقدت أنّ (غريرلي) كان على وشك أن يهاجمنا مرةً أخرى، لكنّه فجأةً ضحك ضحكةً حزينة، وأدار وجهه الملتحي نحو صديقي.

قال:

- أنا لا أعرف من أنت أيها السيد، لكن هذه مسكة عادل. لذا، إذا أخبرتني كيف فعلت ذلك، فسأجيب عن جميع أسئلتك.

تقدّم (ليستريد). بدأ كلامه، مع إظهار المعاملة العادلة والنزيهة للعدالة البريطانية:

- يجب أن أحذرك...

لكنّ سجيننا رفض الاستماع إلى كلماته.

زمجر قائلاً:

- نعم، لقد قتلته. لقد قتلت (بولي أدلتون)، والآن بعد أن حان الوقت، أعتقد أنني سوف أتأرجح[1] بقلبٍ مرتاح. هل هذا واضح بما فيه الكفاية بالنسبة إليك؟ حسناً، تعال إلى الداخل.

---

(1) المقصود أن يتأرجح وهو متدلٍّ من حبل المشنقة.

سار أمامنا إلى داخل المكتب الصغير، وألقى نفسه على كرسيه، بينما تبوأ كلّ واحد منّا مكانه بأفضل ما يستطيع.

- كيف وجدتني يا سيد؟

سأل بلا مبالاة، وهو يرفع يديه المقيدتين ليقضم قطعة جديدة من التبغ.

قال (هولمز) بأسلوب هو الأشد صرامة:

- لحسن الحظ، بالنسبة إلى رجل بريء، أنني لاحظت بعض الآثار لوجودك هناك. أعترف بأنني اعتقدت أنّ السيد (بيرسي لونغتون) كان مذنباً عندما طُلب منّي لأول مرة النظر في الأمر، ولم أتصوّر أيّ سبب يمكن أن يغيّر رأيي عندما وصلت إلى مسرح الجريمة. ورغم ذلك، لم يمضِ وقت طويل قبل أن أجد نفسي في مواجهة تفاصيل معينة على الرغم من كونها غير مهمّة بما يكفي في حدّ ذاتها، إلا أنها ألقت ضوءاً جديداً وغريباً على القضية برمتها. الضربة الرهيبة، التي قتلت المالك (أدلتون) كانت قد جعلت الدم يتناثر على المدفأة حتى على جزء من الجدار. لماذا، إذاً، لم تكن هناك بقع أسفل مقدّمة الروب الذي كان يرتديه الرجل الذي ضرب تلك الضربة؟ كان هناك شيء غير مقنع، و، رغم ذلك، مزعج.

- بعد ذلك، لاحظت أنه لم يكن هناك كرسي في محيط المدفأة؛ حيث سقط الرجل المقتول. إذاً، تمّ ضربه وهو واقف، وليس جالساً. ورغم ذلك، عندما شقّت الضربة الجزء العلوي من جمجمته كانت قادمة من الارتفاع نفسه، إن لم تكن قادمة من أعلى.

عندما علمت من السيدة (لونغتون) أنّ المالك كان طوله أكثر من ستة أقدام، لم يبقَ لديّ أدنى شك في أنّ إساءة قد ارتُكِبت في تطبيق العدالة. ولكن، إن لم يكن (لونغتون)، فمن كان القاتل الحقيقي؟

- كشفت تحقيقاتي أن رسالةً وصلت إلى المالك في ذلك الصباح يبدو أنّه قد أحرقها، وبعد ذلك تشاجر مع ابن أخته بسبب اقتراحه بيع مزرعة. كان المالك (أدلتون) رجلاً ثرياً. لماذا إذاً هذه المبيعات المتكرّرة التي بدأت قبل عامين؟ كان الرجل يتعرّض لابتزاز شديد.

قاطعه (غريرلي) بعنف:

- هذه كذبة والله! كان يعيد ما لا يخصّه؛ هذه هي الحقيقة.

تابع صديقي:

- عند فحص الغرفة، وجدت الآثار الباهتة لأثر الحذاء التي لفتُّ انتباهك إليها يا (ليستريد). ولمّا كان الطقس جافاً، كنت أعرف، بطبيعة الحال، أن العلامة قد تكوّنت بعد ارتكاب الجريمة. كان حذاء هذا الرجل رطباً؛ لأنه مشى في الدم. كشفت عدستي عن آثار مسحوق ناعم كان ملتصقاً بآثار الحذاء هذه، وعند الفحص الدقيق، أدركت أن هذا المسحوق هو نشارة خشب الصنوبر. عندما وجدت كمية من نشارة الخشب المماثلة مضغوطة في التراب الجاف، الذي في حوافر فرس المالك، تمكّنت من تكوين صورة واضحة، إلى حدٍّ ما، للأحداث التي وقعت ليلة الجريمة.

- المالك، الذي تعرض للاحتجاجات القوية من قبل ابن أخته على البيع المقترح لبعض الأراضي القيّمة، امتطى حصانه على الفور بعد

العشاء، وانطلق في الظلام. من الواضح أنه كان ينوي التحدّث إلى شخص ما، وربما مناشدته، ونحو منتصف الليل يأتي ذلك الشخص. إنّه رجل ذو قامة عالية وقوة هائلة بما يكفي لشقّ جمجمة بشرية بضربة واحدة، وباطن حذائه مليء بغبار الصنوبر. هناك شجار بين الرجلين، ربما هناك رفض للدفع، تهديدٌ، وفي لحظة، قام الرجل الأطول قامة بخطف سلاح من على الحائط، ودفنه في جمجمة خصمه، واندفع إلى الخارج في الليل.

- سألت نفسي، أين يمكن للمرء أن يتوقع أن يجد الأرض مخضّبة بغبار الخشب؟ بالتأكيد في منشرة الخشب؛ وهناك أسفل الوادي، أسفل قصر المزرعة تقع مناشر خشب (آشداون).

- لقد كان قد خطر لي بالفعل أنّ الدليل على هذا الحدث الرهيب قد يكمن في حياة المالك السابقة، ومن ثَمَّ، باتباع طريقتي المعتادة، أمضيتُ أمسيةً مفيدة أتحدّث فيها مع مالك المنزل، استنبطتُ فيها، عن طريق سؤال بلا معنى، أنّه قبل عامين تمّ منح أستراليّ منصب المدير في مناشر خشب (آشداون) بناءً على توصية شخصية من المالك (أدلتون). عندما خرجتَ من هذا الكوخ في وقت مبكر هذا الصباح، يا (غريرلي)، لإعطاء أوامرك الخاصة بعمل ذلك اليوم، كنت أنا خلف كوخ الخشب ذاك. رأيتك واكتملت قضيتي.

الأسترالي، الذي استمع إلى رواية (هولمز) بأشد انتباه، أسند ظهره في الكرسي مع ابتسامة ساخرة.

قال بوقاحة:

- إنَّ من حظي السيئ أنهم أرسلوا في طلبك أيها السيد، لكنّني لست الرجل الذي يخلّ بالاتفاق، ولهذا إليك القليل الذي ما زلت بحاجة إلى معرفته.

- بدأ كلّ شيء في أوائل السبعينيات في وقت الضربة الذهبية الكبيرة بالقرب من كالغورلي. كان لدي أخٌ أصغر مني دخل في شراكة مع رجل إنجليزي كنّا نعرفه باسم (بولي أدلتون)، ومن المؤكّد، كما هو متوقّع، أنهما حقّقا الثراء. في ذلك الوقت، لم تكن المسارات المؤدية إلى مناجم الذهب آمنة للغاية؛ حيث كان هناك جوّالو أحراش[1] نشطون. حسناً، بعد أسبوع واحد فقط من اكتشاف أخي و(أدلتون) عرق الذهب، تمّت سرقة عربة الذهب المتّجهة إلى كالغورلي، وقتل الحارس والسائق بالرصاص.

- بناءً على الاتهام الكاذب، الذي وجّهه (بولي أدلتون)، وبعض الأدلّة الملفّقة، تمّ القبض على أخي التعيس، وحُوكم على الجريمة. كان القانون سريعاً في التصرف في تلك الأيام، وقاموا بشنقه في تلك الليلة على 'شجرة جوّال الأحراش'، وتُرك المنجم لـ(أدلتون).

- كنت بعيداً في الجبال الزرقاء[2]، أقوم بقطع الأخشاب. مرت سنتان كاملتان قبل أن أسمع حقيقة الأمر من حفّارٍ حصل عليها من صبيٍّ طباخ وهو ينازع الموت، كان قد تمّت رشوته لإسكاته.

---

(1) جوالو الأحراش (bush wanderers): اسم كان يُطلق على المستكشفين، وأيضاً على قطاع الطرق.

(2) الجبال الزرقاء: نيو ساوث ويلز / أستراليا.

- صنع (أدلتون) كومته من المال، وعاد إلى وطنه الأم، ولم يكن لديّ المال لألحق به. منذ ذلك اليوم كنت أنتقل من وظيفة إلى أخرى، وأقوم دائماً بتوفير المال والتخطيط لكيفية العثور على قاتل أخي؛ أجل قاتل، عسى أن يشويه الشيطان في جهنّم!

- لقد مرّ ما يقرب من عشرين عاماً قبل أن أصبح بقربه، وتلك اللحظة عوّضت كلّ انتظاري.

قلت:

- صباح الخير، يا (بولي).

- أصبح لون وجهه بلون الصلصال، وسقط الغليون من فمه، وشهق قائلاً:

- (لونغ توم غريرلي)!

ظننت أنّ الرجل سيُغمى عليه.

- حسناً، تحدّثنا، وجعلته يحصل لي على هذه الوظيفة، ثم بدأت أستنزفه شيئاً فشيئاً. لم يكن ذلك ابتزازاً أيّها السيد، بل هو استرداد ممتلكات رجلٍ ميت. قبل يومين، أرسلت إليه رسالةً مرة أخرى، وفي تلك الليلة جاء إلى هنا على حصانه، وهو يشتم ويقسم إنّني كنت أقوده إلى الدمار. أخبرته أنني سأعطيه حتى منتصف الليل ليختار، إمّا أن يدفع واما أن أبلّغ عنه، وأنني سأزوره لأعرف إجابته.

- كان ينتظرني في القاعة، وقد جُنّ جنونه من الشراب والغضب، وأقسم إنه يمكنني الذهاب إلى الشرطة أو الشيطان، هذا لا يهمّه. هل

اعتقدتُ أنّ كلمة حطّاب أسترالي قذر يمكن قبولها مقابل كلمة صاحب الملكية وقاضي الصلح؟ لقد كان مجنوناً لأنّه دفع لي بنساً واحداً.

صرخ قائلاً: «سأخدمك تماماً كما خدمتُ أخاك الذي لا قيمة له!». كانت تلك الكلمات هي التي فعلت ذلك. بدا أنّ هناك شيئاً ما انفجر في عقلي، وبعد أن خطفت أقرب سلاح من على الحائط، دفنته في رأسه الذي كان يصرخ ويبتسم.

- للحظة، وقفت وأنا أنظر إليه. همست قائلاً: «مني ومن (جيم)»، ثمّ استدرت وركضت في ظلام الليل. هذه هي قصتي، أيها السيد، والآن سأعدُّ هذا لطفاً منكم إذا استطعنا الذهاب قبل أن يعود رجالي.

وصل (ليستريد) وسجينه إلى الباب عندما أوقفهم صوت (هولمز).

قال:

- أريد فقط أن أعرف ما إذا كنتَ تعرف ما هو السلاح الذي قتلت به المالك (أدلتون)؟

- أخبرتك أنّه كان أقرب شيء على الحائط، فأس قديم أو هراوة.

قال (هولمز) بنبرة من يذكر حقيقةً:

- لقد كان فأس الجلاد.

لم يعطِ الأسترالي رداً، لكن عندما كان يتبع (ليستريد) إلى الباب بدا لي أنّ ابتسامةً فريدةً أضاءت وجهه الملتحي القاسي.

سرنا أنا وصديقي بتمهّل عبر الغابة، وصعدنا إلى أرض المستنقع؛ حيث اختفى (ليستريد) والسجين في اتجاه (فولكس رات). كان

(شيرلوك هولمز) متقلب المزاج ومستغرقاً في التفكير، وكان واضحاً بالنسبة إليّ أنّ ردّ الفعل الذي أعقب إنهاء القضية بشكل عام كان قد أصبح يؤثّر فيه بالفعل.

قلت ملاحظاً:

- من الغريب أن تظلّ كراهية الرجل وضراوته بالمستوى نفسه بعد عشرين عاماً.

أجاب (هولمز):

- يا عزيزي (واطسون)، أودّ أن أذكّرك بالمثل الصقلي القديم القائل إنّ الانتقام هو الطبقُ الوحيدُ الذي أفضل ما يؤكل عندما يكون بارداً.

ثم تابع وهو يظلّل عينيه بيده:

- لكنّ السيّدة المسرعة أسفل طريقنا هي، بالتأكيد، السيدة (لونغتون). رغم أنني على ثقة بأنّني لا أفتقر إلى الشهامة، لستُ في حالة مزاجية لتدفّق الامتنان الأُنثوي، ومن ثَمَّ، بعد إذنك، سنتخذ هذا المسار غير المباشر وراء شجيرات الجولق. إذا خرجنا، يجب أن نكون في الوقت المناسب للحاق بقطار الظهيرة إلى المدينة.

- (كوراتا) ستغنّي الليلة في (كوفنت غاردن). ومدعوماً بعطلتنا القصيرة في الأجواء المنعشة لغابة (آشداون)، أعتقد أنّك ستوافقني، يا (واطسون)، على أننا لا نستطيع أن نرغب في عودةٍ ممتعة أكثر

من ساعة أو ساعتين وسط سحر 'مانون ليسكو'، يليها عشاء بارد في مسكننا في شارع بيكر.

هنا أيضاً أجد سرداً لمأساة (أدلتون).

من «نظارة الأنف الذهبية»

8

مغامرة ياقوتة عبّاس

عند تصفّح ملاحظاتي، وجدت أنّه قد تمّ تسجيل أنّ ليلة العاشر من نوفمبر شهدت أوّل عاصفة ثلجية ثقيلة في شتاء العام 1886. كان ذلك اليوم مظلماً وبارداً مع هبوب ريح نشطة كان يُسمع صوت عويلها على النوافذ، ومع تعمّق الغسق المبكر في الليل، كشفت مصابيح الشوارع الواهنة الإضاءة في ظلمة شارع بيكر عن أولى موجات الثلج والبرد اللذين كانا يهبّان في دوّامات على طول الأرصفة الفارغة واللامعة.

بصعوبة مرّت ثلاثة أسابيع منذ أن عدتُ أنا وصديقي (شيرلوك هولمز) من (دارتمور) بعد الانتهاء من تلك القضية الاستثنائية، التي سجلتُ تفاصيلها في مكان آخر تحت اسم 'كلب آل باسكرفيل'. وعلى الرغم من تقديم العديد من الاستفسارات إلى صديقي منذ ذلك الوقت، لم يكن أيٌّ منها من النوع الذي يجتذب حبّه لما هو غريب، أو يتحدى ذلك المزيج الفريد من المنطق والاستنتاج، الذي كان يعتمد في إلهامه على تعقيدات المشكلة التي تكمن أمامه.

كانت نار نشطة تتفرقع في الموقد، وبينما كنت أسند ظهري على كرسيي، وأترك عيني تتجوّل في أنحاء دفء غرفة جلوسنا غير المرتبة، كان عليّ أن أعترف بأنّ جنون الليل وخشخشة البرد على ألواح النافذة ساعدت فقط في زيادة شعوري بالرضا. على الجانب الآخر من المدفأة، كان (شيرلوك هولمز) متكوّراً على نفسه على كرسيه ذي الذراعين، وهو يقلب بهدوءٍ صفحات كتاب فهرس أسود يحمل العلامة 'B'، أكمل فيه لتوّه بعض الإضافات تحت 'باسكرفيل'، وينفّس عن ضحكاتٍ مكتومة وهتافات من حين إلى آخر، بينما كانت عيناه تتجوّلان فوق الأسماء والملاحظات، التي كانت تغطي كلّ صفحة من ذلك المجلد. كنت قد رميتُ مجلة 'ذا لانسيت'[1] بهدفِ تشجيع صديقي على التطرّق إلى اسم أو اثنين من الأسماء التي كانت غريبة بالنسبة إلي عندما، تحت صوتِ نواح الريح، سمعتْ أذناي صوتَ جرس الباب الخافت.

قلت:

- لديك زائر.

أجاب (هولمز) وهو يضع كتابه جانباً:

- من المؤكّد أنّ هذا عميل يا (واطسون).

أضاف، وهو يلقي نظرة سريعة على زجاج النوافذ المهتزّ:

- وهو قادم لأمرٍ طارئ. هذه الليالي العاصفة هي دائماً نذير...

قاطع كلماتِه اندفاعُ الأقدامِ على السلالم، وانفتح الباب بقوّة، وتعثّر زائرنا وهو يدخل الغرفة.

---

(1) The Lancet Magazine: دورية طبية أسبوعية عامة تأسست عام 1823م.

كان رجلاً قصير القامة، قويّ البنية، يرتدي معطف مطرٍ مبلّلاً، ويرتدي قبعة مستديرة مربوطة تحت ذقنه بوساطة كوفيّة من الصوف. قام (هولمز) بإمالة غطاء المصباح؛ حيث يشعّ الضوء باتجاه الباب، وظلّ الرجل ساكناً لحظةً، وهو يحدّق بنا عبر الغرفة، بينما كانت الرطوبة، التي في ملابسه المبللة، تتقاطر مكوّنةً بقعاً داكنة على السجادة.

كان يمكن أن يكون شخصيّة كوميدية، بقصر قامته وبدانته ووجهه السمين المحاط بكوفيّته التي تحيط به، لولا انطباع البؤس العاجز في عيني الرجل البنيتين، وفي يديه المرتجفتين اللتين انتزع بهما العقدة السخيفة التي أسفل ذقنه.

قال (هولمز) بلطف:

- اخلع معطفك، وتعال بالقرب من النار.

بدأ كلامه قائلاً:

- يجب أن أعتذر حقاً، أيّها السادة، عن تطفّلي غير الملائم هذا، لكنّني أخشى أنّ ظروفاً قد طرأت وهي تهدّد... تهدّد...

- بسرعة، (واطسون)!

لكنّني تأخرت كثيراً. كان هناك صوتُ وقعةٍ وأنينٍ، وهناك تمدّد زائرنا وهو فاقد الوعي على السجادة.

بعد أن أحضرت بعض البراندي من الخزانة الجانبية، ركضتُ لأدفع به بين شفتيه بينما (هولمز)، الذي أرخى كوفيّة الرجل، رفع رقبته خلفي. سألني:

- ما رأيك فيه يا (واطسون)؟

أجبته:

- لقد أُصيب بصدمة شديدة. من مظهره، يبدو أنّه شخص مريحٌ في التعامل ومحترمٌ من طبقة أصحاب البقالة، ولا شك في أنّنا سنكتشف المزيد عنه عندما يتعافى.

قال صديقي بتفكّر:

- تسك. أعتقد أنّنا قد نذهب أبعد من ذلك قليلاً. عندما يندفع رئيس خدم أسرةٍ ثريةٍ ما فجأةً في عاصفة ثلجيّة، لكي يقع فاقداً الوعي على سجادتي المتواضعة، أميلُ إلى تخيّل مسألة أعظم أهميّة من صندوق نقود مكسور.

- يا عزيزي (هولمز)!

- سأراهن بجنيه على أنّ هناك زياً خاصاً بالخدم تحت ذلك المعطف. آه، ألم أقل ذلك!

- حتى لو كان كذلك، فأنا لا أرى كيف خمّنت هذا، والأسرة الثرية.

التقط (هولمز) اليدين المرتخيتين.

- لاحظْ أنّ راحتي الإبهامين قد أصبح لونهما داكناً يا (واطسون). إنّهما لرجلٍ من النوع الذي يمضي معظم وقته جالساً. أعرف مهنةً واحدة فقط من شأنها أن تفسر هذه المساواة في تغيّر اللون. هذا الرجل يلمّع الفضة بإبهاميه.

اعترضتُ على ذلك قائلاً:

- بالتأكيد، يا (هولمز)، سيكون الجلدُ اعتيادياً أكثر.

- بالنسبة إلى الفضة العادية، نعم. الفضة الفاخرة جداً يتمّ طلاؤها، رغم ذلك، بالإبهام، ومن هنا جاء تخميني بأنّ الأسرة ثريّة. أمّا عن رحيله المفاجئ، فقد اندفع الرجل في الليل مرتدياً حذاءً خفيفاً من الجلد اللامع، رغم أنّها تُثلج منذ الساعة السادسة صباحاً.

أضاف بلطفٍ، بينما كان زائرنا يفتح عينيه:

- اهدأ الآن. أنت تشعر بتحسن. سنساعدك أنا و(واطسون) على الجلوس على هذا الكرسي، وبعد أن تستريح فترةً من الوقت ستخبرنا -لا شك- ما هي مشاكلك.

وضع الرجل يديه على رأسه.

صرخ بقوّة:

- أستريح فترةً من الوقت! يا إلهي، يا سيدي، لا بُدّ من أنّهم يلاحقونني الآن!

- من هم الذين لا بُد من أنهم يلاحقونك؟

- الشرطة، يا سيدي (جون)، كلّهم! لقد سُرقت ياقوتة عباس!

علا صوت الكلمات إلى حدٍّ أنها كادت تكون صرخة. انحنى صديقي إلى الأمام، ووضع أصابعه الطويلة الرفيعة على معصم الآخر. لقد لاحظتُ في مناسباتٍ سابقة القوّة الجذّابة كالمغناطيس تقريباً التي

يتمتّع بها (هولمز) في دفعه إحساساً بالسلام والراحة في أذهان مَن هُم في محنة.

كان الأمر كذلك في هذه الحالة، وتلاشى اللمعان الجنوني المذعور ببطء في عيني الرجل.

قال (شيرلوك هولمز) آمراً بعد لحظة:

- هيّا، الآن، أعطني الحقائق.

بدأ زائرنا كلامه بشكل أكثر هدوءاً:

- اسمي (أندرو جوليف)، وعلى مدار العامين الماضيين، عملتُ رئيسَ خدمٍ لدى السير (جون) والليدي (دوفيرتون) في (مانشستر سكوير).

- السير (جون دوفيرتون)، عالم البستنة؟

- نعم يا سيدي. في الواقع، هناك من يقولون إنّ زهوره، ولا سيما الكاميليا الحمراء الشهيرة، تعني للسير (جون) أكثر من ياقوتة عباس وجميع كنوز عائلته الأخرى. أفهم من هذا أنّك تعلم بأمر الياقوتة يا سيدي؟

- أنا أعلم بوجودها، لكن أخبرني عنها بطريقتك الخاصة.

- حسناً، إنّها تجعل المرء خائفاً بمجرّد النظر إليها؛ إنّها مثل قطرة دم كبيرة، مع لمسة من نار الشيطان المشتعلة في قلبها. في العامين، رأيتها مرة واحدة فقط؛ لأن السير (جون) يحتفظ بها في الخزنة التي في غرفة نومه، مودعةً مثل مخلوق سام وقاتل لا ينبغي حتى أن يرى

ضوء النهار، لكنّني رأيتها الليلة للمرة الثانية. كان ذلك بعد العشاء مباشرة، عندما اقترح أحد ضيوفنا، النقيب (ماسترمان)، على السير (جون) أن يُريهم ياقوتة عباس...

قاطعه (هولمز) بفتور:

- أسماءهم.

- الأسماء يا سيدي؟ آه، تقصد الضيوف. حسناً، كان هناك النقيب (ماسترمان)، وهو شقيق سيادة الليدي، واللورد والليدي (براكمينستر)، والسيدة (دونبار)، وسعادة (وليام رادفورد)، عضو البرلمان عن منطقتنا، والسيدة (فيتزسيمونز ليمينغ).

كتب (هولمز) كلمةً على طرف كمّه، وقال:

- رجاءً أكمل.

- كنت أقوم بتقديم القهوة في المكتبة عندما قدّم النقيبُ اقتراحه، وبدأت السيّدات جميعهنّ المطالبةَ بصخبٍ برؤية الجوهرة. قال السير (جون): «أفضّل أن أريكم الكاميليا الحمراء في المشتل الزجاجي. العيّنة التي ترتديها زوجتي في ثوبها هي بالتأكيد أجمل من أيّ شيء في صندوق الجواهر، كما يمكنكم الحكم بأنفسكم».

- «إذاً، دعنا نحكم بأنفسنا»! قالها السيد (دونبار) مبتسماً، وصعد السير (جون) إلى الطابق العلوي، وأحضر صندوق الجواهر. عندما فتحه على المنضدة، وتجمّعوا جميعاً، طلبت مني سيادة الليدي أن أضيء المصابيح في الحديقة الشتوية؛ لأنهم سيذهبون إلى هناك قريباً لرؤية أزهار الكاميليا الحمراء، لكن لم تكن هناك كاميليا حمراء.

- لم أفهم.

صرخ زائرنا بصوت أجش:

- لقد اختفت يا سيدي! اختفت كلّ واحدة منها. عندما دخلت المشتل الزجاجي، وقفت هناك ممسكاً بالمصباح فوق رأسي أتساءل عما إذا كنت مجنوناً تماماً. كانت هناك الشجيرة الشهيرة، حسناً، لكن من بين دزينات من الأزهار الرائعة، التي كنت أبدي إعجابي بها هناك، بعد ظهر هذا اليوم، لم يبقَ منها حتى بتلة.

قام (شيرلوك هولمز) بمدّ ذراعه الطويلة ليحضر غليونه.

قال:

- يا إلهي العزيز. هذا مرضٍ للغاية، لكن رجاءً، واصل حكايتك المثيرة للاهتمام.

- عدت إلى المكتبة لأخبرهم. صرخت سيادة الليدي: «لكنّ هذا مستحيل! لقد رأيت الأزهار بنفسي عندما قطفتُ واحدةً من أجل ثوبي قبل العشاء مباشرة». «لقد كان الرجل في الميناء!» قالها السير (جون)، وبعدها، دفع بصندوق الجواهر في درج الطاولة، واندفع إلى المشتل الزجاجي وتبعه بقيّتهم، لكنّ أزهار الكاميليا كانت قد اختفت.

قاطعه (هولمز) قائلاً:

- لحظة. متى شوهدت آخر مرة؟

- رأيتها في الرابعة. وعندما قطفت سيادتها واحدةً منها قبل العشاء بقليل، كانت هناك نحو الساعة الثامنة، لكنّ الزهور ليست ذات أهمية يا سيد (هولمز)؛ إنها الياقوتة!

- آه!

انحنى زائرنا إلى الأمام في كرسيه.

تابع بصوت هامس تقريباً:

- كانت المكتبة فارغة لبضع دقائق فقط، ولكن عندما عاد السير (جون)، وقد فقد عقله بسبب لغز أزهاره، وفتح الدرج، كانت ياقوتة عباس، مع صندوق المجوهرات الذي كانت فيه، قد اختفيا تماماً مثل أزهار الكاميليا الحمراء.

جلسنا لحظةً في صمتٍ لم يكسره سوى فرقعة الجمر المشتعل المتساقط في الموقد.

- (جوليف)...

قالها (هولمز) متأملاً بشكل حالم...

- (أندرو جوليف). سرقة ألماس 'كاترتون'، أليس كذلك؟

دفن الرجل وجهه في يديه.

همس أخيراً:

- أنا سعيد لأنّك تعلم يا سيدي. والله هو القاضي الذي يحكم علي. لقد حافظت على استقامتي منذ أن خرجت قبل ثلاث سنوات. كان النقيب (ماسترمان) طيباً جداً معي، وحصل لي على هذه الوظيفة عند صهره، ومنذ ذلك اليوم حتى هذا اليوم لم أخذله أبداً. كنت مرتاحاً وأنا أدّخر راتبي، على أمل أن أدّخر في النهاية ما يكفي لشراء متجر السيجار الخاص بي.

- أكمل قصتك.

- حسناً، يا سيدي، لقد كنت في الممر، بعد أن أرسلت عامل الإسطبل لاستدعاء الشرطة، عندما سمعت صوت النقيب (ماسترمان)، من خلال باب المكتبة نصف المفتوح. قال: «اللعنة يا (جون). أردت أن أعطي رجلاً محتاجاً فرصةً، لكنّني ألوم نفسي الآن لأنني لم أخبرك بتاريخه السابق. لا بد من أنه قد تسلل إلى هنا بينما كان الجميع في المشتل الزجاجي و...». لم أنتظر أكثر من ذلك يا سيدي، لكن أخبرت (روجرز)، الخادم، أنّه إذا أرادني أيٌّ أحدٍ فسيجدني مع السيد (شيرلوك هولمز). جريت إلى هنا في الثلج، معتقداً من كلّ ما سمعته أنّك لن تجد إنقاذ أحدٍ من الظلم أقلّ من مستواك، أحدٍ سبق أن دفع دينه للمجتمع. أنت أملي الوحيد يا سيدي، و... يا إلهي، كنت أعرف هذا!

انفتح الباب بقوّة، ودخل إلى الغرفة رجلٌ طويل القامة، أشقر الشعر، مغطّى حتّى أذنيه برداء مرشوش عليه الثلج.

- آه، (غريغسون). كنّا نتوقع حضورك.

أجاب المفتش (غريغسون) بجفاء:

- لا شكّ في ذلك يا سيد (هولمز). حسناً، هذا هو رجلنا؛ لذا سنمضي في طريقنا.

قفز عميلنا البائس واقفاً، وصرخ قائلاً:

- لكنّني بريء! لم ألمسها قط!

ابتسم ضابط الشرطة بطريقةٍ غير وديّة، وأخرج صندوقاً مسطحاً من جيبه، وهزّه أمام السجين.

شهق (جوليف) قائلاً:

- فليحفظنا الله؛ إنه صندوق المجوهرات!

- ها هو، إنه يعترف بذلك! أتقول أين وجدته؟ لقد وُجد في المكان الذي وضعته فيه، يا صديقي، تحت مرتبتك.

تحوّل لون وجه (جوليف) إلى لون الرماد، وكرّر بخفوت:

- لكنّني لم ألمسها قط.

قاطع (هولمز) قائلاً:

- لحظة يا (غريفسون). هل أفهم أنّ لديك ياقوتة عباس؟

أجاب:

- لا، الصندوق كان فارغاً، لكنّها لا يمكن أن تكون بعيدة، والسير (جون) يعرض مكافأة قدرها خمسة آلاف جنيه.

- هل لي أن أرى الصندوق؟ شكراً لك. يا إلهي، يا له من مشهد مؤسف. القفل غير مكسور، لكنّ المفصلات تمّ تحطيمها. مخمل بلون اللحم. لكن بالتأكيد...

أخرج (هولمز) عدسته بسرعة، ووضع صندوق الجواهر أسفل مصباح القراءة، وفحصه عن كثب. قال بعد طول صمت:

- هذا مثير جداً للاهتمام. بالمناسبة، يا (جوليف)، هل كانت الياقوتة مركّبة؟

- كانت مثبتة في مدلاة[1] ذهبية منحوتة وسلسلة، لكن، أوه، سيد (هولمز)...

- كن متأكداً من أنني سأبذل قصارى جهدي من أجلك. حسناً يا (غريفسون)، لن نعيقك أكثر من هذا!

وضع رجل سكوتلانديارد زوجاً من الأصفاد على يدي زائرنا التعيس، وبعد لحظة أغلق الباب خلفهم.

لفترة قصيرة من الوقت، كان (هولمز) يدخّن وهو مستغرق في التفكير. كان قد سحب كرسيه نحو النار، وذقنه مستندة على يديه، ومرفقاه مستندان على ركبتيه. كان يحدّق في النار، وهو منشغل الفكر، بينما كان الضوء الضارب إلى الحمرة يزداد شدّة، ويخفت على ملامحه المجهدة بحساسية.

سأل فجأة:

- هل سمعت يوماً عن نادي 'نونباريل'، يا (واطسون)؟

اعترفت:

- الاسم غير مألوف بالنسبة إلي.

تابع قائلاً:

---

(1) حلية متدليّة.

- إنّه أكثر نوادي القمار حصريةً في لندن. قائمة الأعضاء، التي تمّت طباعتها بشكل سرّي، شبيهة بمدرسة 'ديبريت'[1]، مع نكهةٍ من 'ألماناك دي غوتا'[2]. كنت أراقبها فترةً من الزمن.

- يا الهي يا (هولمز)، لماذا؟

- حيثما توجد الثروة تتبعها الجريمة يا (واطسون). إنه المبدأ الثابت الوحيد الذي حكم شرّ الإنسان عبر كلّ تاريخه.

سألته:

- ولكن ما علاقة هذا النادي بياقوتة عباس؟

- ربّما، لا شيء. أو ربّما، كلّ شيء. هلّا أعطيتني، لطفاً، فهرس السيرة الذاتية الذي يحمل العلامة «M» من على الرف الذي فوق رف الغلايين. يا إلهي، من الجدير بالملاحظة أنّ حرفاً واحداً من الأبجدية يمكن أن يحتضن هذا العدد الكبير من الأسماء السيّئة السمعة. ستجد أنّ من المفيد دراسة هذه القائمة يا (واطسون). لكن ها هو رجلنا على ما أعتقد. (مابينز)؛ (مارستون)، المُسمِّم[3]؛ (ماسترمان). النقيب صاحب الفخامة (بروس ماستينان)، من مواليد 1856، تلقّى تعليمه في... همم! ها! —يُشتبه في تورطه في تزوير ميراث (هيلير ديربون)؛ سكرتير نادي 'نونباريل'؛ عضو في ... بالضبط هكذا.

---

(1) (Debrett's and Tatler launch school of etiquette): مدرسة قديمة لتعليم قواعد السلوك، يصدر عنها دليل إرشادي.

(2) (Almanach de Gotha): دليل يشمل الأسر الملكية الأوربية، وأعضاء الطبقات النبيلة.

(3) أي الشخص الذي يستخدم السمّ للتخلص من الآخرين.

ألقى صديقي الكتاب على الأريكة.

- حسناً، يا (واطسون)، هل تودّ الذهاب في رحلة ليلية؟

- هذا مؤكّد، يا (هولمز)، لكن إلى أين؟

- سترشدنا الظروف.

خفّت قوة هبوب الريح عندما خرجنا إلى الشوارع البيضاء الصامتة. دقت أجراس بيغ بن من بعيد في الساعة العاشرة. رغم أنّنا كنا نرتدي ملابس دافئة بشكل جيّد، كان الجو بارداً جداً إلى درجة أنّني رحبت بالحاجة إلى السير سريعاً إلى طريق ماريليبون قبل أن نتمكن من إيقاف عربة.

- لا ضرر في زيارة ميدان مانشستر...

قالها (هولمز) بينما كنا نضع البساط علينا، وننطلق مبتعدين عبر الشوارع المغطاة بالثلوج. قادتنا رحلة قصيرة بالعربة إلى وجهتنا، وبينما كنّا ننزل أمام رواق ذي أعمدة لمنزل مهيب جورجيّ الطراز، أشار (هولمز) إلى الأرض.

قال:

- لقد رحل الضيوف بالفعل؛ لأنك ستلاحظ أنّ آثار العجلات هذه قد تكوّنت بعد توقف الثلج عن التساقط.

أخذ الخادم، الذي فتح لنا الباب، بطاقاتنا، وبعدها بلحظة تمّت مرافقتنا عبر الممر إلى مكتبة جميلة؛ حيث كان رجل طويل ونحيل ذو شعر شائب، وذو وجهٍ حزين، يدفئ أطراف معطفه أمام النار المشتعلة.

عندما دخلنا، نهضت امرأة، كانت جالسة باسترخاء على أريكة طويلة، واستدارت لتنظر إلينا.

على الرغم من أنّ الفنانة، صاحبة الدور الرئيس في عصرنا، قد خلدت الليدي (دوفيرتون)، أجرؤ على الاعتقاد بأنه لا توجد صورة ستفي هذه المرأة المهيبة والجميلة حقّها بشكلٍ كامل كما رأيناها آنذاك، في ثوب من الساتان الأبيض مع زهرة قرمزية واحدة تشتعل على صدرها، والتوهج الذهبي للشموع الذي يشعّ على وجهها الشاحب ذي الملامح المحدّدة بإتقان، ويرسم شرارات من النار من الألماسات، التي تتوج شعرها الكستنائي الضارب إلى الحمرة. تقدّم رفيقها إلينا بلهفة.

صرخ قائلاً:

- حقاً، يا سيد (شيرلوك هولمز)، هذا مُرضٍ للغاية! أن تواجه جوّ الليل العاصف لتولي مرتكبَ هذه الفظاعة اهتماماً خاصاً، فإنّ ذلك يدلّ على حبّك العملَ لمصلحة العامة يا سيدي! بشكل كبير!

انحنى (هولمز).

- إن ياقوتة عباس حجر مشهور يا سير (جون).

أجاب السير (جون دوفيرتون):

- آه، الياقوتة. أجل، أجل، بطبيعة الحال. هذا أمر مؤسف للغاية. لحسن الحظ، هناك براعم. معرفتك بالزهور ستخبرك...

توقف عن الكلام عندما وضعت زوجته أصابعها على ذراعه.

قالت بغطرسة:

- لمّا كان الأمر قد أصبح في يد الشرطة، فلا أفهم لماذا يجب أن نتشرف بهذه الزيارة من قبل السيد (شيرلوك هولمز).

أجاب صديقي:

- سآخذ القليل من وقتك أيتها الليدي (دوفيرتون). بضع دقائق في المشتل الزجاجي الخاص بكم ستكون كافية.

- لأيّ هدف يا سيدي؟ ما الرابط المحتمل الذي يمكن أن يكون بين مشتل زوجي الزجاجي والجوهرة المفقودة؟

- هذا ما أودّ تحديده.

ابتسمت الليدي (دوفيرتون) ببرود.

- في غضون ذلك ستكون الشرطة قد ألقت القبض على السارق.

- لا أعتقد هذا!

- هذا سخيف! الرجل الذي هرب كان سارقَ مجوهرات مداناً. الأمر واضح.

- ربما يكون واضحاً بشكل زائد على الحدّ يا سيدتي! ألا يبدو الأمر غريباً نوعاً ما أن يقوم سجين سابق، على الرغم من إدراكه أن سجله معروف لدى أخيك، بسرقة حجر مشهور من ربّ عمله، ثم يدين نفسه بهذا الشكل الملائم عن طريق إخفاء صندوق المجوهرات تحت مرتبته؛ حيث يمكن الاعتماد حتى على سكوتلانديارد في أن تبحث؟

وضعت الليدي (دوفيرتون) يدها على صدرها، وقالت:

- لم أفكر في الأمر من هذا المنظور.

- بطبيعة الحال. لكن يا إلهي، يا لها من زهرة جميلة! أفهم أنّ هذه هي الكاميليا الحمراء التي قطفتها بعد ظهر هذا اليوم؟

- هذا المساء يا سيدي، قبل العشاء مباشرة.

قال السير (جون) بكآبة:

- Spes Ultima gentis[1]! على الأقل حتى المحصول التالي.

- هو هكذا بالضبط. سيثير اهتمامي أن أرى المشتل الزجاجي الخاص بك.

تبعنا مرشدنا على طول ممرّ قصير يفتح من المكتبة، وينتهي في الباب الزجاجي للدفيئة[2]، بينما انتظرت أنا وعالم البستنة الشهير عند المدخل. بدأ (هولمز) جولة بطيئة عبر الظلام الدافئ والخانق. كانت الشمعة المضاءة، التي كان يحملها في يده، تظهر وتختفي مثل حشرة سراج ليل كبيرة وسط الأشكال الغريبة للصبار والشجيرات الاستوائية الغريبة. أمضى بعض الوقت في النظر من خلال عدسته، وهو يثبّت الضوء بالقرب من شجيرة الكاميليا.

تأوّه السير (جون) قائلاً:

- ضحايا سكين مخرّب.

قال (هولمز):

---

(1) باللاتينية: الأمل الأخير للأمة!

(2) بيت زجاجي للنبات.

لا، لقد تمّ قصها بمقصّ أظفار منحنٍ صغير. ستلاحظ أنه لا يوجد تمزّق على السيقان مثل ما يمكن للسكين أن تفعل، وعلاوة على ذلك، إن القطع الصغير على هذه الورقة يوضح أنّ رأس المقص قد تجاوز جذع الزهرة. حسناً، أعتقد أنه لا يوجد شيء آخر لنعرفه هنا.

كنا نعود من الطريق نفسها التي أتينا منها، عندما توقف (هولمز) عند نافذة صغيرة في الممر، وبعد أن فتح المزلاج، أشعل عود ثقاب، ورفعه فوق العتبة.

تطوع السير (جون) بالشرح:

- إنّه يطلّ على طريق يستخدمه التجار.

انحنيت بالقرب من كتف صديقي. في الأسفل، كان الثلج يغطي جرفاً طويلاً ممهداً من جدار المنزل إلى حافة ممرّ ضيق. لم يقل (هولمز) شيئاً، لكنه عندما أشاح بوجهه، لاحظت أنّ هناك شيئاً من المفاجأة، بل يكاد يكون شيئاً من الغم، في تعابير وجهه.

كانت الليدي (دوفيرتون) تنتظرنا في المكتبة.

قالت مع لمعةٍ من السرور في عينيها الزرقاوين الجميلتين:

- أخشى أن سمعتك مبالغ فيها يا سيد (هولمز). كنت أتوقع منك أن تعود بكلّ الزهور المفقودة، وربما حتى ياقوتة عباس ذاتها!

قال (هولمز) ببرود:

- على الأقل، لديّ كلّ الأمل في إعادة الأخيرة إليك يا سيدتي.

- هذا تباهٍ خطير يا سيد (هولمز).

- سيخبرك الآخرون أنّ التباهي ليس من بين عاداتي. والآن، كوننا تأخرنا أنا والدكتور (واطسون) نوعاً ما على نادي نونباريل -يا إلهي، ليدي (دوفيرتون)، أخشى أنك قد كسرت مروحتك- في الختام أودّ أن أعرب عن أسفنا لهذا التطفل، وأن أتمنى لكما ليلة سعيدة.

كنا قد ركبنا العربة إلى شارع أكسفورد عندما قام (هولمز)، الذي كان جالساً في صمت تام وذقنه على صدره، بالقفز واقفاً فجأة، ودفع الباب إلى الأعلى، وصرخ بأمرٍ ما لسائقنا.

- يا له من أحمق!

صرخ بها، وهو يضع يده على جبهته، بينما كانت عربتنا تستدير وتعود من الطريق نفسه الذي جاءت منه.

- يا له من انحراف عقلي!

- ماذا إذاً؟

- (واطسون)، إذا ظهرتْ عليّ في أيّ وقت علامات الرضا عن النفس، فرجاءً اهمس بكلمة 'كاميليا' في أذني.

بعد بضع دقائق، نزلنا مرةً أخرى أمام رواق قصر السير (جون دوفيرتون).

همس (هولمز):

- لا حاجة إلى إزعاج سكان المنزل. أتخيّل أنّ هذه هي البوابة المؤدية إلى مدخل التجار[1].

(1) حيث كان الباعة سابقاً يسلمون بضاعتهم لسكان المنازل.

سار صديقي في الأمام بسرعة على طول الطريق، الذي يلتف حول جدار المنزل حتى وجدنا أنفسنا تحت نافذة عرفتُ أنها النافذة التي تفتح من الممر.

بعدها، بعد أن ألقى نفسه على ركبتيه، بدأ بحذرٍ إزالة الثلج بيديه العاريتين. بعد بضع لحظات، عدّل نفسه، ورأيت أنه قد أزال بقعة داكنة كبيرة.

ضحك قائلاً:

- دعنا نجازف بعود ثقاب يا (واطسون).

أشعلت واحداً، و، على الأرض السوداء التي كشفها حفر (هولمز) في الجرف الثلجي، كانت هناك كومةٌ صغيرة من الزهور المتجمّدة ذات اللون البني المحمر.

صرخت:

- أزهار الكاميليا! يا صديقي العزيز. ماذا يعني هذا؟

كان وجه صديقي صارماً جداً، وهو ينهض واقفاً. قال:

- هذه جريمة يا (واطسون)! جريمة ذكيّة ومحسوبة.

التقط إحدى الزهور الميتة، ووقف فترةً من الوقت يفكّر بصمت في البتلات الداكنة والذابلة في راحة يده.

قال بتفكّر:

- خيرُ ما فعله (أندرو جوليف) أنّه وصل إلى شارع بيكر قبل أن يصل إليه (غريفسون).

سألت:

- هل أوقظُ أهلَ المنـزل؟

أجاب بضحكة خافتة هادئة:

- أنت دائماً الرجل الذي يفضّل الفعلَ على التفكير يا (واطسون). لا يا صديقي العزيز. أعتقد أنه سيكون من الأفضل لنا أن نسلك طريقنا بهدوء إلى عربتنا، ومن ثمّ إلى ضواحي (سانت جيمس).

في أحداث المساء، فقدت كلّ الإحساس بالوقت، وشعرت بالصدمة عندما كنا نركب العربة من (بيكاديللي) إلى شارع (سانت جيمس)، وتوقفنا أمام باب منزل راقٍ ومضاءٍ بشكل جيّد. رأيت من الساعة، التي فوق ميدان القصر، أنّ الوقت لم يكن بعيداً عن منتصف الليل.

قال (هولمز) وهو يدقّ الجرس:

- عندما يذهب جيرانها من روّاد النوادي للنوم، تصبح الأمور على أشدّها في نادي نونباريل.

قام بكتابة رسالة قصيرة على بطاقة الزيارة الخاصّة به، وقام بتسليمها للخادم عند الباب، وقادنا إلى الممر.

بينما كنّا نتبع الخادم، ونحن نصعد سلماً رخامياً إلى الطابق الذي في الأعلى، رأيت لمحة من الغرف الفخمة وعالية السقف؛ حيث كانت تجلس مجموعات صغيرة من الرجال، وهم يرتدون ملابس السهرة. كانوا يجلسون ويقرؤون الصحف أو يتجمّعون حول طاولات مستديرة للعب الورق مصنوعة من خشب الورد.

طرق مرشدنا باباً، وبعد لحظة وجدنا أنفسنا في غرفة صغيرة مؤثّثة بشكل مريح، معلّقة على جدرانها مطبوعات ترفيهية، وكانت تفوح منها رائحة دخان السيجار القوية. رجل طويل، ذو مظهر عسكري، وشارب قصير، وشعر كثيف ذي لون كستنائيّ محمر، كان مسترخياً على كرسيّ أمام المدفأة. لم يقم بأيّ محاولة للنهوض عند دخولنا، لكنه قام بتحريك بطاقة (هولمز) بشكلٍ دائريٍّ بين أصابعه. نظر إلينا ببرودٍ من خلال زوجٍ من العيون الزرقاء ذكّرني غصباً بالليدي (دوفيرتون).

قال، وفي صوته شيء من العداء:

- لقد اخترتم أوقاتاً غريبة للزيارة، أيها السادة. الوقت متأخّر بشكل مزعج.

قال صديقي:

- وهو يزداد تأخّراً. لا أيها النقيب (ماسترمان)، لا ضرورة لكرسي. أفضّل الوقوف.

- إذاً، فلتقف. ما الذي تريده؟

قال (شيرلوك هولمز) بهدوء:

- ياقوتة عباس.

جفلت وأمسكت عصاي. كانت هناك لحظة صمت بينما كان (ماسترمان) يحدّق في (هولمز) من عمق كرسيّه، ثمّ دفع رأسه إلى الخلف، وضحك من قلبه.

صرخ أخيراً، ووجهه الوسيم مبتسم:

- يا سيدي العزيز، يجب أن تعذرني حقاً! لكنّ مطلبك مبالغٌ فيه بعض الشيء. لا يحسب نادي نونباريل الخدمَ الهاربين من بين أعضائه. يجب أن تبحث في مكان آخر عن (جوليف).

- لقد تحدّثت بالفعل مع (جوليف).

قال ساخراً:

- آه، فهمت، إذاً أنت تمثّل مصالح رئيس الخدم؟

أجاب (هولمز) بصرامة:

- لا، أنا أمثّل مصالح العدالة.

- يا إلهي، كم هذا مهيب للغاية. حسناً يا سيد (هولمز)، لقد كان مطلبك شديد اللهجة إلى درجة أنّ من حسن حظك أنّه ليس لديّ أيّ شهود، وإلا فسيكون الأمر صعباً عليك في المحكمة. تبلغ قيمة هذا الافتراء خمسة آلاف جنيه ممتازة، برأيي. ستجد الباب خلفك.

سار (هولمز) عبر الغرفة نحو المدفأة، وأخرج ساعته من جيبه، وقارنها بالساعة التي على رفّ الموقد.

علّق قائلاً:

- إنّها الآن خمس دقائق بعد منتصف الليل. أمامك حتى الساعة التاسعة صباحاً لإعادة الجوهرة إليّ في شارع بيكر.

قفز (ماسترمان) من كرسيه.

زمجر قائلاً:

- الآن، انظر هنا. عليك اللعنة...

- لن ينفع هذا، أيها النقيب (ماسترمان)، حقاً لن ينفع. ورغم ذلك، قد تدرك أنني لا أخدعك. سأراجع بضع نقاط لأنوّرك. كنت تعرف السجل السابق لـ(جوليف)، وحصلت له على وظيفة مع السير (جون) كوظيفة يمكن استغلالها في المستقبل.

- أثبتْ ذلك، أيها الحشريّ الملعون!

تابع (هولمز):

- لاحقاً، احتجتَ إلى المال، إلى قدرٍ كبير من المال، بناءً على قيمة ياقوتة عباس. ليس لديّ أدنى شكّ في أن فحص خسائرك في لعب الورق سيعطينا الرقم. عندئذٍ تدبّرت، يؤسفني أن أضيف بمساعدة أختك، مخططاً كان ماكراً في تصوّره كما كان بلا رحمة في تنفيذه.

- لقد حصلت من الليدي (دوفيرتون) على تفاصيل دقيقة عن صندوق الجواهر، الذي يحتوي على الحجر، وطلبت صنع نسخة من هذا الصندوق. كانت الصعوبة هي معرفة متى سيخرج السيد (جون) الياقوتة من الخزنة، وهذا نادراً ما كان يفعله. أعطى حفل العشاء القادم، الذي ستكون فيه أنت أحد الضيوف، حلاً بسيطاً للغاية. بالاعتماد على الدعم المتحمّس من قبل السيدات، ستطلب من صهرك إحضار الجوهرة، لكن كيف تتأكّد من أنه والآخرين سيغادرون الغرفة بينما كانت الجوهرة موجودة هناك؟ أخشى أننا، هنا، سنصل إلى الآثار البارعة الماكرة للعقل الأنثوي. لا يمكن أن يكون هناك طريقة موثوقة أكثر من اللعب على فخر السير (جون)؛ زهور الكاميليا الحمراء

الشهيرة. نجحت الطريقة بالضبط كما توقّعت أنت.

- عندما عاد (جوليف) بالأخبار بأنّ الشجيرة قد جُردت، دفع السير (جون) على الفور صندوق الجواهر في أقرب حاوية له، ومتبوعاً بضيوفه، هرع إلى المشتل الزجاجي.

- أنت تسللت عائداً، ووضعت الصندوق في جيبك، وعند اكتشاف السرقة، تطوّعت بإعطاء المعلومات الحقيقية تماماً بأنّ خادمه البائس كان لصَّ مجوهرات مداناً. ورغم ذلك، وعلى الرغم من التخطيط الذكي والتنفيذ الجريء، ارتكبت خطأين أساسيين.

- الأول هو أنّ نسخة صندوق المجوهرات المقلّدة، التي تمّ تحطيمها من قبل هاو، ثم دُسّت تحت مرتبة سرير (جوليف)، على الأرجح مسبقاً قبل بضع ساعات، كانت مبطّنة بمخمل شاحب اللون. كشفت عدستي أنّ هذا السطح الناعم لا يحتوي على أدنى أثرٍ للاحتكاك مثل ما يحدث دائماً عند تركيب مدلاة.

- الخطأ الثاني كان قاتلاً. ذكرت أختك أنّها قطفت الزهرة التي في ثوبها قبل العشاء مباشرة، وفي هذه الحالة، لا بُدَّ من أن الزهور كانت هناك في الساعة الثامنة. سألت نفسي ماذا أفعل إذا كنت أرغب في التخلّص من دزّينة من الأزهار بأسرع ما يمكن. كانت الإجابة هي أقرب نافذة، في هذه الحالة، كانت تلك الموجودة في الممر.

- لكنّ الثلج، الذي كان يغطّي الجرف العميق في الأسفل، لم يكشف عن أيّ آثار من أيّ نوع. وأعترف بأنّ هذا تسبّب لي في بعض الحيرة، إلى أن، كما يمكن أن يشهد بذلك الدكتور (واطسون)، أدركت الحلّ

الواضح. عدت مسرعاً وبعناية، جرفت الثلوج التي تحت النافذة، عثرتُ على بقايا أزهار الكاميليا المفقودة ملقاةً على الأرض المتجمدة. كونها كانت خفيفة جداً؛ حيث لا يمكن أن تغرق في الثلج، لا بد من أنها قد رُميت هناك قبل بدء تساقط الثلوج في الساعة السادسة؛ لذلك كانت قصة الليدي (دوفيرتون) ملفّقة، وفي تلك الزهور الذابلة، كان حلّ المشكلة برمّتها.

أثناء شرح صديقي، كنت قد شاهدت التورّد الغاضب على وجه النقيب (ماسترمان) يتلاشى ليتحوّل إلى شحوب قبيح. والآن، عندما توقّفَ (هولمز)، عَبَرَ الغرفةَ بسرعةٍ إلى مكتب في الزاوية، وفي عينيه لمعان ينذر بالسوء.

قال (هولمز) بسرور:

- ما كنت لأفعل ذلك.

توقّف (ماسترمان)، ويده على الدرج. قال بصوت مبحوح:

- ما الذي ستفعله؟

- في حال تمّ إرجاع ياقوتة عباس إليّ قبل الساعة التاسعة صباحاً، لن أقوم بأي إفصاح علني، ولا شك في أنّ السير (جون دوفيرتون) سيتجنّب طلب أيّ تحقيقات أخرى بناء على طلبي. أنا أحمي اسم زوجته. لو كان الأمر بخلاف ذلك، كنت ستشعر بثقل يدي عليك، أيّها النقيب (ماسترمان)؛ لأنني عندما أفكّر في تضليلك أختَك ومؤامرتك الخبيثة لتوريط رجلٍ بريء، أجدُ صعوبةً في تذكّر شرّير أكثر حقارة.

صرخ (ماسترمان):

- لكن ماذا عن الفضيحة، عليك اللعنة! ماذا عن الفضيحة في نادي نونباريل؟ أنا غارق حتى أذنيّ في ديون لعب الورق، وإذا تخليت عن الياقوتة...

توقف مؤقتاً، وأعطانا نظرة خاطفة.

- انظر يا (هولمز)، ماذا عن عرضٍ ترفيهي؟

استدار صديقي نحو الباب.

قال ببرود:

- لديك مهلة حتى التاسعة صباحاً. تعال يا (واطسون).

بدأ الثلج يتساقط مرةً أخرى، بينما كنّا ننتظر في شارع (سانت جيمس)، وبينما كان البوّاب يصفّر ليطلب عربة أجرة.

قال (هولمز):

- يا صديقي العزيز، أخشى أنّه لا بد من أنك متعب جداً.

أجبته:

- على العكس من ذلك، أنا دائماً ما تنشّطني رفقتك.

- حسناً، لقد استحققت بضع ساعات من الراحة. انتهت مغامراتنا الليلة.

لكنّ صديقي استعجل في الكلام. حملتنا عربة متأخّرة ذات عجلتين إلى شارع بيكر، وأنا كنت أقوم بفتح الباب الأمامي بمفتاح المزلاج الخاص بي عندما لفتت انتباهنا مصابيح عربة كانت تقترب بسرعة

قادمة من اتجاه طريق (ماريليبون). العربة، وهي عربة مغلقة ذات أربع عجلات، توقّفت على بعد بضع ياردات في الشارع، وبعد لحظة، أسرعت نحونا هيئة امرأة ترتدي ملابس دافئة. رغم أن ملامحها كانت مخبأة تحت خمار ثقيل، كان هناك شيء مألوف بشكل غامض في قامتها الطويلة والرشيقة، ووقار رأسها الملكي، عندما وقفت أمامنا وجهاً لوجه على الرصيف المغطى بالثلوج.

صرخت بغطرسة:

- أودّ أن أتحدّث إليك يا سيد (هولمز).

رفع صديقي حاجبيه، وقال بهدوء:

- هلّا مضيت يا (واطسون)، وأشعلت الغاز.

في سنوات ارتباطي بقضايا صديقي، (شيرلوك هولمز)، رأيت العديد من النساء الجميلات يتجاوزنَ عتبة بابنا، لكنّي لا أستطيع أن أتذكّر امرأة تجاوز جمالها جمال المرأة التي دخلت الآن غرفة جلوسنا المتواضعة، مع صوت حفيف ثوبها العميق.

رفعت حجابها وقذفته إلى الخلف، وأضاء ضوء الغاز المضاء بشعاع خافت وجهها المثالي، وتألق عينيها الزرقاوين ذاتَي الرموش الطويلة، اللتين التقتا وتحدّتا نظرة (هولمز) الصارمة العنيدة.

- لم أكن أتوقع هذه الزيارة المتأخرة أيتها الليدي (دوفيرتون).

قالها بصرامة.

أجابت بسخرية خافتة ترنّ في صوتها:

- اعتقدت أنّك عالم بكلّ شيء يا سيد (هولمز)؛ لكنك ربّما لا تعرف شيئاً عن النساء.

- لم أستطع رؤية...

- هل عليّ أن أذكّرك بتباهيك؟ خسارة ياقوتة عباس كارثة، ولم أستطع أن أرتاح في قلقي لمعرفة ما إذا كنتَ قد أوفيتَ بوعدك أو لا. انظر يا سيدي، اعترفْ بأنّك قد فشلت.

- على العكس، لقد نجحت.

نهضت زائرتنا من على كرسيها، وعيناها تلمعان. صرخت بغطرسة:

- هذه مزحة رديئة يا سيد (هولمز).

لقد أشرتُ في مكانٍ آخر إلى أنّ صديقي بطبيعته، على الرغم من عدم ثقته العميقة بالجنس الآخر، كان شهماً مع النساء، لكنني الآن، لأول مرة، وهو يواجه الليدي (دوفيرتون)، رأيتُ وجهه يصبح قاسياً بشكلٍ ينذر بالسوء في حضور امرأة.

قال:

- الساعة متأخرة قليلاً بالنسبة إلى الادعاءات المضجرة يا سيدتي. لقد زرت نادي نونباريل، وبذلت بعض الجهد لأشرح لأخيك الطريقةَ التي حصل بها على ياقوتة عباس، والدور الذي...

- يا إلهي!

- ... الذي فوجئت بأنّك لعبته، في هذه المسألة. أتوسل إليك أن تعفيني من وهمي بأنّك لعبت هذا الدور ضد رغبتك.

للحظة، واجهت هذه المخلوقة الجميلة المهيبة (هولمز) في دائرة ضوء المصباح. بعدها، مع صرخة تأوّهٍ خافتة، هبطت على ركبتيها، ويداها متشبّثتان بمعطفه. انحنى (هولمز)، ورفعها بسرعة.

قال بهدوء:

- اجثي على ركبتيك أمام زوجك، أيتها الليدي (دوفيرتون)، وليس أمامي. بالفعل، لديك الكثير لتتحمّلي مسؤوليّته.

- أقسم لك...

- صه. أعرف كلّ شيء. لن تخرج أيّ كلمةٍ من فمي.

شهقت قائلة:

- تقصد أنّك لن تخبره؟

- لا أرى أيّ شيء يمكن كسبه من هذا! سيُطلق سراح (جوليف) في الصباح، بطبيعة الحال، وستُغلق قضية ياقوتة عباس.

همست وهي مكسورة:

- فليجازيك الله على رحمتك. سأبذل قصارى جهدي لأصلح غلطتي، لكن أخي التعيس... خسائره في لعب الورق...

- آه، أجل، النقيب (ماسترمان). لا أعتقد، يا ليدي (دوفيرتون)، أنّ لديك سبباً يدعو إلى القلق بشدّة بشأن هذا الرجل. قد ينتج عن إفلاس النقيب (ماسترمان)، والفضيحة الناتجة عن ذلك في نادي نونباريل، أن يبدأ سلوكَ طريقٍ أكثر شرفاً من ذلك الذي كان يسلكه حتى الآن. بالفعل، بمجرد أن تصبح الفضيحة شيئاً من الماضي، قد

يتم إقناع السير (جون) بترتيب مأمورية له في خدمة عسكرية ما خارج البلاد. مما رأيته من إقدام وبراعةٍ في ذلك الشاب، ليس لدي أدنى شك في أنه سيبلي جيداً علىً الحدود الشمالية الغربية للهند.

من الواضح أنّني كنت مرهقاً أكثر ممّا كنت أتخيّل بسبب تلك الليلة، ولم أستيقظ إلا عند الساعة العاشرة تقريباً. عندما دخلت غرفة جلوسنا، وجدت أنّ (شيرلوك هولمز) قد أنهى إفطاره، وكان مسترخياً أمام النار، مرتدياً روبه الأحمر القديم. كانت قدماه ممدودتين باتجاه النار، وكان الهواء منتناً بدخان غليون ما بعد الإفطار المكوّن من بقايا تبغ اليوم السابق. قرعت الجرس لاستدعاء السيدة (هدسون)، وطلبت غلايةً من القهوة، وبعضاً من شرائح اللحم والبيض.

قال، وهو يلقي نظرةً فيها شيء من التسلية عليّ من تحت جفنيه المرتخيين:

- أنا سعيد لأنك لم تتأخّر يا (واطسون).

أجبته:

- قدرة السيدة (هدسون) على إعداد وجبة الإفطار في أيّ ساعة ليست الأقل بين فضائلها.

- لا بأس، لكنني لم أكن أقصد إفطارك. أنا أتوقع حضور السير (جون دوفيرتون).

- في هذه الحالة يا (هولمز)، لمّا كانت المسألة حساسة، فمن الأفضل أن أتركك وحدك.

أشار لي (هولمز) بالعودة إلى مقعدي.

- يا صديقي العزيز، سأكون سعيداً بوجودك. وها هو، على ما أعتقد، زائرنا قد حضر قبل دقائق قليلة من موعده.

سُمعت طرقةٌ على الباب، ودخل إلى الغرفة قامةُ عالمِ البستنة الشهير الطويلة. صرخ بشكل مندفع:

- لديك أخبار لي يا سيد (هولمز)! قل ما لديك يا سيدي، تكلّم! أنا كلّي آذان صاغية.

أجاب (هولمز) بابتسامة خفيفة:

- أجل، لديّ أخبار لك.

اندفع السير (جون) بسرعة إلى الأمام. بدأ كلامه:

- إذاً أزهار الكاميليا...

- حسناً، حسناً. ربما يكون من الحكمة أن ننسى أزهار الكاميليا الحمراء. لقد لاحظت وجود محصول جيّد من البراعم على الشجيرة.

قال زائرنا بإيمان:

- أشكر الله أنّ هذا صحيح، ويسعدني أن أدرك، يا سيد (هولمز)، أنّك تعطي قيمةً أعلى للنوادر الزاهدة في الطبيعة من الكنوز الجوهرية لصنع الإنسان. ورغم ذلك، لا تزال هناك الخسارة المروّعة لياقوتة عباس. هل لديك أملٌ في استعادة الجوهرة؟

- هناك كلّ الأمل، لكن قبل أن نناقش الأمر أكثر، أطلب منك أن تنضم إلي في شرب كأس من البورت.

رفع السير (جون) حاجبيه، وصاح قائلاً:

- في هذه الساعة يا سيد (هولمز)؟ حقاً يا سيدي، أنا أكاد أعتقد...

ابتسم (شيرلوك هولمز)، وهو يملأ ثلاثة كؤوس عند الخزانة الجانبية، ويسلّم زائرنا إحداها:

- هيا، إنّه صباح بارد، ويمكنني أن أوصي بشدّة بندرة هذا الشراب العتيق.

بعبوس طفيف من الرفض، رفع السير (جون دوفيرتون) الكأس إلى شفتيه. كانت هناك لحظة صمتٍ كسرتها صرخة جافلة. زائرنا، الذي أصبح وجهه أبيضَ مثل المنديلِ الكتاني الذي وضعه على فمه، صار يحدّق بجنون انتقالاً من (هولمز) إلى البلورة المتوهجة والمشتعلة التي سقطت من شفتيه في منديله. قال وهو يلهث:

- ياقوتة عباس!

انفجر (شيرلوك هولمز) بضحكة شديدة، وألصق راحتي يديه ببعضهما.

صرخ قائلاً:

- حقاً يجب أن تعذرني! صديقي الدكتور (واطسون) سيخبرك أنه لا يمكنني أبداً مقاومة هذه اللمسات الدرامية نوعاً ما. ربما السبب هو دم (فيرنيه)[1] الذي يجري في عروقي.

حدّق السير (جون دوفيرتون) في الجوهرة الرائعة وهو مصدومٌ بشدة، وهي تشتعل وتلمع على خلفيتها المصنوعة من الكتان الأبيض.

---

(1) (Claude-Joseph Vernet): رسام فرنسي اشتُهِرَ برسم المناظر الطبيعية، وقد جاء عدد من الفنانين من نسله أيضاً.

قال بصوت مرتعش:

- يا إلهي، أنا بصعوبة أستطيع أن أثق في عينيّ، لكن كيف استعدتها بحقّ السماء؟

أجاب (هولمز) بلطف:

- آه، هنا يجب أن ألتمس منك التسامح. يكفي أن أقول إنّ رئيس خدمك، (جوليف)، الذي كان رجلاً مظلوماً بشدّة، قد أُطلِقَ سراحه هذا الصباح، وإن الجوهرة قد أعيدت الآن بأمان إلى مالكها الشرعي. ها هي المدلاة والسلسلة التي سمحتُ لنفسي بإزالة الحجر منها لكي أتمكّن من تنفيذ خدعتي الصغيرة عليك بإخفاء الياقوتة في نبيذ البورت الذي قدّمته لك. أرجو منك ألا تضغط عليّ لأخبرك أكثر من ذلك.

قال السير (جون) بجدية:

- سيكون لك ما تريد يا سيد (هولمز). لديّ سبب قويّ بالفعل لأضع كلّ ثقةٍ لديّ في قرارك، لكن ما الذي يمكنني فعله للتعبير عن...

- حسناً، أنا بعيدٌ عن كوني رجلاً ثرياً، وسأترك الأمر لك، سواء كنت أستحقّ مكافأتك البالغة خمسة آلاف جنيه أم لا.

صرخ (جون دوفيرتون)، وهو يخرج دفتر شيكات من جيبه قائلاً:

- بمرات عديدة، وعلاوةً على ذلك، سأرسل إليك قطفة من الكاميليا الحمراء.

انحنى (هولمز) بوقار.

قال:

- سأضعها في مسؤولية (واطسون) الخاصة. بالمناسبة، أيها السير (جون)، سأكون سعيداً إذا قمتَ بكتابة شيكين منفصلين؛ واحد بـ 2500 جنيه إسترليني لمصلحة (شيرلوك هولمز)، والآخر بمبلغ مماثل لمصلحة (أندرو جوليف). أخشى أنك من الآن فصاعداً قد تجد رئيس خدمك السابق متوتّراً في أداء واجباته المنزلية، وهذا المبلغ من المال لا بُدَّ من أن يكون أكثر من كافٍ لإدخاله في تجارة السيجار، وبذلك يتحقّق الطموح السرّي في حياته. شكراً لك يا سيدي العزيز. والآن أعتقد أننا هذه المرّة قد نكسر عاداتنا الصباحية بحقّ من خلال تناول كأس من البورت، والاحتفال بتواضع بختام ناجح لقضية ياقوتة عباس.

منذ زيارتنا إلى (ديفونشاير)، كان منخرطاً في قضيتين ذاتَي أهمية قصوى... فضيحة ورق اللعب الشهيرة لنادي نونباريل... والسيدة (مونبنسير) التعيسة.

من «كلب آل باسكرفيل».

9

مغامرة ملائكة الظلام

- أخشى، يا (واطسون)، أنّ المزاج الاسكندنافي يقدّم مجالاً صغيراً لتلميذ الجريمة؛ فهو يميل نحو الابتذال المستهجن تماماً.

قالها (هولمز)، بينما كنا ننعطف من شارع أكسفورد باتجاه الأرصفة الأقل ازدحاماً في شارع بيكر.

كان صباحاً صافياً ونضراً من شهر مايو من العام 1901، وكان الزي الرسمي الذي يرتديه الرجال النحيفون المسمرّون، الذين كانوا يتوافدون في الشوارع، وهم في إجازة من حرب جنوب أفريقيا، يعبّر عن فرحة ترحيبية أمام تلك الفساتين الداكنة التي ترتديها النساء اللائي كنَّ ما زلنَ في حداد لوفاة الملكة الراحلة.

- يمكنني أن أذكّرك، يا (هولمز)، بدزينة من الحالات من بين قضاياك التي تدحض زعمك هذا.

أجبته بهذا، وأنا أشير ببعض الارتياح إلى أنّ مسيرتنا الصباحية قد أضفت لمسةً من التورّد على وجنتي صديقي الشاحبتين.

سأل:

- على سبيل المثال؟

- حسناً، الدكتور (غرايمسبي رويلوت) ذو الذاكرة السيّئة السمعة. إن استخدام ثعبان مروّض بغرض ارتكاب جريمة قتلٍ لا يمكن الاستخفاف به، واعتباره تفاهة.

- يا صديقي العزيز، مثالك يثبت رأيي. من بين نحو خمسين قضية، نتذكّر الدكتور (رويلوت)، و(بيترز) 'المقدس'، وواحد أو اثنين آخرين فقط؛ لأنهم استخدموا نهجاً خيالياً للجريمة كان متناقضاً بشكل مذهل مع الممارسة العادية.

في الواقع، أشعر أحياناً بالإغراء للاعتقاد بأنه، تماماً مثلما يمكن لـ (كوفييه)[1] إعادة بناء الحيوان الكامل من عظمة واحدة، يمكن للمفكّر المنطقي أن يعرف من ما تطهوه الأمة الخصائص السائدة لمجرمي تلك الأمة.

ضحكت:

- لا يمكنني أن ألاحظ أيّ شيء مماثل.

- فكّر في الأمر يا (واطسون). هناك، مصادفة...

(1) جورج كوفييه (Georges Cuvier): عالم فرنسي اشتُهِر ببراعته في ميدان تشريح الحيوان.

تابع كلامه، وهو يشير بعصاه نحو حافلةٍ تجرّها الخيول بلون الشوكولاتة، وقد، مع صوت الفرامل الذي يشبه صوت الطحن ورنين مرح صادر من ألجمة الخيل، توقّفت على الجانب الآخر.

- لديك مثال جيد. إنّها واحدة من الحافلات الفرنسية. انظر إلى السائق يا (واطسون)؛ إنه غاضب ومتوتر يركز كل عواطفه بشكل كليّ وهو يتجادل مع ضابط الصف الذي في إجازة طويلة من محطة ساحلية بحرية. إنّه الفرق بين ما هو غير واضح وما هو مؤكّد، بين الصلصة الفرنسية والمرق الإنجليزي. فكيف يمكن لرجلين من هؤلاء التعامل مع الجريمة من المنظور نفسه؟

أجبته:

- ورغم ذلك، أنا لا أرى كيف يمكنك معرفة أنّ الرجل، الذي يرتدي المعطف ذا التراببع، هو ضابط صفّ في إجازة طويلة.

- تسك يا (واطسون)، عندما يرتدي رجلٌ شريط القرم على صدرته، ومن ثَمّ هو أكبر سناً من أن يكون في الخدمة الفعلية، ينتعل حذاءً بحرياً جديداً نسبياً، فمن الواضح بالتأكيد أنه قد تمت إعادة استدعائه من التقاعد. إنّ تمتعه بميزة السلطة أعلى من تلك الموجودة لدى البحار العادي. ورغم ذلك، إن بشرته لم تعد أكثر برونزية أو مخشوشنة بفعل الرياح من بشرة سائق الحافلة. والرجل ضابط صف بحريّ ملحق بمحطة ساحلية أو بمعسكر تدريب.

- والإجازة الطويلة؟

- إنّه يرتدي ملابس مدنية. ورغم ذلك، هو لم يتمّ تسريحه؛ لأنك ستلاحظ أنّه يملأ غليونه من سدّادة ذات لفّة بحرية معتادة، لا يمكن الحصول عليها من بائعي التبغ. لكن ها نحن وصلنا إلى ب-221، وفي الوقت المحدد، كما أنا متأكد، للحاق بالزائر الذي حضر أثناء غيابنا.

قمت بإجراء مسح لباب المنزل الفارغ.

قلت محتجاً:

- حقاً يا (هولمز)! لقد تماديت بعض الشيء.

- نادراً جداً ما أفعل ذلك يا (واطسون). تتمّ إعادة طلاء عجلات معظم العربات العامة في هذا الوقت من العام، وإذا كنت ستكلّف نفسك بإلقاء نظرة على الرصيف، فستلاحظ علامة خضراء طويلة؛ حيث كشطت العجلة الحافة، التي لم تكن موجودة عندما غادرنا قبل ساعة. أُبقيت العربة لتنتظر بعض الوقت؛ لأن السائق قد أزال بقايا التبغ من غليونه عن طريق طرقه مرتين. لا يسعنا إلا أن نأمل أن الراكب قد قرر انتظار عودتنا بعد صرف العربة.

عندما صعدنا الدرج، حضرت السيدة (هدسون) من الأقسام السفلية.

قالت:

- كان هناك زائرة هنا منذ نحو الساعة يا سيد (هولمز)؛ إنها تنتظر في غرفة جلوسك، وقد بدت متعبة؛ تلك المخلوقة الجميلة المسكينة، التي سمحت لنفسي بإحضار كوب لذيذ وقويّ من الشاي لها.

- شكراً لك يا سيدة (هدسون). لقد أحسنت صنعاً.

نظر إلى صديقي، وابتسم، لكن كان هناك بريق في عينيه الفاترتين. قال بهدوء:

- لقد بدأت اللعبة يا (واطسون).

عند دخولنا غرفة الجلوس، نهضت زائرتنا لمقابلتنا. كانت شابة ذات شعر أشقر، لا تزال في أوائل العشرينيات من عمرها، نحيلة وجميلة، ذات بشرة رقيقة وعينين زرقاوين كبيرتين فيهما لمسة من اللون البنفسجي في أعماقهما. كانت ترتدي بشكل بسيط، ولكن أنيق، زيَّ سفر ذا لون بني مصفر، وقبعة من اللون نفسه خفف من حدة لونها ريشة بنفسجية صغيرة. لقد لاحظت هذه التفاصيل تقريباً من دون وعي؛ لأنني، بوصفي طبيباً، لفتت انتباهي على الفور الظلال الداكنة التي كانت كامنةً تحت عينيها، وارتجاف شفتيها الذي كشف عن شدة التوتر العصبي الذي يقترب بشكل خطير من نقطة الانهيار.

مع اعتذاره عن غيابه، قادها (هولمز) إلى كرسي أمام المدفأة، وبعدها، بينما كان يجلس على كرسيه، درسها بصورة فاحصة من تحت جفنيه الثقيلين.

قال بلطف:

- إنني أدرك أنك قلقة للغاية. ليكن مؤكَّداً لك أنّ الدكتور (واطسون) وأنا هنا لخدمتك يا آنسة...

قالت زائرتنا:

- اسمي (دافني فيريرز).

بعدها، وهي تنحني إلى الأمام فجأةً، وهي جالسة على كرسيها، حدّقت في وجه (هولمز) باهتمام فريد، وهمست قائلة:

- هل في رأيك المبشرون بالموت هم ملائكة الظلام؟

نظر إلي (هولمز) نظرة سريعة.

قال وهو يمدّ ذراعه نحو رف الموقد:

- أعتقد أنك لا تمانعين لو دخّنت الغليون يا آنسة (فيريرز). الآن، أيتها الشابة، علينا جميعاً أن نلتقي بملاك ظلام[1] في نهاية المطاف، لكن هذا يكاد يُعدُّ سبباً كافياً لاستشارة اثنين من السادة في منتصف العمر في شارع بيكر. سيكون من الأفضل لك بكثير أن تخبريني قصتك من البداية.

صرخت الآنسة (فيريرز)، بينما كان شحوب خديها يفسح المجال لاحمرار طفيف لكنه في طور التكوّن:

-ورغم ذلك، عندما تسمع قصتي، عندما تسمع الحقائق التي تدفعني إلى الجنون ببطء من الخوف، قد تضحك مني فحسب.

- ليكن مؤكَّداً لك أنني لن أفعل ذلك.

توقفت زائرتنا لحظةً وكأنها ترتّب أفكارها، ثمّ انغمست على الفور في سردها الغريب.

---

(1) ملاك الظلام: هو ملاك يحارب الخطيئة وفقاً للعقيدة الكتابية (والمقصود هنا هو ملاك الموت).

بدأت كلامها قائلة:

- يجب أن تعرف، إذاً، أنني وحيدة (يوسوا فيريرز) من (أبوتستاندينغ) في (هامبشاير). قريب والدي هو السير (روبرت نوربيرتون) من (شوسكومب أولد بليس)، الذي تعرفتَ عليه أنت قبل بضع سنوات، وبناءً على توصيته، هرعت إليك في ذروة مشاكلي.

(هولمز)، الذي كان متكئاً على كرسيه وعيناه مغمضتان، أخرج غليونه من فمه.

قاطعها قائلاً:

- لماذا إذاً لم تأتِ إليّ الليلة الماضية عندما وصلت إلى المدينة، بدلاً من الانتظار حتى هذا الصباح؟

جفلت الآنسة (فيريرز) بشكل واضح.

- فقط عندما تناولت العشاء مع السير (روبرت) الليلة الماضية نصحني بمقابلتك، لكنني لا أفهم، يا سيد (هولمز)، كيف يمكنك أن تعرف...

- تسك، أيتها الشابة؛ الأمر بسيط بما فيه الكفاية. يحمل كلٌّ من طرف كمّ سترتك ومرفقها الأيمن آثاراً طفيفة، لكن لا لبس فيها، للغبار الذي بلون السخام، الذي لا يمكن فصله عن مقعد نافذة في عربة سكة حديد. ومن ناحية أخرى، إن حذاءك نظيف تماماً، وملمّع إلى تلك الدرجة العالية من التلميع التي هي من ميّزات فندق جيد.

قاطعتُه:

- ألا تظنّ يا (هولمز) أننا يجب أن نستمع إلى قصة الآنسة (فيريرز) من دون المزيد من التأخير. بوصفي طبيباً أقول إنّه قد حان الوقت لإزاحة مشاكلها من كتفيها.

شكرتني زائرتنا الجميلة بظرافة بنظرة من عينيها الزرقاوين.

قال (هولمز) بشيء من الحدّة:

- كما لا بد من أنك أصبحت تعرف الآن يا (واطسون)، لديّ أساليبي الخاصة. ورغم ذلك، يا آنسة (فيريرز)، نحن كلّنا آذان صاغية. رجاءً أكملي.

تابعت كلامها:

- يجب أن أوضح أنّ الجزء الأول من حياة والدي كان قد قضاه في صقلية؛ حيث ورث أملاكاً كبيرة من كروم العنب وبساتين الزيتون. وبعد وفاة والدتي، بدا أنه قد سئم من البلاد، وبعد أن جمع ثروة كبيرة، باع والدي أملاكه، وذهب إلى إنجلترا ليتقاعد. لأكثر من عام، انتقلنا من مقاطعة إلى أخرى بحثاً عن منزل يجب أن يلائم متطلبات والدي الغريبة نوعاً ما، قبل أن يختار بعد فترة طويلة (أبوتستانديغ) بالقرب من (بوليو) في (نيو فوريست).

- لحظة واحدة يا آنسة (فيريرز). رجاءً عدّدي هذه المتطلبات الغريبة.

- والدي يميل بشكل استثنائي إلى الانكفاء على نفسه يا سيد (هولمز). فوق كل شيء، هو أصرّ على منطقة ذات كثافة سكانية قليلة، ومُلكيّة يجب أن تقع على بعد عدد من الأميال عن أقرب محطة لسكة

الحديد. في (أبوتستاندينغ)، قصر بُرْجي[1] متهدّم تقريباً من آثار العصور القديمة العظيمة، وكان في وقت من الأوقات مسكناً للصيد لعائلة (أبوت) من (بوليو)، وجد ما كان يسعى إليه، وبعد إجراء بعض الإصلاحات الضرورية، استقررنا أخيراً في منزلنا. كان ذلك، يا سيد (هولمز)، قبل خمس سنوات، ومنذ ذلك اليوم حتى يومنا هذا عشنا في ظلّ رعب لا اسم ولا شكل له.

- إن كان بلا اسم ولا شكل، فكيف كنت على علم بوجوده؟

- من خلال الظروف التي تحكم حياتنا، لم يكن والدي يسمح بأي اتصال اجتماعي مع جيراننا القلائل، وحتى احتياجات منزلنا لم تكن تأتي من أقرب قرية، بل بوساطة عربة نقل من (ليندهيرست). يتألف طاقم العمل من رئيس الخدم (ماكيني)، وهو رجل نكد وحاد المزاج وظّفه والدي في (غلاسكو)، وزوجته وشقيقتها اللتين تتقاسمان العمل المنزلي بينهما.

- وطاقم العمل الخارجي؟

- لا يوجد طاقم عمل خارجي. رُخّصت الأراضي كأراضٍ بريّة، والمكان بالفعل مليء بالكائنات البريّة الضارّة من جميع الأوصاف.

قال (هولمز):

- لا أرى أيّ شيء يثير الرعب في هذه الظروف يا آنسة (فيريرز). في الواقع، إذا كنت أعيش في الريف، فمن المحتمل أن أخلق من حولي

---

(1) أي قصر مبني على طراز القلاع أو محصن.

ظروفاً مشابهة جداً لتخفيف العلاقات غير المجدية مع جيراني. يتألّف سكّان المنزل، إذاً، من نفسك ومن والدك والخدم الثلاثة؟

- المنزل، نعم، لكنّ هناك كوخاً في الملكية يشغله السيد (جيمس تونستون)، الذي أدار كروم العنب التي كنّا نملكها في صقلية لسنوات عديدة قبل مرافقة والدي عند عودته إلى إنجلترا. وهو يعمل وكيلاً للمزرعة.

رفع (هولمز) حاجبيه، وقال:

- حقاً. ملكية يُسمح لها بالتغيّر لتصبح برية، وليس فيها سكّان، ووكيل مزرعة. هذه بالتأكيد حالة غريبة وخارجة عن المألوف بعض الشيء؟

- إنّه تعيين اسمي فقط يا سيد (هولمز). يتمتّع السيد (تونستون) بثقة والدي، ويشغل منصبه في (أبوتستاندينغ) تقديراً للسنوات السابقة التي قضاها في خدمته في صقلية.

- آه، بالفعل.

- والدي نفسه نادراً ما يغادر المنزل، وفي المرّات القليلة التي يفعل فيها ذلك هو لا يتجاوز حدود جدران حديقته. عندما يكون هناك حبّ وتفاهم ومصلحة مشتركة، حياة كهذه قد تكون محتملة. لكن، للأسف، لم يكن هذا هو الحال في (أبوتستاندينغ). شخصية والدي، رغم أنه يخاف الله، ليست من النوع الذي يشجع على المودة، ومع مرور الوقت، تعمّق طبعه، الذي كان دائماً حاداً ومنكفئاً على نفسه، في فترات من انشغال التفكير بشكل وحشي وكئيب، عندما كان يحبس نفسه في غرفة مكتبه عدة أيام من دون انقطاع.

كما يمكنك أن تتخيل يا سيد (هولمز)، كان هناك القليل من الاهتمام وسعادة أقل بالنسبة إلى امرأة شابة معزولة عن أصدقاء من عمرها نفسه، ومحرومة من جميع الصلات الاجتماعية، ومُقدّر لها أن تقضي أفضل سنوات عمرها في الروعة المقفرة لمسكن صيد نصف خرب من العصور الوسطى. كانت حياتنا حياة رتابة مطلقة، وبعدها، قبل نحو خمسة أشهر، وقعت حادثةٌ كانت غير مهمة بما يكفي في حد ذاتها، شكلت أول سلسلة من الأحداث الفريدة التي دفعتني إلى عرض مشاكلي أمامك.

- كنت عائدة من نزهة سيراً على الأقدام في الصباح الباكر في الحديقة، وعند دخولي الطريق المشجّر المؤدي من بوابات الكوخ إلى المنزل، لاحظت وجود شيء مثبّت بمسمار على ساق شجرة بلوط. عند فحصه عن قرب، اكتشفت أنّ ذلك الشيء كان عبارة عن مطبوعة ملونة عادية من النوع الذي يُستخدم في زخرفة ترانيم عيد الميلاد، أو الكتب الرخيصة التي تتحدّث عن الفن الديني. لكن موضوع الصورة كان غير عادي، بل كان لافتاً للنظر.

- كانت تتألف من سماء ليلية تكسرها قمة تل جرداء على قمّتها، في مجموعتين منفصلتين من ستة وثلاثة، يقف تسعة ملائكة مجنحون. عندما حدقت في الصورة، شعرت بالحيرة في تفسير ملاحظتي التناقضَ التي تضاربت في حواسي إلى أن أدركت السبب في لحظة. كانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها ملائكة لا يتم تصويرهم في وهج، بل في أردية من الظلمة الجنائزية. عبر الجزء السفلي من المطبوعة كُتبت الكلمات «ستة وثلاثة».

عندما توقفت زائرتنا، نظرتُ إلى (شيرلوك هولمز). كان حاجباه مشدودين إلى الأسفل، وعيناه مغمضتين، لكن كان يمكنني أن أعرف من دوامات الدخان السريعة المتصاعدة من غليونه أنّ اهتمامه قد أُثير بشدة.

أكملت كلامها قائلة:

- كان ردّ فعلي الأول أنها كانت طريقة غريبة لرجل النقليّات من (ليندهيرست) لإيصال تقويم جديد كهذا، وهكذا، بعد اقتلاعه، أخذته معي، وكنت في طريقي إلى الطابق العلوي إلى غرفتي عندما قابلت والدي على رأس السلالم.

- قلت: «كان هذا على شجرة في الطريق المشجّر. أعتقد أن (ماكيني) يجب أن يطلب من الناقل من (ليندهيرست) أن يقوم بالتوصيل عند مدخل التجار بدلاً من تثبيت الأشياء في أماكن غريبة. أفضل الملائكة باللون الأبيض، ألا تفضلها أنت كذلك يا بابا؟».

- بصعوبة كانت الكلمات قد خرجت من فمي عندما انتزع المطبوعة مني. للحظة، وقف صامتاً، محدقاً في الورقة التي في يديه المرتعشتين بينما تغيّر لون وجهه، ليصبح مجهداً من التوتر وشاحباً.

- صرخت وأنا أمسك به من ذراعه: «ما هذا يا بابا؟». همس قائلاً: «ملائكة الظلام»، ثم، مع إيماءة من الرعب، نفض يدي ليبعدها، واندفع إلى غرفة مكتبه، وأغلق الباب خلفه وأقفله.

- منذ ذلك اليوم، لم يغادر والدي المنزل أبداً. كان يقضي وقته في القراءة والكتابة في غرفة مكتبه، أو في اجتماعات طويلة مع

(جيمس تونستون) الذي تشبه شخصيته الكئيبة والحادة إلى حدٍّ ما شخصيته. نادراً ما رأيته إلا في أوقات الوجبات، وكان الأمر لا يطاق بالنسبة إلي لولا حقيقة أن لديّ صداقة مع امرأة ذات قلب نبيل، السيدة (نوردهام)، زوجة الطبيب في بوليو، التي عندما أدركت العزلة التي في حياتي استمرت في الزيارة لرؤيتي مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع على الرغم من عداء والدي الصريح لما أعدّه تدخلاً غير مسموح به.

- كان ذلك بعد بضعة أسابيع، في 11 فبراير، على وجه الدقة، عندما جاء خادمنا إليّ بعد الإفطار مباشرة. وكان على وجهه أكثر التعابير غرابة.

- قال بحدّة: «إنه ليس الناقل من (ليندهيرست) هذه المرة، وأنا لا يعجبني هذا، يا آنسة».

«ما الأمر يا (ماكيني)؟».

قال: «اسألي الباب الأمامي»، وذهب مبتعداً، وهو يغمغم، ويتحسّس لحيته.

- أسرعت إلى المدخل، وكانت هناك مطبوعة مثبتة بمسمار على الباب الأمامي، مماثلة لتلك التي وجدتها على شجرة البلوط في الطريق المشجّر. ورغم ذلك لم تكن مماثلة تماماً؛ ففي هذه المرة كان عدد الملائكة ستة فقط، والرقم «6» كان مكتوباً في أسفل الصفحة.

انتزعتها من مكانها، وأخذت أحدق فيها بقشعريرة في قلبي لا يمكن تفسيرها عندما امتدّت يدٌ وأخذتها من أصابعي. استدرتُ فوجدت

السيد (تونستون) يقف ورائي. قال بجدية: «هذه ليست موجّهة إليك يا آنسة (فيريرز)، ويمكنك أن تشكري خالقك على هذا».

- صرخت بجنون: «لكن ماذا يعني هذا؟ إذا كان هناك خطر على والدي، فلماذا لا يستدعي الشرطة؟».

- أجاب: «لأننا لسنا بحاجة إلى الشرطة. صدقيني، والدك وأنا قادران تماماً على التعامل مع هذا الموقف، يا آنستي العزيزة».

وبعد أن استدار، اختفى في المنزل. لا بد أنه قد أخذ الصورة إلى والدي؛ لأنه بقي في غرفته مدة أسبوع بعد ذلك.

قاطعها (هولمز) قائلاً:

- لحظة واحدة. هل يمكنك تذكر التاريخ الدقيق الذي وجدت فيه الصورة على شجرة البلوط؟

- كان يوم 29 ديسمبر.

- والثانية ظهرت على الباب الأمامي يوم 11 فبراير، كما قلتِ. شكراً لك يا آنسة (فيريرز). رجاءً، واصلي روايتك الشيّقة.

تابعت عميلتنا:

- في إحدى الأمسيات، كان ذلك بعد نحو أسبوعين، كنت أنا وأبي نجلس معاً على مائدة العشاء. كانت ليلة عاصفة وهائجة مع هبّات متدفقة من مطر ورياح تولول وتصرخ مثل روح ضائعة عبر المداخن الضخمة الفاغرة في ذلك القصر الضارب في القدم. كانت الوجبة قد انتهت، وكان والدي يشرب بشكل مزاجي مشروب البورت على ضوء

فروع الشموع الثقيلة، التي كانت تضيء مائدة الطعام عندما، وهو يرفع عينيه إلى وجهي، أوقفه انعكاس ما من الرعب المطلق، الذي كان في ذلك الوقت بالذات يُجمّد الدم في عروقي.

على الفور، أمامي، وخلفه، كانت هناك نافذة، لم تكن ستائرها مسحوبة بالكامل، تاركة مساحة من الزجاج المرشوش بالمطر، الذي كان يعكس وهجاً خافتاً من ضوء الشموع.

- كان يحدق من خلال هذا الزجاج وجه رجل.

- كان الجزء السفلي من وجهه مغطّى بيده، لكن تحت حافة القبعة التي لا شكل لها زوج من العيون، مكشّرتان وحاقدتان، كانتا تحدّقان في عينيّ بغضب.

- لا بد من أن أبي قد أدرك غريزياً أنّ الخطر كان يكمن وراءه؛ لأنه أمسك بشمعدان متشعّب ثقيل من على الطاولة، وبحركة واحدة استدار وألقى به على النافذة.

- كان هناك تكسّر مروّع للزجاج، ولمحت الستائر وهي ترفرف مثل أجنحة خفافيش قرمزية ضخمة في مهب الريح، التي كانت تعصف من خلال النافذة المحطمة. احترق لهيب الشموع المتبقية بشكل مسطح وخافت، وبعدها لا بد من أنه قد أغمي علي. عندما استعدت وعيي، كنت مستلقية على سريري. في اليوم التالي، لم يشر والدي إلى الحادث، وقام رجل من القرية بإصلاح النافذة. والآن يا سيد (هولمز)، تقترب قصتي من نهايتها.

- في 25 مارس، قبل ستة أسابيع وثلاثة أيام بالضبط، عندما أخذنا أنا وأبي أماكننا لتناول الإفطار، كان هناك على الطاولة مطبوعة لملائكة شيطانية[1]، ستة وثلاثة، لكن هذه المرة لم يكن هناك أي رقم مكتوب في الجزء السفلي.

سأل (هولمز) بشكل جديّ جداً:

- ووالدك؟

- استسلم والدي بهدوء الرجل الذي ينتظر مصيراً لا مفر منه. ولأول مرة منذ سنوات عديدة، نظر إليّ بلطف، وقال: «لقد جاء، وهو حسن».

- جثوت على ركبتي بجانبه، توسلت إليه أن يستدعي الشرطة، لوضع حدٌّ لهذا اللغز الذي ألقى ظلاله، التي تثير القشعريرة، على حياتنا المنعزلة. أجاب: «الظل تقريباً انقشع يا طفلتي».

- بعدها، بعد لحظة من التردد، وضع يده على رأسي.

- قال: «إذا قام أي أحد، أي غريب، بالتواصل معك، فقولي فقط إن والدك أبقاك دائماً جاهلةً بشؤونه، وإنه أمرك بأن تقولي إن اسم الصانع في عقب البندقية. تذكري هذه الكلمات، وانسي كلّ شيء آخر، إذا كنت تقدرين تلك الحياة الأفضل والأكثر سعادة التي ستبدأ قريباً لك»، وبهذا نهض وغادر الغرفة.

---

(1) الظاهر المقصود الملائكة المنفية من الجنة، والتي تسمى أحياناً "الملائكة الهابطة" أو "الساقطة" والذين كان يقودهم إبليس.

- منذ ذلك الوقت، كنت قليلاً ما أراه، وفي النهاية، تشجّعت وكتبت إلى السير (روبرت) بأنني كنت في ورطة كبيرة، وأنني أرغب في مقابلته. بعدها، بعد أن اخترعت عذراً، تسللت أمس وجئت إلى لندن؛ حيث نصحني السير (روبرت)، بعد أن سمع القليل من القصة من فمي، بأن أضع مشكلتي أمامك بصراحة.

لم أرَ صديقي أكثر جديّة من قبل. كان حاجباه مشدودين إلى عينيه، وهز رأسه بيأس.

قال أخيراً:

- من أشد اللطف على المدى الطويل أن أكون صريحاً معك. يجب أن تخططي لحياة جديدة لنفسك، ويفضل أن يكون ذلك في لندن؛ حيث يمكنك تكوين صداقات جديدة بسرعة مع أشخاص في عمرك نفسه.

- لكن والدي؟

نهض (هولمز) ووقف.

- أنا والدكتور (واطسون) سنرافقك على الفور إلى (هامبشاير). إذا لم أتمكن من منعه، فقد أتمكن على الأقل من الانتقام له.

صرخت وأنا مرعوب:

- (هولمز)!

قال وهو يضع أصابعه برفق على كتف الآنسة (فيريرز):

- لن ينفع هذا يا (واطسون). ستكون أحقر خيانةٍ لهذه الشابة الشجاعة إثارةُ آمال لا يمكنني مشاركتها. من الأفضل أن نواجه الحقائق.

أجبته:

- الحقائق! قد تكون إحدى قدمي الرجل في القبر، ورغم ذلك قد يعيش.

نظر إليّ (هولمز) بفضول لحظةً.

قال بتفكّر:

- هذا صحيح يا (واطسون)، لكن يجب ألا نضيع المزيد من الوقت. ما لم تكن ذاكرتي تكذبني، هناك قطار إلى (هامبشاير) خلال ساعة. بعض الضروريات في الحقيبة ستفي بالغرض.

كنت أجمع أغراضي على عجل عندما جاء (هولمز) إلى غرفة نومي.

قال بهدوء:

- قد يكون من المستحسن أن تحضر مسدسك.

- إذاً، هناك خطر؟

- خطر مميت يا (واطسون).

ضرب على جبهته بيده.

- يا إلهي، يا لها من مفارقة. لقد أتت بعد فوات الأوان بيوم واحد.

بينما كنا نرافق الآنسة (فيريرز) من غرفة الجلوس، توقف (هولمز) عند رف الكتب ليضع مجلداً رفيعاً مغلفاً بجلد عجل في جيب ردائه الذي من نوع انفيرنيس، بعدها، بعد أن كتب برقية، سلم الأنموذج للسيدة (هدسون) في الممر. قال:

- رجاءً تأكدي من إرسالها على الفور.

حملتنا عربة ذات أربع عجلات إلى واترلو؛ حيث كنا في الوقت المناسب بالضبط للحاق بقطار (بورنماوث)، الذي كان يتوقف في محطة (ليندهورست رود).

كانت رحلة كئيبة. أسند (شيرلوك هولمز) ظهره في مقعده الذي في الزاوية، وقبعة السفر ذات الغطاءين للأذنين، التي كان يرتديها، كانت مسحوبة على عينيه وأصابعه الطويلة الرفيعة تنقر بقلق على حافة النافذة.

حاولت أن أشرك رفيقتنا في محادثة، وأن أنقل القليل من التعاطف الذي شعرت به تجاهها في هذا الوقت من القلق، ولكن على الرغم من أنّ ردودها كانت رقيقة ولطيفة، كان من الواضح أن بالها كان منشغلاً بأفكارها الخاصة بها.

أعتقد أننا كنا جميعاً سعداء عندما نزلنا، بعد نحو ساعتين، في محطة (هامبشاير) الصغيرة. عندما وصلنا إلى البوابة، سارعت إلينا امرأة مليحة الوجه.

قالت:

- سيد (شيرلوك هولمز)؟ الحمد لله لأن مكتب بريد (بوليو) قد أوصل برقيتك في الوقت المناسب. (دافني)، عزيزتي!

- سيدة (نوردهام)! لكن - لكنني لا أفهم.

قال (هولمز) بهدوء:

- اهدئي يا آنسة (فيريرز). سيساعدنا ذلك كثيراً، إن عهدت بنفسك إلى صديقتك. سيدة (نوردهام)، أعلم أنك ستعتنين بها جيداً. تعال يا (واطسون).

أوقفنا عربة في ساحة المحطة، وخلال لحظات قليلة، خرجنا من القرية الصغيرة، وكنّا نسير بسرعة على طول طريق مهجور امتدّ باستقامة مثل الشريط، كان يرتفع وينخفض ويصعد مرة أخرى على مساحات منعزلة من مرج تتخلله هنا وهناك تجمعات من البهشيّة[1]، وتحدّه من كل اتجاه أعمدة ناتئة داكنة لغابة ضخمة. بعد بضعة أميال، عند صعود تلة طويلة، رأينا أسفلنا مسطّحاً مائياً، والآثار الرمادية العتيقة لدير (بوليو)، ثم غاص الطريق في الغابة. وبعد نحو عشر دقائق سارت عربتنا تحت قوس من بناء متداعٍ إلى طريق تصطف على جانبيه أشجار البلوط النبيلة التي اجتمعت أغصانها المتشابكة فوقنا مكونة شفقاً معتماً. أشار (هولمز) إلى الأمام. قال بمرارة:

- هذا ما كنت أخشاه. لقد تأخرنا كثيراً.

كان راكباً في اتجاهنا نفسه، لكن بعيداً أمامنا في الطريق، لمحت شرطياً على دراجة.

وصلت الرحلة إلى حديقة مشجرة فيها قصر كئيب محاط بسور ذي فتحات وسط شرفات متكسّرة، ورياضٍ في أكثر المشاهد حزناً؛ حديقة من العالم القديم تمتدّ إلى البرية، وتستحم في الوهج الأحمر لشمس المغيب.

---

(1) صنف من النباتات والأشجار.

على مسافة قصيرة من المنزل، اجتمعت مجموعة من الرجال بجانب شجرة أرز متوقفة النمو، وبكلمة من (هولمز)، توقف سائقنا، وهرعنا نحوهم عبر البستان.

كانت المجموعة مكوّنة من الشرطي، وهو رجل معه حقيبة صغيرة تعرفت عليها بسهولة، وأخيراً رجلٍ يرتدي بدلة تويدية[1] ريفية بنية اللون، وذي وجه شاحب غائر محاط بسوالف ضلع-الضأن[2].

عندما اقتربنا، استداروا نحونا، ولم أتمكّن من كبت صرخة الرعب من المشهد الذي كشفته حركتهم لأعيننا.

عند أسفل شجرة الأرز، كان هناك جسد رجل مسنّ ممدّد. كانت ذراعاه ممدودتين، وكانت الأصابع تقبض على العشب، ولحيته مرفوعة إلى الأعلى بزاوية مروّعة إلى درجة أن ملامحه كانت مخفية عن الأنظار. لمعت العظمة في حلقه الفاغر بينما الأرض التي حول رأسه كانت ملطخة بهالة قرمزية كبيرة. تقدم الطبيب على عجل.

صرخ بعصبية:

- هذه قضية مروعة يا سيد (شيرلوك هولمز). زوجتي سارعت إلى المحطة بمجرد أن تلقت البرقية التي أرسلتها. أنا متأكد من أنّها قد وصلت في الوقت المناسب لمقابلة الآنسة (فيريرز)؟

- شكراً لك، نعم. لكن للأسف، لم أستطع أنا الوصول إلى هنا في الوقت المناسب.

---

(1) قماش التويد هو قماش صوفي خشن.

(2) المقصود سوالف تكون رفيعة عند الصدغين وعريضة عند الفك الأسفل.

قال الشرطي بريبة:

- يبدو أنك توقعت المأساة يا سيدي.

- أجل، فعلت أيها الضابط. وهذا سبب وجودي هنا.

- حسناً، أود أن أعرف...

لمس (هولمز) ذراعه، وانتحى به جانباً، وقال بضع كلمات. عندما عادا وانضمّا إلينا، كان هناك أثر للراحة على وجه الرجل القلق. قال:

- سيكون الأمر كما تريد يا سيدي، ويمكنك الاعتماد على السيد (تونستون) ليكرر أقواله لك.

أدار الرجل، الذي يرتدي البدلة التويدية، وجهه الغائر الملامح، وعينيه الرماديتين الشاحبتين في اتجاهنا. قال بحدة:

- لا أفهم لماذا يجب عليّ أن أفعل ذلك. أنت من يمثّل القانون، أليس كذلك، أيها الضابط (كيبل)، وقد أخذت أقوالي. ليس لدي ما أضيفه. ستكون أكثر فائدة إن أرسلت تقريرك عن انتحار السيد (فيريرز).

قاطعه (هولمز) بحدة:

- انتحار؟

- أجل، وماذا غير ذلك؟ لقد كان مكتئباً منذ أسابيع، كما يمكن لجميع سكّان المنزل أن يشهدوا، وهو الآن قام بجزّ حلقه من الأذن إلى الأذن.

- همم.

هبط (هولمز) على ركبتيه بجانب الجثّة.

- وهذا هو السلاح بطبيعة الحال؛ مدية قابلة للطي ذات مقبض قرن. إيطالية، على ما أرى.

- كيف تعرف ذلك؟

- إنها تحمل علامة صانع نصل من ميلانو. لكن ما هذا؟ يا إلهي، يا له من شيء غريب.

نهض واقفاً، وفحص عن كثبٍ الشيء الذي التقطه من العشب. لقد كانت بندقية قصيرة السبطانة، مفصولة خلف الزناد مباشرة بوساطة مقبض قابل للطي؛ حيث يمكن طيّ السلاح بأكمله إلى جزءين.

قال الشرطي:

- كانت ملقاة بالقرب من رأسه. يبدو أنه كان يتوقع المتاعب، وأخذها معه للحماية.

هز (هولمز) رأسه. قال:

- لم يتمّ حشوها؛ لأنك ستلاحظ أنّ الشحم لم يُمسّ في المغلاق، لكن ماذا لدينا هنا؟ ربما، يا (واطسون)، يمكنك أن تعيرني قلمك الرصاص ومنديلك.

قال السيد (تونستون):

- إنها فقط الفتحة الموجودة في المقبض المخصّصة لقضيب التنظيف.

- أعرف هذا. تسك، هذا غريب جداً.

- ماذا إذاً؟ لقد أدخلت المنديل، وهو ملفوف على قلم الرصاص، في الفتحة، وقمت الآن بإخراجه. لا يوجد شيء على المنديل، ورغم ذلك تجد هذا غريباً. ما الذي كنت تتوقعه بحق الشيطان؟

- الغبار.

- الغبار؟

- بالضبط. لقد تمّ إخفاء شيء ما في الفتحة، وبسبب ذلك جدرانها نظيفة. عادةً يكون هناك دائماً غبار في فتحات أعقاب الأسلحة، لكنني سأكون سعيداً لسماع بعض الحقائق منك يا سيد (تونستون)؛ لأنني أفهم أنك كنت أوّل من دقّ جرس الإنذار. سيوفر ذلك الوقت إذا سمعتها من فمك بدلاً من قراءة أقوالك.

قال:

- حسناً، هناك القليل ليقال. قبل ساعة، خرجت لأشتم الهواء المنعش، ورأيت السيد (فيريرز) وهو واقف تحت هذه الشجرة. عندما ناديته، نظر حوله، وبعد ذلك، وهو يشيح بوجهه، بدا كأنه رفع يده إلى حلقه. رأيته وهو يترنّح ويسقط. عندما ركضت إليه، كان مستلقياً كما تراه الآن، وحلقه منفغر، والمدية على العشب بجانبه. لم يكن هناك شيء يمكنني فعله سوى إرسال خادم لإحضار الدكتور (نوردهام) وضابط الشرطة. هذا كلّ شيء.

- هذا منير جداً. كنت مع السيد (فيريرز) في صقلية، أليس كذلك؟

- أجل.

- حسناً، أيها السادة، لن أبقيكم أكثر من ذلك إذا كنتم ترغبون في العودة إلى المنزل. (واطسون)، ربما تكون مهتماً بالبقاء معي، وأنت أيضاً، أيها الضابط.

عندما اختفى الطبيب و(تونستون) عبر الحديقة، تحفّز (هولمز) للعمل. لفترة من الوقت، دار على يديه وركبتيه على العشب حول الرجل الميت، مثل كلب صيد ثعالب نحيل ومتلهّف يبحث عن رائحتها. بمجرد أن انحنى ونظر إلى الأرض عن كثب، بعدها وقف، وأخرج عدسته من جيبه بسرعة، وشرع في فحص جذع الأرزة. فجأة تصلّب، وعندما أومأ أسرعت أنا والشرطي إليه. أشار (هولمز) بإصبعه، وهو يسلم العدسة لضابط الشرطة. قال بهدوء:

- افحص حافة تلك العقدة. ماذا ترى؟

أجاب الضابط (كيبل)، وهو يحدّق من خلال العدسة:

- تبدو لي كشعرة، يا سيدي. لا، إنّها ليست شعرة؛ إنه خيط بنيّ.

- بالفعل. ربّما تفضلت بإزالته، ووضعه في هذا الظرف. الآن، ساعدني يا (واطسون).

تسلق (هولمز) نحو فرع الشجرة، وهو مستند على أغصان الشجرة، نظر حوله،

قهقه قائلاً:

- ها، ماذا لدينا هنا! كشطٌ حديث على الجذع، وآثارُ طين على الفرع، وخيط صغير آخر من مادة بنية خشنة يتشبّث باللحاء؛ حيث يمكن للرجل أن يُسند ظهره. إنّه كنز دفين. أنا على وشك القفز إلى

الأسفل، وأريد من كليكما أن تشاهدا المكان المحدد الذي سأهبط فيه. هكذا!

سار إلى الجانب.

- الآن، ماذا تريان؟

- فجوتان صغيرتان.

- بالضبط. آثار كعبيّ. انظروا على مسافة أوسع.

صرخ الشرطي:

- يا إلهي! هناك أربعٌ منها، وليس اثنتان! إنها متطابقة.

- باستثناء أنّ الأخريين ليستا بهذا العمق.

هتفت:

- كان الرجل أخفّ وزناً!

- برافو يا (واطسون). حسناً، أعتقد أننا رأينا كلّ ما نحتاج.

ثبّت الضابط عينيه على (هولمز) بنظرةٍ هي الأكثر جديّة، وقال:

- انظر يا سيدي. هذا يفوق قدرتي بكثير. ماذا يعني كلّ هذا؟

- من المحتمل أن يعني هذا أنّك ستحصل على رتبة رقيب أيّها الضابط (كيبل). والآن، دعونا ننضم إلى الآخرين.

عندما وصلنا إلى المنزل، أرشدنا الشرطي إلى غرفة طويلة، قليلة الأثاث، في سقفها صفّ متكرّر من الأضلاع المعقودة. الدكتور

(نوردهام)، الذي كان يكتب على طاولة في لوح زجاجي، رفع نظره عند دخولنا.

- حسناً يا سيد (هولمز)؟

قال صديقي:

- أنت تحضّر تقريرك، على ما أرى. هل لي أن أقترح عليك أن تولي اهتماماً خاصاً بأنّك لا تعطي انطباعاً خاطئاً؟

حدّق الدكتور (نوردهام) في (هولمز) بجمود، وقال:

- أنا لا أفهمك. ألا يمكنك أن تكون أكثر وضوحاً؟

- حسناً. ما آراؤك حول وفاة السيد (جوسوا فيريرز) من (أبوتستاندينغ)؟

- تسك يا سيدي، ليس هناك مجال لآراء. لدينا أدلة مرئية وطبية على أن (جوسوا فيريرز) قد انتحر عن طريق جزّ حلقه.

قال (هولمز): يا له من رجل رائع، هذا السيد (فيريرز)، الذي لا يكتفي بالانتحار عن طريق قطع حبل الوريد الوداجي، بل يجب أن يستمرّ في تمزيق بقية رقبته بمدية عادية قابلة للطي إلى أن، كما قال السيد (تونستون) هنا، قطع حلقه حرفياً من الأذن إلى الأذن. طالما شعرت بأنه في حال ارتكبت أنا جريمة قتل، فيجب أن أتجنّب الأخطاء التي من هذا النوع.

أعقبت كلمات صديقي لحظة صمت متوتر. بعدها نهض الدكتور (نوردهام) فجأةً ووقف، في حين أنّ (تونستون)، الذي كان متكئاً على

الحائط، وذراعاه مثنيتان على صدره، رفع عينيه إلى وجه (هولمز).

قال بهدوء:

- القتل كلمة قبيحة يا سيد (شيرلوك هولمز).

- وعمل قبيح. وإن لم يكن، فربما، لـ'مالا فيتا'.[1]

- ما هذا الهراء!

- تسك، كنت أعتمد على معرفتك بصقلية لملء أيّ تفاصيل صغيرة ربّما أغفلتها أنا. ورغم ذلك، نظراً إلى أنّك تنبذ اسم هذه المنظمة السرية الرهيبة باعتبارها هراءً، فمن المؤكد أنه ستثير اهتمامك معرفةُ بعض الحقائق.

- انتبه يا سيد (هولمز).

واصل صديقي كلامه:

- بالنسبة إليك، يا دكتور (نوردهام)، وإلى الضابط (كيبل)، يبدو أنّ هناك ثغرات في قصّتي الوجيزة، لكن لمّا كان يمكن ملؤها لاحقاً، فسأخاطبك أنت يا (واطسون)، كونك كنت حاضراً خلال سرد الآنسة (فيريرز).

- كان من الواضح، منذ البداية، أنّ والدها كان يختبئ من خطرٍ ذي طبيعة عديمة الشفقة إلى درجة أنه حتى في عمق هذا الريف المهجور كان خائفاً على حياته. كون أنّ الرجل جاء من صقلية، وهي جزيرة

(1) (MALA VITA): جزء من المافيا في صقلية جنوبي إيطاليا.

تشتهر بقوّة وانتقام منظماتها السرية، كان التفسير الأرجح أنّه إمّا أساء إلى منظمة من هذا النوع وإما أنّه عضوٌ انتهك قاعدة حيوية ما.

كونه لم يقم بأيّ محاولةٍ لاستدعاء الشرطة، كنت أميل إلى الافتراض الأخير، وأصبح هذا مؤكّداً مع الظهور الأول لملائكة الظلام.

ستذكر أنّهم كانوا تسعة من حيث العدد يا (واطسون)، وأنّ المطبوعة، المكتوبة بالكلمات «ستة وثلاثة»، تمّ تثبيتها بمسمارٍ على شجرة في الطريق المشجّر في 29 ديسمبر.

- تمّت الزيارة التالية في 11 فبراير، بالضبط ستة أسابيع وثلاثة أيام من 29 ديسمبر، لكن هذه المرة تمّ تثبيت الملائكة بالمسامير، وعددهم ستة، على الباب الأمامي.

- في 24 مارس، كان الظهور الثالث والأخير، بعد ستة أسابيع بالضبط من الظهور الثاني. كان نذير الموت المخيف، مرةً أخرى كانوا تسعة في عددهم، لكن الآن من دون كتابة، موضوعاً على طبق سيّد (أبوتستاندينغ) نفسه.

- عندما استمعت إلى صوت الآنسة (فيريرز)، وحسبت التواريخ بسرعة في ذهني، شعرت بالفزع عند اكتشافي أنّ التسعة الأخيرة من ملائكة الظلام، على افتراض أنّهم يمثلون الفترة الزمنية نفسها كالأوائل، قد جلبوا التاريخ 7 مايو. اليوم!

- علمت حينها أنّني قد تأخرت كثيراً. لكن، إن لم أتمكّن من إنقاذ والدها، فقد أتمكّن من أن أنتقم له، وبهذا الشيء، هاجمت المشكلة من زاوية مختلفة.

- كان الوجه الذي عند النافذة نمطياً، بطبيعة الحال، ربما لأكثر السمات همجية في انتقام المنظمّات السرية؛ الرغبة في إثارة الرعب ليس في نفس الضحية فحسب، بل في نفس عائلته أيضاً. لكنّ الرجل كان حريصاً على تغطية ملامح وجهه بيديه، على الرغم من حقيقة أنّه لم يكن ينظر إلى (جوسوا فيريرز)، بل إلى ابنته، ما يوحي لي بأنه كان يخشى معرفة الآنسة (فيريرز) له بقدر ما كان يخشى معرفة والدها له.

- بعدها، بدا لي أنّ الطريقة الباردة والمميتة لاستخدام المطبوعات القاتلة من الشجرة إلى الباب، ومن الباب إلى مائدة الإفطار، دلّت على معرفة حميمة بعادات (جوسوا فيريرز) المحدّدة، وربّما حقّ دخول المنزل من دون وجود أيّ اعتراض، ومن ثَمَّ وضع الورقة على الطاولة دون الحاجة إلى كسر النوافذ بالقوة والأقفال المكسورة.

- منذ البداية، ضربت بعض السمات المعينة في سرد الآنسة (فيريرز) الاستثنائي على وترٍ غامض في ذاكرتي، لكن لم يكن إلا عندما ذكرتَ ملاحظتك، يا (واطسون)، حول قدمٍ في القبر المفتوح، أن اندفع طوفان من الضوء فجأةً إلى عقلي.

عندما توقف (شيرلوك هولمز) للحظة ليخرج شيئاً ما من جيب ردائه. ألقيت نظرة على الآخرين. على الرغم من أنّ الغرفة القديمة كانت تتعمّق بسرعة في الغسق، إلا أن ضوءاً أحمر كئيباً من آخر أشعة الشمس يلمع من خلال النافذة أضاء تعابير الوجه المشدودة[1] للدكتور (نوردهام) والشرطي. وقف (تونستون) في الظلال، وذراعاه ما زالتا

---

(1) المقصودة المهتمة.

مثبتين على صدره، وعيناه الشاحبتان اللامعتان مثبتتين من دون تحرّك على (هولمز).

واصل صديقي كلامه:

- مقاطع معينة في هذا الكتاب، دليل هيكنثورن للمنظمّات السريّة، هي التي استعادتها ذاكرتي مع كلمات الدكتور (واطسون). هذا ما كان لدى المؤلف ليقوله عن منظمة سريّة معينة تمّ تقديمها لأوّل مرة في صقلية منذ نحو ثلاثة قرون. يقول في كتابه: «هذه المنظمة الهائلة -التي أطلق عليها على نحو مناسب اسم 'مالا فيتا'- تتواصل مع أعضائها من خلال مجموعة متنوعة من العلامات، بما في ذلك الملائكة والشياطين والأسد المجنح. المرشح للعضوية، إذا نجح في تجارب التأهيل التي غالباً ما تشمل القتل، يقسم على الولاء وإحدى قدميه في قبر مفتوح.

العقوبة على مخالفة قواعد المنظمة لا هوادة فيها، وحيث يكون الموت هو الثمن، يتمّ إعطاء ثلاثة تحذيرات منفصلة من اقتراب الموت، والثاني بعد ستة أسابيع وثلاثة أيام من الأول، والثالث ستة أسابيع بعد الثاني.

بعد التحذير الأخير، يُسمح بمرور ستة أسابيع وثلاثة أيام أخرى قبل سقوط الضربة. أيّ عضو يفشل في تنفيذ الأوامر العقابية للمنظمة يصبح هو نفسه عرضة للعقوبة نفسها». في ما يأتي قائمة بقواعد «مالا فيتا»، إلى جانب عقوبات انتهاكها.

وأضاف (هولمز) بجدّية وهو يغلق الكتاب:

- كون (جوسوا فيريرز) عضواً في هذه المنظّمة الرهيبة، فلا شك الآن؛ ما هي مخالفته، ربما لن نعرف أبداً، ورغم ذلك قد يخاطر المرء بتخمين ذكيٌّ للغاية. المادة 16 هي بالتأكيد من بين القواعد الأكثر استثنائية لدى «مالا فيتا»؛ لأنها تنصّ ببساطة على أنّ عقوبة أيّ عضو يكتشف هوية «السيد الأكبر» هي الموت. أودّ أن أذكّرك، يا (واطسون)، بأنّ (فيريرز) وضع تعليمات مشدّدة على ابنته بأنّ ردّها على جميع الاستفسارات يجب أن يكون أنها لا تعرف شيئاً عن شؤونه، وأن تضيف فقط أنّ اسم صانع السلاح كان في عقب البندقية. ليست البندقية، ليكن في علمك، بل المسدس، الذي يشير بوضوح إلى أنّ من المتوقع أن يتعرّف الشخص، الذي يتلقى الرسالة، على سلاح معيّن لا بدّ من أن الكلمات تشير إليه. يكفي أن نضيف أن البندقية الموجودة بجانب جثة (جوسوا فيريرز) فريدة من نوعها لأعضاء المنظّمات السرية الصقلية.

- عندما ذهب إلى موعد اللقاء، حمل (فيريرز) البندقية معه، ليس كسلاح، بل كعرض للسلام ذي قيمة فقط لما كان يحتوي عليه ملفوفاً في عقبها. مع أخذِ ما نعرفه الآن في الاعتبار، ليس لديّ أدنى شكّ في أنّها كانت ورقة أو وثيقة فيها اسم السيد الأكبر لـ«مالا فيتا»، التي، بمصادفة غير سعيدة، سقطت في يديه أثناء عضويته الصقليّة. تدميرها كان عديم الفائدة. لقد رأى الاسم وحكم عليه بالهلاك. ولكن، على الرغم من أنّ حياته قد خُسرت بالفعل، كان يتصرّف من أجل حياة ابنته. لا يمكن أن يكون لدى (فيريرز) أيّ فكرة عن الهوية الفعلية للقاتل الذي تمّ اختياره لهذه المهمّة بخلاف حقيقة أنّ المجهول يجب أن يكون بالضرورة عضواً زميلاً.

- مخبّأً في فرع الشجرة فوق مكان اللقاء المحدّد مسبقاً، كان القاتل ينتظر مثل فهد ينتظر شاة. وعندما توقف ضحيته تحته، سحب سكينه، وقفز على الأرض، وأمسكه من الخلف، وجزّ حلقه. عندما فتّش جثة (فيريرز) بحثاً عن الورقة، ووجدها في نهاية المطاف في عقب البندقية، اكتملت مهمّته البغيضة.

لكنّه نسي أنّه أثناء قيامه بها ترك آثار كمبيه على الأرض، وخيطين من معطفه التويديّ البني على لحاء الشجرة الخشن.

عندما توقف (شيرلوك هولمز) عن الكلام، هبط صمتٌ مثل صمت الموت على تلك الغرفة المظلمة. بعدها قام بمدّ ذراعه الطويلة والرفيعة، وأشار بصمت إلى هيئة (جيمس تونستون) المظللة.

قال بصوت هادئ:

- هناك يقف قاتل (جوسوا فيريرز).

تقدّم (تونستون) إلى الأمام، وعلى وجهه الشاحب ابتسامة.

قال بثبات:

- أنت مخطئ. جلّاد (جوسوا فيريرز).

للحظة، وقف أمامنا مقابلاً نظراتنا المرعبة بهدوءٍ مَن أتمّ الإيفاء بواجبه بجدارة. بعدها، مع خشخشةٍ من الأصفاد، قفز الشرطي على رجله المنشودة.

لم يقم (تونستون) بأيّ محاولة للمقاومة، ومع وجود يديه المصفّدتين أمامه، كان يرافق آسره إلى الباب عندما أوقفه صوت صديقي.

سأله قائلاً:

- ماذا فعلت بها؟

نظر إليه السجين بصمت.

تابع (هولمز):

- أنا أسأل، لأنّك إذا لم تقم بإتلافها فمن الأفضل أن أقوم بإتلافها بنفسي، وأن لا تُقرأ.

قال (جيمس تونستون):

- كن متأكداً من أنّ الورقة قد تمّ إتلافها بالفعل، وأنّ «مالا فيتا» تحافظ على أسرار «مالا فيتا». عند الفراق، فكّر في كلمة التحذير هذه بعناية، فأنت تعرف أكثر من اللازم. رغم أنّ حياتك قد تكون حياة مشرّفة، يا سيد (شيرلوك هولمز)، إلا أنّ من غير المرجح أن تكون طويلة.

بعدها، بابتسامة باردة في عينيه الرماديتين، خرج من الغرفة.

مرّت ساعة بعد ذلك، وكان البدر يشرق عندما أدرنا أنا وصديقي، بعد افتراقنا عن الدكتور (نوردهام)، ظهورنا إلى (أبوتستاندينغ)، الذي أصبح الآن كئيباً وأسود تحت سماء الليل، وانطلقنا سيراً على الأقدام نحو قرية (بوليو)؛ حيث خططنا للإقامة في النزل، واستقلال القطار الصباحي عائدين إلى المدينة.

سوف أتذكر وقتاً طويلاً ذلكَ المسيرَ الرائع لمسافة خمسة أميال على طول طريق مرقط بنيران بيضاء، والظل الأكثر عمقاً؛ حيث

التفت الأشجار الضخمة فوق رؤوسنا، وأطل علينا غزال الغابة من بين مجموعات من السرخس المتلألئ.

مشى (هولمز) وذقنه على صدره، ولم يكسر صمته إلا بعد نزولنا على التل فوق القرية. لقد قال القليل حينها، لكن لسببٍ ما بقيت كلماته في عقلي.

قال:

- أنت تعرفني جيداً يا (واطسون)، لتبرّئني من كلّ المشاعر الزائفة، عندما أعترف بأنّ هناك دافعاً في داخلي الليلة للسير بعضَ الوقت في أروقة (دير بوليو) الخربة. لقد كان مسكناً للرجال الذين عاشوا وماتوا بسلام مع أنفسهم ومع بعضهم البعض. لقد رأينا الكثير من الشر في زمننا، ليس أقلّه إساءة استخدام الصفات النبيلة مثل الولاء والشجاعة والتصميم لأغراض منحطّة في حدّ ذاتها. لكن كلما تقدّمت في السنّ، زاد إجباري على تحمّل هذا؛ حيث إنه، مثلما هذه التلال والغابات المضاءة بضوء القمر قد عاشت أكثر من الآثار الموجودة الآن أمامنا، كذلك يجب أن تصمد فضائلنا التي نشأت من الله أمام رذائلنا، مثل ملائكة الظلام، ينبعون من الإنسان. بالتأكيد، (واطسون)، هذا هو الوعد الأقصى.

أنا منشغل بقضية (فيريرز) هذه.

من «مدرسة الرهبان»

10
مغامرة المرأتين

أرى من دفتر ملاحظاتي أنّ انتباهي، في وقتٍ متأخرٍ في سبتمبر 1886، قبل وقت قصير من مغادرتي إلى (دارتمور) مع السير (هنري باسكرفيل)، قد لُفِتَ لأول مرة إلى تلك القضية الغريبة، التي أطلق عليها اسم «قضية الابتزاز» حينها، والتي هدّدت بتورّط أحد أكثر الأسماء احتراماً في إنجلترا.

حتى في هذا التاريخ المتأخر، حثّني (شيرلوك هولمز) على عدم ادّخار أيّ جهدٍ لإخفاء الهوية الحقيقية للشخص المعنيّ، وفي سردي للأحداث، سأبذل قصارى جهدي بالتأكيد لكي ألبّي رغباته في هذا الصدد.

بالفعل، أنا حسّاس بقدر ما هو حسّاس تجاه حقيقة أنّه، بسبب القضايا العديدة التي كنّا معنيين بها على مرّ السنين، كنّا، بشكلٍ لا يمكن تجاوزه، من أُودِعَت لديهم العديد من الأسرار والأمانات الغريبة

التي، في حال أصبحت معروفة للعالم، لا يمكن إلا أن تثير الفضيحة والدهشة.

لذلك، إن شرفنا مرتبط بقوّة، وسأحرص بشدة على أن لا تُوجّهَ أيٌّ كلمةٍ، غير مقصودة من جهتي، إصبعَ الاتهام إلى أيٍّ من هؤلاء الرجال والنساء، سواء أكانوا ممن يعيشون الحياة المترفة أم الوضيعة، الذين تكلّموا معنا عن مشاكلهم في مسكننا المتواضع في شارع بيكر.

أذكر أنه في صباح أواخر شهر سبتمبر تعرفت، لأول مرة، على المغامرة التي هي موضوع هذه الرواية.

كان يوماً رمادياً ومحبطاً مع وجود أثر للضباب المبكر في الجو، وبعد استدعائي لرؤية مريضٍ في (سيتون بليس)، كنت أسير عائداً إلى مسكننا عندما أدركت وجود طفل صغير في الشارع كان يلاحقني خلسة.

عندما كان يقترب منّي، تعرّفت على الصبي بوصفه واحداً من الصبية الذين لا يوجدون عادةً في شارع بيكر، كما وصف (هولمز) مجموعة الأولاد الصغار القذرين الذين وظّفهم في أحيانٍ غريبة ليكونوا بمنزلة عينيه وأذنيه وسط المناطق المحيطة بشوارع لندن.

قلت:

- مرحباً يا (بيلي).

لم يردّ الفتى بأيّ علامة تدلّ على معرفته بي.

قال مطالباً:

- هل لديك عود ثقاب يا سيدي؟

وهو يعرض سيجارة طرفها مهترئ. أعطيته علبة، وعندما أعادها إلي، رفع عينيه لحظةً إلى وجهي.

همس بسرعة:

- بحقّ الله يا دكتور، قل للسيد (هولمز) أن ينتبه من «الخادم (بويس)».

بعدها، وبإيماءة فظّة، مضى متسكّعاً في طريقه.

لم أكن مستاءً من أن أكون أنا من يحمل هذه الرسالة المبهمة إلى صديقي؛ لأنه كان واضحاً لي، لعدّة أيام ماضية، من مزاج النشاط والانهماك المتقلّب لديه واستهلاكه الباعث على الأسى للتبغ، أنّ (هولمز) كان مشغولاً بقضيّة ما. لكن على عكس عادته، لم يدعُني لمشاركة أسراره، ويجب أن أعترف بأنّ اندفاعي المفاجئ في هذه القضية، بغضّ النظر عن رغبات (هولمز)، تسبّب لي في رضا ليس بقليل.

عندما دخلت غرفة جلوسنا، وجدته مستلقياً على كرسيّه ذي الذراعين أمام المدفأة، وكان لا يزال يرتدي روبه الأرجواني، وعيناه الرماديتان ذاتَي الجفنين الثقيلين تحدّقان في السقف من خلال سحابة من دخان التبغ، بينما كانت ذراعه الرفيعة تتدلى من بين أطراف أصابعها رسالة، وهي معلقة على جانب كرسيه. لاحظتُ مظروفاً على الأرض ممهوراً بتاج بسيط.

قال بشكل ينمّ عن الانزعاج:

- آه، (واطسون). لقد عدتَ في وقت أبكر مما كنت أتوقع.

أجبته وقد اغتظت قليلاً من نبرته:

- ربّما هذا أفضل لك يا (هولمز).

وشرعت في إيصال الرسالة التي أُوكِلت إليّ. رفع (هولمز) حاجبيه. قال:

- هذا هو الأكثر غرابة. ما علاقة الخادم (بويس) بهذا الأمر؟

قلت معلّقاً:

- لمّا كنت لا أعرف شيئاً عن ذلك، فأنا أكاد أكون في وضعٍ يسمح لي بالإجابة عن سؤالك.

أجاب بضحكة خفيفة:

- يا للهول، هذه لمسة مميزة، يا (واطسون)! إن لم أكن قد ائتمنتك على السر، يا صديقي العزيز، فهذا لم يكن بسبب عدم ثقتي بك، بل القضية ذات طبيعة حساسة للغاية، وفضّلت أن أتحسّس طريقي قليلاً قبل طلب مساعدتك التي لا تُقدّر بثمن.

قلت بدفء:

- ليس عليك أن تشرح أكثر.

- تسك يا (واطسون). لقد وصلت إلى طريق مسدود تماماً. من المحتمل أن يثبت هذا إحدى تلك الحالات التي قد يتجاوز فيها العقل النشط، بينما يكون متأمّلاً فحسب، العملَ إلى حدٍّ كبير على ما هو واضح...

سرح في صمت كئيب لحظةً. بعدها قفز واقفاً، ومشى نحو النافذة. صرخ قائلاً:

- أواجه واحدةً من أخطر حالات الابتزاز في كلّ خبرتي. أعتبر أنّك تعرف اسم دوق (كارينغفورد)؟

- تقصد وكيل وزارة الخارجية الراحل؟

- بالضبط.

قلت ملاحظاً:

- لكنّه مات منذ نحو ثلاث سنوات.

أجاب (هولمز) بانزعاج:

- لا شكّ في أنك ستُفاجأ عندما تعلم، يا (واطسون)، أنني أعرف هذه المعلومة. لكن للاستمرار. بعد أيام قليلة تلقيت رسالة من الدوقة، أرملته، مصاغةً بعبارات ملحّة إلى درجة أنني اضطررت إلى الامتثال لطلبها بزيارتها في منزلها في (بورتلاند بليس). لقد وجدتها امرأة تتمتع بذكاء أكثر من عادي، وما يمكن أن تسميه جمالاً، لكنها كانت مرتبكة من المصيبة المخيفة، التي هاجمتها حرفياً بين عشية وضحاها، وأصبحت تهددها الآن بالدمار الاجتماعي والمالي الكامل لها ولابنتها. ومفارقة الوضع أشدّ فظاعة؛ لأن تدميرها يأتي من خطأ ليس خطأها.

قاطعته وأنا آخذ الصحيفة من على الأريكة:

- لحظة واحدة، هناك إشارة إلى الدوقة في عدد اليوم من صحيفة «تلغراف»، تعلن خطوبة ابنتها، الليدي (ماري غلادسديل) للسير (جيمس فورتيسك)، الوزير في الحكومة.

- هذا صحيح تماماً. هناك تكمن النقطة المخففة بشكل جميل في هذه الكارثة الوشيكة.

أخرج (هولمز) ورقتين مثبتتين معاً من جيب روبه ورماهما إلي. قال:

- ما رأيك فيهما يا (واطسون)؟

قلت وأنا أنظر إلى الوثائق:

- إحداها نسخة من شهادة زواج بين (هنري كوروين غلادسديل) الأعزب، و(فرانسواز بيليتا) العانس، بتاريخ 12 يونيو 1848، صادرة في (فالانس) في فرنسا، ويبدو أن الأخرى هي تسجيل الزواج نفسه في سجلّ كنيسة (فالنسيا). من كان هذا (هنري غلادسديل)؟

قال (هولمز) بتجهّم:

- هو من أصبح دوق (كارينغفورد) بعد وفاة عمه عام 1854، وبعد خمس سنوات تزوّج السيدة (كونستانس إلينغتون)، دوقة (كارينغفورد) الحالية.

- إذاً، لقد كان أرمل.

فوجئتُ عندما ضرب (هولمز) راحة يده بقبضته بعنف. صرخ قائلاً:

- وهنا تكمن الوحشية الشيطانية لهذه المسألة يا (واطسون)، نحن لا نعلم! في الواقع، تمّ إخبار الدوقة الآن للمرة الأولى بهذا الزواج السري، الذي تمّ في شباب زوجها عندما كان يقيم في القارة[1]، وقد أبلغت بأنّ زوجته الأولى على قيد الحياة، ومستعدة، إذا لزم الأمر، للتقدّم للشهادة، وأنّ زواجها هو تعدّد زوجات[2]، وأن وضعها غير شرعي، وأنّ وضع طفلتها غير شرعي.

- ماذا، بعد ثمانية وثلاثين عاماً! هذا فظيع يا (هولمز)!

- أضف إلى ذلك يا (واطسون) أن الجهل ليس براءة في نظر المجتمع أو القانون، في ما يتعلق بمرور الوقت، يُزعَم أنّ الزوجة الفرنسية، بعد اختفاء زوجها المفاجئ، لم تربط السيد (هنري غلادسديل) بدوق (كارينغفورد). ورغم ذلك، من غير المرجح أن أعمل في قضية من هذا النوع لولا معرفة عنصر أكثر شراً.

- لقد لاحظت أنّك، عندما تحدثت عن تقدّم الزوجة الأولى للشهادة، استخدمتَ مصطلح «إذا لزم الأمر»؛ لذلك هو ابتزاز، ولا ريب في أن الهدف منه الحصول على مبلغ كبير من المال.

- إننا نتحرك في المياه العميقة يا (واطسون). لم يُطلب أيّ مال. ثمنُ الصمتِ يكمن في تسليم الدوقة نسخاً معينةً من أوراق الدولة الموضوعة الآن في صندوق مغلق في غرفة محصّنة في بنك لويدز في شارع أكسفورد.



(1) أي البر الرئيس للقارة الأوروبية.

(2) أي إنها ضرّة.

- هذا غير معقول يا (هولمز)!

- ليس غير معقول إلى هذه الدرجة. تذكّر أن الدوق الراحل كان وكيل وزارة الخارجية، وأنه ليس غريباً على خادمي التاج العظماء الاحتفاظ بنسخ من الأوراق والمذكرات عندما يتمّ إيداع النسخ الأصية نفسها بأمان في عهدة الدولة.

هناك العديد من الأسباب، التي تجعل رجلاً في منصب دوق يحتفظ بنسخ من وثائق معينة، والتي، بالرغم من أنّها بريئة تماماً في ذلك الوقت، قد تصبح في ظلّ الظروف المتغيرة في السنوات اللاحقة مسائل بالغة الخطورة إذا رأتها حكومة أجنبية، وربما غير صديقة.

تواجه هذه السيدة التعيسة خيار ارتكاب فعل خيانة لبلدها ثمناً لشهادة الزواج هذه، أو كشف علني يتبعه تخريب أحد أكثر الأسماء احتراماً في إنجلترا، وتدمير امرأتين بريئتين، إحداهما في عشية يوم زفافها. ومن دون سبب محدد، يا (واطسون)، أنا عاجز عن مساعدتهما.

- هل شاهدت النسخ الأصلية لوثائق (فالانس) هذه؟

- لقد رأتهم الدوقة، ويبدو أنها حقيقية تماماً، ولا يمكنها أن تشكّ في توقيع زوجها.

- قد تكون مزوّرة.

- صحيح، لكنّني تأكدت بالفعل من (فالانس) أنه كانت هناك امرأة بهذا الاسم تعيش هناك في عام 1848، وأنها قد تزوجت من رجل إنجليزي، وانتقلت لاحقاً إلى منطقة أخرى.

اعترضت قائلاً:

- لكن من المؤكد يا (هولمز) أن امرأة فرنسية قروية، إذا دفعها هجر زوجها إلى الابتزاز، فستطالب بالمال. ما الفائدة التي يمكن أن تحصل عليها من نسخ من أوراق الدولة؟

- آه! هنا وضعت إصبعك على هذا، يا (واطسون)، وهذا سبب وجودي في هذه القضية. هل سمعت من قبل عن (إديث فون لامرين)؟

- لا أستطيع أن أتذكر هذا الاسم.

تابع بتأمل:

- إنها امرأة غير عادية. كان والدها ضابط صفٍّ نوعاً ما في أسطول البحر الأسود الروسي، وكانت والدتها تدير حانة في (أوديسا). عندما أصبحت في العشرين من عمرها، كانت قد هربت من منزلها، وأسّست نفسها في (بودابست)؛ حيث اكتسبت سمعة سيئة بين عشية وضحاها كمسبّبة لمبارزة بالسيوف، قُتل فيها كلا المتبارزين.

لاحقاً، تزوجت من البروسي (يونكر) المسنّ الذي، بعد أن أخذ عروسه إلى ملكيّته التي في الريف، فجأة مات بشكل ملائم بعد ثلاثة أشهر من تناول كميّة كبيرة من يمام السلحفاة المحشوّ بالكستناء[1]. لا بد من أنها كانت مثيرة للاهتمام، تلك الكستناء!

واستطرد قائلاً:

- ستصدقني عندما أقول إنه خلال العام الماضي أو نحو ذلك، ستُعدُّ أكثر المهمات براعة في 'الموسم'، سواء في لندن أم باريس أو

(1) نوع من المكسرات يشتهر باسم «أبو فروة».

برلين، لم تكن لتُعدَّ مكتملة من دون وجودها. إن كانت هناك امرأة على الإطلاق صنعتها الطبيعة للمهنة التي اختارتها، فستكون تلك المرأة هي (إيديث فون لامرين).

- هل تقصد أنها جاسوسة؟

- تسك، هي تفوق الجاسوسة بقدر ما أفوق أنا محقّق الشرطة العادي. أود أن أقول إنني منذ فترة طويلة أشتبه في أنّها تتحرك في أعلى دوائر المؤامرات السياسية. هذه، إذاً، هي المرأة الذكية التي بقدر ما هي طموحة ومن دون رحمة، مسلحة بأوراق هذا الزواج السري، والتي تهدد الآن بتدمير دوقة (كارينغفورد) وابنتها ما لم توافق على ارتكاب فعل الخيانة، فستكون نتائج ذلك لا تحصى من حيث الأضرار التي ستلحقها بإنجلترا.

توقف (هولمز) ليفرغ غليونه في أقرب فنجان شاي.

- وأنا هنا أيضاً عديم الفائدة، يا (واطسون)، عديم الفائدة وعاجز عن حماية امرأة بريئة لجأت إليّ في محنتها من أجل أن أوفر لها التوجيه والحماية.

ختم كلامه بعنف.

قلت:

- إنه بالفعل عمل شائن، لكن إذا كانت رسالة (بيلي) تشير إليه، فعندئذٍ يكون هناك خادم مشارك.

أجاب (هولمز)، وهو يحدق بتمعّن في سيل من العربات والعربات ذات العجلتين التي كانت تمر أسفل النافذة:

- حسناً، أعترف بأنني في حيرةٍ شديدة من أمر هذه الرسالة. مصادفة. السيد المعروف باسم «الخادم (بويس)» ليس خادماً يا عزيزي (واطسون)، على الرغم من أنّه أخذ لقبه، على ما أعتقد، من الظروف التي بدأ فيها حياته المهنية خادماً.

هو في الواقع زعيم ثاني أخطر عصابة من المجرمين، الذين يهاجمون الناس بالسكاكين، ومراقبي مراهنات السباقات في لندن. أشك في أن نيته حسنة تجاهي؛ لأن الفضل كان يرجع، إلى حدٍّ كبير، إلى جهودي في حصوله على عامين في السجن في قضية إعطاء الخيول المنشطات في روكمورتون تلك.

لكنّ الابتزاز خارج عن نطاقه، ولا أستطيع أن أرى...

انقطع (هولمز) عن الكلام بحدّة، ورفع رقبته لينظر إلى الشارع، وهتف قائلاً:

- يا إلهي، إنّه الرجل نفسه! وهو قادم إلى هنا ما لم أكن مخطئاً.

أضاف مع ضحكة خافتة، وهو يعبر الغرفة إلى المدفأة، ويلقي نفسه في كرسيه:

- ربما يكون من الأفضل يا (واطسون) أن تخفي نفسك خلف باب غرفة النوم. (بويس) 'الخادم' ليس من بين أولئك الذين يشجّع حضورُ شاهدٍ بلاغتَهم في المحادثة.

صدر صوت صلصلة الجرس قادماً من الأسفل، وعندما تسلّلتُ إلى غرفة النوم، سمعت صوت طرطقة خطوات ثقيلة على السلالم تبعتها طرقة على الباب، ودعوة (هولمز) إياه ليدخل.

من خلال شق الباب، لمحت رجلاً قويّ البنية ذا وجه أحمر لطيف المظهر وسوالف كثيفة. كان يرتدي معطفاً من قماش عليه نمط من المربعات، ولديه قبعة رامٍ مستديرة بنية اللون، وقفازات، وعصا ملقا ثقيلة.

كنت أتوقع نوعاً مختلفاً تماماً من هذا الشخص العامي والمريح الذي كان مظهره أكثر انسجاماً مع فلاح من الريف، إلى أن تمكّنت، بينما كان يحدق في (هولمز) من عند عتبة باب غرفة جلوسنا، من رؤية عينيه جيداً. كانتا مستديرتين مثل خرزتين متلألئتين، وكانتا لامعتين وقاسيتين جداً، مع ذلك الإيحاء المخيف بالسكون الذي ينتمي إلى عيون الزواحف السامة.

- يجب أن نتحدّث يا سيد (هولمز).

قالها بصوت حادٍّ بشكل غريب يختلف مع ذلك الجسد البدين.

- حقاً، يجب أن نتحدّث. هل يمكنني الجلوس؟

جاء الرد الصارم من صديقي:

- أفضّل أن يقف كلانا.

أدار الرجل وجهه الأحمر الضخم ببطء في أنحاء الغرفة.

- حسناً حسناً. أنت متدفّئ جداً هنا، مرتاح ومتدفّئ جداً، ولا ينقصك أيّ شيء، أنا متأكد من ذلك، من طريقة الطهي المنزلي من قبل تلك المرأة المحترمة التي فتحت لي الباب. لماذا تحرمها من مستأجر جيد، يا سيد (شيرلوك هولمز)؟

- أنا لا أفكر في تغيير عنواني.

- آه، لكن هناك آخرين قد يفكرون في ذلك من أجلك. أنا أقول: «دعه وشأنه»، يقول الآخرون: «السيد هولمز رجل جميل المظهر، ربما، لو لم يكن أنفه طويلاً جداً بالنسبة إلى بقية ملامحه؛ حيث يبقى يحشر نفسه إلى الأبد في الشؤون التي لا تخصّه».

- أنت تثير اهتمامي بشدة. بالمناسبة، يا (بويس)، لا بد من أنك تلقيت أوامر ملحة جعلتك تحضر من برايتون فجأة.

تلاشت الابتسامة البريئة من على وجه هذا الهمجي. صرخ قائلاً:

- كيف تعرف بحق الشيطان من أين أتيت!

- تسك، يا رجل، برنامج سباقات 'كأس الجنوب' لليوم بارز من جيبك. ورغم ذلك، كوني شديد التدقيق بعض الشيء في اختياري الصحبة، رجاءً تفضل وادخل في الموضوع، وأنهِ هذه المقابلة.

انقبضت شفتا (بويس) فجأةً بشكل يشبه ابتسامة كلب حادّ المزاج.

قال مزمجراً:

- سأنهي ما هو أكثر من ذلك، أيها الحشري الفضولي الذي يتدخل في ما لا يعنيه، إذا قمت باستخدام المزيد من حيلك الوضيعة...

واختتم بهدوء:

- ابقَ بعيداً عن شؤون السيدة وإلا...

توقف بشكل ملحوظ، وعيناه الصغيرتان الخرزيّتان مثبتتان من دون حركة على وجه صديقي...

- وإلا فستندم على أنك وُلدت أصلاً يا سيد (شيرلوك هولمز).

ضحك (هولمز) وفرك يديه.

قال:

- هذا حقاً مرضٍ للغاية. إذاً أنت قادم من عند مدام (فون لامرين)؟

صرخ (بويس):

- يا إلهي، يا له من استهتار!

تسللت يده اليسرى خلسةً إلى عصا ملقا.

- كنت آملُ أنك ستأخذ التحذير على محمل الجد، لكن بدلاً من ذلك تستخدم أسماء الآخرين من دون حسبان؛ لذا...

في لحظةٍ نزع بسرعة جسم العصا الأجوف، مبقياً في يده الأخرى المقبض، وموسى حلاقة طويلاً وخبيثاً كان متصلاً به.

- ... لذا، يا سيد (شيرلوك هولمز)، يجب أن أفعل ما قلت إنّني سأفعله.

قال (هولمز):

- والذي أنا متأكد يا (واطسون) أنك أوليته الاهتمام الذي يستحقّه.

أجبته بصوت عالٍ:

- بالتأكيد!

فوجئ (بويس) 'الخادم' وبعدها، عندما خرجت من غرفة النوم مسلحاً بشمعدان نحاسي ثقيل، اندفع مسرعاً نحو باب غرفة الجلوس.

على العتبة، التفت نحونا لحظةً. كانت عيناه الصغيرتان تشتعلان بخبثٍ في وجهه القرمزي الضخم بينما تدفق من فمه طوفان من الإهانات القذرة.

قاطعه (هولمز) بصرامة:

- هذا يكفي! بالمناسبة، يا (بويس)، لقد تساءلت أكثر من مرة كيف قتلت (مادجيرن) المدرّب. لم يُعثر على موسى حلاقة حينها. الآن، أصبحت أعرف.

تلاشى الاحمرار ببطء من ملامح وجه الرجل، تاركاً إياه بلون المعجون المتّسخ.

- يا إلهي يا سيد (هولمز)، أنت بالتأكيد لا تظنّ أنّ... هي فقط نكتة صغيرة، يا سيدي، بين أصدقاء قدامى...!

بعدها اندفع مسرعاً عبر الباب، وأغلقه بقوّة خلفه، وأكمل طريقه وهو يطرطق على السلالم بجنون.

ضحك صديقي بقوّة. قال:

- حسناً، حسناً. من غير المحتمل أن يضايقنا السيد (بويس) 'الخادم' أكثر، ورغم ذلك، إن زيارة هذا الرجل قد أعطتني منعطفاً جيداً.

- كيف ذلك؟

- إنه أول شعاع من الضوء يدخل الظلمة التي أنا فيها يا (واطسون). ما الذي يخشونه من تحقيقاتي ما لم يكن هناك شيءٌ يمكن اكتشافه؟

لكن أحضر قبعتك ومعطفك؛ سنزور معاً دوقة (كارينغفورد) التعيسة هذه.

كانت زيارتنا قصيرة، ورغم ذلك سأتذكر لوقت طويل ذكرى تلك المرأة الشجاعة والجميلة التي، من دون خطأ ارتكبته، كانت تقف الآن وجهاً لوجه مع مصيبة كانت أفظع من أن يدبّرها القدر.

أرملة رجل دولة عظيم، حاملة اسمٍ له احترامه في جميع أنحاء البلاد، أمّ لفتاةٍ شابة ورائعة في عشيّة يومِ زفافها إلى رجل ذي شخصية عامة، وبعدها، بين عشيّة وضحاها، يأتي هذا الاكتشاف المروّع لسرٍّ لا بُدّ من أن يُدمّر نشره، بشكل لا رجعة فيه، نسيجَ حياتها ووجودها. كان هذا كافياً لتبرير التطرّف في المشاعر الإنسانية.

بدلاً من ذلك، عندما دخلتُ أنا وصديقي إلى غرفة الجلوس في منزل (كارينغفورد) في (بورتلاند بليس)، كانت السيّدة التي نهضت لمقابلتنا تتميّز برشاقة أسلوبها وجمال بشرتها وملامحها الرقيقة والهادئة. كان يمكن للمرء فقط، من البقع الداكنة التي تحت جفونها، والبريق اللامع بشكلٍ زائد في عينيها ذاتَي اللون العسلي المختلط بالأخضر، أن يشعر بالتوتر المخيف الذي كان ينهش قلبها.

قالت بهدوء كبير:

- هل لديك أخبار لي يا سيّد (هولمز)؟

لكنني لاحظتُ أنّ إحدى يديها الطويلتين النحيفتين طارت إلى صدرها.

- الحقيقة لا يمكن أن تكون أسوأ من هذا الترقّب، لذا أتوسّل إليكما أن تكونا صريحين معي.

انحنى (هولمز) احتراماً. قال بلطف:

- ليس لديّ أخبار حتى الآن، يا صاحبة السمو. أنا هنا لأطرح عليك سؤالاً واحداً، ولأطلب طلباً واحداً.

جلست الدوقة على كرسي، وهي تحمل مروحة، وثبّتت عينيها اللامعتين المحمومتين على وجه صديقي.

- وما هما؟

قال (هولمز):

- السؤال هو سؤال يمكن أن يُغفَر إذا صدرَ من شخص غريب في حال كان فقط تحت ضغط الظروف الحالية. لقد كنتِ متزوّجةً مدةَ ثلاثين عاماً من الدوق الراحل. هل كان رجلاً ذا سلوك مشرّف من حيث إحساسه بالمسؤولية الشخصية المتميّزة من ميزانه الأخلاقي؟ سأطلب من سموّك أن تكوني صريحة معي في ردّك.

- سيد (هولمز)، خلال سنوات زواجنا، كانت تحدث بيننا شجارات وخلافات، لكنّني لم أعرف عن زوجي أبداً أنّه قد يتخلّى عن قواعده ليقوم بفعل حقير أو يخفض المستوى الذي وضعه لنفسه في الحياة. لم تكن حياته المهنية في السياسة أكثر سهولة من خلال إحساسه بالشرف الذي لا ينحدر إلى حيل التسوية. كان رجلاً شخصيّته أنبل من منصبه.

أجاب (هولمز):

- لقد أخبرتِني بكلّ ما كنتُ أرغب في معرفته. رغم أنني لا أنغمس في مشاعر القلب، فأنا لست من بين أولئك الذين يرَون أنّ الحب يجعل الأمر أعمى. ومع عقل لديه أيّ نوع من الذكاء، يجب أن يكون التأثير عكس ذلك تماماً؛ لأنه يجب أن يعزّز المعرفة الأكثر فائدةً لشخصيّة الآخر. يا صاحبة السمو، نحن نواجه الضرورة وجهاً لوجه، والوقت ليس في مصلحتنا.

انحنى (هولمز) إلى الأمام بجدية.

- يجب أن أرى الوثائق الأصليّة لهذا الزواج المزعوم في «فالانس».

صرخت الدوقة قائلة:

- هذا ميؤوسٌ منه يا سيد (هولمز)! هذه المرأة المروّعة لن تسمح لتلك الوثائق بالإفلات من يديها أبداً، إلا بالثمن الشائن الذي حدّدته.

- إذاً، يجب علينا استدعاء الدهاء لمساعدتنا. يجب أن ترسلي إليها رسالة مُصاغةً بعناية، الآن، تنقل إليها انطباعاً بأنّك ستدفعين للامتثال لمطالبها بمجرّد اقتناعك بأنّ وثائق الزواج أصليّة بالفعل. اطلبي منها أن تستقبلك على انفراد في منزلها في ميدان (سانت جيمس) الليلة في الساعة الحادية عشرة. هل ستفعلين هذا؟

- سأفعل أيّ شيء، إلا ما تطلبه هي.

- جيّد! إذاً، هناك نقطة أخيرة. من الضروري أن تجدي ذريعةً ما عند الساعة الحادية عشرة وعشرين دقيقة بالضبط لإخراجها من المكتبة التي تحتوي على الخزنة التي تحتفظ فيها بهذه الوثائق.

- لكنّها ستأخذهم معها.

- هذا ليس ذا أهمية.

- كيف يمكنك التأكّد من أنّ الخزنة في المكتبة؟

- لديّ مخطط للمنزل، وذلك بفضل خدمةٍ صغيرة تمّ تقديمها ذات مرة إلى الشركة التي قامت بتأجير العقار لمدام (فون لامرين)، وعلاوة على ذلك، لقد رأيته.

- لقد رأيته!

- تمّ كسر نافذة بشكلٍ غامض صباح أمس...

ابتسم (هولمز)...

- وقام الوكلاء على الفور بإحضار مُركّب زجاج. لقد خطر لي أنّه قد تكون هناك فوائد.

انحنت الدوقة إلى الأمام، ويدها إلى صدرها الذي يرتفع ويهبط. سألته بحدّة تقريباً:

- ما الذي تقترح فعله؟

أجاب (هولمز) وهو يقف:

- هذا سؤال يجب أن أستخدم تقديري فيه، يا صاحبة السمو. إذا فشلتُ، فسأفعل ذلك لخدمة قضيّة عادلة.

كنا نهم بالوداع عندما وضعت الدوقة يدها على ذراع صديقي.

سألته:

- إذا تفحصت تلك الوثائق الرهيبة، وأقنعت نفسك بأنّها أصلية، فهل ستأخذها؟

كان هناك شيء من القلق في سلوك (هولمز) الحازم وهو ينظر إليها. قال بهدوء:

- لا.

صرخت قائلة:

- أنت محقّ! لم أكن لآخذها. هناك خطأ شنيع يجب تصحيحه، مهما كلّفني ذلك. فقط عندما أفكّر في ابنتي، تفارق الشجاعة قلبي.

قال (هولمز) بلطفٍ شديد:

- لأنني أعرف تلك الشجاعة، أحذّرك بأن تستعدّي للأسوأ.

خلال الفترة المتبقية من ذلك اليوم، كان صديقي في مزاجه الأكثر اضطراباً. كان يدخّن بلا انقطاع إلى أن أصبح جوّ غرفة جلوسنا يكاد يُطاق، وبعد أن استنفد كلّ الصحف اليومية، رمى الكثير منها في دلو الفحم، وأخذ يسير جيئة وذهاباً ويداه خلف ظهره، ووجهه النحيف المتلهف مدفوع أمامه. بعدها جاء إلى المدفأة، وهو يسند مرفقه على رفّ الموقد. نظر إلى الأسفل إليّ بينما كنت أنا مسترخياً على كرسيي.

سأل:

- هل ترغب في ارتكاب خرقٍ خطير للقانون يا (واطسون)؟

- بالتأكيد يا (هولمز)، من أجل قضيّة مشرّفة.

صرخ قائلاً:

- هذا ليس عدلاً بحقك يا صديقي العزيز؛ لأنّ الأمر سيكون صعباً علينا إذا تمّ القبض علينا في بيت تلك المرأة.

اعترضتُ قائلاً:

- ولكن ما الفائدة؟ لا يمكننا إخفاء الحقيقة.

- بشكلٍ لا يمكن انكاره. إذا كانت هذه هي الحقيقة. يجب أن أرى تلك الوثائق الأصلية.

قلت ملاحظاً:

- إذاً، يبدو أنّه ليس هنالك بديل.

قال، وهو يدفع أصابعه في النعال الفارسي، ويخرج حفنة من التبغ الأسود الذي شرع في حشوه بشكل غير مرتب في غليونه:

- لا يمكنني رؤية بديل. حسناً يا (واطسون)، الإقامة الطويلة في السجن ستمكّنني على الأقل من استدراك ما فاتني من دراساتي لسموم النباتات الشرقية في مجرى الدم العضوي، ومن إطلاعك على نظريات التلقيح هذه التي وضعها (لويس باستور).

وهناك أنهينا حديثنا، بينما كان الغسق يتعمّق داخلاً في الليل، ودخلت السيدة (هدسون) بخفّة لإشعال النار، واشعال مشاعل الغاز.

بناءً على اقتراح (هولمز)، تناولنا العشاء في الخارج.

- طاولة الزاوية في مطعم 'فراتي' على ما أظن...

ضحك...

- وزجاجة من نبيذ 'مونتراشيه عام 67'. فإذا كان يجب أن يكون هذا آخر مساء لنا نكون فيه محترمين، فدعنا على الأقلّ نكون مرتاحين.

أظهرت لي ساعتي أنّ الوقت كان بعد الساعة الحادية عشرة عندما أنزلتنا العربة عند زاوية شارع تشارلز الثاني. كانت ليلة رطبة وباردة مع شيءٍ من الضباب في الهواء، الذي كان يتجمّع حول مصابيح الشوارع في هالات صفراء خافتة، ويلمع على رداء الشرطي الذي تجاوزنا ببطء، محوّلاً فانوسه إلى أروقة البيوت المظلمة الصامتة.

عند دخولنا ساحة (سانت جيمس)، كنا نتبع الرصيف وهو ينعطف نحو الجانب الغربي عندما وضع (هولمز) يده على ذراعي، وأشار إلى نافذة مضاءة في واجهة المنزل الضخم الذي كان يرتفع فوقنا.

قال بصوتٍ خافت:

- إنّه ضوء غرفة الجلوس. ليس لدينا لحظة لنضيّعها.

بنظرةٍ سريعةٍ على طول الرصيف الفارغ، قفز إلى أعلى الجدار المتاخم للقصر، ورفع نفسه إلى الأعلى بيديه، واختفى عن الأنظار بينما تبعته أنا بسرعة. بقدر ما استطعت أن أعرف في الظلام، كنّا نقفُ في واحدةٍ من تلك الأراضي الكئيبة المزروعة بالعشب وأشجار الغار المتعثرة والوسخة، التي تكوّن حديقة 'منزل حضري' عادي، ومن ثَمّ أصبحنا واقفين على الجانب الخطأ من القانون.

وأنا أذكّر نفسي بأنّ هدفنا كان، على الأقل، هدفاً مشرفاً، تبعت هيئة (هولمز) على طول الجدار الجانبي للمنزل إلى أن توقّف تحت صفٍّ من ثلاث نوافذ طويلة.

بعدها، رداً على همسه، أعرته ظهري، وفي لحظةٍ كان جاثماً على العتبة، ووجهه الشاحب محدّد على الزجاج الداكن، ويداه مشغولتان بالمزلاج.

بعدها بلحظة، فُتحت النافذة بصمت، وأمسكت أصابعه الممدودة، ووجدت نفسي في الغرفة بجانبه.

همس (هولمز) في أذني:

- المكتبة، ابقَ خلف ستائر النافذة.

على الرغم من أننا كنا محاطين بظلمةٍ تفوح منها رائحة خفيفة من جلد العجل والجلد القديم، كان لديّ إحساس بالمساحة التي حولي. كان الصمت عميقاً، لم يُسمع إلا صوت دقات الساعة ذات الصندوق الطويل في عمق الغرفة. ربما مرت خمس دقائق عندما صدر صوت من مكان ما داخل المنزل تلاه صوت وقع خطوات وهمهمة خفيفة من الأصوات.

لمع خيط من الضوء لحظةً تحت حافّة الباب، ثمّ اختفى، وبعد توقّف لبعض اللحظات؛ ظهر مرةً أخرى ببطء. سمعت صوت وقع الأقدام السريع، وأصبح خيط الضوء أكثر سطوعاً، ثمّ فُتح الباب، ودخلت امرأة وهي تحمل مصباحاً في يدها إلى الغرفة.

على الرغم من أنّ الوقت يميل إلى محو مسار الأحداث الماضية، أتذكّر، كما لو أنّها كانت أمس، أوّلَ مرّة رأيت فيها (إيديث فون لامرين).

فوق أشعة مصباح الزيت، رأيت وجهاً عاجيّ اللون ذا عينين داكنتين وقاتمتين وفمٍ جميلٍ قرمزيّ اللون لا يرحم. شعرها المكوّم

عالياً فوق رأسها كان ذا لون أسود غامق، كان مشكّلاً بزركشة من الريش المشبوكة بالياقوت، وتحت رقبتها وكتفيها العاريَين ثوب رائع محلي بالترتر الأسود كان يلمع ويتلألأ في الظلام.

وقفتْ لحظةً كما لو أنّها كانت تستمع، وبعد أن أغلقت الباب خلفها، عبرت بخفّة الغرفة الكبيرة، وظلّها الطويل والرفيع يسير خلفها، والمصباح الذي في يدها يلقي وهجاً طيفياً خافتاً على طول الجدران التي تصطفّ عليها الكتب.

لا أعرف ما إذا كان حفيف الستارة هو الذي وصل إلى أذنيها، لكن عندما خرج (هولمز) إلى الغرفة، استدارت في لحظة، وهي تحمل المصباح فوق رأسها حتى تسقط الأشعة في اتجاهنا، وقفتْ وهي ساكنةً تماماً ونظرت إلينا. لم يكن هناك أثر للخوف على وجهها العاجي، بل الغضب فحسب والغلّ في العينين الداكنتين اللتين كانتا تحدّقان نحونا بغضبٍ عبر تلك الغرفة الصامتة الضخمة.

صرخت قائلة:

- من أنت؟ ماذا تريد؟

أجابها (هولمز) بهدوء:

- خمس دقائق من وقتك يا مدام (فون لامرين).

- إذاً أنت تعرف اسمي. إن لم تكونا لصّين، فما الذي تبحثان عنه؟ سيسعدني أن أسمع ذلك قبل أن أقوم بإيقاظ مَن في المنزل.

أشار (هولمز) إلى يدها اليسرى. قال:

- أنا هنا لأفحص تلك الأوراق، وأنا أحذّرك من أنّني أقصد فعلاً القيام بذلك. أرجوك ألّا تجعلي ذلك ضرورياً لمنع إطلاق صرخة.

دفعت يدها خلف ظهرها، وعيناها تشتعلان غضباً في وجهها.

صرخت قائلة:

- أيّها الخسيس! الآن فهمت! أنت لصّ القديسة صاحبة السموّ المأجور.

بعدها، بحركة سريعة، مدّت نفسها إلى الأمام، والمصباح مرفوعٌ أمامها، وبينما كانت تنظر باهتمام إلى صديقي، رأيت تعابير وجهها الغاضبة تتحوّل إلى متشكّكة. أشرقت ببطء في عينيها ابتسامة. كانت مبتهجةً بقدر ما كانت متوعّدة.

قالت:

- السيّد (شيرلوك هولمز)!

كانت هناك لمسة من الشعور بالحرج في سلوك (هولمز) عندما أشاح بوجهه، وأشعل الشموع التي على طاولة جانبيّة من الذهب الزائف.

قال:

- لقد خطرت لي بالفعل، يا سيدتي، إمكانيّة معرفتي.

صرخت مع وميض لأسنانها البيضاء:

- هذا سيعطيك خمس سنوات[1].

---

(1) المقصود خمس سنوات في السجن.

- ربما. في هذه الحالة، يجب أن آخذ مقابل ما أدفعه. الوثائق!

- هل تتخيّل أنك ستنجز أيّ شيءٍ بسرقتها؟ لديّ نسخٌ ودزينة من الشهود على محتوياتها.

ضحكت ضحكة خافتة وخشنة، وتابعت:

- كنت أتخيّل أنّك رجل ذكي، لكن، بدلاً من ذلك، أجد أحمق، أخرق، لصاً سوقياً!

- سنرى.

مدّ يده و، مع ابتسامة ساخرة وهزّة لكتفيها، قدّمت له الوثائق.

قال صديقي بهدوء وهو يمشي نحو الطاولة الجانبية:

- أنا أعتمد عليك يا (واطسون) لمنع أيّ تواطؤٍ بين مدام (فون لامرين) وحبل الجرس.

تحت وهج الشموع، قرأ الوثائق، وبعدها رفعها أمام الضوء، ودرسها باهتمام، ومظهره الجانبي الهزيل الشديد الشحوب المشكّل في صورة ظليّة سوداء أمام الشهادة الصفراء المضيئة. بعدها نظر إليّ، وشعرتُ بالحزنِ من الغمّ الذي بدا على وجهه.

قال بهدوء:

- العلامة المائيّة إنجليزية يا (واطسون)، لكن لمّا كان ورقاً من هذا النوع وهذه الجودة قد تمّ استيراده إلى فرنسا على نطاقٍ واسع قبل خمسين عاماً، فهذا لا يساعدنا. للأسف، أنا أخشى الأسوأ.

وأنا عرفت أنّه لم يكن يفكر في وضعه الذي لا يُحسَد عليه بل في المرأة القلقة والشجاعة التي خاطر بحريّته من أجل قضيتها.

انغمست مدام (فون لامرين) في غيضٍ من رنين الضحك.

قالت ساخرة:

- لقد دخل الكثيرُ من النجاحِ إلى رأسك يا سيد (هولمز)، لكنّك هذه المرة قد ارتكبت خطأً فادحاً، كما سترى من الثمن الذي ستدفعه.

كان صديقي قد فرد الأوراق مباشرةً تحت لهب الشموع، وكان ينحني مقترباً منها مرةً أخرى عندما رأيتُ أنّ تغييراً مفاجئاً قد حدث في تعابير وجهه. تلاشى الغمّ والانزعاج اللذان كانا يخيّمان على وجهه، وبدلاً منهما كانت هناك نظرة تركيز شديد. بدا أنفه الطويل وكأنّه يكاد يشمّ الورقة وهو ينحني فوقها. عندما قام بتقويم نفسه أخيراً، لاحظتُ بريقاً من الإثارة في عينيه الغائرتين.

- ما رأيك في هذا يا (واطسون)؟

قالها وأنا أسرع إليه، وأشار إلى الكتابة التي طبعت التفاصيل على كلتا الوثيقتين.

قلت:

- إنّه خطّ يدٍ مقروء بوضوح شديد.

صرخ بقلّة صبر:

- الحبر، يا رجل، الحبر!

أجبته وأنا منحنٍ خلفه:

- حسناً، إنّه حبر أسود، لكنّني أخشى أنّه لا يوجد الكثير لمساعدتنا في ذلك. يمكنني أن أريك دزينة من الرسائل القديمة من والدي مكتوبة بشكل مماثل.

ضحك (هولمز) وفرك يديه معاً. صرخ قائلاً:

- ممتاز يا (واطسون)، ممتاز! الآن، هلّا تفحّصت لطفاً اسم وتوقيع (هنري كوروين غلادسديل) على وثيقة الزواج. والآن، انظر إلى تسجيل اسمه في الصفحة التي من سجل (فالانس).

- يبدوان سليمين، والتوقيع هو نفسه في كلتا الحالتين.

- هذا صحيح. ولكن الحبر؟

- فيه درجة من اللون الأزرق. أجل، بالتأكيد هو حبر أزرق-أسود عادي. ماذا إذاً؟

- كلّ كلمة في الوثيقتين مكتوبة بالحبر الأسود باستثناء اسم العريس وتوقيعه. ألا يبدو هذا غريباً بالنسبة إليك؟

- غريب، ربّما، لكن ليس بأيّ حالٍ من الأحوال غير قابل للتفسير. ربما كان (غلادسديل) معتاداً على استخدام محبرة خاصة به من النوع الذي يُحمل في الصدرة.

هرع (هولمز) إلى مكتب للكتابة عند النافذة، وبعد التفتيش للحظة، عاد ومعه ريشة ومحبرة في يده.

سأل وهو يغمس الريشة ويضع علامة أو اثنتين على حافة الوثيقة:

- هل تقول إنّ هذا هو اللون نفسه؟

أكدت قائلاً:

- إنّهما متطابقان.

- بالفعل. والحبر في هذه المحبرة أزرق-أسود نيلي.

مدام (فون لامرين)، التي كانت واقفة في الخلفية، اندفعت فجأةً نحو حبل الجرس، ولكن قبل أن يُتاح لها الوقتُ لشدّه، رنّ صوت (هولمز) في الغرفة. قال بصرامة:

- أؤكّد لك أنّه إذا لمست ذلك الجرس، فسينتهي أمرك.

توقّفت ويدها على الحبل.

قالت متهكّمة:

- أيّ نوع من السخرية هذه! هل تقول إنّ (هنري غلادسديل) قد وقّع وثائق زواجه على مكتبي؟ أيّها الأحمق، الجميع يستخدم حبراً من هذا النوع.

- هذا صحيح إلى حدٍّ كبير، لكن هذه الوثائق تاريخها 12 يونيو 1848.

- حسناً، وماذا يعني ذلك!

- أخشى أنّك مذنبة بخطأ صغير، يا مدام (فون لامرين). الحبر الأسود الذي يحتوي على النيلة لم يُخترع إلا في العام 1856.

كان هناك شيءٌ رهيب في ذلك الوجه الجميل الذي حدّق فينا بغضبٍ عبر دائرة ضوء الشموع.

همست قائلة:

- أنت تكذب!

هزّ (هولمز) كتفيه. قال وهو يحمل الأوراق، ويضعها بعنايةٍ في جيب ردائه:

- يمكن لأكثر كيميائيٌ هاوٍ إثبات ذلك.

وتابع قائلاً:

- هذه، بطبيعة الحال، وثائق الزواج الأصليّة تماماً لـ(فرانسواز بيليتا)، لكنّ الاسم الحقيقي للعريس قد تمّ محوه في الشهادة، وفي الصفحة التي من سجلّ كنيسة فالانس، واستبداله باسم (هنري كوروين غلادسديل) في مكانه. ليس لديّ أدنى شكّ في أنّه إذا دعت الحاجة إلى ذلك، فإنّ فحصاً تحت المجهر سيظهر آثار المحو.

- ورغم ذلك، إن الحبر نفسه هو دليل قاطع، ويمثّل مثالاً آخر على أنّه بسبب الخطأ الصغير الذي يسهل ارتكابه، وليس بسبب أيّ عيب أساسي في التخطيط، تتدمّر معظم الخطط المعقدة تماماً مثل سفينة ضخمة على صخرة صغيرة، لكنها قاتلة. أمّا بالنسبة إليك يا سيدتي، عندما أفكر في الآثار الكاملة لمخطّطك ضدّ امرأة عزلاء، أجد صعوبة في تذكّر قسوةٍ بدمٍ بارد أكثر من هذه.

- من أنت لتهين امرأة!

أجاب بمرارة:

- بتخطيطك لتدمير امرأة أخرى في حال رفضت إعطاءك أوراق زوجها السرية، تكونين قد تنازلت عن حقّك في كونك امرأة.

نظرت إلينا بابتسامةٍ شريرةٍ على وجهها شديد الشحوب وكأنه مصنوع من الشمع. قالت واعدةً:

- على الأقل، سوف تدفع ثمن ذلك. لقد انتهكتَ القانون.

قال (شيرلوك هولمز):

- هذا صحيح، ورجاءً تفضّلي بشدّ حبل الجرس. سيكون دفاعي الضعيف هو التزوير ومحاولة الابتزاز و- انتبهي للكلمة- التجسس. بالفعل، كإجراء تقديري لمواهبك، سأعطيك أسبوعاً واحداً بالضبط لمغادرة هذا البلد. وبعد ذلك سيتم تحذير السلطات منك.

كانت هناك لحظة من السكون المتوتر، وبعدها، من دون أن تنبس ببنت شفة، رفعت (إديث فون لامرين) ذراعها البيضاء الجميلة المتناسقة، وأشارت بصمت نحو الباب.

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة من صباح اليوم التالي، ولم يتمّ تنظيف الطاولة من أغراض الإفطار بعد. (شيرلوك هولمز)، الذي كان قد عاد من رحلة مبكرة، استبدل معطفه بسترة بيتية قديمة مخصّصة للتدخين، وكان الآن مسترخياً أمام النار، وهو ينظف قصبات غلايينه بمخرز طويل ورفيع أصبح في حوزته في الأصل في ظروف لا أقترح مضايقة قرائي بها.

سألته:

- هل التقيت بالدوقة؟

- لقد فعلت، وأعطيتها كلّ الحقائق. وكإجراءٍ احترازيّ بحت، هي تقوم بإيداع الوثائق المطبوع عليها توقيع زوجها المزوّر، بالإضافة إلى أقوالي الخاصة بالقضية، في أيدي محامي العائلة. لكن لم يعد لديها ما تخشاه من (إديث فون لامرين).

صرخت بحرارة:

- وهذا بفضلك يا صديقي العزيز.

- حسناً، حسناً يا (واطسون). كانت القضية بسيطة جداً، والعمل هو المكافأة.

نظرت إليه باهتمام.

قلت له:

- أنت تبدو مجهداً بعض الشيء يا (هولمز). يجب أن تذهب إلى الريف لبضعة أيام.

- ربما في وقت لاحق، لكن لا يمكنني مغادرة المدينة إلى أن تغادر تلك المدام هذه الشواطئ، فهي شخصية ذات براعة استثنائية.

- هذه لؤلؤة جميلة للغاية تلك التي تضعها على ربطة عنقك. لا أتذكر أنني رأيتها من قبل.

أخذ صديقي رسالتين من على رف الموقد، وألقى بهما إلي. قال:

- لقد وصلتا بينما كنت غائباً في جولتك.

الرسالة التي كانت تحمل عنوان بيت (كارينغفورد)، كان نصها كالآتي:

«لشهامتك، لشجاعتك، تدين امرأة بكلّ شيء، وهذا الدين لا يمكن مكافأته. فلتكن هذه اللؤلؤة، الرمز القديم للإيمان، تذكاراً من الحياة التي أعدتها إلي. لن أنسى».

أما الأخرى، التي لم يكن عليها عنوان ولا توقيع، فكان نصها:

«سوف نلتقي مرة أخرى يا سيد (شيرلوك هولمز). لن أنسى».

ضحك (هولمز) وهو يقول:

- الأمر كلّه في وجهة النظر، ولا يزال يتعيّن عليّ مقابلة المرأتين اللتين تنظران من الزاوية نفسها.

بعدها، وهو يلقي نفسه على كرسيه، مدّ يده بتكاسلٍ ليأخذ أكثر غليون بغيض لديه.

في هذه اللحظة، يتمّ تلطيخ أحد أكثر الأسماء احتراماً في إنجلترا من قبل المبتزّ، وأنا فقط من يمكنه وقف فضيحة كارثية.

من «كلب آل باسكرفيل».

11

مغامرة رعب ديتفورد

لقد أشرت في مكانٍ آخر إلى أنّ صديقي (شيرلوك هولمز)، مثل كلّ الفنانين الكبار، كان يعيش من أجل فنّه، وباستثناء قضية دوق (هولدرنس)، نادراً ما عرفت أنّه يطالب بأيّ مقابل مادي. مهما كان العميل قوياً أو ثرياً، كان يرفض تولّي أيّ قضيّة لا تجتذب ميوله، بينما يكرّس طاقاته الأكثر شدّةً لشؤون شخص متواضع تملك قضيّته تلك الصفات الفريدة والرائعة التي تضرب على وترٍ حساس في خياله.

عند إلقاء نظرة على ملاحظاتي عن تلك السنة الجديرة بأن تُذكر ‎'95، أجد تفاصيل مسجّلة لقضية يمكن اعتبارها مثالاً نموذجياً لهذا السلوك غير المبالي وحتى الإيثاري للعقل، الذي جعل تقديم الخدمة المقدّمة بلطفٍ أعلى من المكافأة المادية. أشير، بطبيعة الحال، إلى القضية المروعة لطيور الكناري، وآثار السخام على السقف.

في أوائل شهر يونيو، أكمل صديقي تحقيقاته في الوفاة المفاجئة للكاردينال (توسكا)، وهو تحقيق أجراه بناءً على طلبٍ خاص من

البابا. تطلبت القضية العمل الأكثر إرهاقاً من جانب (هولمز)، وكما كنت أخشى في ذلك الوقت، تركته العواقب في حالة عصبية ومضطربة للغاية تسبّبت في بعض القلق لي بوصفي صديقاً له ومستشارَه الطبي.

في إحدى الليالي الممطرة، قبل نهاية الشهر نفسه بقليل، أقنعته بتناول العشاء معي في مطعم (فراسكاتي)، وبعد ذلك ذهبنا إلى «كافيه رويال» لشرب القهوة والمشروبات الكحولية. كما كنت أتمنى، صخب الغرفة الكبيرة، بمقاعدها الفخمة الحمراء، ونخيلها الفخم الذي يغمره وهج العديد من الثريات الكريستالية، أخرجه من مزاج تأمّل الذات، وبينما كان مسنداً ظهره على الأريكة، كانت أصابعه تلعب بساق كأسه. لاحظت بشيءٍ من الرضا وميضاً من الاهتمام في تلك العينين الرماديتين الثاقبتين عندما كان يدرس العملاء البوهيميين[1] نوعاً ما، الذين احتشدوا على الطاولات، وتحت قبب التجاويف.

كنت أقوم بالرد على ملاحظةٍ ما عندما أومأ (هولمز) برأسه فجأةً باتجاه الباب.

قال:

- (ليستريد)، ما الذي جاء به هنا؟

نظرت خلفي، ورأيت الهيئة النحيلة ذات الوجه الذي يشبه وجه الفأر لرجل سكوتلانديارد، وهو يقف عند المدخل، وعيناه الداكنتان تتجولان ببطء في أنحاء الغرفة.

---

(1) نسبة إلى البوهيمية (Bohemian)، التي تعني العيش دون تقيّد بالقواعد السلوكية أو المجتمعية.

قلت له:

- ربما يبحث عنك. ربما من أجل قضية مستعجلة.

- يكاد يا (واطسون). حذاؤه المبلل يظهر أنّه كان يمشي. لو كانت هناك حاجة ملحّة لكان قد ركب عربة أجرة، لكن ها هو قادم.

رآنا عميل الشرطة، وبإشارة من (هولمز)، شقّ طريقه بين الحشد، وسحب كرسياً إلى الطاولة.

قال رداً على سؤال صديقي:

- فحص روتيني فقط، لكن الواجب هو الواجب يا سيد (هولمز). يمكنني أن أخبرك بأنّني قد اصطدت بعض الأسماك الغريبة من قبل في هذه الأماكن المحترمة. بينما أنت تحلم وأنت مرتاح بنظرياتك في شارع بيكر، نحن التعساء المساكين في سكوتلانديارد نقوم بالعمل الفعلي. لا شكر من الباباوات والملوك، بل ساعة سيّئة على سجادة المشرف إذا فشلنا.

ابتسم (هولمز) بمرح:

- تسك. لا بد أنّ رؤسائك بالتأكيد يكنّون لك بعض التقدير منذ أن حللتُ جريمة قتل (رونالد أدير)، وسرقة (بروس بارتينغتون)، و ...

قاطعه (ليستريد) على عجل:

- هذا صحيح بالفعل.

أضاف مع غمزة قويّة لي:

- والآن، لديّ شيء لك.

- آه!

- بطبيعة الحال، الشابة التي تجفل عند رؤيتها الظلال قد تكون أنسب لمجال عمل الدكتور (واطسون).

قلت محتجاً بقوة:

- حقاً يا (ليستريد)، لا يمكنني أن أوافق على ...

- لحظة واحدة يا (واطسون). دعنا نسمع الحقائق.

تابع (ليستريد):

- حسناً، يا سيد (هولمز)، إنّها سخيفة بما يكفي، ولم أكن لأضيّع وقتك لو لم أكن أعرف أنّك قد قمت بعمل طيّب أو اثنين من قبل، وقد تمنع نصيحتك في هذه الحالة شابّة من التصرّف بحماقة. الآن هذا هو الموقف.

- طريق (داون ديتفورد)، على طول حافة النهر، هناك بعضٌ من أسوأ الأحياء الفقيرة في الطرف الشرقي من لندن، لكن في وسطها، لا يزال بإمكانك أن تجد بعض المنازل القديمة الرائعة، التي كانت ذات مرة منازل التجار الأثرياء قبل قرون من الزمن.

أحد هذه القصور المتهدّمة كانت تسكنه عائلة تُدعَى (ويلسون) على مدار المئة عام الماضية وأكثر. ما فهمته هو أنّهم كانوا في الأصل يعملون في التجارة مع الصين، وعندما ساء حال تلك التجارة قبل جيل، خرجوا منها في الوقت المناسب، وظلوا في المنزل القديم.

تتكوّن الأسرة الأخيرة من (هوراشيو ويلسون) وزوجته، مع ابن

واحد وابنة، وشقيق (هوراشيو) الأصغر (ثيوبولد)، الذي انتقل للعيش معهم عند عودته من دولة أجنبية.

- منذ نحو ثلاث سنوات، تمّ انتشال جثة (هوراشيو ويلسون) من النهر. كان قد غرق، ولأنه كان معروفاً بأنّه رجل يُكثِر من شرب الخمر، كان من المقبول عموماً أنّ خطوته قد انحرفت في الضباب، وسقط في الماء.

وبعد عام توفيت زوجته، التي كانت تعاني من ضعف في القلب جرّاء أزمة قلبية. نحن نعلم أنّ هذا هو الحال؛ لأن الطبيب أجرى فحصاً دقيقاً للغاية بعد سماع أقوال شرطي وحارس ليلي يعمل على عبّارة في نهر التايمز.

قاطعه (هولمز):

- أقوال لأيّ سبب؟

- حسناً، كان هناك حديث عن الضوضاء، التي كانت صادرة على ما يبدو من منزل (ويلسون) القديم، لكنّ الليالي غالباً ما تكون ضبابيّة على طول ضفة نهر التايمز، وربما يكون الرجال متوهّمين. وصف الشرطي الصوت بأنّه صرخة مروّعة جمّدت الدم في عروقه. لو كان يعمل معي في قسمي نفسه، لكنت علّمته أنّ مثل هذه الكلمات لا ينبغي أن تُذكر على لسان ضابط قانون.

- متى كان ذلك؟

- العاشرة ليلاً، ساعة وفاة السيدة العجوز. إنها مجرد مصادفة؛ لأنه ليس هناك أيّ شكّ في أنّها قد ماتت بسبب قلبها.

- تابع.

رجع (ليستريد) إلى دفتر ملاحظاته لحظةً، وتابع قائلاً:

- لقد كنت أبحث عن الحقائق. في ليلة 17 مايو الماضي، ذهبت الابنة إلى عرض فانوس سحري ترفيهي برفقة خادمة. عند عودتها، وجدت شقيقها، (فينياس ويلسون)، ميتاً على كرسيه ذي الذراعين. لقد ورث عن والدته مرض القلب والأرق. هذه المرة لم تكن هناك شائعات عن صيحات وصرخات، ولكن بسبب التعبير الذي على وجه الميّت، استدعى الطبيب المحلي جرّاح الشرطة للمساعدة في الفحص. لقد كان القلب هو السبب، بالفعل، وقد أكّد رجلنا أنّ هذا يمكن أن يتسبّب، في بعض الأحيان، في تحوير الملامح، الذي من شأنه أن ينقل انطباعاً عن رعب شديد.

أشرت قائلاً:

- هذا صحيح تماماً.

تابع (ليستريد) كلامه:

- الآن، يبدو أنّ الابنة (جانيت) أصبحت في حالة عصبية مجهدة للغاية إلى درجة أنّها، وفقاً لما قاله عمها، تقترح بيع العقار والرحيل إلى خارج البلاد.

- أعتقد أنّ مشاعرها طبيعية. لقد كان الموت مشغولاً بعائلة (ويلسون).

- وماذا عن هذا العم؟ أعتقد أنّك قلت إنّ اسمه (ثيوبولد).

- حسناً، أتخيّل أنّك ستجده على عتبة داركم صباح الغد. لقد جاء إليّ في سكوتلانديارد على أمل أن تتمكّن الشرطة الرسمية من تخليص ابنة أخيه من مخاوفها، وإقناعها بأخذ وجهة نظر أكثر منطقية. ولأننا منخرطون في شؤونٍ أهمّ من تهدئة الشابات اللواتي في حالة هستيرية، نصحته بأن يزوركما.

- بالفعل! حسناً، من الطبيعي أنّه سيستاء من الخسارة غير الضرورية لما قد يكون ركناً مريحاً ودافئاً.

- ليس هناك استياء يا سيد (هولمز). يبدو أنّ (ويلسون) مرتبط بصدقٍ بابنة أخيه، ولا يهتمّ إلا بمستقبلها.

توقف (ليستريد)، بينما ارتسمت ابتسامةٌ على وجهه الشبيه بوجه ثعلب.

- السيد (ثيوبولد) ليس ذا خبرة كبيرة في شؤون الحياة، وعلى الرغم من أنّني قابلت بعضاً من أصحاب المهن الغريبة في زماني، كانت مهنته الأكثر غرابة. الرجل يدرّب طيور الكناري.

- إنّها مهنة معروفة.

- حقاً؟

كان هناك عجرفة مزعجة في سلوك (ليستريد) عندما وقف، ومدّ يده ليأخذ قبعته.

قال:

- من الواضح جداً أنّك لا تعاني من الأرق يا سيد (هولمز)، وإلا

كنت ستعرف أن الطيور التي يدرّبها (ثيوبولد ويلسون) تختلف عن طيور الكناري الأخرى. ليلة سعيدة أيّها السادة.

سألت بينما كان الشرطي يشقّ طريقه نحو الباب.

- ماذا يعني هذا الرجل بحقّ السماء؟

أجاب (هولمز) كمن يذكر حقيقة:

- يعني فقط أنّه يعرف شيئاً لا نعرفه نحن. ولكن لمّا كان التخمين لا فائدة منه بقدر ما هو مضلّل للعقل التحليلي، فلننتظر حتى الغد. يمكنني أن أقول، رغم ذلك، إنّني لا أقترح إضاعة وقتي في مسألةٍ يبدو أنّها تقع بشكلٍ أكثر ملاءمة ضمن اختصاص الكاهن المحلي.

لم يجلب الصباح أيّ زائر، ما أراح صديقي، لكن عند عودتي من حالة مستعجلة تمّ استدعائي إليها بعد وقت قصير من تناول الغداء، دخلت غرفة الجلوس، ووجدت أنّ كرسيّنا الاحتياطي كان يشغله رجل في منتصف العمر يرتدي نظارة.

عندما نهض واقفاً، لاحظت أنّه كان نحيلاً للغاية، وأنّ وجهه، الذي كان متعلّماً وحتى حازماً في تعابيره، كان مشقّقاً بالتجاعيد التي لا حصر لها، وكان لونه من ذلك اللون الأصفر الباهت الشبيه بلون المخطوطات، والذي يأتي من قضاء سنوات تحت شمس استوائية.

قال (هولمز):

- آه، (واطسون)، لقد وصلت في الوقت المناسب. هذا هو السيد (ثيوبولد ويلسون) الذي تحدّث إلينا (ليستريد) عنه الليلة الماضية.

قام زائرنا بهزّ يدي بقوّة وبحرارة. صرخ قائلاً:

- اسمك، بطبيعة الحال، معروف جيداً بالنسبة إلي يا دكتور (واطسون). بالفعل، إذا سامحني السيد (شيرلوك هولمز) لقولي هذا، فالفضل يعود إليك بشكل كبير لأننا على دراية بعبقريّته. بوصفك طبيباً -لا شك- أنت ملم بشكل جيد بمعالجة الحالات العصبية، يجب أن يكون لوجودك تأثير مفيد للغاية على ابنة أخي البائسة.

لفت (هولمز) انتباهي مستسلماً، قال:

- لقد وعدت السيد (ويلسون) بمرافقته إلى ديتفورد يا (واطسون)؛ لأنّه يبدو أنّ الشابة عازمة على مغادرة منزلها غداً. لكن يجب أن أكرّر مرةً أخرى، يا سيد (ويلسون)، أنّني لا أرى كيف يمكن لوجودي أن يؤثّر في هذه المسألة.

- أنت متواضع جداً يا سيد (هولمز). عندما ناشدت الشرطة الرسمية، كنت آمل أن يقنعوا (جانيت)، على الرغم من أنّ خسائر عائلتنا كانت رهيبة في السنوات الثلاث الماضية، إلا أنّها كانت لأسباب طبيعية، ولا يوجد سبب لفرارها من منزلها.

وأضاف بضحكة خافتة:

- كان لديّ انطباع بأنّ المفتّش كان متكدّراً نوعاً ما من قبولي الجاهز لاقتراحه أن أطلب مساعدتك.

أجاب (هولمز) ببساطة وهو يقف:

- سأتذكّر بالتأكيد ديني الصغير لـ(ليستريد). هلّا طلبت يا (واطسون) من السيدة (هدسون) أن تصفّر لعربة رباعية العجلات.

ويمكن للسيد (ويلسون) أن يوضح بعض النقاط لذهني أثناء ركوبنا العربة إلى ديتفورد.

لقد كان أحد تلك الأيام الرمادية في الصيف الكئيب عندما تكون لندن في أسوأ حالاتها، وبينما كنّا نمرّ فوق جسر بلاكفريارز، لاحظت أنّ سحابات من الضباب كانت تتصاعد من النهر مثل الأبخرة السامة لمستنقع في غابة حارّة.

كانت الشوارع الأكثر اتساعاً في الطرف الغربي للمدينة قد أفسحت المجال للممرات التجارية الضخمة، التي تدوّي بصخب وقمقمة الخيول التي تجر الأحمال الثقيلة، والتي بدورها كانت تندمج في النهاية لتكوّن متاهة من الشوارع القذرة التي تتبع منحنى النهر، والتي أصبحت بائسة أكثر فأكثر في قذارتها كلما اقتربنا من متاهة أحواض المد والجزر تلك، والممرات المظلمة ذات الرائحة الكريهة التي كانت، في يوم من الأيام، المهد القديم لتجارة إنجلترا البحرية وثروة الإمبراطورية.

كنت أرى أن (هولمز) كان فاتراً يشعر بالملل إلى درجة الضّيق، وأنا بذلت قصارى جهدي لإشراك رفيقنا في المحادثة.

قلت له:

- ما فهمته هو أنّك خبيرٌ في طيور الكناري.

أضاءت عينا (ثيوبولد ويلسون) خلف نظارته القوية ببريق الحماسة. صرخ قائلاً:

- أنا مجرّد طالب يا سيدي، ولكن مع ثلاثين عاماً من البحث العملي. هل يمكن أن تكون أنت أيضاً..؟ لا؟ يا للأسف! تعدّ دراسة

وتربية وتدريب الـ«فرينجيلا كاناريا» مهمّة تستحقّ أن يستمرّ الإنسان فيها طوال حياته. لن تنسب الفضل إلى الجهل، يا دكتور (واطسون)، الذي يسود عن هذا الموضوع حتى في أكثر الدوائر استنارة. عندما قرأت ورقة بحثي حول 'عبور سلالات ماديرا وجزر الكناري' إلى جمعيّة علم الطيور البريطانية، صُدمت من تفاهة الأسئلة التي تلتها.

- المحقق (ليستريد) ألمح إلى بعض السمات الخاصة في تدريبك هؤلاء المغرّدين الصغار.

- المغرّدون يا سيدي! طائر السمنة هو المغرّد. الفرينجيلا هي الأذن العليا للطبيعة، التي تمتلك قوةً فريدة من نوعها في التقليد، والتي يمكن تدريبها لصالح الجنس البشري وتثقيفه.

تابع كلامه بهدوء أكثر:

- لكنّ المفتش كان محقّاً، من حيث إنّني استخدمت طيوري من أجل غرضٍ خاص. إنّها مدرّبة على الغناء ليلاً تحت ضوء اصطناعي.

- هذا بالتأكيد مسعى استثنائي نوعاً ما.

- أحبّ أن أفكر فيه على أنّه مسعى لطيف. طيوري مدرّبة من أجل أولئك الذين يعانون من الأرق، ولديّ عملاء في جميع أنحاء البلاد. تغريدهم الرنّان يساعد على قضاء ساعات الليل الطويلة، وإطفاء نور المصباح ينهي الحفلة[1].

قلت ملاحظاً:

---

(1) المقصود أنه يُنهي السهرة أو الليلة.

- يبدو لي أنّ (ليستريد) كان على حقّ. إنّ مهنتك هي بالفعل مهنة فريدة من نوعها.

أثناء محادثتنا كان (هولمز) قد أخذ عصا رفيقنا الثقيلة من دون سبب، وكان يفحصها بشيء من الاهتمام.

قال:

- ما فهمته هو أنّك عدتَ إلى إنجلترا قبل نحو ثلاث سنوات.

- لقد فعلت.

- من كوبا، على ما أرى.

جفل (ثيوبولد ويلسون)، وللحظة بدا كأنني قد لاحظت وميضاً من شيء يشبه الحذر في النظرة السريعة التي أعطاها لـ(هولمز).

قال:

- هذا صحيح. لكن كيف عرفت؟

- عصاك مصنوعة من خشب الأبنوس الكوبي. لا شك في اللون الضارب إلى الخضرة واللمعان القوي بشكلٍ استثنائي.

- ربّما تمّ شراؤها من لندن عند عودتي من أفريقيا، مثلاً.

- لا، لقد كانت ملكك لعدة سنوات.

رفع (هولمز) العصا إلى نافذة العربة وأمالها حتى يسطع ضوء النهار على المقبض، وتابع:

- سترى أنّ هناك خدشاً طفيفاً، لكنه منتظم، قد نحت طريقه في بولش[1] التلميع على طول الجانب الأيسر من المقبض؛ حيث ينغلق إصبع الخاتم لرجل أشول على المقبض. يُعدّ خشب الأبنوس من بين الأخشاب الأكثر صلابة، وسيتطلب التسبّب في مثل هذا التآكل وقتاً طويلاً وخاتماً مصنوعاً من نوع من المعادن أكثر صلابة من الذهب. أنت أشول يا سيد (ويلسون)، وترتدي خاتماً من الفضة في إصبعك الوسطى.

- يا إلهي، يا لبساطة هذا. اعتقدت للحظة أنّك قد فعلت شيئاً ذكياً. في الواقع، كنت أعمل في تجارة السكر في كوبا، وأحضرت معي عصاي القديمة عندما عدت. لكن ها قد وصلنا إلى المنزل، وإذا أمكنك تخليص ابنة أخي من مخاوفها السخيفة بالسرعة نفسها التي استنتجت بها ماضيّ، فسأكون مديناً لك يا سيد (شيرلوك هولمز).

عند النزول من عربتنا ذات العجلات الأربع، وجدنا أنفسنا في ممرّ منحدر من المنازل القذرة، بقدر ما يمكنني رؤيته من خلال الضباب الأصفر الذي كان يتسلّل بالفعل إلى الطرف السفلي، نحو حافة النهر. في أحد الجوانب، كان هناك جدار مرتفع من الطوب المتهدم تخترقه بوابة حديدية شاهدنا من خلالها لمحةً من قصر كبير يربض في حديقة خاصة به.

قال رفيقنا، ونحن نتبعه عبر البوابة ونسير في الطريق:

- هذا البيت القديم عرف أياماً أفضل، تمّ بناؤه في العام الذي جاء فيه بطرس الأكبر ليعيش في «سكيلز كورت»، التي يمكن رؤية حديقتها المدمّرة من النوافذ العلوية.

(1) مادة تُستعمل في التلميع مثل الورنيش.

عادةً، لا أتأثر بمحيطي بشكل مفرط، لكن يجب أن أعترف بأنني كنت مدركاً شعوراً بالاكتئاب من المشهد السوداوي الذي أمامنا. المنزل، على الرغم من كونه ذا أبعاد جليلة، بل حتى مهيبة، كانت واجهته من الجصّ الكثير البقع، الملطخ بسبب الطقس، الذي سقط في أماكن ليكشف عن الطوب القديم الذي كان تحته، في حين أنّ كتلة متشابكة من اللبلاب، كانت تغطي جداراً واحداً، قد مدّت فروعها اللولبية الطويلة عبر السطح ذي القمة المرتفعة لتلتف حول المداخن.

كانت الحديقة عبارة عن برية من النباتات التي كان طولها زائداً، وكان هواء المكان كله تفوح منه رائحة النهر الرطبة والعفنة.

قادنا (ثيوبولد ويلسون) عبر ممرّ صغير إلى غرفة جلوس مؤثثة بشكل مريح. عند دخولنا قفزت شابة ووقفت، كانت ذات شعر بنيّ محمرّ ووجهٍ منمش، وكانت تقوم بفرز بعض الأوراق على مكتب مخصص للكتابة.

قال رفيقنا معلناً:

- ها هما السيد (شيرلوك هولمز) والدكتور (واطسون). هذه ابنة أخي (جانيت)، التي أنت هنا لتحمي مصالحها من سلوكها غير المعقول.

واجهتنا الشابة بشجاعة، رغم أنني لاحظت انتفاضاً وارتجافاً في شفتيها كشفا عن توتّر عصبي شديد. صرخت قائلة:

- سأرحل غداً يا عمي، ولا شيء يمكن أن يقوله هذان السيدان سيغيّر قراري. هنا، لا يوجد سوى الأسى والخوف — وفوق كل شيء، الخوف!

- الخوف من ماذا؟

مرّرت الفتاة يدها على عينيها.

- أنا —أنا لا أستطيع أن أشرح. أكره الظلال والضوضاء الخافتة الغريبة.

قال السيد (ويلسون) بجدية:

- لقد ورثتِ المال والممتلكات يا (جانيت). هل ستهجرين بيت آبائك بسبب ظلال؟ كوني منطقية.

قال (هولمز) بشيء من اللطف:

- نحن هنا فقط لخدمتك، أيتها الشابة، ولمحاولة تخليصك من مخاوفك. في الحياة غالباً ما نضر مصالحنا الفضلى بالفعل المتسرّع.

- سوف تضحك على حدس المرأة يا سيدي.

- بالتأكيد لا. إنّها غالباً ما تكون دلالات على العناية الإلهية. فلتفهمي بوضوح أنك ستذهبين أو تبقين كما ترين أنّه مناسب. لكن ربما، لأنني هنا، قد يريح بالك أن تريني المنزل.

صرخ (ثيوبولد ويلسون) بمرح:

- اقتراح رائع! هيا يا (جانيت)، سنتخلص قريباً من ظلالك وضوضائك.

في موكب صغير، سرنا معاً من غرفة مفروشة بشكل زائد إلى أخرى في الطابق الأرضي.

قالت الآنسة (ويلسون) عندما توقفنا أخيراً أمام السلالم:

- سآخذكم إلى غرف النوم.

- ألا توجد أقبية في منزل بهذا القدم؟

- هناك قبو واحد يا سيد (هولمز)، لكنه قليل الاستخدام سوى تخزين الأخشاب وبعضٍ من صناديق أعشاش عمّي القديمة. من هنا لو سمحت.

كانت غرفة قاتمة مبنية بالحجارة تلك التي وجدنا أنفسنا فيها. كانت هناك كومة من الخشب مكدسة عند أحد الجدران، وموقد هولندي[1] ذو بطن منتفخ، يمتد أنبوبه الحديدي عبر السقف، وكان يملأ الزاوية البعيدة.

من خلال باب زجاجي يتم الوصول إليه عبر صفّ من السلالم، وينفتح على الحديقة، ارتشح ضوء خافت ساقط على الألواح الحجرية. استنشق (هولمز) الهواء باهتمام، وكنت أنا نفسي مدركاً التعفن المتزايد القادم من النهر القريب.

قال ملاحظاً:

- مثل معظم المنازل الواقعة على جانب نهر التايمز، يجب أن يكون مبتلىً بالجرذان.

- كنّا كذلك، لكن منذ أن جاء العم إلى هنا، قام بالتخلص منها.

تابع، وهو ينظر إلى الأرض:

---

(1) أوانٍ من الحديد الزهر تستخدم للطهي والخبز، وعُرفت بذلك الاسم لانتشارها في هولندا.

- يا لهم من صغار مشغولين!

وأنا أتبع نظره، رأيت أنه قد لفت انتباهه عددٌ قليل من نمل الحديقة الذي كان مسرعاً عبر الأرضية من أسفل حافة الموقد، يصعد السلالم المؤدية إلى باب الحديقة.

ضحك وهو يشير بعصاه إلى الجزيئات الصغيرة التي كانت مثقلة بها:

- إنّ من الأفضل لنا، يا (واطسون)، أننا لسنا مضطرين إلى حمل وجبات عشاءٍ حجمها ثلاثة أضعاف حجمنا؛ إنه درس في الصبر.

غرق في الصمت، وهو يحدّق في الأرض بتفكّر.

كرر ببطء:

- درس.

شدّت شفتا السيد (ويلسون) الرفيعتين. صاح قائلاً:

- أيّ حماقة هذه. النمل موجود لأنّ الخدم يرمون القمامة في الموقد ليوفّروا على أنفسهم عناء الذهاب إلى سلّة المهملات.

- ولهذا وضعتم قفلاً على الغطاء.

- لقد فعلنا. إذا كنت ترغب في ذلك، يمكنني إحضار المفتاح. لا؟ إذاً، إذا انتهيت، فدعني آخذك إلى غرف النوم.

سأل (هولمز) عندما وصلنا إلى الطابق العلوي:

-- ربما يمكنني رؤية الغرفة التي مات فيها أخوك.

أجابت الآنسة (ويلسون) وهي تدفع الباب لتفتحه:

- إنها هنا.

كانت حجرة كبيرة مؤثثة بشيء من الذوق وحتى الفخامة، وكانت مضاءةً بنافذتين غائرتين بعمق على جانبي موقد آخر منتفخ-البطن مزيّن بالبلاط الأصفر ليتناغم مع درجة لون الغرفة؛ وكان يتدلى زوج من أقفاص الطيور من أنبوب الموقد.

سأل صديقي:

- إلى أين يؤدي هذا الباب الجانبي؟

أجابت:

- إنه يتصل بغرفتي التي كانت تستخدمها والدتي في السابق.

لبضع دقائق، طاف (هولمز) في أنحاء الغرفة بفتور.

قال ملاحظاً:

- أتصوّر أن أخاك كان مدمناً على القراءة الليلية.

- أجل، لقد عانى من الأرق. ولكن كيف...

- تسك، تكوّم السجادة على يمين الكرسي ذي الذراعين كثيف مع آثار من الشمع الذائب. لكن هالو! ماذا لدينا هنا؟

توقف (هولمز) بالقرب من النافذة، وكان يحدّق باهتمام في الجدار العلوي. بعدها، بعد أن صعد على الحافّة، مدّ ذراعه، وهو يلمس الجص برفق هنا وبلا معنى هناك، كان يشمّ أطراف أصابعه.

كان هناك عبوس حائر على وجهه، وهو ينزل إلى الأسفل ويبدأ الدوران ببطء حول الغرفة، وعيناه مثبتتان على السقف.

قال بصوت خافت:

- هذا استثنائي جداً.

تلعثمت الآنسة (ويلسون) وهي تقول:

- هل هناك خطبٌ ما يا سيد (هولمز)؟

- أنا مهتم فقط بتفسير وجود هذه اللوالب والخطوط الغريبة على الجدار العلوي والجص.

- لا بد من أن السبب هو تلك الصراصير البغيضة، التي تجرّ الغبار في كلّ أرجاء المكان.

هكذا قال ويلسون معتذراً.

- لقد أخبرتك من قبل يا (جانيت) أنَّ من الأفضل لك الإشراف على عمل الخدم. ولكن ماذا الآن يا سيد (هولمز)؟

صديقي، الذي كان قد عبر الغرفة إلى الباب الجانبي، ونظر إلى داخله، أغلقه الآن مرةً أخرى، وتمشى إلى النافذة.

قال:

- كانت زيارتي زيارة غير مجدية، ولأنني أرى الضباب يتصاعد، أخشى أننا يجب أن نغادر.

وأضاف مشيراً إلى زوج الأقفاص الذي فوق الموقد:

- هذه، على ما أعتقد، هي طيور الكناري الشهيرة الخاصة بك؟

- هذه مجرد عينة. ولكن تعال من هنا.

قادنا (ويلسون) على طول الممر، وفتح الباب. قال:

- هاكم!

من الواضح أنّها كانت غرفة نومه هو، ورغم ذلك هي تختلف عن أيّ غرفة نوم دخلتُ إليها في كلّ مسيرتي المهنية. من الأرضية إلى السقف كانت مزينة بأعداد كبيرة من الأقفاص والمغرّدين الصغار المطليّين بالذهب الذين ملأوا في داخلها الجوَّ بتغريدهم وشدوهم اللطيفين.

- ضوء النهار أو ضوء المصباح، كلاهما الشيء نفسه بالنسبة إليهم. هنا، (كاري)، (كاري)!

قام بتصفير بعض النوتات الرخيمة التي بدا لي أنّني أعرفها. أخذها الطائر في إيقاع جميل من التغريد.

صرخت قائلاً:

- طائر القبّرة!

- بالضبط. كما قلت من قبل، إنّ فصيلة الـ«فرينجيلا» إذا تمّ تدريبهم بشكل صحيح يصبحون المقلدين الأفضل.

- أعترف بأنني لا أتعرف على تلك الأغنية.

قلتها ملاحظاً، بينما أطلق أحد الطيور صافرة خافتة ترتفع تدريجياً، انتهت باضطراب غريب في الصوت.

ألقى السيد (ويلسون) منشفة على القفص. قال بعدها بقليل:

- إنها أغنية الطائر الليلي الاستوائي، ولأنني أشعر بالفخر الأحمق إذ إنني أفضّل أن تغني طيوري أغاني النهار بينما لا يزال الوقت نهاراً، فسوف نعاقب (بيبيرينو) بوضعه في الظلام.

قال (هولمز) ملاحظاً:

- أنا مندهش من أنّك تفضّل مدفأةً مفتوحةً هنا على موقد. لا بد من أنّ هناك تياراً هوائياً قوياً.

- لم ألاحظ وجود تيار هوائي. يا إلهي، الضباب يتزايد بالفعل. أخشى يا سيد (هولمز)، أنّ أمامك رحلة سيّئة.

- إذاً، يجب أن نمضي في طريقنا.

عندما نزلنا السلالم، وتوقفنا في الممر، بينما كان (ثيوبولد ويلسون) يجلب لنا قبعاتنا، مال (شيرلوك هولمز) مقترباً من رفيقتنا الشابة.

قال بهدوء:

- أودّ أن أذكّرك يا آنسة (ويلسون) بما قلته سابقاً عن حدس المرأة. هناك أحيان يمكن فيها استشعار الحقيقة بسهولةٍ أكبر ممّا يمكن رؤيتها. تصبحين على خير.

بعدها بلحظة، كنّا نتحسّس طريقنا في ممرّ الحديقة إلى حيث كانت تتألق أضواء عربتنا الرباعية العجلات، التي كانت تنتظرنا، بشكل خافت من خلال الضباب المتصاعد.

كان رفيقي غارقاً في التفكير، بينما كانت عربتنا تقعقع غرباً عبر الشوارع الفقيرة التي كانت قذارتها أشرس تحت ضوء مصابيح الغاز المتوهّج، التي كانت تشتعل وتطلق صفيراً خارج العديد من الحانات.

الليلة كانت تنذر بأنّها ستكون ليلة سيّئة، وبالفعل، من خلال البخار الأصفر الذي يتكاثف ويتلوّى فوق الأرصفة، لم يكن عابر الطريق أكثر من ظلّ مبهم مسرع.

قلت مشيراً:

- كنت أتمنى، يا صديقي العزيز، أنّك قد أُعفِيت من الحاجة إلى إهدار طاقاتك من دون فائدة، وقد كانت استُنفِدت بالفعل بما فيه الكفاية.

- حسناً، حسناً، يا (واطسون). تخيّلت أنّ شؤون عائلة (ويلسون) لن تصلح لأن تكون من شأننا. ورغم ذلك...

غرق مرة أخرى، مستغرقاً للحظة في أفكاره. سمعته يقول بصوت منخفض:

- ... ورغم ذلك، هذا خطأ، خطأ، كلّه خطأ! لم ألاحظ شيئاً ذا طبيعة شريرة.

- ولا أنا. لكن كلّ 'جرس خطر' في رأسي يدقّ محذّراً. لماذا مدفأة يا (واطسون)، لماذا مدفأة؟ أفهم أنّك لاحظت أنّ الأنبوب الممتدّ من القبو متّصل بالمواقد التي في غرف النوم الأخرى؟

- في غرفة نوم واحدة.

- لا، كان هناك النظام نفسه في الغرفة المجاورة؛ حيث ماتت الأم.

- لا أرى أيّ شيء في هذا سوى نظام قديم لمداخن التدفئة.

- وماذا عن الآثار التي على السقف؟

- تقصد لوالب الغبار.

- أعني لوالب السخام.

- السخام! بالتأكيد أنت مخطئ يا (هولمز).

- لمستها، شممتها، فحصتها. كانت لطخات وخطوطاً من سخام الخشب.

- حسناً، من المحتمل أن يكون هناك تفسير طبيعي تماماً.

لبعض الوقت، جلسنا في صمت. وصلت عربتنا إلى مشارف المدينة، وأنا كنت أحدق من النافذة، وأصابعي تطبل من دون سبب على الزجاج نصف المُخفّض، الذي كان قد أصبح مليئاً بالرطوبة، عندما استدعى أفكاري صراخُ رفيقي الحاد. كان يحدّق بثبات من خلفي.

قال بصوت منخفض:

- الزجاج.

على سطح الزجاج المضبّب، أصبحت توجد الآن زخارف معقّدة من الزهرات والخطوط؛ حيث كان إصبعي يتجوّل بلا هدف.

ضرب (هولمز) بيده على جبينه، وفتح النافذة الأخرى بسرعة، وصرخ بأمر ما إلى سائق العربة. حوّلت العربة مسارها، وبينما كان

السائق يجلد حصانه، انطلقنا ونحن نقرقع بعيداً في الظلمة التي تزداد كثافة.

- آه، (واطسون)، (واطسون)، صحيح أنّه ليس هناك مَن هو أعمى مثل أولئك الذين لا يريدون أن يروا!

قالها (هولمز) مقتبساً بمرارة، وعاد للجلوس مرةً أخرى في ركنه.

- كلّ الحقائق كانت هناك، أمامي مباشرة، ورغم ذلك لم يستجب المنطق.

- أيّ حقائق؟

- هناك تسعٌ؛ أربعٌ فقط كان يجب أن تكفي. ها هو رجل من كوبا، لا يقوم فقط بتدريب طيور الكناري بطريقةٍ استثنائية، بل يعرف نداء الطيور الليلية الاستوائية، ويحتفظ بمدفأة في غرفة نومه. هناك نشاط شرّير هنا يا (واطسون). توقّف، يا سائق العربة، توقّف!

كنّا نعبر تقاطع طريقين مزدحمين؛ حيث كانت الكرات الذهبية لمحلّ الرهونات تلمع فوق مصباح شارع. خرج (هولمز)، لكنه بعد بضع دقائق، عاد مرة أخرى واستأنفنا رحلتنا.

قال ضاحكاً:

- من حسن الحظ أننا ما زلنا في المدينة؛ لأنّني أتخيل أن من غير المرجح أن تتجه مكاتب الرهونات في الطرف الشرقي من لندن إلى نوادي الغولف.

بدأت كلامي:



- يا إلهي!

لأغرق في الصمت فحسب، بينما كنت أحدّق في مضرب الغولف الثقيل الذي دفعه في يدي. بدت الظلال الأولى لبعض الرعب الغامض والشنيع وكأنّها تثور وتتسلّل إلى ذهني.

صاح (هولمز)، وهو ينظر إلى ساعته:

- نحن مبكّرون جداً. ساندويتش وكأس من الويسكي في أوّل حانة سيكونان ملائمين.

كانت الساعة، التي على كنيسة القديس نيكولاس، تدقّ عند العاشرة عندما وجدنا أنفسنا، مرّةً أخرى، في تلك الحديقة ذات الرائحة الكريهة. من خلال الضباب، كسر الظلامَ القاتمَ للمنزل ضوءٌ خافتٌ واحد في نافذة علوية. قال (هولمز):

- إنّها غرفة الآنسة (ويلسون). دعنا نأمل أنّ هذه الحفنة من الحصى ستوقظها من دون إزعاج سكان المنزل.

بعدها بلحظة، سُمع صوت نافذة تُفتح.

سأل صوت مرتعش:

- من هناك؟

ردّ صديقي بهدوء:

- إنّه أنا (شيرلوك هولمز). يجب أن أتحدّث معك في الحال يا آنسة (ويلسون). هل هناك باب جانبي؟

- يوجد واحد في الحائط الذي على يسارك. لكن ما الذي حدث؟

- رجاءً، انزلي على الفور، ولا تقولي أيّ شيء لعمّك.

تحسّسنا طريقنا على طول الجدار، ووصلنا إلى الباب بالضبط عندما كان يُفتح ليكشف عن الآنسة (ويلسون). كانت ترتدي روبها، وشعرها يتدلّى على كتفيها، وبينما كانت عيناها الجافلتان تنظران إلينا عبر ضوء الشمعة التي في يدها، رقصت الظلال، وارتعشت على الحائط الذي خلفها.

قالت وهي تلهث:

- ما الأمر يا سيد (هولمز)؟

أجاب صديقي بهدوء:

- كلّ شيء سيكون على ما يرام، إذا نفّذت تعليماتي. أين عمك؟

- إنّه في غرفته.

- جيّد. بينما نشغل أنا والدكتور (واطسون) غرفتك، ستنتقلين إلى غرفة نوم أخيك الراحل. إذا كنت تقدّرين حياتك...

أضاف بجدية:

- ولن تحاولي تركها.

تأوهت قائلة:

- أنت تخيفني!

- ليكن مؤكّداً لديك أنّنا سنعتني بك. والآن سؤالان أخيران قبل أن تذهبي: هل قام عمّك بزيارتك هذا المساء؟

- أجل. أحضر (بيبيرينو) ووضعه مع الطيور الأخرى التي في القفص الذي في غرفتي. قال: كون هذه آخرَ ليلةٍ لي في المنزل، يجب أن أحصل على أفضل ترفيه لديه القدرة على توفيره لي.

- ها! بالضبط هكذا. آخرَ ليلة لك. أخبريني، يا آنسة (ويلسون)، هل تعانين، بأيّ شكل، من المرض نفسه الذي كان يعاني منه كلّ من والدتك وأخيك؟

- قلب ضعيف؟ يجب أن أعترف بذلك، نعم.

- حسناً، سنرافقك بهدوء إلى الطابق العلوي؛ حيث ستذهبين إلى الغرفة المجاورة. تعالَ يا (واطسون).

مسترشدين بنور شمعة (جانيت ويلسون)، صعدنا بصمتٍ إلى الطابق العلوي، ومن هناك إلى حجرة النوم التي فحصها (هولمز) سابقاً.

بينما كنّا ننتظر رفيقتنا لتجمع أغراضها من الغرفة المجاورة، مشى (هولمز) عبر الغرفة، ورفع طرف قطع القماش التي كانت تغطّي الآن قفصي الطيور، وأطلّ على ساكنيها النائمين الصغار.

قال:

- إنّ شرّ الإنسان خلّاقٌ بقدر ما هو غير قابل للقياس.

ولاحظت أنّ وجهه كان صارماً للغاية.

عند العودة من غرفة الآنسة (ويلسون)، بعد أن رأيت أنّها كانت مخبّأة بأمانٍ لبقية الليلة، تبعتُ (هولمز) إلى الغرفة التي كانت تشغلها مؤخراً. كانت غرفة صغيرة لكنّها مؤثّثة بشكلٍ مريح، ومضاءة بمصباح

زيت فضيّ ثقيل. على الفور فوق موقد هولندي مبلّط، كان هناك قفصٌ يحتوي على ثلاثة من طيور الكناري، توقّفت مؤقتاً عن تغريدها، وأمالت رؤوسها الذهبيّة الصغيرة عند اقترابنا.

همس (هولمز) بينما كنّا نجلس على مقاعدنا:

- أعتقد، يا (واطسون)، أنّه سيكون من الأفضل الاسترخاء نصفَ ساعة؛ لذا رجاءً قم بإطفاء الضوء.

اعترضت قائلاً:

- لكن، يا صديقي العزيز، إذا كان هناك أيّ خطرٍ فسيكون هذا عملاً جنونياً!

- لا يوجد خطر في الظلام.

قلت بحدّة:

- ألن يكون من الأفضل لو كنت صريحاً معي؟ لقد أوضحت أن الطيور يتم استخدامها لهدف شرير، ولكن ما هو هذا الخطر الموجود فقط في ضوء المصباح؟

- لديّ أفكاري الخاصة حول هذا الموضوع يا (واطسون)، ولكن من الأفضل أن ننتظر ونرى. أود أن ألفت انتباهك، رغم ذلك، إلى الغطاء ذي المفصلات لفتحة الإيقاد الموجودة في أعلى الموقد.

- يبدو أنّه قطعة طبيعية تماماً.

- بالضبط كذلك، لكن ليس هناك شيء من الأهمية في حقيقة أنّ فتحة التأجيج لموقد حديدي يجب أن تكون مزوّدة بغطاء من الصفيح؟

صرخت قائلاً عندما انبثق نورُ الفهم عليّ:

- يا إلهي، يا (هولمز)! تقصد أنّ هذا الرجل (ويلسون) قد استخدم الأنابيب المتصلة الممتدّة من الموقد الذي في القبو إلى تلك الموجودة في غرف النوم لنشر سمّ قاتل للقضاء على عائلته وأقاربه، ومن ثَمَّ الحصول على الممتلكات؛ ولهذا السبب لديه مدفأة في غرفة نومه. فهمت كلّ شيء الآن.

- حسناً، أنت لست مخطئاً كثيراً يا (واطسون)، رغم أنّني أتخيل أنّ السيد (ثيوبولد) أكثر براعة ممّا تعتقد، فهو يمتلك صفتين أساسيتين للقاتل الناجح: انعدام الرحمة والخيال، لكن الآن قم بإخماد الضوء كرجل طيّب، ولفترة من الوقت دعنا نسترخِ. إذا كانت قراءتي للمشكلة صحيحة، فقد يتمّ اختبار أعصابنا إلى أقصى حدودها قبل أن نرى فجر الغد.

استرخيتُ في الظلام، واستمددتُ بعض الراحة من تفكيري في أنّه منذ قضية العقيد (سيباستيان موران) كنت أحمل مسدسي معي في جيبي، بحثتُ في ذهني عن تفسير ما من شأنه أن يفسّر التحذير الوارد في كلمات (هولمز).

لكن لا بد من أنّني كنت مرهقاً أكثر ممّا كنت أتخيّل. أصبحت أفكاري مرتبكة أكثر فأكثر، وأخيراً غفوت.

كانت لمسةٌ على ذراعي هي التي أيقظتني. كانت قد تمّت إعادة إضاءة المصباح، وكان صديقي ينحني فوقي، وكان ظلّه الأسود الطويل ساقطاً على السقف.

همس قائلاً:

- آسف على إزعاجك يا (واطسون)، لكنّ الواجب ينادي.

- ماذا تريد مني أن أفعل؟

- اجلس وأصغِ. (بيبيرينو) يغرّد.

كانت سهرة سأتذكّرها وقتاً طويلاً. قام (هولمز) بإمالة تظليل المصباح؛ حيث سقط الضوء على الجدار المقابل ليكسره كلّ من النافذة والموقد المبلَّط مع قفص الطيور المعلّق عليه. كان الضباب قد ازداد سمكاً، وأصبحت الأشعة المنبعثة من المصباح، التي كانت ترتشح من خلال زجاج النافذة، تضيع في السحب المضيئة التي كانت تدور وتغلي على الألواح.

اسودّ عقلي بهاجس من الشر. كنت سأجد محيطنا سوداوياً بما فيه الكفاية من دون الصوت الغريب والمخيف الذي كان يرتفع ويخفت قادماً من قفص الكناري.

لقد كان نوعاً من الصفير، الذي يبدأ بتغريد حلقيّ منخفض ثمّ يصعد ببطء إلى وتر واحد كان يرنّ في أرجاء الغرفة مثل نوتة من كأس نبيذ ضخم، صوت فاتن للغاية في تكراره إلى درجة أنّ الحاضر، من دون أن يدرك تقريباً، يبدو كأنه يذوب ويختفي، وأنّ خيالي يصل إلى ما وراء تلك النوافذ المكسوّة بالضباب إلى العمق المظلم والأغنّ لغابة غريبة عجيبة.

لقد فقدتُ كلَّ احساس بالوقت. كان السكون الذي أعقب التوقّف المفاجئ لتغريد الطائر هو الذي أعادني إلى الواقع. ألقيتُ نظرةً

خاطفة عبر الغرفة، وفي لحظة، خفق قلبي خفقةً قويّة، وبعدها بدا كأنّه قد توقّف تماماً عن النبض.

كان غطاء الموقد يرتفع ببطء.

سيتّفق أصدقائي على أنّني لست رجلاً عصبياً ولا حساساً، لكن يجب أن أعترف بأنّه بينما كنت أجلس هناك وأنا أمسك بجانبي كرسيي، وأحدق في الشيء المروّع الذي كان يتسلّق تدريجياً، رفضت أطرافي مؤقتاً أداء وظائفها.

مال الغطاء إلى الخلف بمقدار بوصة واحدة أو أكثر، ومن خلال الفجوة، التي صُنعت جراء ذلك، كانت هناك كتلة متموّجة من أشياء صفراء شبيهة بالعصي تتسلّق وتتخبط بحثاً عن ممسك. وبعدها، وفي ومضة، أصبحت في الخارج واقفة بلا حراك على سطح الموقد.

رغم أنّني كنت دائماً أنظر برعب إلى العناكب الذئبية[1]، التي تأكل الطيور في أمريكا الجنوبية، إلا أنّها تقلّصت لتصبح بلا أهمية عند مقارنتها بالمخلوق البغيض الذي كان يواجهنا الآن في الطرف الآخر من تلك الغرفة المضاءة بضوء المصباح.

كان أكبر في امتداده من طبق عشاءٍ كبير، ذا جسم صلب، أملس، أصفر اللون، محاطاً بأرجل كانت ترتفع فوقه. وكان يعطي انطباعاً مخيفاً بأنّ ذلك الشيء كان مقرفصاً بهدف القفز.

كان خالياً تماماً من الشعر باستثناء خصلات من الشعيرات القصيرة والخشنة حول مفاصل الساق، وفوق لمعان فكّيه السامّين

(1) الرتيلاء.

الضخمين، أشعّت مجموعات من العيون الخرزية تحت الضوء مع تقزح أحمر خبيث.

همس (هولمز) قائلاً:

- لا تتحرك يا (واطسون).

وكانت هناك نبرة رعبٍ في صوته لم أسمعها من قبل.

أثار الصوتُ المخلوقَ لأنّه، بقفزة واحدة سريعة كالبرق، قفزَ من على الموقد إلى أعلى قفص العصافير، وهو يحاول الوصول إلى الحائط، أطلق صوت أزيز في أرجاء الغرفة وعلى السقف بسرعة محمومة مروّعة يكاد يمكن للعين أن تتبعها.

اندفع (هولمز) إلى الأمام مثل رجل ممسوس.

صرخ بصوتٍ أجشّ:

- اقتله! اسحقه!

ممطراً الشكلَ المشوّش بالضربةِ تلو الضربة بعصا الجولف التي معه، كان يسرع عابراً الجدران.

خنق الغبار الخارج من الجص المكسور الهواءَ، وتحطّمت طاولة عندما ألقيتُ نفسي على الأرض عندما عبر العنكبوت الضخم الغرفة بقفزة واحدة، واستدار ليواجهنا. قفز (هولمز) من فوقي، وهو يضرب بعصاه.

صرخ قائلاً:

- ابقَ حيث أنت!

وبينما كان صوته يرنّ في الغرفة، صوت ضربة المكتوم... صوت ضربة... ثمّ كُسر صوتُ الضرباتِ بصوتِ سحقٍ رهيب. للحظة، بقي المخلوق في مكانه، ثمّ انزلق ببطء إلى الأسفل، وتمدّد مثل فوضى من البيض المهشّم، مع ثلاثة أرجل رفيعة كالعظام كانت لا تزال ترتعش، وتحاول شدّ الأرضية.

- الحمد لله أنّه أخطأك عندما قفز!

قلتها وأنا ألهث، وأحاول الوقوف.

لم يرد، وعندما نظرتُ إلى الأعلى لمحت وجهه المنعكس على مرآة على الحائط. بدا شاحباً ومجهداً، وكانت هناك صلابةٌ غريبة في تعابير وجهه.

قال بهدوء:

- أخشى أنّ الأمر عائد إليك يا (واطسون). إنّ له زوجاً.

استدرتُ بسرعةٍ لأجد في استقبالي مشهداً سوف أتذكّره بقيّة أيام حياتي. كان (شيرلوك هولمز) واقفاً بسكونٍ تامّ على بعد قدمين من الموقد، وفوقه، واقفاً على قوائمه الخلفيّة، وجسده البغيض يرتجف ليستعدّ للقفز، كان واقفاً هناك عنكبوت آخر بشع.

عرفت تلقائياً أنّ أيّ حركة مفاجئة من شأنها أن تسرّع فقط من قفزة المخلوق؛ لذا، مخرجاً مسدسي بحذر من جيبي، أطلقتُ النارَ على الهدف مباشرة.

من خلال دخّان البارود، رأيتُ ذلك الشيء ينكمش على نفسه، ثمّ ينقلب ببطء إلى الخلف، ويسقط من خلال الغطاء المفتوح للموقد. كان هناك صوتُ كشطٍ وانزلاقٍ يتلاشى بسرعة ليصبح صمتاً.

صرخت:

- لقد سقط في الماسورة.

وأنا أدرك أن يديّ كانتا ترتعشان الآن تحت ردّ فعل قوي.

- هل أنت بخير يا (هولمز)؟

نظر إليّ وكان هناك ضوء استثنائيّ في عينيه.

قال بجدية:

- شكراً لك يا صديقي العزيز! لو أنّني تحرّكت حينها... ولكن ما هذا؟

انغلق باب بقوّة في الأسفل، وبعد لحظة، سمعنا صوت طقطقة أقدام سريعة على الطريق المفروش بالحصى.

صرخ (هولمز) وهو يُسرع نحو الباب:

- إلحق به! لقد أنذرتْهُ طلقتك بأنّ اللعبة قد انتهت. يجب ألا يهرب!

لكنّ القدر قضى بخلاف ذلك. رغم أنّنا هرعنا أسفل السلالم، وخرجنا إلى الضباب، إلا أنّ (ثيوبولد ويلسون) كان قد تحرّك قبلنا بكثير، وكان لديه ميزة معرفة المكان. لفترة من الوقت، تبعنا صوت خطواته الخافت وهو يجري على طول الممرات الخالية باتجاه النهر، لكنّ هذه الخطوات تلاشت على مسافة بعيدة.

قال (هولمز) وهو يلهث:

- لا فائدة من هذا يا (واطسون). لقد فقدنا رجلنا، هذا هو الوقت الذي يمكن أن تكون فيه الشرطة الرسميّة مفيدة. ولكن أصغِ! بالتأكيد كانت تلك صرخة؟

- ظننتُ أنّني قد سمعت شيئاً.

- حسناً، لا أمل في النظر مسافةً أبعد في الضباب. دعنا نعُدْ ونُطمئن هذه الفتاة المسكينة بتأكيد أنّ مشاكلها قد انتهت الآن.

صرختُ بينما كنّا نسير في الطريق نفسه الذي أتينا منه متجهين نحو المنزل:

- لقد كانا كائنين كابوسيين يا (هولمز)، ومن نوع مجهول.

قال:

- لا أعتقد ذلك يا (واطسون). لقد كان هذا عنكبوت 'غاليوديس' رعب الغابات الكوبيّة. ربما يكون من حسن حظّ بقيّة العالم أنّه لا يوجد في أيّ مكان آخر. هذا المخلوق ليليّ في العادة، وما لم تكذّبني ذاكرتي، هو يمتلك القدرة في الواقع على كسر العمود الفقري للمخلوقات الأصغر حجماً بضربةٍ واحدة من فكّيه.

ثمّ تابع كلامه:

- تذكّر أنّ الآنسة (جانيت) ذكرت أنّ الجرذان قد اختفت منذ عودة عمّها. من دون شك، إنّ (ويلسون) قد أحضر الوحشين معه عندما عاد، وبعدها خرج بفكرة تدريب بعض طيور الكناري على تقليد

تغريد بعض الطيور الليلية الكوبية، التي اعتادت عناكب غاليوديس التغذّي عليها. الآثار التي على السقف كانت ناجمةً، بطبيعة الحال، عن التصاق السخام بأرجل العناكب بعد أن تسلّقت المداخن. ربما يكون من حسن حظّ المحقّق الاستشاري أنّ منفضة الخادم العادية نادراً ما تتخطّى ارتفاع رفّ الموقد.

- بالفعل، لا أجد أيّ عذرٍ لبطئي المؤسف في حلّ هذه القضية؛ لأن الوقائع كانت أمامي منذ البداية، وكانت القضية برمّتها بدائيّة في بنيتها.

- ورغم ذلك، حتى نوفي (ثيوبولد ويلسون) حقه، يجب على المرء أن يعترف بذكائه شبه الشيطاني. بمجرّد وضع هذه الأشياء المرعبة في الموقد الذي في القبو، ما الذي سيكون أكثر سهولة من ترتيب مدخنتين عاديتين تتّصلان بغرف النوم التي في الأعلى؟ من خلال تعليق الأقفاص فوق المواقد، تعمل المداخن نفسها كمكبّر صوت لتغريد الطيور، ومسترشدةً بغريزتها المفترسة، تصعد هذه المخلوقات دائماً أيّ ماسورة تؤدّي إليها. بمجرّد أن ابتكر (ويلسون) بعض الوسائل لجذبها مرةً أخرى إلى عشّها، مثّلت تلك طريقةً آمنةً نسبياً للتخلّص من أولئك الذين وقفوا بينه وبين الممتلكات.

قاطعته قائلاً:

- إذاً لدغتها مميتة؟

- بالنسبة إلى شخصٍ في حالة صحيّة ضعيفة، ربما يكون الأمر كذلك، لكن هنا يكمن المكر الشيطاني للمخطّط يا (واطسون). لقد

كان منظر ذلك الشيء، وليس لدغته، رغم أنّه قد يكون سامّاً، هو الذي اعتمد عليه لقتل ضحيّته. هل يمكنك أن تتخيّل تأثيره على امرأة مسنّة، ولاحقاً على ابنها، وكلاهما يعاني من الأرق ومرض في القلب، عندما يظهر هذا المشهد المروّع من أعلى الموقد وسط تغريدٍ يبدو بريئاً؟ لقد اختبرنا هذا بأنفسنا، رغم أنّنا رجال أصحاء. لقد قتلهم بالتأكيد مثل رصاصةٍ اخترقت قلوبهم.

- هناك شيء واحد لا أستطيع أن أفهمه يا (هولمز). لماذا ناشد سكوتلانديارد؟

- لأنّه رجل ذو أعصاب حديدية. كانت ابنة أخته خائفة غريزياً، وعندما وجد أنّها متعنّتة في نيّتها المغادرة، خطّط لقتلها على الفور، وبالطريقة نفسها.

- بمجرّد الانتهاء من ذلك، من سيجرؤ على توجيه أصابع الاتهام إلى السيد (ثيوبولد)؟ ألم يناشد سكوتلانديارد، بل حتى طلب مساعدة السيد (شيرلوك هولمز) ذاته لإرضاء الجميع؟ ماتت الفتاة بنوبةٍ قلبيةٍ مثل الآخرين، وكان عمها سيتلقّى التعازي.

- تذكر غطاء الموقد المغلق بالقفل في القبو، وانظر بإعجاب إلى برودة أعصابه عندما عرض إحضار المفتاح. كانت هذه خدعة، بطبيعة الحال، لأنّه كان سيكتشف أنّه قد 'فقدها'. ولو أنا أصررنا وفتحنا ذلك القفل بالقوة، أفضّل عدم التفكير في ما كنّا سنجده متعلقاً بياقتينا.

لم يُسمع عن (ثيوبولد ويلسون) مرةً أخرى بعدها، لكن ربّما يكون موحياً أنّه بعد يومين تقريباً، تمّ انتشال جثّة رجلٍ من نهر التايمز. كانت

الجثّة مشوّهة بشكل يتعذّر معه التعرّف على صاحبها، ربّما بواسطة مروحة سفينة، وفتّشت الشرطة جيوبه من دون جدوى بحثاً عن شيء لتحديد الهوية. ورغم ذلك، لم تكن تحتوي على أيّ شيء، باستثناء دفتر ملاحظات صغير مليء بملاحظات صغيرة كُتِبت بسرعة عن فترة الحضانة لفصيلة الـ«فرينجيلا كاناريا».

قال (شيرلوك هولمز) عندما قرأ التقرير:

- إنّه الرجل الحكيم من يربّي النحل. أنت تعرف مكانك معهم، وهم على الأقل لا يحاولون تقديم أنفسهم كشيء يخالف ماهيتهم.

في هذا العام الجدير بأن يُذكر '93، شغلت سلسلةٌ متتالية من القضايا الغريبة والمتباينة انتباهه، وهي تتراوح من... الموت المفاجئ للكاردينال (توسكا) وصولاً إلى إلقاء القبض على (ويلسون) مدرّب الكناري السيّئ السمعة *، ما أزال بقعة من الطاعون من الطرف الشرقي للندن.

---

* في قضية (ويلسون)، لم يقم (هولمز) بالقبض على (ويلسون) فعلياً؛ حيث إنّ (ويلسون) غرق. كان هذا خطأً اعتيادياً لـ(واطسون) في إشارته المتسرّعة إلى قضية «بيتر الأسود».

من «بيتر الأسود».

12
مغامرة الأرملة الحمراء

علّق صديقي (شيرلوك هولمز) قائلاً:

- استنتاجاتك صحيحة تماماً يا عزيزي (واطسون)؛ البؤسُ والفقر هما المنبت الطبيعي لجرائم العنف.

قلت متفقاً:

- بالضبط هكذا، في الحقيقة، كنت أفكر فقط...

توقفت عن الكلام لأحدّق فيه بدهشة. صرختُ قائلاً:

- يا إلهي، يا (هولمز)، هذا كثير جداً. كيف لك أن تعرف أعمق خواطري!

مال صديقي إلى الخلف في كرسيه، وجعل أطراف أصابعه تتلامس معاً، وتفحّصني من تحت جفنيه الثقيلين المتدلّيين.

قال بضحكة خافتة:

- قد أنصفُ قدراتي المحدودة بشكل أفضل، ربّما، برفضِ الإجابة عن سؤالك. لديك موهبة معيّنة، يا (واطسون)، في إخفاء عدم قدرتك على رؤية ما هو واضح من خلال الطريقة الشهمة التي تقبل بها دائماً تفسيرَ سلسلة من التفكير البسيط والمنطقي في الوقت ذاته.

- لا أرى كيف يمكن للتفكير المنطقي أن يمكّنك من تتبّع مسار عملياتي الذهنية.

أجبته بذلك، وأنا مغتاظ قليلاً من أسلوبه الاستعلائي.

- لم تكن هناك صعوبة كبيرة في هذا. لقد كنت أراقبك في الدقائق القليلة الماضية. كان وجهك خالياً تماماً من التعابير إلى أن وقعت عيناك، بينما كانتا تتجولان في أنحاء الغرفة، على خزانة الكتب، واستقرتا على رواية (البؤساء) لـ(هوغو)، التي تركت انطباعاً عميقاً في نفسك عندما قرأتها العام الماضي.

أصبحت مستغرقاً في التفكير، وضاقت عيناك، وكان من الواضح أنّ عقلك كان ينجرف مرةً أخرى إلى تلك الملحمة الرهيبة المروّعة للمعاناة الإنسانية. بعد وقت طويل، رفعت نظرك إلى النافذة بجوانبها المتمثّلة في ندف الثلج والسماء الرمادية والسقوف المتجمّدة الكئيبة، وبعدها تحرّك نظرك ببطء باتجاه رفّ الموقد، واستقرّ على المطواة[1] التي أثقب بها مراسلاتي التي لم يُجَب عليها.

أصبح العبوس، الذي على وجهك، أكثر قتامةً، وبلا وعي هززتَ رأسك بيأس. لقد كان ذلك ربطاً للأفكار. المرحلة التحتَ-الثالثة

---

(1) السكين أو المدية القابلة للطي.

الرهيبة لـ(هوغو)، برد الشتاء بسبب الفقر في الأحياء الفقيرة، فوق الوهج الدافئ لنارنا المتواضعة، شفرة السكين المجرّدة.

تعمّقت تعابير وجهك لتصبح حزينة؛ ويأتي الحزن مع فهم السبب والنتيجة في المأساة الإنسانية التي لا تتغيّر. عندها تجرّأتُ على الاتفاق معك.

اعترفتُ قائلاً:

- حسناً، يجب أن أعترف بأنّك قد تتبّعت أفكاري بدقّة غير عادية. عيّنة رائعة من الاستدلال يا (هولمز).

- بدائيّة يا عزيزي (واطسون).

كان العام 1887 يقترب من نهايته. كانت القبضة الحديدية للعواصف الثلجية الهائلة، التي بدأت الأسبوع الأخير من شهر ديسمبر، قد أطبقت على الأرض، وتجاوزت نوافذ مسكن (هولمز) في شارع بيكر، ما أدى إلى مشهد قاتم من السماء الرمادية المكفهرّة والقرميد المغطى باللون الأبيض، الذي يمكن رؤيته بشكل باهت من خلال ستارة من ندف الثلج.

على الرغم من أنّه كان عاماً لا يُنسى بالنسبة إلى صديقي، كان ذا أهمية أكبر بالنسبة إلي؛ لأنّه لم يمضِ سوى شهرين على إعطاء الآنسة (ماري مورستون) لي شرفَ جمعِ قدرِها بقدري.

لم يتمّ هذا التغيير من حياة العزوبية، بوصفي جرّاحاً سابقاً في الجيش يقبض نصفَ الأجرِ المعتاد، إلى حالة النعيم في الزواج من دون تعليقاتٍ ما غير مبررة ومثيرة للسخرية صدرت عن (شيرلوك هولمز)، لكن كوننا، أنا وزوجتي، يمكن أن نشكره على حقيقة أننا وجدنا بعضنا

البعض، كان بإمكاننا قبول موقفه الساخر بتسامح، وبتفهم أيضاً.

كنت قد ذهبت إلى مسكننا القديم بعد ظهر هذا اليوم، بالتحديد في 30 ديسمبر، لأمضي بضع ساعات مع صديقي، والاستفسار عمّا إذا كانت هناك أيّ قضية جديدة مثيرة للاهتمام قد جاءته منذ زيارتي السابقة. كنت قد وجدته شاحباً وفاتر الهمّة، وروبه مسدلاً على كتفيه، والغرفة تفوحُ منها رائحة دخان التبغ الأسود المفضل لديه، الذي توهّجت من خلاله النار التي في الموقد مثل كانون في الضباب.

أجاب بصوت حادّ فيه شكوى:

- لا شيء، باستثناء بعض الاستفسارات الروتينية يا (واطسون)، يبدو أنّ الفن الإبداعي في الجريمة قد أصبح ضامراً، منذ أن تخلّصت من الراحل المأسوف عليه (بيرت ستيفنز).

بعدها، وهو يغرق في الصمت، تكوّر على نفسه على كرسيه بشكل كئيب، ولم نتبادل أيّ كلمةٍ أخرى إلى أن قاطعت أفكاري فجأةً الملاحظة التي بدأت بها هذه الرواية.

عندما نهضت لكي أرحل، نظر إليّ بعينٍ ناقدة.

قال:

- أرى يا (واطسون) أنّك تدفع الثمن فعلياً. حالة عظْمة فكّك اليسرى المترهلة تشهد بشكلٍ مؤسفٍ على أنّ أحدهم قد غيّر مكان مرآة الحلاقة الخاصة بك. علاوةً على ذلك، أنت منغمسٌ في تبذير المال.

- أنت تظلمني بشكل صارخ.

- ماذا، بسعر الشتاء؛ خمسة بنسات للزهرة! تخبرني عروتك أنّك كنت تضع زهرة في وقتٍ لا يتجاوز أمس.

أجبتُه بشيءٍ من المرارة:

- هذه هي المرة الأولى التي أراك فيها بائساً يا (هولمز).

انفجر بالضحك بقوّة. صرخ قائلاً:

- يا صديقي العزيز، يجب أن تعذرني! إنّ من غير العدل أن أعاقبك؛ لأنّ هناك فائضاً من الطاقة العقليّة غير المستهلكة يميل إلى اللعب على أعصابي. لكن مرحباً، ما هذا!

كان هناك خُطا ثقيلة تصعد السلالم. لوّح لي صديقي طالباً منّي العودةَ للجلوس في مقعدي.

قال:

- ابقَ لحظةً يا (واطسون). إنّه (غريغسون)، وقد تكون اللعبة القديمة قد ابتدأت مرة أخرى.

- (غريغسون)؟

- لا لبسَ في صوتِ وقع الأقدام المنتظم هذا. إنّها ثقيلة للغاية لتكون خُطا (ليستريد). ورغم ذلك معروفة بالنسبة إلى السيدة (هدسون) وإلا كانت قد رافقته. إنه (غريغسون).

عندما أنهى كلامه، صدر صوت طرق على الباب، ودخل إلى الغرفة شخصٌ مغطى حتى أذنيه برداء ثقيل. ألقى زائرنا قبعته المستديرة على أقرب كرسيّ، وفك الوشاح الملفوف حول الجزء السفلي من

وجهه، وكشف عن الشعر الكتاني[1] والملامح الطويلة الشاحبة لمحقّق سكوتلانديارد.

- آه، (غريغسون).

حيّاه (هولمز) وهو ينظر إليّ نظرة إغاظة.

- لا بد من أن مسألة مستعجلة هي التي جعلتك تخرج في هذا الطقس القاسي، لكن انزع رداءك، يا رجل، وتعالَ إلى النار.

هزّ ضابط الشرطة رأسه. أجاب وهو ينظر إلى ساعة جيب فضيّة كبيرة:

- لا يمكننا أن نضيّع لحظةً واحدةً. سيغادر القطار المتّجه إلى (ديربيشاير) في غضون نصف ساعة، ولدي عربة بعجلتين تنتظر في الأسفل. رغم أنّ القضيّة لا ينبغي أن تكون صعبة بالنسبة إلى ضابط بخبرتي، إلا أنّني سأكون سعيداً بصحبتك.

هل هناك شيء مثير للاهتمام؟

رد (غريغسون) بعنف وباقتضاب:

- جريمة قتل يا سيد (هولمز)، ورسالة استثنائية في ذلك، بحسب برقيّة من الشرطة المحليّة. يبدو أنّ اللورد (جوسلين كوب)، نائب لورد المقاطعة، قد تمّ العثور عليه مذبوحاً في قلعة ارنزوورث. إنّ سكوتلانديارد قادرة تماماً على حلّ جرائم من هذا النوع، لكن في

(1) لون أصفر شاحب أو بنيّ ضارب إلى الصفرة.

ضوء المصطلحات الغريبة الواردة في برقيّة الشرطة، خطر لي أنّك قد ترغب في مرافقتي. هل ستأتي؟

انحنى (هولمز) إلى الأمام، وأفرغ النعال الفارسي في كيس التبغ الخاص به، ووقف بسرعة.

صرخ قائلاً:

- أعطني لحظةً لأحزم ياقةً نظيفة وفرشاة أسنان. لديّ واحدة إضافيّة لك يا (واطسون). لا يا صديقي العزيز، لا تقل حتّى كلمة واحدة. أين سأكون من دون مساعدتك؟ اكتب ملاحظةً إلى زوجتك، وستقوم السيدة (هدسون) بتسليمها. على الأغلب سنعود غداً. الآن، (غريغسون)، أنا معك، ويمكنك إخباري بالتفاصيل أثناء رحلتنا.

كان الحارس يلوح بعلمه[1] عندما اندفعنا عند المنصّة في محطّة (سانت بانكراس)، وفتحنا باب أوّل عربةِ مدخّنينَ فارغة. كان (هولمز) قد أحضر معه ثلاثة من بسط السفر[2]، وبينما كان القطار يشقّ طريقه وهو يهدر عبر ضوء نهار الشتاء الباهت، استرحنا في الأركان الخاصة بنا.

- حسناً يا (غريغسون)، سأكون مهتماً بسماع التفاصيل.

قالها (هولمز)، ووجهه النحيف المتلهّف مؤطّر بأغطية الأذنين الملحقة بقبعة صيد الغزلان التي يرتديها، ودوّامة من الدخان الأزرق تتصاعد من غليونه.

---

(1) التلويح بالعلم للتنبيه إلى أن القطار على وشك المغادرة.

(2) مثل أغطية للتدفئة أثناء السفر.

- لا أعرف شيئاً أكثر ممّا قلته لك.

- رغم ذلك، استخدمت كلمة «استثنائي»، وأشرت إلى البرقيّة المرسلة من قبل شرطة المقاطعة على أنّها «غريبة». هلّا أوضحت لطفاً.

- لقد استخدمتُ كلا المصطلحين للسبب نفسه: البرقيّة التي أرسلها المفتّش المحلي أوصت بأن يقرأ ضابط سكوتلانديارد دليلَ مقاطعة (ديربيشاير) وفهرسَها الجغرافي. هذا اقتراح غير عادي!

- يجب أن أقول إنّه اقتراح حكيم. ماذا فعلت بخصوص ذلك؟

- يذكر الفهرس الجغرافي فقط أنّ اللورد (جوسلين كوب) هو نائب اللورد وقطب المقاطعة، متزوّج، وليس له أطفال، ومشهور بالتركات التي أوصى بها لجمعيات الآثار المحلية. أمّا بالنسبة إلى الدليل، فهو معي هنا.

أخرج كتيّباً من جيبه، وقلّب صفحاته بسرعة، ثم تابع كلامه:

- ها نحن ذا. قلعة ارنزوورث بُنيت في عهد إدوارد الثالث. نافذة من الزجاج الملوّن من القرن الخامس عشر للاحتفال بمعركة أجينكورت[1]. تمت معاقبة عائلة (كوب) للاشتباه في نزعتها الكاثوليكية بأمرٍ ملكي 1574. يُفتح المتحف للجمهور مرةً واحدةً في السنة. يحتوي على مجموعة كبيرة من الآثار الحربية، وغيرها من الآثار، بما في ذلك المقصلة الصغيرة التي بُنيت في الأصل في (نيم)[2] خلال الثورة

---

(1) معركة أجينكورت (1415م): واحدة من أهمّ معارك حرب المئة عام بين إنجلترا وفرنسا.

(2) مدينة تقع جنوبي فرنسا.

الفرنسية لإعدام سلف للمالك الحالي من جهة أمه. لم تُستخدم قط بسبب هروب الضحية المقصودة، وتم شراؤها لاحقاً على أنّها أثرٌ قديم من قبل العائلة بعد حروب نابليون، وتمّ إحضارها إلى ارنزوورث. أف! لا بد أنّ ذلك المفتش المحلي قد فقد رشده يا سيد (هولمز). لا شيء يمكن أن يساعدنا هنا.

- دعنا نؤجّل إطلاق الأحكام. لم يكن الرجل ليقدّم مثل هذا الاقتراح من دون سبب. في هذه الأثناء، أوصي بلفت انتباهك إلى الغسق الذي يهبط الآن على منظر الأرض. أصبح كلّ ما هو مادّي غامضاً وغير واضح، ورغم ذلك يبقى وجودهم الراسخ، مع أنّه يكاد يكون مخفياً عن حواسنا البصرية. هناك الكثير لنتعلمه من الغسق.

ابتسم (غريغسون)، وغمز لي، وهو يقول:

- هكذا تماماً يا سيد (هولمز). هذا شاعري للغاية، أنا متأكد من ذلك. حسناً، أنا أفضّل أخذ قيلولة قصيرة.

بعد نحو ثلاث ساعات نزلنا في محطّة صغيرة على جانب الطريق. كان الثلج قد توقّف، وخلف أسطح منازل القرية، امتدّت المنحدرات الطويلة المقفرة من أراضي (ديربيشاير)، البيضاء المتلألئة تحت ضوء القمر المكتمل، بعيداً نحو خط السماء. سارع نحونا رجل ممتلئ الجسم مقوّس الساقين متلفّع بقماش اسكتلندي منقوش بالمربعات.

استقبلنا بفظاظة:

- أنت من سكوتلانديارد، على ما أعتقد؟

وأضاف، رداً على سؤال (غريغسون):

- لقد تلقّيت برقيّتك التي أُرسلت رداً على برقيّتي، ولديّ عربة تنتظر في الخارج. نعم، أنا المفتش (داوليش)، لكن من هذان السيدان؟

بدأ رفيقنا كلامه:

- لقد رأيتُ أنّ سمعة السيد (شيرلوك هولمز)...

قاطعه الرجل المحلي، وهو ينظر إلينا ببريقٍ من العداء في عينيه القاتمتين:

- لم أسمع عنه قط. هذه قضيّة خطيرة، ولا يوجد فيها مكان للهواة. لكنّ الجوّ بارد جداً لكي نتجادل هنا، وإذا وافقت لندن على وجوده، فمن أنا لأرفض وجوده؟ من هنا لو سمحتم.

كانت هناك عربة مغلقة تقف أمام المحطة، وبعدها بلحظة كنّا قد خرجنا من الساحة، وكنّا نسير بسرعة، لكن بصمت، في شارع القرية الرئيس.

قال المفتش (داوليش) متذمراً:

- سيكون هناك سكنٌ لك في نزل «كوينز هيد»، لكنّ أولاً إلى القلعة.

قال (غريفسون):

- سأكون سعيداً إذا سمعتُ وقائع هذه القضية، وسببَ هذا الاقتراح غير العادي أبداً الوارد في برقيّتك.

أجاب الآخر بابتسامة خبيثة:

- الحقائق بسيطة بما فيه الكفاية. لقد قُتل سيادته ونحن نعرف من فعل هذا.

- آه!

- النقيب (جاسبر لوثيان)، ابن عمّ الرجل المقتول، اختفى على عجل. ومن المعروف هنا، في هذه الأنحاء، أنّ الرجل فيه لمسة من الشيطان، عدوانيّ مع الزجاجة[1]، أو الحصان، أو أقرب امرأة. لم يكن مفاجئاً لأيٍّ منّا أن ينتهي الأمر بالنقيب (جاسبر) بذبح من ينفق عليه، ورأس عائلته.

أنهى كلامه بهدوء:

- أجل، الرأس كلمة اختِيرت بشكل حسن.

- إذا كانت لديك قضية واضحة، فما هذا الهراء بخصوص كتاب الدليل؟

انحنى المفتش (داوليش) إلى الأمام، بينما انخفض صوته ليصبح تقريباً همساً وهو يقول:

- هل قرأته؟ إذاً قد يثير اهتمامك معرفة أنّ اللورد (جوسلين كوب) قد أُعدِمَ باستخدام مقصلة أسلافه.

تركتنا كلماته في صمت بارد.

أخيراً سأل (شيرلوك هولمز):

- ما الدافع الذي يمكن أن تقترحه لجريمة القتل هذه، والطريقة الهمجية المستخدمة؟

---

(1) الظاهر أن المقصود زجاجة الخمر.

- ربما شجار شرس. ألم أخبرك بالفعل أنّ النقيب (جاسبر) فيه لمسة من الشيطان؟ لكن في القلعة هناك، وتبدو مكاناً مناسباً لأعمال العنف والظلام.

كنا قد انعطفنا من الطريق الريفي لندخل إلى طريق معتم يصعد بين أكوام الثلج المتراكمة على منحدر أرض بور. على القمة، بدا مبنىً كبير، كانت جدرانه وأبراجه كئيبة ورمادية تحت سماء الليل. بعدها ببضع دقائق، هبطت عربتنا تحت قوس الجدار الخارجي للقلعة، وتوقفت في فناء.

عندما طرق المفتش (داوليش) الباب، فتح البابَ الضخم المصنوع من خشب البلوط رجلٌ طويل منحنٍ يرتدي زيَّ رئيس الخدم، وهو يحمل شمعة فوق رأسه، أطلّ ونظر إلينا، وكان الضوء يشعّ على عينيه المرهقتين ذاتَي الحواف الحمراء، وعلى لحيته المهملة.

صرخ محتجاً:

- ماذا، أربعة منكم! ليس من الصواب أن يتمّ إزعاج سيادتها بهذه الطريقة في مثل هذا الوقت من الحزن بالنسبة إلينا جميعاً.

- هذا يكفي يا (ستيفن). أين سيادتها؟

ارتجف لهيب شعلة الشمعة. جاء الردّ، وكان هناك شيءٌ مثل النحيب في الصوت العجوز:

- ما زالت معه. لم تتحرّك أبداً. لا تزال جالسةً هناك على الكرسي الكبير وهي تحدّق فيه، كما لو أنّها قد غرقت بسرعةٍ في النوم، وتلك العينان الرائعتان مفتوحتان على اتساعهما.

- أنت لم تلمس شيئاً، بطبيعة الحال؟

- ولا شيء. كلّ شيء كما كان.

قال (داوليش):

- فلنذهب أولاً إلى المتحف؛ حيث ارتُكِبَت الجريمة؛ إنه في الجانب الآخر من الفناء.

كان يتحرّك مبتعداً نحو طريق خالٍ يمرّ عبر الحصى عندما أمسكت يد (هولمز) من ذراعه. صرخ بشكل ملح:

- كيف هذا! المتحف على الجانب الآخر، ورغم ذلك سمحت لعربة بالمرور عبر الفناء، وللناس بالتدافع والدوس على الأرض مثل قطيع من الجاموس.

- ماذا إذاً؟

رفع (هولمز) ذراعيه كالمناشد إلى القمر.

- الثلج، يا رجل، الثلج! لقد دمّرتَ أفضل رفيقٍ مساعد لك.

- لكنّني أقول لكم إنّ جريمة القتل قد ارتُكِبَت في المتحف. ما علاقة الثلج بهذا؟

زفر هولمز منفّساً عن تذمّر شديد الكآبة، بعدها تبعنا جميعاً المحقّق المحلي عبر الفناء إلى مدخل أعلاه مقوّس.

لقد رأيت العديد من المشاهد المروّعة خلال شراكتي مع (شيرلوك هولمز)، لكن لا يمكنني أن أتذكّر شيئاً يفوق في الرعب ذلك المشهد

الذي لقي أعيننا داخل تلك الغرفة القوطية الرمادية. كانت غرفةً صغيرةً ذات سقف معقود مضاء بواسطة مجموعات من الشمعات الرفيعة في شمعدانات جدارية حديدية.

كانت الجدران معلّقة بمجموعات من الدروع وأسلحة العصور الوسطى، وعلى حوافها صناديق ذات أغطية زجاجية مليئة بالمخطوطات القديمة، وخواتم الإبهام، وقطع من الحجر المنحوت، وأفخاخ للبشر كانت مفتوحة.

لاحظت هذه التفاصيل في لمحة، وبعدها انصبّ انتباهي بالكامل على الشيء الذي احتلّ منصّة منخفضة في وسط الغرفة.

كانت مقصلةً مطليّة باللون الأحمر الباهت، باستثناء أنّ حجمها كان أصغر. كانت تشبه تماماً تلك التي رأيتها مصوّرة في النقوش الخشبية للثورة الفرنسية. ممدّدةً بين العمودين كانت هناك جثّة رجل طويل ورفيع يرتدي سترة مخملية من النوع المخصص للتدخين. كانت يداه مقيّدتين خلف ظهره، وقطعة قماش بيضاء، ملطخة بشكل شنيع، كانت تخفي رأسه، أو بالأحرى المكان الذي كان فيه رأسه.

وصل ضوء الشموع الرفيعة، الذي كان يلمع على شفرة فولاذية ملطخة بالدماء مدفونة في حلقة المقصلة، إلى أبعد من ذلك؛ ليلامس، كأنه هالة، شعرَ المرأة الذهبي-الأحمر، التي كانت جالسة بجانب هذه الهيئة المروعة التي بلا رأس.

متجاهلةً اقترابنا، بقيت بلا حراك على كرسيها المنحوت المرتفع، ملامحها مثل قناع عاجي تحدّق منه عينان داكنتان ولامعتان في

الظلال، مع ثبات غير منقطع في نظرتها مثل باسيليك[1]، مع خبرة في النساء غطت ثلاث قارات، لم أرَ أبداً وجهاً أكثر برودةً، ولا أكثر كمالاً من وجه (كاتيلين) من قلعة ارنزوورث، التي بقيت ساهرة في غرفة الموت تلك.

سعل (داوليش).

قال بصراحة فظة:

- كان من الأفضل لكِ الذهاب للنوم يا سيدتي. ليكن مؤكّداً لديك أنّ المفتش (غريفسون) هنا وأنا سنتأكد من أنّ العدالة ستحقّق.

للمرة الأولى، نظرت إلينا، ولم يكن ضوء الشموع الرفيعة مؤكداً إلى درجة أنه بدا لي للحظة أنّ عاطفة سريعة ما، أقرب إلى السخرية منها إلى الحزن، قد لمعت وماتت في هاتين العينين الرائعتين.

سألت بشكل غير متوافق مع الموقف:

- (ستيفن) ليس معك؟ لكن، بطبيعة الحال، سيكون في المكتبة. (ستيفن) المخلص.

- أخشى أنّ موت صاحب السيادة...

نهضت فجأة، وصدرها مرتفع، وإحدى يديها تمسك بطرف ثوبها المصنوع من الدانتيل الأسود...

صرخت قائلة:

(1) ثعبان خرافي يُقال إنه ملك الزواحف، وإنّه يمكنه أن يتسبّب في الموت بنظرة واحدة فقط.

- صاحب اللعنة![1]

بعد ذلك، مع إيماءة تنمّ عن اليأس، استدارت وسارت ببطء خارجة من الغرفة.

عندما أُغلق الباب، هبط (شيرلوك هولمز) على إحدى ركبتيه بجانب المقصلة، ورفع قطعة القماش المبللة بالدماء، نظر إلى الشيء الرهيب الذي تحتها. قال بهدوء:

- يا إلهي، ضربة بقوّة كهذه لا بد أنّها جعلت الرأس يتدحرج عبر الغرفة.

- ربما.

- أنا لا أفهم. هل تعرف بالتأكيد أين وجدته؟

- لم أجده. لا يوجد رأس.

لبرهة طويلة، ظلّ (هولمز) جاثياً على ركبته، وهو يحدّق بصمت في المتحدّث. قال بعد سكوت طويل، وهو ينهض واقفاً على قدميه:

- يبدو لي أنّك تأخذ الكثير على أنّه مسلّم به. دعني أسمع آراءك حول هذه الجريمة الاستثنائية.

- إنها واضحة بما فيه الكفاية. في وقت ما من الليلة الماضية، تشاجر الرجلان، وفي النهاية بدأا يضربان أحدهما الآخر. تغلب الشاب على الرجل العجوز، وبعدها قتله باستخدام هذه الآلة. الدليل على أن اللورد (كوب) كان لا يزال على قيد الحياة عند وضعه في

---

(1) وكأنّها تلعن اللقب، استبدلت صاحب السيادة بصاحب اللعنة، أو شيء كهذا.

المفصلة يظهر من حقيقة أنّ النقيب (لوثيان) كان عليه أن يربط يديه. تمّ اكتشاف الجريمة هذا الصباح من قبل رئيس الخدم، (ستيفن)، وأحضرني سائس من القرية؛ حيث اتخذت الخطوات المعتادة للتعرف على جثة سيادته، وأعددت قائمة بالمتعلقات الشخصية التي وُجدت معه. إذا كنت ترغب في معرفة كيف هرب القاتل، يمكنني أن أخبرك بذلك أيضاً. على الفرس المفقودة من الإسطبل.

قال (هولمز) ملاحظاً:

- مفيد جداً. كما فهمت نظريّتك، انخرط الرجلان في قتال شرس، مع الحرص على عدم تحريك أيّ أثاثٍ أو تحطيم أيٍّ من الصناديق الزجاجية المتكدّسة في الغرفة. بعد ذلك، بعد أن تخلّص القاتل من خصمه، ركب الفرس تحت جنح الليل، وهو يحمل حقيبة تحت إحدى ذراعيه، ورأس ضحيته تحت الأخرى. هذا أداء رائع حقاً.

غمر وجه (داوليش) احمرار غاضب. قال ساخراً:

- من السهل تحديد نقاط ضعف في آراء الآخرين يا سيد (شيرلوك هولمز). ربما تعطينا نظريتك.

- ليس لديّ واحدة. أنا في انتظار حقائقي. بالمناسبة، متى كان آخر تساقطٍ للثلوج عندكم؟

- بعد ظهر البارحة.

- إذاً، لا يزال هناك أمل. لكن دعنا نرَ ما إذا كانت هذه الغرفة ستزودنا بأي معلومات.

مدةَ عشر دقائق تقريباً، وقفنا وراقبناه، أنا و(غريفسون) باهتمام، و(داوليش) بنظرة ازدراء مخفية بشكل سيّئ على وجهه الذي أنهكه الطقس، بينما كان (هولمز) يزحف ببطء في أنحاء الغرفة على يديه وركبتيه، وهو يهمس ويغمغم لنفسه. ويبدو وكأنه حشرة عملاقة ذات لون بني باهت ضارب إلى الرمادي.

كان قد أخرج عدسته المكبرة من جيب ردائه، ولاحظت أنه ليس فقط الأرضية، بل محتويات الطاولات الصغيرة أيضاً تخضع للتمحيص الأدق.

بعدها، وقف، وهو مستغرق في التفكير، وظهره إلى ضوء الشموع، وظله الهزيل ساقط على المقصلة الحمراء الباهتة اللون.

قال فجأة:

- لن يكفي هذا. جريمة القتل كانت متعمّدة ومع سبق الإصرار.

- كيف عرفت هذا؟

- مقبض ذراع التدوير مزيّت حديثاً، والضحيّة كان فاقداً الوعي. أيّ رجفةٍ كانت ستحرّر يديه.

- إذاً، لماذا تمّ تقييدهما؟

- آه! رغم ذلك، ليس هناك شكّ في أنّ الرجل قد تمّ إحضاره إلى هنا فاقداً الوعي ويداه كانتا أصلاً مقيدتين.

قاطعه (داوليش) بصوتٍ عالٍ:

- أنت مخطئ في هذا! التصميم الذي على الوِثاق يثبت أنّه زنار من إحدى ستائر النوافذ هذه.

هزّ (هولمز) رأسه، وقال:

- لقد بهت لونها بسبب التعرّض لضوء النهار، وهذه ليست كذلك. ليس هناك شكّ في أنّها في الأصل من ستارة باب لا يوجد منها واحدة في هذه الغرفة. حسناً، ما زال هناك القليل لكي نعرفه هنا.

تباحث ضابطا الشرطة معاً، ثمّ تحول (غريفسون) إلى (هولمز)، وقال:

- كون الوقت قد تعدّى منتصف الليل، فمن الأفضل أن نذهب إلى نزل القرية، وغداً نتابع تحقيقاتنا بشكلٍ منفصل. لا يسعني إلا أن أتّفق مع المفتش (داوليش) على أنه بينما نقوم بالتنظير هنا قد يصل القاتل إلى الساحل.

- أودّ توضيح نقطة واحدة يا (غريفسون). هل أنا موظّف رسمياً في هذه القضية من قبل الشرطة؟

- هذا مستحيل يا سيد (هولمز)!

- بالضبط هكذا. إذاً أنا حرّ في استخدام رأيي الشخصي، لكن أمنحني خمس دقائق في الفناء، وسنكون معك أنا والدكتور (واطسون).

ضربنا البرد القارس بينما كنت أتّبع ببطءٍ ضوءَ فانوس (هولمز) الخافت على طول الطريق الذي تكسوه الثلوج الكثيفة، والذي يقود عبر الفناء إلى الباب الأمامي. صرخ منحنياً على السطح المغبر:

- الحمقى! انظر إليه يا (واطسون)! كان من الممكن لكتيبة من الجيش أن تتسبّب في أضرار أقلّ من عجلات العربات في ثلاثة أماكن. ها هو حذاء (داوليش) واثنين من مسامير تقوية النعال، ربّما سائس، وامرأة الآن وهي تركض. من المؤكد أنها الليدي (كوب) والإنذار الأول. نعم، بالتأكيد هي. ماذا كان يفعل (ستيفن) هنا؟ ليس هناك من شكٌ في أنّ حذاءه ذو مقدّمة مربّعة؛ لا شكّ في أنك لاحظتها يا (واطسون) عندما فتح لنا الباب. لكن ماذا لدينا هنا؟

توقف الفانوس مؤقتاً، ثمّ تحرك ببطء إلى الأمام. صرخ بلهفة:

- أخفاف، أخفاف[1] قادمة من الباب الأمامي. انظر، ها هو مجدداً. ربما رجل طويل القامة، بحسب حجم قدميه كان يحمل شيئاً ثقيلاً. أصبحت الخطوة أقصر، وأصبحت أصابع القدم ظاهرة بشكل أوضح من الكعب. يميل الرجل المثقل بحملٍ ما دائماً إلى إلقاء ثقله إلى الأمام. لقد عاد! آه، بالضبط هكذا، بالضبط هكذا! حسناً، أعتقد أننا استحققنا الحصول على أسرّة.

ظلّ صديقي صامتاً أثناء رحلتنا ونحن عائدون إلى القرية، لكن عندما افترقنا نحن والمفتش (داوليش) عند باب النزل، وضع يده على كتفه.

قال:

- الرجل الذي فعل هذه الفعلة طويل وهزيل يبلغ من العمر نحو خمسين عاماً، وقدمه اليسرى محنية إلى الداخل، وهو مدمنٌ بشدّة على السجائر التركية التي يدخّنها من حامل سجائر.

---

(1) جمع خف، مثل حذاء خفيف.

قال (داوليش) متذمراً:

- النقيب (لوثيان)! لا أعرف شيئاً عن الأقدام أو حاملات السجائر، لكن باقي وصفك دقيق بما فيه الكفاية، لكن من أخبرك عن مظهره؟

- سأطرح عليك سؤالاً بمنزلة إجابة: هل كانت عائلة (كوب) يوماً عائلة كاثوليكية؟

نظر المفتش المحلي بشكل لافت إلى (غريفسون)، ونقر على جبهته.

- كاثوليكية؟ حسناً، الآن بعد أن ذكرت ذلك، أعتقد أنّهم كانوا كذلك في قديم الزمان. ولكن ماذا بحق السماء...!

- أنا فقط أنصحك بكتاب الدليل الذي نصحت به. تصبحون على خير.

في صباح اليوم التالي، بعد أن أوصلانا أنا وصديقي إلى بوابة القلعة، انطلق ضابطا الشرطة لمتابعة تحقيقاتهما في أماكن أبعد. شاهد (هولمز) رحيلهما مع بريق في عينيه.

- أخشى أن أكون قد ظلمتك على مرّ السنين يا (واطسون).

علّق بهذا بشكلٍ مبهمٍ نوعاً ما عندما استدرنا.

فتح لنا الخادم المسنّ الباب، وبينما كنا نتبعه عبر الممر الكبير، كان من الواضح، بشكلٍ مؤلم، أنّ الرجل المخلص لا يزال يعاني بشدة من وفاة سيده.

صرخ بصوت أجش:

- لا يوجد شيء لكما هنا. يا إلهي، هلّا تركتمانا في سلام؟

لقد أشرتُ سابقاً إلى موهبة (هولمز) في جعل الآخرين يشعرون بالراحة، وبالتدريج استعاد الرجل العجوز رباطة جأشه.

- أفهم أنّ هذه هي نافذة «أجينكورت».

قالها (هولمز) ملاحظاً، وهو يحدّق في نافذة بابية زجاجية ملونة، كانت صغيرة لكنها ملوّنة بشكل رائع الجمال، ومن خلالها أسقط ضوء الشمس الشتوي نمطاً من الألوان الرائعة على الأرضية الحجرية العتيقة.

- إنّها هي يا سيدي. يوجد اثنتان منها فقط في كلّ إنجلترا.

تابع صديقي بلطف:

- لا شك في أنك خدمت العائلة سنواتٍ عديدة.

- خدمتهم؟ أجل، أنا وعائلتي منذ ما يقرب من قرنين من الزمان. الغبار الذي يرقد على أغطية توابيتهم هو غبارنا.

- أتخيّل أنّ لديهم تاريخاً مثيراً للاهتمام.

- لديهم ذلك يا سيدي.

- يبدو أنّني سمعت أنّ هذه المقصلة المشؤومة قد صُمّمت خصيصاً لأحد أسلاف سيّدك الراحل؟

- أجل، الماركيز (دي رين). بناها المستأجرون لديه، الحقراء كرهوه، لقد فعلوا، لمجرّد أنه حافظ على العادات القديمة.

- حقاً. أيّ عادات؟

- شيء له علاقة بالنساء يا سيدي. الكتاب الذي في المكتبة لا يشرح ذلك بالضبط.

- Le droit du seigneur[1] ربما.

- حسناً، أنا لا أتحدّث لغة الكفار، لكنّني أعتقد أنّ هذه كانت الكلمات ذاتها.

- حسناً، أودّ أن أرى هذه المكتبة.

انتقلت عينا الرجل العجوز إلى الباب الذي في نهاية الممر.

قال متذمّراً:

- أترى المكتبة؟ ما الذي تريده هناك؟ لا شيء سوى الكتب القديمة، ولا تحبّ سيادتها... أوه، حسناً.

قادنا بفظاظة إلى غرفة طويلة منخفضة السقف تصطفّ على جدرانها حتى السقف مجلداتٌ، وتنتهي بمدفأة قوطية رائعة. توقف (هولمز)، بعد تجواله في أرجائها بفتور، ليشعل سيجاراً من نوع جروت.

قال:

- حسناً يا (واطسون)، أعتقد أننا سنعود أدراجنا. شكراً لك يا (ستيفن)؛ إنّها غرفة رائعة، رغم أنني فوجئت برؤية سجادات هندية.

احتجّ الرجل العجوز بسخط:

---

(1) بالفرنسية «حق الرب».

- هندية! إنّها فارسية قديمة.

- بالتأكيد هندية.

- أقول لك إنّها فارسية! هذه العلامات هي عبارة عن نقوش، كما يجب لرجل مثلك أن يعرف. لا يمكنك الرؤية من دون المنظار المقرّب خاصتك؟ حسناً، استخدمه إذاً. الآن، تباً، لو أنه لم يُسقط أعواد الكبريت خاصته!

عندما وقفنا بعد تجميع السترات المتناثرة، شعرتُ بالحيرة في تفسير التورّد المفاجئ من الإثارة في خدّي (هولمز) الشاحبين.

قال:

- لقد كنت مخطئاً؛ إنها فارسية. هيا يا (واطسون)، حان الوقت لأن نبدأ رحلة العودة إلى القرية، وركوب قطارنا إلى المدينة.

بعد بضع دقائق، غادرنا القلعة. لكنّ ما أدهشني أنه عند الخروج من الجدار الخارجي للقلعة، سار (هولمز) في الأمام بسرعة على طول الممر المؤدي إلى الإسطبلات.

قلت مقترحاً:

- هل تنوي التحقيق في أمر الحصان المفقود.

- الحصان؟ يا صديقي العزيز، ليس لديّ شكٌّ في أنّه قد تمّ إخفاؤه بأمانٍ في إحدى المزارع التابعة، بينما يندفع (غريفسون) في جميع أنحاء المقاطعة. هذا ما أبحث عنه.

دخل أوّل زريبة فرس سائبة، وعاد وذراعاه ممتلئتان بالقش.

- حزمة أخرى لك يا (واطسون)، ويجب أن تكون كافية لغرضنا.

- لكن ما هو غرضنا؟

قال ضاحكاً، وهو يضع الحمل على كتفه:

- بشكل رئيس، الوصول إلى الباب الأمامي دون أن يرانا أحد.

بعد أن عدنا من الطريق نفسها التي أتينا منها، وضع (هولمز) إصبعه على شفتيه، وفتح الباب الضخم بحذر، وتسلّل إلى خزانة قريبة، كانت مليئة بالأردية والعصي؛ حيث شرع في إلقاء رزمتينا على الأرض. همس قائلاً:

- يجب أن تكون آمنةً بما فيه الكفاية؛ لأنها مبنية من الحجر.

أضاف، وهو يشعل عود ثقاب، ويرميه في الكومة:

- آه! هذان المعطفان الواقيان من المطر سيساعدان بشكل رائع. ليس لديّ شكٌّ في أنه ستكون هناك مرّات أخرى سأستخدم فيها هذه الحيلة المتواضعة.

عندما انتشرت ألسنة اللهب في القش، ووصلت إلى المعطفين، تدفقت سحابات كثيفة سوداء من الدخان من باب غرفة المعاطف إلى ممرّ قلعة ارنزوورث، مصحوبةً بصوت هسهسة وطقطقة المطاط المحترق.

شهقت والدموع تنهمر على وجهي:

- يا إلهي يا (هولمز)، سنختنق!

أغلقت أصابعه على ذراعي.

قال بصوت منخفض:

- انتظر.

وبينما كان يقولها، صدر صوت اندفاع مفاجئ للأقدام، وصرخة رعب.

- نار!

من ذلك العويل اليائس، تعرّفت على صوت (ستيفن).

صرخ مرة أخرى:

- نار!

وسمعنا صوت قعقعة خطواته وهو يفرّ عبر الممر.

همس (هولمز):

- الآن!

وفي لحظة كان قد خرج من غرفة المعاطف، وأخذ يجري على عجل متجهاً إلى المكتبة. كان الباب نصف مفتوح، لكن عندما اندفعنا إلى الداخل، كان الرجل يقرع بيديه، بشكل هستيري، على المدفأة الضخمة، ولم يدر رأسه حتى.

صرخ قائلاً:

- نار! المنزل يحترق! أوه، يا سيدي المسكين! يا سيدي! يا سيدي!

هبطت يد (هولمز) على كتفه. قال بهدوء:

- دلو ماء في غرفة المعاطف سيكون كافياً. ولكن، سيكون من الأفضل إذا طلبتَ من سيادته الانضمام إلينا.

اندفع الرجل العجوز نحوه فجأةً، وعيناه تشتعلان وأصابعه معقوفة مثل مخالب نسر.

صرخ قائلاً:

- خدعة. لقد خنته بسبب حيلك اللعينة!

قال (هولمز) وهو يمسك به على بعد ذراع:

- خذه يا (واطسون). اهدأ، اهدأ. أنت رجل مخلص.

همس صوت ضعيف:

- مخلص حتى الموت.

جفلتُ واندفعتُ إلى الخلف بشكلٍ لا إرادي. كانت حافة المدفأة القديمة قد انفتحت، وفي الفتحة المظلمة، التي انكشفت جراء ذلك، وقف رجل طويل ونحيف، مغطى بالغبار إلى درجة أنّني بدوتُ في تلك اللحظة كأنني لا أحدّق في إنسان بل في شبح. كان تقريباً في الخمسين من العمر، نحيلاً ومتكبراً، لديه عينان داكنتان ترتفعان وتهبطان بشكلٍ محموم على وجهٍ كان بلون الورق الرمادي.

قال (هولمز) برفق شديد:

- أخشى أن الغبار يزعجك أيها اللورد (كوب). ألن يكون من الأفضل لك أن تجلس؟

ترنّح الرجل وهو يمشي إلى الأمام؛ ليهبط بقوّة على كرسيّ بذراعين. قال وهو يلهث:

- أنتم الشرطة بطبيعة الحال.

- لا، أنا محقّق خاص، لكنّني أعمل لمصلحة العدالة.

باعدت ابتسامةٌ مريرة بين شفتي اللورد (كوب). قال:

- لقد فات الأوان.

- أنت مريض؟

- أنا أحتضر.

قالها وهو يفتح أصابعه، ويكشف عن قارورة صغيرة فارغة.

- لم يتبقَّ لي سوى القليل من الوقت.

- ألا يوجد شيء يمكن القيام به يا (واطسون)؟

وضعتُ أصابعي على معصم الرجل المريض. كان وجهه قد أصبح شاحباً، والنبض كان ضعيفاً وواهناً.

- لا شيء يا (هولمز).

قوّم اللورد (كوب) نفسه بشكل مؤلم. قال:

- ربما تُشبع فضولاً أخيراً بإخباري كيف اكتشفت الحقيقة. يجب أن تكون رجلاً لديه بصيرة من نوعٍ ما.

اعترف (هولمز):

- أعترف بأنّه كانت هناك صعوبات في البداية، على الرّغم من أنّ هؤلاء اكتشفوا أنفسهم لاحقاً في ضوء الأحداث. من الواضح أنّ مفتاح حلّ القضية كلّه يكمن في اقتران ظرفين بارزين: استخدام المقصلة، واختفاء رأس الرجل المقتول.

- من، سألت نفسي، الذي سيستخدم أداةً خرقاء ونادرة جداً، باستثناء شخص تمثّل له أهمية رمزية قوية ما، وإذا كان الأمر كذلك، فمن المنطقي أن نفترض أن الدليل على هذه الأهمية لا بدّ من أنه يكمن في تاريخها الماضي.

أومأ الرجل النبيل.

همس قائلاً:

- لقد بناها شعبه من أجل (رين)، مقابل العار الذي عانت منه نساؤهم على يديه. لكن رجاءً أكمل، وبسرعة.

أكمل (هولمز) وهو يعدّ على أصابعه:

- يا لفائدة الظرف الأول. الثاني ألقى طوفاناً من الضوء على القضية برمّتها. هذه ليست غينيا الجديدة. لماذا إذاً يأخذ القاتل رأس ضحيته؟ الجواب البديهي هو أنه كان يرغب في إخفاء الهوية الحقيقية للرجل الميت. بالمناسبة، ماذا فعلت برأس النقيب (لوثيان)؟

سأل هذا السؤال بصرامة.

جاء الرد الضعيف:

- أنا و(ستيفن) دفنّاه عند منتصف الليل في مدفن العائلة، وتمّ ذلك بكلّ احترام.

واستمر (هولمز):

- الباقي كان بسيطاً. كونه كان من السهل التعرّف على الجثة على أنّها جثتك من خلال الملابس والممتلكات الشخصية الأخرى، التي أعدّ المفتش المحلي قائمة بها، فمن الطبيعي أن لا يكون هناك جدوى من إخفاء الرأس ما لم يتبادل القاتل ملابسه أيضاً مع الرجل الميت.

وقد أظهرت بقع الدم أنّ هذا التبادل قد تمّ قبل الوفاة. كان الضحية عاجزاً مقدماً، وعلى الأغلب تمّ تخديره؛ لأنه كان واضحاً من حقائق معينة تمّ إيضاحها مسبقاً لصديقي (واطسون) أنّه لم تكن هناك مقاومة، وأنه قد تمّ نقله إلى المتحف من مكان آخر من القلعة.

بافتراض صحّة تفكيري، إن الرجل المقتول لا يمكن أن يكون اللورد (جوسلين). لكن ألم يكن هناك مفقود آخر، ابن عمّ صاحب السيادة والقاتل المزعوم، النقيب (جاسبر لوثيان)؟

قاطعته:

- كيف تمكّنت من إعطاء (داوليش) وصفاً للرجل المطلوب؟

- بالنظر إلى جسد الضحيّة يا (واطسون)، لا بُد من أنّ الرجلين يتشابهان بشكل عام أحدهما مع الآخر، وإلا فلن تكون الخدعة معقولة أصلاً. تحتوي منفضة سجائر في المتحف على كعب سيجارة تركية جديدة نسبياً، وقد تم تدخينها من حامل سجائر.

لا أحد غير مدمن كان سيدخّن في ظلّ هذه الظروف الرهيبة، التي لا بُدّ أنها رافقت عقب السيجارة الضئيل ذاك.

وأظهرت آثار الأقدام على الثلج أنّ شخصاً ما جاء من المبنى الرئيس وهو يحمل حمولةً، وأنه قد عاد من دون هذه الحمولة. أعتقد أنّني غطيت النقاط الرئيسة.

لفترة من الوقت، جلسنا في صمتٍ لم يكسره سوى أنين الرياح التي تزداد قوة على النوافذ، واللهاث القصير والحاد لنفَس الرجل المحتضر.

قال أخيراً:

- أنا لست مديناً لك بأيّ تفسير؛ لأنني أمام خالقي، الذي يعرف وحده أعماق قلب الإنسان، سيتوجّب عليّ أن أتحمل مسؤولية عملي. ورغم ذلك، وعلى الرغم من أن قصتي مليئة بالخجل والشعور بالذنب، سأخبرك بما يكفي لأستدرّ ربما تجملك لمنحي طلبي الأخير.

- يجب أن تعلم، إذاً، أنه في أعقاب الفضيحة التي أنهت مسيرته في الجيش، عاش ابن عمي (جاسبر لوثيان) في ارنزوورث. رغم أنه كان مفلساً، وقد أصبحت سمعته سيئة بسبب حياته الشريرة، رحبتُ به بوصفه قريباً لي، ولم أوفر له الدعم المالي فحسب، بل ما كان أكثر قيمة، وهو الدعم الاجتماعي الذي توفره مكانتي في المقاطعة.

- عندما أنظر الآن إلى السنوات التي خلت، ألوم نفسي على افتقاري إلى المبادئ في فشلي في وضع حدّ لإسرافه وشربه ولعبه القمار وبعض الممارسات الأقل احتراماً، التي ربطت الشائعات اسمه بها أصلاً. كنت أظنّ أنه همجي وطائش. لم أعلم بعد أنه كان مخلوقاً منحطاً وخالياً تماماً من الشرف إلى درجة أنّه قد يشوّه اسم عائلته.

- لقد تزوّجت من امرأةٍ أصغر مني بكثير، وهي امرأة لافتة لجمالها بقدر طبعها الرومانسي والاستثنائي في الوقت ذاته، الذي ورثته عن أسلافها الإسبان.

كانت تلك هي القصة القديمة، وعندما استيقظت أخيراً على الحقيقة المروّعة، أدركت أيضاً أن شيئاً واحداً بقي لي في الحياة - الانتقام. الانتقام من هذا الرجل الذي ألحق العار باسمي، واستغلّ شرف بيتي.

- في الليلة المعنية، جلست أنا و(لوثيان) في وقت متأخّر لشرب النبيذ في هذه الغرفة بالذات. كنتُ قد تدبرت وضع مخدّر في شرابه، وقبل أن تقتل آثار المخدرات حواسه، أخبرته بما اكتشفته، وأنّ الموت وحده يمكن أن يمسح الحساب.

ردّ عليّ بأن سخر منّي قائلاً إنّني بقتله سأضع نفسي على منصّة الإعدام، وأكشف عار زوجتي للعالم. عندما شرحتُ خطتي، اختفت السخرية من على وجهه، وكان رعب الموت يتجمّد في قلبه الأسود.

الباقي أنت تعرفه. لمّا كان المخدّر قد حرمه من حواسه، قمت بتبديل ملابسي بملابسه، وربطت يديه بإطار قماشي منزوع من ستارة الباب، وحملته عبر الفناء إلى المتحف، إلى المقصلة، التي لم تُستخدم من قبل، والتي تمّ بناؤها لعار شخص آخر.

- عندما انتهى الأمر، استدعيتُ (ستيفن) وأخبرته الحقيقة. لم يتردّد الرجل العجوز في إخلاصه لسيده البائس. قمنا معاً بدفن الرأس في مدفن العائلة، وبعد ذلك، بعد أن أخذ فرساً من الإسطبل، ركبها

عبر الأرض البور ليعطي انطباعاً بالفرار، وتركها في النهاية مخفيةً في مزرعة منعزلة تملكها أخته. كلّ ما تبقى هو أن أختفي.

- ارنزوورث، مثل العديد من القصور، التي كانت تنتمي إلى عائلات كانت كاثوليكية في العصور القديمة، كان فيها مخبأ كاهن. وهناك كنت مختبئاً، ولا أخرج إلا في الليل إلى المكتبة لإعطاء تعليماتي الأخيرة لخادمي المخلص.

قاطعه (هولمز):

- مما أكّد شكوكي في ما يتعلّق بقربك من هنا، تركك ما لا يقلّ عن خمس بقع من رماد التبغ التركي على السجاد، لكن ماذا كانت نيّتك النهائية؟

- الانتقام من أكبر ظلم يمكن أن يفعله رجل لآخر. كنت قد نجحت في حماية اسمنا من عار منصة الإعدام. يمكنني الاعتماد على ولاء (ستيفن). أمّا بالنسبة إلى زوجتي، فعلى الرغم من معرفتها الحقيقة، لا تستطيع أن تكشف أمري دون أن تعلن للعالم خيانتها. لم يبقَ لي شيء آخر في الحياة؛ لذلك قرّرت أن أعطي نفسي يوماً أو يومين لترتيب أموري، وبعدها أموت بيدي. أؤكّد لك أنّ اكتشافك مخبئي قد أدّى إلى تقديم الحدث مدة ساعة فقط أو نحو ذلك. كنت قد تركت رسالة لـ(ستيفن)، أرجوه فيها، كواجبه الأخير، أن يدفن جسدي سراً في مدافن أجدادي.

- هذه هي قصتي أيها السادة. أنا آخر فرد من سلالة قديمة، والأمر عائد إليكما إن كانت ستخرج بخزي أو لا.

وضع (شيرلوك هولمز) يده على يد الرجل.

قال بهدوء:

- ربّما من الأفضل أنّه قد تمّت الإشارة إلينا أنا وصديقي (واطسون) على أنّنا هنا بصفة غير رسميّة تماماً. أنا على وشك استدعاء (ستيفن)؛ لأنه لا يسعني إلا الشعور بأنّك ستكون أكثر راحةً إذا حمل هذا الكرسي إلى مخبأ الكاهن، وأغلق المصراع المنزلق وراءك.

كان علينا أن نحني رؤوسنا لرؤية ردّ اللورد (جوسلين).

همس بصوت خافت:

- بعدها ستحكم محكمةٌ أعلى على جريمتي، وسوف يلتهم القبرُ سرّي. وداعاً، ولتحلّ عليكما بركة رجل محتضر.

كانت رحلتنا إلى لندن باردةً ومحبطةً. مع حلول الليل، عاود الثلج التساقط، وكان (هولمز) في مزاج جعله الأقلّ تواصلاً، وهو يحدّق من النافذة في الأضواء المتناثرة للقرى والمزارع التي كانت تمرّ بسرعة بشكلٍ دوري في الظلام.

قال فجأة ملاحظاً:

- إنّ السنة السابقة تقترب من نهايتها، وفي قلوب كلّ هؤلاء القوم البسطاء الطيبين، الذين ينتظرون دقّات منتصف الليل، يسكن التطلّع الدائم إلى أن الآتي سيكون أفضل ممّا كان. الأمل، مهما كان بسيطاً ومُبطلاً من قبل التجارب السابقة، يبقى الدواء الوحيد والأفضل لجميع الضربات والكدمات التي تصيبنا بها الحياة.

مال إلى الوراء، وبدأ يحشو غليونه بالتبغ.

وتابع:

- في حال كتبتَ في النهاية سرداً لهذه القضية الغريبة في (ديربيشاير)، أقترح أن يكون العنوان المناسب هو «الأرملة الحمراء».

- مع علمي بنفورك غير المنطقي من النساء، يا (هولمز)، أنا مندهش لأنّك لاحظت لون شعرها.

قال بحدّة:

- أقصد، يا (واطسون)، اللقبَ الشائعَ الذي كان يُطلق على المقصلة أيّام الثورة الفرنسية.

كانت الساعة متأخرةً عندما وصلنا، أخيراً، إلى مسكننا القديم في شارع بيكر؛ حيث لم يُضع (هولمز) أيّ لحظة في ارتداء روبه الذي بلون الفئران بعد أن أشعل النار.

قلت ملاحظاً:

- الوقت يقترب من منتصف الليل، ولكوني أودّ أن أكون مع زوجتي عندما يقترب العام 1887 من نهايته، يجب أن أمضي في طريقي. دعني أتمنَّ لك سنةً جديدة سعيدة يا صديقي العزيز.

فأجاب:

- إنّني أبادلك بكلّ صدقٍ تمنياتك الطيبة يا (واطسون). رجاءً، انقل تحياتي إلى زوجتك واعتذاري على غيابك المؤقت.

كنت قد وصلت إلى الشارع المهجور، وتوقفت لحظةً لأرفع ياقتي أمام هبوب دوامة ندف الثلج. كنت على وشك الانطلاق في سيري عندما لفت انتباهي صوت الكمان. رفعتُ عينيّ بشكلٍ لا إراديّ إلى نافذة غرفة الجلوس القديمة في مسكننا، وكان هناك ظل (شيرلوك هولمز)، محدداً بشكل جلي على الستارة الخفيفة. كان بإمكاني أن أرى ذلك المشهد الجانبي المتحمس، الشبيه بالنسر الذي كنت أعرفه جيداً، انحناء كتفيه الخفيف، وهو ينحني على كمانه، صعود وهبوط طرف القوس. لكن من المؤكد أنّ هذه لم تكن أجواء إيطاليةً حالمة، ولا ارتجالاً معقداً من إبداعه، الذي انجرف هابطاً نحوي عبر سكون ليلة الشتاء المظلمة تلك.



هل ينبغي نسيان من هو معرفة قديمة

وعدم استحضاره في الذهن أبداً؟

هل ينبغي نسيان من هو معرفة قديمة

والأيام الخوالي[1].

لا بدّ أنّ ندفة ثلجٍ قد دخلت إلى عيني، عندما أشحت بوجهي، بدت مصابيح الغاز ذات الضوء الضعيف أسفل الامتداد المهجور لشارع بيكر مشوّشة بشكل غريب.

لقد أُنجزتُ مهمتي. تمّ وضع دفاتر ملاحظاتي في صندوق لحفظ الوثائق أسود اللون ومصنوع من الصفيح؛ حيث تمّ الاحتفاظ بها في السنوات الأخيرة. وللمرة الأخيرة، قمت بغمس قلمي في المحبرة.

---

(1) ملاحظة: الأبيات السابقة هي من قصيدة مشهورة تُغنّى في ليلة رأس السنة.

من خلال النافذة، التي تطلّ على المرجة المتواضعة في مزرعتنا، يمكنني أن أرى (شيرلوك هولمز) يتجوّل بين قفاره[1]؛ شعره ناصع البياض، لكنّ هيئته الطويلة والنحيلة قوية ومفعمة بالحيوية كما كان حاله دائماً، وهناك لمسة من اللون الصحّي في خديه وضعتها الطبيعة الأمّ ونسماتها المحمّلة بالبرسيم التي تحمل رائحة البحر وسط تلال (ساسكس داونز) اللطيفة هذه.

تقترب حياتنا من النهاية[2]، والوجوه القديمة والمشاهد القديمة قد رحلت إلى الأبد.

ورغم ذلك، بينما أتّكئ على كرسيي، وأغمض عيني، يظهر الماضي فترةً من الوقت لإخفاء الحاضر، وأرى أمامي ضباب شارع بيكر الأصفر، وأسمع مرةً أخرى صوت أفضل وأحكم[3] رجلٍ عرفته في كلّ حياتي.

- هيا يا (واطسون)، لقد بدأت اللعبة!

في قضيّة فضيحة استبدال دارلينغتون، كان مفيداً بالنسبة إلي، وكذلك في مسألة قلعة ارنزوورث.

من «فضيحة في بوهيميا»

---

(1) جمع قفير وهو بيت النحل.

(2) المقصود النهاية: لأنّه قال إنّها تقترب من «المساء» أو «نهاية اليوم».

(3) أي الأكثر حكمة.

محمد خطاب





من (أدريان) ابن السير (آرثر كونان دويل) مبتكر شخصية (شيرلوك هولمز) نكتشف معا اثنتي عشرة قضية جديدة ل(شيرلوك هولمز) لم يتم نشرها بالعربية سابقا!

تنبثق القصص الاثنتي عشرة في «(شيرلوك هولمز) قضايا شارع بيكر السرية» من القضايا التي لم يتم حلها، والتي أشار إليها الدكتور (واطسون) في القصص الست والخمسين، والروايات الأربع الأصلية المنشورة سابقاً...

الحبكات جديدة، لكنّ هذه القصص نسخ متبحرة من القصص الأصلية في البناء وكذلك في التركيب مما يجعلها فائقة المتعة لكل عشاق مغامرات (شيرلوك هولمز) فهي تختلف عن البقية كونها من نفس النسيج وبقلم ابن السير (آرثر كونان دويل) والتي كتبها بالتعاون مع (جون ديكسون كار) وأحد أعظم كتاب الغموض في أمريكا

سبارك

9 789779 922058